واحترقت القاهرة

قصـــــة

تأليف

أحمد حسين

* الحلقة الاولى ـ أزهار .
* الحلقة الثانية ـ الدكتور خالد .
* الحلقة الثالثة ـ واحترقت القاهرة .

المطبعة العالمية ١٦، ١٧ ش ضريح سعد بالقاهرة
١٩٦٨

إهداء

— إلى شهيد الإيمان والفضيلة والوطنية الدكتور مصطفى الوكيل .

— إلى الإنسان الكامل الذي يفني نفسه من أجل خير الآخرين وإسعادهم الدكتور محمد حلمي مراد مدير جامعة عين شمس .

الغسق

الفصل الأول

— ١ —

جلس فوزى السيد جلسته المفضلة فى شرفة بيته الجديد المطل على النيل على رأس (كوبرى) عباس. وملأ رئتيه من الهواء النقى البارد، واشرأب كيانه للامتزاج بالوجود من حوله، هذه السماء الزرقاء الصافية، ونهر النيل المتدفق أبداً، وهذه المراكب الشراعية بأجنحتها الجبارة تنساب فوق الماء. والجسر يبدو كما لو كان يشطر النيل شطرين، وعجلات الترام تصطدم بأرض الكوبرى الحديدية، فتثير الضجيج وتصك الأسماع.

وهناك على الأفق البعيد الغربى تلوح أهرامات مصر الخالدة، لقد اتخذ منها فوزى شعاراً لحركتهم باعتبارها رمز الثبوت والخلود، وها هو بيته الخاص، أصبح يطل عليها صباح مساء.

ويدير فوزى رأسه نحو الشرق كما هو دأبه دائماً كلما تطلع صوب الهرم، لينظر إلى المقطم وقلعة صلاح الدين ومسجد محمد على. شد ما يفتنه هذا المسجد بمئذنتيه الرفيعتين وهما تثقبان الفضاء فى رشاقة وتشامخ. وهكذا يجمع فى لفتة واحدة بين سر حياة مصر، ومجدها البعيد والقريب، النيل والأهرام وقلعة الجبل.

وينشق فوزى الهواء من جديد ويعبه عباً، وتلمع عيناه ويخفق قلبه. كم يحب القاهرة كم يحب مصر ونيلها، كم يحب هذا الشعب الهادىء الصابر العامل المتسامح ما أكثر ما استغل الغزاة والفاتحون والطغاة الجبارون، طيبة قلبه ودماثة خلقه وكراهيته للعنف، فتسلطوا عليه واستغلوه

ولكن النصر فى النهاية كان حليفه دائماً ، فإذا هو قائد حكامه ، وفارض سلطانه وحضارته وأساليبه عليهم، وإذا هوصاحب الفضل فىالأول والآخر. ماذا كان بقدرة صلاح الدين أن يفعل بغيرهذا الشعب ، إن الأكراد الذين ينتمى إليهم لم يفعلوا شيئاً طوال عصور التاريخ ، فلو لم يجىء صلاح الدين إلى مصر ، لما كان هو صلاح الدين . ومحمد على أى شىء هو محمد على ، إنه من ألبانيا . . . فماذا كانت ألبانيا طوال عصور التاريخ ؟ فلو لم يجىء محمد على إلى مصر لما كان شيئاً . فالسر إذن هوسر الشعب ، لاسر هؤلاء الأشخاص ، ولا هو سر أجناسهم . إنه يؤمن بهذا الشعب ... يؤمن به حتى النخاع ، يؤمن بأنه جم المزايا ، حتى ما يتصوره الناس نقصاً فى هذا الشعب ، يعتبره هو من المزايا ، حتى ما تلوكه ألسنة الشعب نفسه وصفـا لنفسه ، من أنه شعب ينافق الحكام ويرائيهم ويصانعهم ، إن فوزى يرى فى ذلك آية حضارة الشعب ومدنيته ، إن هذه الملاينة وهذه المسايرة هى السلاح الذى يستعمله الشعب للدفاع عن نفسه ، ليشل طغيان حكامه وخصومه ، ويصرفهم عن محاولة إيذائه ، لكى يخلوا بينه وبين المضى فى حياته المتمدينة ، حياة العمل والإنتاج والعبادة ، والتعلم والعلم .

وتتملك الحماسة فوزى على الرغم من قر الشتاء وبرودة الجو فى هذا الصباح المبكر وهو يجلس فى الهواء .

إنه لم يكن مخطئاً عندما اختار طريقه ، أن يكرس حياته لخدمة هذا الشعب ، للعمل من أجل مجده ورفاهيته بإخراج الانجليز من مصر. أجل إن إخراج الإنجليز هو المفتاح ، هو نقطة الانطلاق لهذا الشعب . . . إن الإنجليز يجب أن يخرجوا من مصر والسودان .

وتحجب سحابة عابرة وجه الشمس فتختفى أشعتها ويرتجف بدن فوزى ويتسرب القتام إلى نفسه .

منذ أربع وستين سنة والشعب المصرى يتوق إلى إخراج الانجليز ويكافح لإخراجهم ، ولم يبخل بالضحايا والدماء والآلام ، ومع ذلك لم يخرجوا ، ولا تزيدهم السنون إلا تشبثاً بالبلاد . إن جيش الاحتلال الذى نصت معاهدة سنة ١٩٣٦ على ألا يتجاوز عشرة آلاف ، قد أشرف على المليون طوال سنوات الحرب . وها هى ذى الحرب قد انتهت باستسلام اليابان منذ شهور ، ومع ذلك فإن القاهرة مازالت تئن تحت وطأة أقدام الجنود الأجنبية من كل لون وطراز .

وتنجاب السحابة التى ظللت الشمس ، ويسترد فوزى عزمه وإيمانه ، فينتفض جسده وتتقلص عضلات قبضتيه ويدوى فى أعماقه صوت رهيب :

— سيخرجون . . . سيخرجون . . .

ويتشاغل من جديد بعبث الوجود من حوله ، وتلتهم عيناه المناظر المحيطة به ، النيل والأهرام والمقطم ، وقلعة صلاح الدين ومسجد محمد على .

ولكن طول الوقفة فى الشرفة أوشك أن يجمد أعضاءه رغم ما كان متدثراً به ، فدخل من الشرفة ليرى وفاء زوجته الحبيبة وهى مشغولة بتجهيز ابنهما خالد للذهاب إلى المدرسة .

كان زواجهما قد أوشك على بلوغ سنواته العشر ، صهرتهما فيها الحوادث وسبكتهما فى سبيكة واحدة ، ولم تزد سنوات العناء والمشاق وفاء إلا جمالا وأنوثة ، حقاً إنها لم تعد هذه الحمامة الوديعة التى كانت ، لم تعد (سندريلا) فقد أرته الأيام ، جانبها النارى ، عندما تندلع لواعج غيرتها ، أو تنفعل لأى سبب من الأسباب ، إنها لتتحول عندئذ إلى إعصار أو زلزال ومع ذلك فقد تأكدت بينهما روابط الحب والتقدير والإعزاز بل لقد

بدأت تأخذ صفة القداسة فى نفسه فوق حبه لها . أكان يمكن لأى زوجة أن تحتمل معه كل هذا الذى احتملت ، وأن تعانى هذا الذى عانته .

ويقطع خالد على أبيه سلسلة تأملاته :

— صباح الخير يا بابا .

— صباح الخير ياحبيبى .

— أنا ذاهب إلى المدرسة .

— مع السلامة يا حبيبى .

وينظر فوزى برضاء إلى ابنه الذى يوشك أن يتم السادسة ، إن الكل قد أجمعوا على أنه صورة طبق الأصل منه ، عندما كان فى مثل سنه. ولكن شتان بين طفولة ابنه وطفولته . ويسرح خاطر فوزى نحو هذه السنوات البعيدة ، نحو أيام طفولته ، عند ما كان يسكن مع أبيه فى حارة الجمالة بحى طولون ، وكان يذهب إلى الكتاب المجاور للبيت ، ويحمل لسيدنا الفقى قرشاً كل خميس ، والويل له إذا تأخر عن تسديد هذا الخميس . وتنفرج شفتا فوزى فى ابتسام ..

وينظر فوزى إلى ابنه خالد وهو فى ثوب الروضة الأنيق المصنوع من التيلى والشريط الحريرى الأخضر الملفوف على هيئة زهرة أو فراشة يزين صدره . ويحس بمرور الزمن وتطور الظروف والأحوال .. ما أعظم الفارق بين الأمس واليوم .. بين كتاب الشيخ رمضان وبين روضة الأطفال .

لم يكن الكتاب الذى يذهب إليه فوزى ، إلا مجرد فناء كبير يوشك أن يكون خرابة ، لولا هذا الباب الذى يغلق عليه فى الليل ، وكان سيدنا

يجلس ممسكا بمقرعة طويلة ليصل بها إلى رأس آخر تلميذ فى الفصل ، وكان معلقاً على الجدار (الفلقة والعصا) على أهبة الاستعداد فى أى لحظة يصدر فيها أمره باستعمالها ، فينقض الأولاد الكبار المعينون لهذه المهمة على المذنب التعس ويدخلون سيقانه فى حبل الفلقة ، ثم يرفعون أقدامه لتنهال عليها عصى سيدنا .

ويتنفس فوزى الصعداء من هول الذكرى . . . على أية حال فقد أنجاه فيما يبدو مركزه الاجتماعى من أن يعانى هذا المصير ، وإن كان لم يخل الأمر فى بعض الأحيان من قرص أذنه ، أو صفعه على وجهه إذا أخطأ فى تلاوة اللوح .

تلك أيام مضت ، إن ابنه يذهب الآن إلى روضة الأطفال ، فى مبنى جميل يقع على النيل ، ومعلماته سيدات وآنسات رقيقات جميلات ، وهن يعزفن له الموسيقى ، ويعلمنه الغناء ، ويقدمن له شاياً ولبناً وبسكوتاً خلال فترة الصباح .

ويهجس فى خاطر فوزى ، وهو يطل مع وفاء من الشرفة لمتابعة مسيرة خالد نحو مدرسته :

— إن القافلة تسير .

على أنه لا يلبث أن يقول لنفسه ، ومع ذلك فنحن الذين كنا نضرب بالعصا ، نحن الذين تعلمنا فى الكتاب ما تيسر من القرآن ومبادىء الحساب نحمل اليوم راية الكفاح ونقوم بعبء البناء فى كل مكان ، ترى هل سيكون بقدرة أولادنا وهم يشبون وسط هذه الرفاهية أن يتابعوا خطانا ، أن يشبوا أقوياء العزيمة مؤمنين ؟

ويرد فوزى على نفسه :

— سوف يشبون على كل حال ، وسيكونون صالحين لمواجهة مشاكل عصرهم ، إن كل جيل يولد مجهزاً لمواجهة تحديات عصره ، ومن السذاجة أن يتصور غير ذلك .

وترتفع فى الداخل أصوات بنتيه جهاد وثبات ، فتهرع وفاء إلى الداخل بعد أن اطمأنت على خالد ، ولم يبق ما يشغلها فى الوجود إلا بنتاها فى هذه اللحظات .

وتنفرج أسارير فوزى فى بسمة حنان ورضاء ، إن صوت بنتيه التوأمين يحرك فى نفسه أرق المشاعر وأعلى صور الحب والحنان ، فقد رزق بهما بعد وفاة ابنه شكرى ... وكأن الله إذ يعلم مقدار حبه للبنات ، فقد أعطاه بنتين فى آن واحد بدلا من الطفل الذاهب . . . وإذ وافق ميلادهما الإفراج عنه بعد اعتقال دام سنوات الحرب ، فقد سماها هذا الاسم المشتق من طبيعة حياته « جهاد وثبات » .

* * *

سألت وفاء زوجها فى دهشة وهو يتأهب للخروج :

— ألست ذاهباً إلى الحزب ؟

— بلى .

— فلماذا تصطحب معك أعداد الجريدة التى أحضرتها بالأمس ؟

واحمر وجه فوزى لهذا السؤال المباغت الذى لم يتوقعه .

— لقد تركت أعداداً كثيرة أخرى بحجرة المكتب ، إن هذا هو العدد الذى نشرنا به برنامجنا الجديد .

— أنا أعرف ذلك ، ولكنى أسألك لماذا تأخذها ، هل ستعطيها لأحد فى الطريق ؟

وازداد ارتباك فوزى وقال فى سرعة لا تخلو من تلعثم :

— إن الأمر لا يسلم ، يجب أن يكون معى باستمرار نسخ من هذا العدد الذى يتضمن البرنامج ، لقد أقدمها لبعض من أقابلهم فى الطريق .

ووضع فوزى حداً للمناقشة التى أخذته على غرة ... وأسرع بالهبوط على الدرج ، تاركا وفاء فى دهشة مضاعفة ، لما لاحظته عليه من ارتباك لم تدرك له سبباً .

ودار فى نفسها أن يكون فوزى قد أخفى عنها شيئاً . . . وأسرعت إلى حجرة المكتب ، فوجدت عدداً واحداً من الجريدة ، فراحت تقلب الصفحات فى لهفة . ولم يكن ثمة شىء يلفت النظر سوى برنامج الحزب بمناسبة تغيير اسمه من البعث ، إلى الحزب الديمقراطى العربى .

وجلست وفاء وراحت تطالع هذا الملخص لبرنامج الحزب والذى كتب بحروف كبيرة :

— مواصلة الكفاح من أجل تحقيق الجلاء ووحدة وادى النيل .

— العمل على توحيد البلاد العربية كلها فى وطن واحد من الخليج إلى المحيط .

— إلغاء الرتب والألقاب لتحقيق المساواة بين الشعب والقضاء على الفوارق الطبقية .

— إلغاء الملكية الزراعية فيما زاد عن خمسين فداناً للقضاء على الإقطاع .

— تصنيع البلاد فى سلسلة متعاقبة من المشروعات الخمسية .

— العمل على أن لا يزيد مرتب فى الدولة على مائة جنيه فى الشهر ، وأن لا ينقص مرتب عن عشرة جنيهات فى الشهر وأن لا يقل أجر العامل عن ثلاثين قرشاً فى اليوم .

وتوقفت وفاء عن المطالعة ... وراحت تقلب فى صفحات المجلة علها تجد ما يفسر لها سر ارتباك فوزى . . . على أن شواغل البيت سرعان ما أنستها هذه المشكلة العابرة . . وهبطت إلى عقلها الباطن ، حيث راحت تعمل هناك فى خفاء وصمت .

* * *

لم يكن قلق فوزى لهذا الارتباك الذى ألم به ، يقل عن قلق وفاء بل لعله كان يزيد ، وهو لم يكد يغلق الباب وراءه مبتعداً عن مسكنه ، حتى كان يسائل نفسه فى لوم وتعنيف : لماذا لم يقل لوفاء عن سبب اصطحابه هذه النسخ من الجريدة ، لماذا لم يقل لها إنه قد أخذها ليعطيها للدكتورة فاطمة . بل ما الذى جعله يخفى عنها لأول مرة أنه ذاهب لعيادة فاطمة فى المستشفى ؟ وامتقع وجهه وارتعد بدنه .. لماذا حرص على إخفاء هذه الزيارة عن وفاء ، أليس هذا الإخفاء نوعاً من الكذب ؟ إنه لم يسبق له طول حياته مع وفاء أن كذب عليها ، فلماذا هذه المرة ؟

ويقبض فوزى على عجلة قيادة السيارة ويتشبث بها ، ويحاول أن يغرق الصوت المحتج فى أعماقه بالانطلاق فى سرعة .

— إنه لم يكذب على وفاء ، لم يقل لها شيئاً يخالف الحقيقة ، لقد قال لها ، إنه سيقدم هذه الأعداد لبعض المعارف والأصحاب ، أى كذب فى ذلك؟ ولـكن فاطمة ليست مجرد معارف أو أصحاب ، لماذا لم يقل لها إنه ذاهب لمقابلتها بالذات ، وإنه يصطحب معه هذه النسخ ليقدمها لها كما وعدها بالأمس .

ويقول فوزى لنفسه :

— لقد فعلت هذا من أجلها ... من أجل راحة وفاء وهدوء بالها . لقــد بدأت تضيق بالإسراف فى الحديث عن فاطمة ، أو لم تعترض على استمرار زيارته اليومية لفاطمة بحجة أنها تماثلت للشفاء .

وغرق فوزى فى تأملاته ... ما أعجب الحياة وتعقيداتها ، ما أعمق النفس البشرية وأخفاها . إن وفاء التى لم تعد تطيق الآن سماع اسم فاطمة هى التى كانت تشاطره من قبل الجزع عليها عند ما انهارت أعصابها وكادت روحها تتلف . فما الذى قلب وفاء على فاطمة ... ألمجرد أنها بدأت تتماثل للشفاء ... أصبحت تنكرها ؟

وفاطمة ... فاطمة ما هو سر الانقلاب الذى طرأ عليها . . ما الذى جعلها تتجلد هذا التجلد العجيب ، عند ما انهار هو لسماعه نبأ استشهاد الدكتور خالد ، حتى لقد بدت له كما لو كانت معجزة سماوية قد أرسلها الله إليه لتعيد إليه الإيمان والقوة ، حتى إذا استرد هو ثقته واستأنف انطلاقه ، وتغلب على أزمته ، وجاءت الأنباء مؤكدة استشهاد الدكتور خالد ، فإذا بفاطمة تنهار فجأة وتغيب عن الوعى وتفترسها الحمى ، ومرت عليها لحظات أوشكت فيها أن تفارق الحياة نهائياً .

وينعطف قلب فوزى على زوجته وفاء ، ما أروع الدور الذى قامت به لإنقاذ فاطمة فى هذه اللحظات الحالكة ، وهى تتطوع بجانب والدة فاطمة لتسهر الليالى الطوال إلى جوار سريرها ، حتى زال عنها الخطر .. يا لها من إنسانة فذة .. إن وفاء كانت دائماً مثال إنكار الذات . ويعاود فوزى القلق والضيق ، ما الذى جعلها تنقلب ، حتى لتلح عليه أنه لم تعد ثمة ضرورة لزياراته اليومية لفاطمة .

أيمكن أن ينسى هـذه المناقشة الحادة التى جرت بينهما عقب زيارة وفاء الأخيرة لفاطمة فى المستشفى منذ أسبوعين ، حيث أصرت وفاء على أن فاطمة قد شفيت نهائياً ، واستردت صحتها وحيويتها بل ونضارتها ، بينما كان يؤكد هو لها أنها لا تزال مريضة ، وأنها لم تبرح الفراش بعد وهى شديدة الهزال .

لماذا اختلفت وجهتا نظريهما إلى هذا الحد حول واقعة مادية محسوسة؟

لا .. لقـد أحسن صنعاً أن لم يقل لها إنه ذاهب لفاطمة .. أكان يريد أن يبدأ معها مشهداً من جديد حيث تكثر اللمز والغمز ؟

ما الذى فعلته عند ما أنبأها بالأمس فقط أن الدكتور شرف الدين الذى يشرف على علاج فاطمة ، قد أذن لها أن تأكل الطعام العادى حسب ما تشتهيه نفسها ، فقد شفيت نهائياً ، أولم ترد عليه بعد أن نظرت له نظرة غريبة بقولها :

— عسى أن يهدأ بعض الناس ، ويخففوا من لوعتهم وقلقهم .

آه إنه لا يستطيع أن ينسى نظرتها ، لا يستطيع أن ينسى هذه

الابتسامة التى تفيض بالمرارة والتهكم ، ونظرة الحزن والأسى فى عينيها .

وتنهد فوزى وحاول أن يتشاغل عن هذه الخواطر بالنظر أمامه إلى الطريق ، ولكن خاطره لم يلبث أن سرح من جديد إلى موقف وفاء الدائم من إنكارها لعلاقته بفاطمة ، حتى عند ما كان خالد لا يزال حياً ، وكانت فاطمة تعتبر خطيبته ... لقد كانت وفاء تغار منها دائماً ، تغار كلما تحدث عن عملها وتفوقها فى عملها ، كلما أشاد بتفانيها فى خدمة الحركة .

أيمكن أن يبرح من ذاكرته ، صورتها وهى تتحداه ذات يوم وتقول له : لماذا لم تتزوج فاطمة ما دمت معجباً بها إلى هذا الحد ... لماذا تزوجتنى أنا ؟ وانقبض قلب فوزى لهذه الذكرى كما انقبض ساعتئذ ، وارتج عليه .

ووقفت السيارة عند تقاطع المرور ، وعند ما استأنف فوزى السير بالسيارة ، كان يقول لنفسه فى عزم ويقين :

— لقد أحسنت صنعاً عند ما لم أخبرها أنى ذاهب لمقابلة فاطمة ، لماذا أضايقها ... لماذا أثير نقاشاً بينى وبينها ... لقد أحسنت صنعاً .

— ٢ —

نظرت فاطمة بعينيها العسليتين اللامعتين ، ووجنتيها اللتين بدت عليهما حمرة خفيفة ، رغم هزالها البادى ، ثم تنهدت وقالت فى صوت يفيض بالمرارة :

— ليتنى مت يا أستاذ فوزى إذن لاسترحت .

— أأنت التى تقولين ذلك ؟

— ولم لا ؟ أى شىء أصبح يربطنى بالحياة .

— لا يا فاطمة إن هذا اليأس غريب بالنسبة إليك ، أنسيت أنك أنت ... أنت التى رددت إلى الإيمان ، عند ما أوشكت على فقدانه ، بل لعلى كنت قد فقدته .

— كان ذلك فيما مضى .

— أنسيت صرخاتك المدوية : مات خالد ليجعل منى خالداً وليجعل من شكرى ، ومن سامح ومن كل من أحبه وعرفه وصاحبه فى يوم من الأيام خالداً آخر .

إن صورتك لا تبرح ذاكرتى إنها منقوشة فى أعماق روحى ، لقد طاف فى ذهنى يومئــذ أنك ملاك من السماء جاء ليهبنى من جديد الحياة والإيمان ، بل لقد تصورتك فى بعض اللحظات الدكتور خالد نفسه وقد جاء من العالم الآخر ليعيد إلى صوابى .

— شد ما رجوت الله أن يلحقنى به .

— أمنعك من أن تقولى ذلك .

— أى هدف لى فى الحياة ؟

— لا تـكونى مجنونة ، إنك لا تزالين شابة ، لا تزالين جميلة ...

واختلجت شفتا فاطمة بشىء من الاعتراض ، ولـكن فوزى مضى أشد حرارة :

— أنسيت أنك طبيبة لك رسـالتك فى علاج المرضى وتطبيبهم

وتخفيف آلامهم ، أنسيت جهادنا الذى أمضينا فيه عشر سنوات ، وقد أوشك أن يؤتى أكله وثماره . لقد بعث حركتنا من جديد يا فاطمة ، ليتك كنت معى فى بيتى الجديد الذى سكنا فيه على النيل ، ورأيت بعينى رأسك مظاهرة طلاب الجامعة فوق كوبرى عباس والمعركة الوحشية التى دارت بين الطلاب والبوليس ، لقد أعادت إلى ذاكرتى موقف الطلاب الخالد عام ١٩٣٥ .

وظهر الاهتمام على وجه فاطمة ، وشاعت الحرارة فى أوصالها ، وسألت فوزى فى لهفة :

— أرأيت المعركة ؟ أيطل بيتك على النيل ، على كوبرى عباس بالذات ، ما أشد شوقى إلى رؤيته .

— هيا استكملى عافيتك ، ويكون بيتى هو أول ما تزورينه .

— ولكن هل صحيح أن كثيراً من الطلاب غرقوا فى النيل ... هل رأيتهم وهم يقذفون بأنفسهم ؟

— هكذا يقولون ... ولكن الجميع نجوا فيما يبدو ، إن ما شغل بالى هو الضربة التى أصابت أخانا شوقى فى رأسه ، ولكنهم طمأنونى على حياته .

وعلى أية حال ، فلم تذهب تضحية الطلاب عبثاً ، لقد سقطت وزارة النقراشى من هذا العدوان .

— أليس اسماعيل صدقى أبو السباع ، رئيس الحكومة الجديدة أشد رجعية وعداء للشعب ، وتآمراً مع الاستعمار ؟

— هكذا تاريخه وماضيه وقوام حياته ، ولكنه يعلن أنه يريد أن

يكفر عن ماضيه وأن يختم حياته فى بطولة ، إنه يعدنا بأن يعمل على تحقيق الجلاء ووحدة وادى النيل ، وقد سمح لدعوتنا للاضراب والتظاهر يوم ٢١ فبراير بالانتشار والنجاح ، وقد ألفنا لجنة قومية تضم مندوبين عن جميع أحزاب مصر للاعداد لهذا اليوم ، وحزبنا هو الذى يقوم بالدور الأكبر فى التجهيز لهذا اليوم ... يوم الجلاء ... سوف تكون مظاهرة لم تشهد لها مصر مثيلا فى كل تاريخها .

ولمعت عينا فاطمة وافتر ثغرها عن ابتسامة :

— لشد ما يسعدنى أن أراك هكذا سعيداً متفائلا .

وانطلق فوزى وقد شجعه هـذا التعليق ، يحدث فاطمة ، عن نجاح حركتهم ، وأمسك بيدها ونظر إلى عينيها وراح يحدثها كما لو كان يناجيها :

— لا أكتمك يا فاطمة إن اليأس كان قد بدأ يتسلل إلى نفسى ، لقد كان لاعتقالنا طوال سنوات الحرب من ناحية ، وظروف الحرب نفسها ، وما أغرقت فيه الناس من مادية سيطرت على النفوس ، وتحلل من كل المعانى والقيم ، كل ذلك قدأوشك أن يعفى على جهادنا ويبدد حركتنا ، ولكننا بدأنا نجمع صفوفنا . إن مئات من الشبان الأقوياء المتفانين فى حب بلادهم قد انضموا إلينا ، وعددهم يتزايد يوماً بعد يوم . أما بالنسبة لى فأنا أحس أننى أحسن حالا وأكثر نضجاً وأشد إيماناً . إن الطريق أصبح واضحاً ، وأنا الآن أومن إيماناً لا وهن فيه بالديمقراطية ، وأرفض كل صنوف الوصاية والولاية على الشعوب ، من أى نوع كانت ، وبأى اسم من الأسماء ، إن الشعب هو صاحب الحق فى أن يحكم نفسه بنفسه ، من خلال ممثليه الذين يختارهم فى انتخابات حرة ، حرية مطلقة ، والشعب هو وحده

صاحب الحق فى سن القوانين التى يعيش فى ظلها ، والمبادىء التى يعتنقها ، والنظم التى تشكل حياته .

ومن ناحية أخرى فقد أصبحت أكره العنف وشتى وسائل استخدام لإكراه والضغط ، أصبحت أكره التآمر فى الظلام ، والعمل ، أى عمل فى الخفاء ، وأومن بالعلانية ، وأنها هى السبيل الوحيد لتطهير أى فكرة ، وتمحيص صلاحيتها ، لقد أصبحت أقدس حكم القانون ، القانون الذى لا يفرض من أعلى ، ولكن ينبع من قلب الجماعة ووجدانها ويعبر عن إرادتها .

واهتزت يد فاطمة فى يد فوزى وقالت له :

— كم يهزنى ويعيدنى إلى الحياة أن أراك بهذا الحماس .

— يجب أن نمضى يا فاطمة ، يجب أن نواصل العمل من أجل جماهير الشعب الكادحة ، من أجل الفلاحين والعمال وكل المخلصين الصادقين من أبناء هذه الأمة .

— أجل يا فوزى يجب أن نمضى . . نمضى لإتمام ما ضحى من أجله خالد والجراحى وبقية الشهداء .

— وستكونين دائماً بجوارى أليس كذلك ؟

ونظرت إليه فاطمة فى حنان واستسلام وقالت :

— هل أستطيع غير ذلك ، إننى ما عشت لا يمكن إلا أن أكون بجوارك ... بل لعلى لا أعيش إلا لأنى بجوارك .

— ستعيشين يا فاطمة ... ستعيشين وتسعدين ، وسوف تتزوجين ، وترين انتصار بلادنا .

وضحكت فاطمة وقالت :

— انتصار بلادنا ، نعم ، أما الزواج فلست أعرف كيف تتلفظ بهذه الكلمة ، إننى أعتبر تفكيرى فيها خيانة لخالد .

— لا يحق لك أن تتحدثى هكذا ، لا أحسب أن هناك من يعرف أكثر منك ، ما الذى كان يعنيه خالد بالنسبة لى ، ومع ذلك فلست أرى حلا لمشكلاتك إلا بالزواج ، إنه الكفيل بإعادة حياتك إلى سيرها الطبيعى ، إن الزواج بالنسبة للمرأة ، والأمومة بعد ذلك ، هو محور حياتها ، هو الغاية النهائية من وجودها .

ونكست فاطمة رأسها :

— لماذا تثير شجونى ، إن حياتى العاطفية قد انتهت ، لقد جفت عواطفى ، جف نبض الشعور فى حياتى ، لولا الخيط الذى يربطنى بالكفاح إلى جوارك من أجل بلادنا ، لاعتزلت الحياة .

وأحس فوزى بقلبه يذوب شفقة وحسرة عليها ، وامتلأ شعوراً برغبة قوية سيطرت عليه ، وهو أن يأخذ رأسها بين ذراعيه ويغمرها بعطفه وحنانه . وتلفت حوله بحركة تلقائية ثم لم يلبث أن استجمع إرادته ، وومض فى رأسه اسم طبيبها المعالج الدكتور شرف الدين ، فأسرع يقول لها فى محاولة للتعزية :

— أنسيت أنك كنت مخطوبة للدكتور شرف الدين ، وأوشكت على

زواجه لولا حادث مرضه العارض . والحق إن ما بذله شرف الدين من تفان وجهد أثناء مرضك ، ينطق بأنه لا يزال يحمل لك الحب القديم .

وغام وجه فاطمة ، وقالت :

أرجوك أن لا تذكرنى بهذه القصة ، إنها خطيئة حياتى .

أنسيت أنك أنت نفسك قد ندمت بهذا التصرف عندما زرتك فى طنطا وأنت مختف ، واعتبرتنى مسئولة عن حملك خالد للسفر إلى العراق لتنتقم منى .. أنسيت ؟

وارتج على فوزى لهذه المفاجأة ، ولكن الإشارة إلى هذا الماضى ، لم تلبث أن فجرت فى رأسه فيضاً من الصور القابعة فيه ، والتى كان يظن أنها قد محيت من ذاكرته ، فإذا بها تنتفض من جديد بالحياة ، تحت وقع هذه الإشارة العابرة لاختفائه فى طنطا ، وفاطمة تدق عليه الباب ، وتدخل عليه باعتبارها زوجته ، وهى تقدم له بعد ذلك خطاب خالد ، وهى تدور حول نفسها فى رشاقة — إنه لا يمكن أن ينسى رشاقتها فى هذه اللحظة ... وتتداعى الصور وتنهمر . . . وهى تخب فى سرور ومرح فى إحدى جلابيبه ، وهى تنهال قضماً على ورك الفرخة ، وأخيراً وهو يتسمع صوت أنفاسها فى الحجرة المجاورة له ، وهو يتمثل صورتها وهى متمددة على السرير بساقيها وقدماها عاريتان .

وينتفض فوزى ، ويحمر وجهه ويندى جبينه من الخجل ، وقد تراقصت هذه الصور فى رأسه ، وينظر إلى فاطمة على استحياء من طرف خفى ، إن صورتها الآن تختلف كل الاختلاف عن صورة هذه الشابة المرحة التى

زارته فى طنطا ، إن سير الزمن ومصابها فى خالد ، والمرض الذى أنهكها كل ذلك قد جعلها تزداد عشر سنوات من العمر ، إن لم يكن أ كثر ، ومع ذلك فلا تزال روحها المتوثبة تشع من عينيها ، لا يزال شعرها الفاحم المتموج المقصوص عند مطلع رقبتها الرقيقة المشرعة البيضاء ، يؤكد رشاقتها وفتنتها .

وأحس فوزى بعاصفة من العواطف المتضاربة تغمره ، عواطف الإشفاق والحزن والإعجاب والميل والانعطاف ، فاذا به ينحنى على يدها التى كان قد عاود الإمساك بها ، ويلثمها فى رفق وحنان . وفوجئت فاطمة بحرارة قبلته رغم خفتها ، ولمعت عيناها ، ووضعت يدها الأخرى بحركة تلقائية على رأسه فى حنان وقالت له :

— أستغفر الله يا أستاذ فوزى ، من منا الذى يقبل يد الآخر .

وكأن هذه الجملة كانت بمثابة مفجر لما يعتلج فى نفسه من شتى العواطف المتضاربة الغامضة ، فإذا به يجهش بالبكاء فجأة .

ودخلت أم فاطمة فى هذه اللحظة فوقفت مبهوتة لهذا المنظر ، وهتفت فى جزع :

— خيراً ... خيراً . ياساتر يارب ، ماذا حدث ؟

وأسرعت فاطمة تطمئن أمها :

— لا شىء ... لا شىء ، لا تخافى ياماما . المسألة أن الأستاذ فوزى وهو من تعلمين رقته وحنانه ، يبكى تأثراً على حالتى .

وتنهدت الأم وقالت :

— طول عمره قلبه كبير ، ملىء بالخير ، والنبي يا فاطمة عنده حق ، إنك تصعبين على الكافر .

وضحكت فاطمة فى تخابث وقالت :

— ولكن الأستاذ فوزى ليس كافراً يا ماما .

واحمر وجه السيدة وقالت :

— يوه يا بنتى يا فاطمـــة ، أنا عارفة بقى . . . أهم بيقولوا كده فى الأمثال .

وضحك فوزى وقال :

— الآن فقط أدركت أن فاطمة قد تماثلت للشفاء ، بل شفيت تماماً . . فها هى ذى تعود لشقاوتها وعفرتتها .

وقالت فاطمة :

— والنبى أنا غلبانه . ثم رأت أن تحول مجرى الحديث فسألت والدتها :

— هل تكلمت فى التليفون مع أخى حسن ، ما هى أخبار المولود القادم ؟

— الحمد لله يا فاطمة ، ربنا استجاب دعائى ، سوف تضع زوجة حسن مولودها فى الأسبوع المقبل إن شاء الله .

والتفتت فاطمة نحو فوزى وقالت له :

— إن أخى حسن يرزق ابنه الأول بعد أن طال انتظاره .

وابتهج فوزى وقال :

— أجل أعرف ... أعرف . الحمد لله . لقد قابلت حسن هنا أكثر من مرة أثناء مرضك ، إن حسن ابن حلال ، وهو يستاهل كل خير .

تدخلت الأم قائلة فى تردد :

— ولكن حسن يا فاطمة ، بعد أن اطمأن على صحتك يصر أن أذهب إليهم فى المنصورة لأحضر الولادة .

واحتج فوزى :

— ولكن هذا غير ممكن ، كيف تتركين فاطمة بمفردها فى المستشفى

فأسرعت فاطمة ترد اعتراضه :

— وما الذى يمنع سفرها ، أو لم أشف والحمد لله ؟ وفوق ذلك ، ألست أقيم فى المستشفى فى رعاية الدكتور شرف الدين ، ورعاية الأستاذ فوزى أيضاً .

واحمر وجه فوزى وقال :

— أنت فى عينى يا فاطمة ، ولو شئت أن تنقلى من المستشفى إلى بيتنا فأهلا بك وسهلا ، إن وفاء ستكون أسعد منى باستقبالك والحفاوة بك .

واهتزت فاطمة وهى تسمع اسم وفاء وقالت :

— وفاء هانم ! كم كنت أنانية وأنا لم أسألك طوال جلستنا عن وفاء هانم وعن أحوالها وصحتها ، إننى لم أرها منذ أسبوعين .. أريد أن أشكرها على ما فعلته من أجلى ، إن (ماما) تقول لى إنها سهرت إلى جوارى أكثر من ليلة .. لماذا حرمتنى من زيارتها أخيراً ؟

وهش فوزى للحديث عن زوجته :

— إن وفاء بعد أن اطمأنت عليك ، وتماثلت للشفاء ، عادت إلى هوايتها القديمة ، وهى الاستغراق فى خدمة أولادها ، والعكوف على بيتها ولكنها تحملنى السلام إليك فى كل مرة أجىء لزيارتك .

وردت فاطمة :

— إن وفاء هانم ملاك من السماء .

وأحس فوزى بشىء من التململ ، وكان الحديث عن زوجته ، قد أعاده إلى الواقع وواجبات الحياة ، فإذا به ينظر فى ساعته ويهتف :

— شد ما تأخرت عن الذهاب إلى البيت الأخضر ، لقد دعوت نفراً من شباب الجامعة للتحدث معهم عن ترتيبات يوم الجلاء غداً ، ولا بد أنهم الآن فى انتظارى .

ووثب فوزى واقفاً ، وانحنى على جبهة فاطمة كما اعتاد أن يفعل طوال مدة مرضها ، وقبلها فى جبينها قبلة خفيفة ، ولكنه لم يكد يفعل ذلك ، حتى أحس برعشة فى جسده ، واندفع الدم إلى رأسه ، ووجد نفسه

يسلم فى عجلة ولهفة على أم فاطمة ثم ينطلق كالمذعور . وراح يسائل نفسه بمجرد استوائه خلف عجلة القيادة :

— ما الذى أصابه ، ماذا حدث ؟ لماذا ارتجف بدنه ، لماذا يفر كالمذعور ، إنه لم يفعل شيئاً لم يفعله طوال الأسابيع الماضية ، لقد كان يقبل رأسها أمام وفاء ولم تكن ترى بأساً فى ذلك ، فما الذى أشعره هذه المرة بكل هذا الارتباك والخجل .

حقاً لقد أحس بدفء جبهتها ، ولكنه طالما لثم هذه الجبهة وهى تلتهب بالحرارة فما الذى حدث ؟

وارتفع صوت خفى فى أعماقه :

— لقد كنت تقبل مريضة ميئوساً من شفائها ، كنت تقبل جبهة لسعتها الحمى . أما الآن فقد شفيت ، إن الحرارة التى أحسست بها تحت شفتيك ، هى حرارة الحياة ، حرارة الصحة . . . وما كان لك أن تقبلها بعد أن شفيت ... كان ينبغى أن تصافحها .

— أولا يقبّل الشقيق شقيقته ؟

— ولكنك تعرف أنها ليست شقيقتك .

— أليست زوجة أخى خالد ؟

— ولكنها لم تتزوجه ولم يمسسها .

— إن ارتباطها بخالد يجعلها محرمة على .

— ولكن خالداً قد مات ، ولقد كنت تحدثها عن الزواج وتغريها به

— إن قلبي ينفطر شفقة عليها .

— أواثق أنت أن الشفقة لم تتحول كما تحس وفاء بغريزتها إلى عاطفة أبعد غوراً ؟ ويصرخ فوزى ليغرق هذا الصوت الخفى فى نفسه :

— كفى سخفاً .. كفى هراء ... كفى هلوسة .

— ٣ —

انتهى فوزى من حديثه الطويل للمحتشدين حوله فى دار الحزب :

— إن يوم ٢١ فبراير يجب أن يظهر تكامل إرادة هذا الشعب وتصميمه على الجلاء . يجب أن تتوقف الأعمال كلها والمواصلات ، ولا تفتح المحلات العامة أو المتاجر فى القاهرة والاسكندرية وسائر المدن ، ثم يحتشد الشعب كله فى مظاهرة جبارة .

وهتف أحد أعضاء الحزب :

— ولكن أواثقون أنتم من جماعة الدعوة المحمدية ، أن لا تتخلى عنا كعادتها فلا تحقق وعدها بالاشتراك فى الحركة ؟

ورد فوزى فى حماس :

— من هذه الناحية كونوا مطمئنين ، لقد عاهدنى الشيخ المهدى شخصياً أن يكون على رأس المظاهرة ، وعلى أية حال فالمسألة اليوم لم تعد مسألة حزبنا ، أو جماعة الدعوة المحمدية ، إنها مسألة الشعب كله ، لقد

استجاب الشعب وتحرك ، وعندما يتحرك الشعب ، فلا توجد قوة على ظهر الأرض تستطيع أن تقف حركته .

وسأل سائل :

— وماذا لو ضربنا الإنجليز بالرصاص كما هو شأنهم ، ألا ترى أننا يجب أن نتسلح ؟

وارتفع صوت فوزى يهدر فى غضب :

— هذا هو الشىء الذى طالما نبهت وحذرت منه ، ليس أضر على جهادنا وحركتنا نحن بالذات من استخدام العنف ، إن الإنجليز وأى مستعمر أو طاغية ، لا يتمنى شيئاً أكثر من أن يواجه بالعنف وقوة السلاح ، لأن هذه هى فرصته لـكى يقضى على روح المقاومة ويغرقها فى طوفان من الحديد والدم . وليس أنجع من المقاومة الصادقة السلمية الجماعية ، إنها هى التى تحير المغتصب والطاغية ، لأنه لا يعرف أين يضرب ضربته ، وهذا هو أسلوب شعبنا ، وما دعا إليه غاندى فى العصر الحديث ، إننى أومن بقول غاندى ، إننا سوف ننتصر فى المعركة ، لا بمقدار ما نقتل من خصومنا ، ولـكن بمقدار ما يسقط من شهدائنا .

وصاح صائح :

— هذه انهزامية ... هذه سفسطة كلامية .

وهاج أغلبية الحاضرين من أعضاء الحزب ، وهموا بالبطش بالمعترض ، فصاح فيهم فوزى :

— إذا كنت أنها لم عن العنف حتى بالنسبة لخصومنا ، فكيف بأحبابنا وإخواننا ؟

— ولكن هذا ليس من إخواننا ، إنه شيوعى .

— ومن الذى قال إن الشيوعى ليس من إخواننا ، حقاً إننا نختلف معهم اختلافاً جذرياً ، نختلف معهم حيث إننا نؤمن بالله وهم لا يؤمنون ، وننكره العنف وهم يبشرون به ، وهم يدعون للديكتاتورية السافرة ، ونحن نؤمن بأن ليس أضر على المجتمعات من الديكتاتورية ... ولكن ذلك لا يخرج الشيوعيين عن كونهم إخواناً لنا فى الوطن والإنسانية ، ولو أنكرنا ذلك ، أو عاملناهم بغير هذه القاعدة ، لكنا مثلهم ، ولما كانت لنا ميزة عليهم .

ووجه فوزى حديثه للشيوعى المعترض :

— ما الذى تراه فى حديثى انهزامية وسفسطة ؟

— القول بأننا سننتصر بقدر ما يقتل الإنجليز منا ، لا بمقدار ما نقتل من الإنجليز . ليس هناك من سبيل للانتصار فى أى معركة مع المستعمرين والرجعيين والإقطاعيين والرأسماليين إلا الضرب والضرب بقوة وعنف . لا سبيل لشعبنا لكى يتحرر إلا القيام بثورة مسلحة وقتل أكبر عدد من الإنجليز ... إن التاريخ شاهد على ذلك .

— بل إن التاريخ ليشهد بالعكس ، فالمسيحيون انتصروا على الرومان لا بمقدار ما قتلوا من الرومانيين ، ولكن بمقدار ما سقط منهم من شهداء .

ولماذا لا نأخذ من قضية الشيوعية الدليل على صحة ما نقول . إن

الشيوعية تزدهر وتقوى وتشتد ، حيث يلاحق معتنقوها بالاضطهاد والتشريد والسجن والقتل ، أما حيث ينطلقون أحراراً ، يطبعون صحفهم ، ويذيعون بياناتهم فلا حول لهم ولا قوة .. إن الثورة الشيوعية انتصرت فى البلد الذى قتل وحبس واضطهد من الشيوعيين بما لم يحدث مثله فى أى مجتمع آخر .

إن هتلر الذى أرهب العالم كله بجبروت قوته ، الذى مسح مدناً من على ظهر الأرض .. وخضب أرض العالم بالدماء ، مات غريق قوته ، والمانيا التى تسلمها دولة موحدة ، قد تركها كما ترى ممزقة محتلة بالجيوش الأجنبية .

وموسولينى الذى أراد أن يجعل من إيطاليا إمبراطورية تحكم العالم بالقوة ، والذى كان يحلو له أن يخطب من فوق مدفع ، قد مات معلقاً من قدميه ، واليابانيون الذين بدأوا الحرب كالإعصار المدمر ، والذين حطموا الأسطول الأمريكى فى لحظات . هزموا كما هزم حلفاؤهم الذين أغرقوا العالم فى طوفان من الدم ... من الذى هزمهم ... وقطع عليه الشاب الشيوعى كلامه :

— هزمهم الاتحاد السوفيتى وقوة الجيش الأحمر ، هزمتهم الشيوعية ، كما ستهزم وتسحق كل من يقف فى طريقها .

ورد فوزى فى انفعال :

— هـذا هو ما تقولونه أنتم ، أما نحن فنقول ، أكان مثل هتلر يوجد لو لم توجد من قبله الشيوعية .. ؟ أكان يجرؤ على الإقدام على إبادة اليهود فى أوروبا حرقاً ، لو لم تسبقه البلشفية فى روسيا . فتبيد عشرات الملايين بحجة أنهم رجعيون وأعداء للثورة . إننا نؤمن أن العنف لا يولد إلا عنفاً ، والجريمة لا تلد إلا جريمة ...

إن أوروبا التى غرقت حتى الأذقان فى هاتين الحربين المدمرتين ، إنما تدفع نتيجة كفرها بالمثل العليا وإيمانها بالمـادة ... المادة المطلقة التى لا تعرف رحمة أو إنسانية ، وإنما هى قوة عمياء صماء بكماء ، تدور وتدور وتطحن وتطحن فى غير وعى أو هدف . وصفق الحاضرون ، ولـكن صاحبنا الشيوعى زاد عناداً واحتاج الأمر إلى رعاية فوزى وحمايته حتى يخرجه من دار الحزب سالماً .

* * *

استقبلت وفاء زوجها فى بشاشة ، عند عودته بعد الظهر ، وأسرعت معه إلى حجرة النوم لتساعده على خلع ملابسه ، بينما كانت ابنتاه جهاد وثبات ، تصيحان فى فرح :

ــ بابا جاء ... بابا جاء

ودعا فوزى ابنتيه للغداء معه ، فقالت له وفاء فى عتاب :

ــ أكنت تتصور أن يظلا حتى الساعة الرابعة بغير غداء .

وأحس فوزى بنغمة عتاب فى صوتها فأسرع يقول :

ــ أنا آسف جداً يا وفاء ، هـذه الاجتماعات ليوم الجلاء تستغرق كل وقتنا .

وسكتت وفاء على مضض حتى فرغ من طعامه ... ولم يكد يستقر فى حجرة النوم من جديد حتى فاجأته بسؤال بدا عابراً :

أين كنت هذا الصباح ، إنك لم تكن فى البيت الأخضر حتى الظهر .

— وارتج على فوزى ، وأخذ بهذه المفاجأة واحمر وجهه ، بينما انتهزت وفاء فرصة ارتباكه التى لم تغب عن ملاحظتها لكى تمضى فى هجومها وتحديها :

— لقد حاولت الاتصال بك ، فكانوا يقولون لى إنك لم تصل بعد .

ورأى فوزى أن لا جدوى من المداورة ، واستفزته نبرة تحديها فرد عليها متحدياً :

— لقد عن لى وأنا أمر أمام مستشفى القصر العينى ، أن أزور فاطمة ، ولكى أقدم لها عدداً من الجريدة .

— ولماذا لم تقل لى هذا الصباح إنك ستمر عليها .

— لم تكن لدى فكرة .

— بل كانت عندك الفكرة ، ولقد كانت هذه الأعداد التى سألتك عنها من أجلها .

— ليكن الأمر كما تقولين ، فماذا فى ذلك ؟

— لا شيء طبعاً ، ولكنى أريد أن أعرف لماذا أخفيت عنى عند ما سألتك ، أأصبحت زيارتك لفاطمة بعض الأسرار ؟

واحتقن وجه فوزى ، وقال فى حدة وصرامة :

— أسمعى يا وفاء ، لست مستعداً للعودة إلى المنازعة والشجار ، إنك تعلمين مقدار حبى لك واعتزازى بك واحترامى ، فلا تنغصى حياتنا بهذه الأفكار والتصورات السخيفة .

— أى أفكار وأى تصورات ، هل قلت شيئاً ؟

— خل عنك هذه المناورات ، إننى أعرفك أكثر مما تعرفين نفسك ، وأعرف هذا المرجل من الغيرة عندما يغلى فى داخلك .

— أى غـــيرة ؟ !

— الغيرة من فاطمة ، وأكرر ما قلته لك أكثر من مرة ، إن الغيرة من فاطمة جنون ... أأنت فى حاجة لأن أذكرك من هى فاطمة ، ألم أقل لك ألف مرة إنها بمثابة أخت لى ، وأنها مخلوق مقدس بالنسبة لى ، أنسيت أنها كادت تـكون زوجة خالد ؟

— ولـكنها لم تـكن .

وهاج فوزى وزأر :

— ماذا تقصدين ؟

وسكتت وفاء ولم تحر جواباً ، بينما تحولت إلى كتلة من التوتر والتحفز .

— سخيفة .

— أنا لست سخيفة ، ولا أسمح لك أن تقول عنى سخيفة .

— بل سخيفة وستين سخيفة ، إذا تصورت أنه يمكن أن يكون بينى وبين فاطمة شىء .

— من الذى قال إن بينك وبينها شىء ، ولـكن الإفراط فى الشفقة سرعان ما يتحول إلى ما هو أكثر من الشفقة ، وكل الذى أخشاه الآن ،

أن قلبك الذى يحلو لك أن تصفه دوما بأنه كبير ، قد اتسع لفاطمة .

— لا تكونى مجنونة يا وفاء ، أو لم يطف بذهنك أنك بهذا الإلحاح قد تدفعيننى فى هذا السبيل دفعاً .

— وهل كنت أتكلم لولا أننى أحس بشعورى أنك مندفع بالفعل .

وارتج على فوزى لحظة ، ولم يلبث أن أحس بالنار تشتعل فى جسده وصرخ فى وجه وفاء :

— حسبك ، حسبك . اسكتى ، لا تزيدى حرفاً واحداً

وصرخت وفاء فى وجهه أشد قوة وعنفاً :

— قلت لك ألف مرة لا تصرخ فى وجهى هكذا .

وتلفت فوزى حوله ، وقد أوشك أن يجن من الغضب ، باحثاً عن شىء يقذف به زوجته ، ولكن هذا الصراخ والصياح المتبادل ، قد جذب أنظار أولادها فجاء خالد يجرى ، وانخرطت جهاد وثبات فى البكاء .

واستفاق فوزى من سورة الغضب ، ولكنه أسرع فارتدى ملابسه على عجل ... وانطلق خارجاً من البيت .

* * *

كان أول خاطر طرأ على فوزى ، أن ييمم شطر منزل شريفةهانم والدة زوجته ليشكو لها وفاء ، ولكى يشكوها إلى أخيها الدكتور سامح الذى أوشك أن يحتل فى نفسه مكانة الدكتور خالد ولكنه تذكر أن سامح لم يعد فى مصر ، لقد سافر إلى فرنسا ليحضر للدكتوراه فى القانون ،

فلم يلبث أن عدل عن هذا الخاطر ، إنه لا يريد أن يكدر حماته ، لا يريد أن ينغص عليها بالشكوى من ابنتها ، خير من هذا أن يتوجه إلى دار الحزب ، إلى البيت الأخضر ، ولكن من سيجد فى هذه الساعة فى الدار ، وقفز اسم فاطمة إلى رأسه ، فليذهب إليها فى المستشفى ، أجل هذا هو خير أسلوب للرد على سخافة وفاء ، إنه لا يستطيع أن يغير طبيعته الإنسانية من أجل غيرتها الحمقاء ، إنه لن يسمح لأحد ، حتى لو كان وفاء أن يملى عليه طريقة تصرفاته . أمن المعقول أن ينصرف بعطفه عن فاطمه . فاطمة التى زاملته جهاده منذ اليوم الأول . ألم تكن فى طليعة من تطوع فى مشروع القرش وفازت بالميدالية الذهبية لجمعها أكبر مبلغ من التبرعات ، أو لم تكن الفتاة الأولى التى انضمت إلى حركتهم . إن فاطمة قطعة من كفاحه ، جزء من نفسه ، كيف يتخلى عنها ، أو لم تكرس حياتها من أجل صاحبه خالد ، وربطت مصيرها بمصيره ، والآن وقد مات ، وقد ذهب عنها وتركها وحيدة فى يأسها ، أيدعها وشأنها كما تريد وفاء . . . لا إن عليه واجباً حيال فاطمة ، وإن لها حقاً فى عنقه ، أن يقف إلى جوارها ، أن يخفق قلبه عليها ، ولتذهب غيرة وفاء الحمقاء إلى الجحيم

— ٥ —

— أدخل

ولا تكاد عينا فاطمة التى كانت تجلس فى حجرتها وحيدة ، تقعان على فوزى حتى هتفت مهللة :

— أهلا وسهلا ، أهلا وسهلا .

— أرجو ألا أكون قد جئت فى وقت غير مناسب .

— أحتج على هذا التعبير ، إن كل الأوقات مناسبة .

هذا هو كتابك « إيمانى » لقد كنت أعيش معك بكل عواطفى وجوارحى .

— وأين والدتك ؟

— عادت إلى البيت لتعد نفسها للسفر إلى أخى حسن غداً .

— وأنت من يرعاك ؟

— يرعانى الله . أنسيت أنك قد تطوعت لرعايتى .

وكأن فاطمة قد أحست بما فى قولها من إحراج لفوزى ، فأسرعت تقول :

— على كل حال لقد شفيت تماماً ، ولو لم يكن غداً هو يوم الاضراب العام ، لعدت إلى البيت غداً .

— ولكن هل أذن لك الدكتور شرف الدين بالخروج ؟

— الدكتور شرف الدين لا يستطيع أن يواصل سلطانه على بعد أن شفيت ، أنسيت أننى طبيبة .

— ولكنك لا تزالين مريضة ؟

— لا يا فندم لم أعد مريضة ، كان يجب أن ترانى وأنا ألتهم غذائى كالمسعورة ، لقد أكلت نصف فرخة فيما أكلت ، لقد أصبحت حديداً أو صواناً ... أنظر .

ووثبت فاطمة واقفة فى رشاقة ودلال ، وسارت أمامه بضع خطوات فى نشاط وحيوية .

وحدق فوزى فى جسدها الممشوق وحركتها الرشيقة ، لقد كانت ترتدى قميص نوم من القطن السميك ، وكانت ترتدى فوقه (روباً) من الصوف ، ومع ذلك فلم يحجب ذلك رشاقتها . وانزلق نظر فوزى إلى قدميها ، كانت أصابع قدميها الوردية تطل من مقدمة النعل ، وعندما استدارت لتعود من جديد إلى مقعدها ، وجد فوزى نفسه يتابع بحركة تلقائية شعرها الجميل ، ويتفرس فى تكوين ظهرها ، ولم تلبث عيناه أن استقرت على كعبى قدميها وقد سرت فيهما الحمرة ، فاحمر وجهه خجلا من هذه الملاحقة لجسدها ، بينما كانت تقول له :

— لقد أصبحت طبيعية تماماً ، وعادت رأسى إلى صفائها لقد كنت أطالع الطبعة الجديدة من « إيمانى » وعلى الرغم من أننى أكاد أحفظ هذا الكتاب عن ظهر قلب ، فكأننى أطالعه للمرة الأولى ... الحق يا أستاذ فوزى أن أسلوبك البسيط الصادق ، الذى يفيض بحرارة الإيمان هو الذى يأسر الإنسان .

— أكون كاذباً لو لبست ثوب التواضع ، إن هذا الثناء على كتابى يسعدنى جداً ، حتى لو كنت تقولينه على سبيل المجاملة .

— أحسب أن حياتى كلها . خير شاهد على مدى تأثرى بهذا الإيمان وأنه أصبح محور حياتى .

وأحس فوزى بالألم يعصر قلبه من أجل فاطمة ... فأمسك بيدها وقربها من قلبه :

— الحق يا فاطمة إنك الصدق بعينه ، والإيمان فى تكامله ، لقد وهبت كفاحنا أثمن سنى عمرك ، لقد وهبت مصر شبابك وسعادتك ... ماذا أقول عنك يا فاطمة إنك قديسة .

وسحبت فاطمة يدها من يد فوزى فى دلال ، وقالت وهى تضحك :

— لا يا عم ، لقد ذهبت القداسة كلها مع خالد ، وهذه الدنيا فيما يبدو ليست للقديسين ، أم تراك اقتنعت بكلامى وبدأت ترشحنى للموت ؟

— أعوذ بالله ، ما هذا التصور العجيب لكلامى ، إن الله يعلم أننى أريدك .. أن تعيشى ، أن تحيى وتتمتعى بحياتك .

واقترب منها فوزى وأمسك يدها من جديد :

— اسمعى نصيحتى يافاطمة ... تزوجى شرف الدين .

— تزوجى شرف الدين .. تزوجى شرف الدين ، لماذا لا تنفك تكرر هذه العبارة ، هل شكوت إليك ، ومن أين لك أن الدكتور شرف الدين يريد الزواج منى بعد أن تخليت عنه كما تعرف . . وحتى لو طلب منى الزواج الآن فسأرفض على الفور .

لقد كان هناك إنسان واحد فى هذا الوجود يمثل ما أعيش من أجله لقد أحببت الدكتور خالد لأنه فنى فى المبدأ الذى آمنت به وتجسد فيه ، والآن وقد ذهب خالد ، فليس هو الدكتور شرف الدين أو غيره من الرجال من يسد فراغ روحى .

وعاود فوزى هذا الشعور الطاغى بالعطف والشفقة على فاطمة ، وأحس من جديد بهذا الخاطر الذى يلح عليه ، وهو أن يضمها إلى صدره ويربت على ظهرها فى عطف وحنان ، ولكنه تمالك نفسه وقال :

— ولكنك إنسانة يافاطمة ، إنسانة يجب أن تعيش وتحيا ، وليس باستطاعتك أن تظلى وحيدة بغير شريك يحبك وتحبينه .

— لهذا قلت لك هذا الصباح ، ليتنى مت وانقضت أيامى .

ووضع فوزى يده على فمها ليحول بينها وبين المضى فى حديثها ، وأحس بدفء شفتيها ، وارتجف بدنه من جديد ، وغمرته موجة من الارتباك .. فتشاغل بالنظر إلى الساعة ولم يلبث أن هتف :

— يجب أن أسرع إلى دار الحزب ، فإن هناك الكثير مما يجب أن يعمل إعداداً للغد .

— وهل أنت مطمئن إلى أن الإنجليز لن يصطدموا بالشعب .

لقد صدرت إليهم الأوامر أن يلازموا ثكناتهم فى الغد ، ولكن الإنسان لا يعرف كيف تتطور الأمور فى أمثال هذه المناسبات .

— وأنت هل ستسير فى المظاهرة ؟

— طبعاً ، على رأسها. لقد قررت الجبهة أن يتصدر رؤساء الأحزاب والقادة والزعماء المظاهرة ... ستبدأ المسيرة من الجامع الأزهر فى الساعة الحادية عشرة .

— وهل سيسير الشيخ المهدى ؟

— طبعاً ، لا يستطيع أحد أن يتخلف .

— ولكنك ستكون شديد الحرص على نفسك ، أليس كذلك ؟

— ما الذى أستطيع أن أفعله ، قل لن يصيبنا إلا ما كتب الله لنا ، أليس هذا أحد شعاراتنا .

— هذا صحيح ، ومع ذلك فقد قال الله أيضاً « خذوا حذركم » .

— باسم الله ما شاء الله ، لقد أصبحت فقيهة ... من أين جاءك كل هذا التعقل . ولماذا إذن لا تطبقين ذلك على نفسك ، فلا تتعجلين العودة إلى البيت .

ما رأيك لو سرت إلى جوارك غداً فى هذه المظاهرة .. أرجوك يا فوزى .

— هذا هو الجنون بعينيه .

— ألا يجب أن نكون مجانين فى بعض الأحيان ؟

— ولكن هذا فوق الجنون .. إنه انتحار .

— إهدأ .. إهدأ فإنما أردت أن أعاكسك . سأخلد غداً إلى الراحة ولكن بشرط إذا لم تنفذه فلا تلومن إلا نفسك .

— أنا على استعداد لتنفيذ كل شروطك .

— إنما هو شرط واحد .. أن تزورنى غداً بعد انتهاء المظاهرة ولو لبضع دقائق لأطمئن عليك ، ولأقف منك على التفاصيل .

— اتفقنا .

* * *

الفصل الثانى

— ١ —

امتلأ قلب فوزى بالطمأنينة والغبطة وهو يجوب أنحاء القاهرة صباح السبت ٢١ فبراير سنة ١٩٤٦

كانت كل أبواب المتاجر مغلقة ، والمواصلات معطلة

ويفرك فوزى يديه من فرط الرضا والابتهاج ويتمتم :

— المواصلات هى شرايين الحياة الحديثة ، فمتى توقفت المواصلات توقف معها كل شىء .

وبدأت جماعات من الطلاب والعمال ترتاد الشوارع وهى تهتف بالجلاء ووحدة وادى النيل وكفاح الشعب .

فكان ذلك كافياً لحمل كل من كان يتردد من أصحاب المحال القليلة المفتوحة ، إلى الإقتناع بوجوب إغلاق محالهم .

ويطمئن فوزى إلى سير الأمور ، فيبتسم فى رضا وارتياح ، ويستأنف جولاته فى أنحاء العاصمة .

ويتعرف عليه من حين لآخر شباب من أعضاء الحزب ، فيهتفون باسمه ، بينما يكتفى البعض الآخر بتحيته ويشير الأكثرون إليه بأصبع اليد قائلين :

— هذا هو فوزى السيد .

ويحمر وجه فوزى خجلا ، ولـكن الغبطة كانت تغمره .

وفى أكثر من مرة ، التف البعض حول سيارته ، هاتفين باسمه طالبين منه أن يخطبهم ، فيرد عليهم فوزى :

— لا خطب اليوم .. وإنما عمل وتظاهر .. إلى الأزهر .

وتردد الجماعات فى حماسة :

— إلى الأزهر .

إنه الآن فى وسط المدينة والقسم التجارى منها، شوارع عماد الدين ، سليمان باشا ، عدلى باشا ، ثروت باشا ، قصر النيل ، الأوبرا ، الإضراب هنا تام وكامل مائة فى المائة ، فقد شارك الأجانب المصريين فى إضرابهم ، رغباً أو رهباً ، ولكن النتيجة هى التى كانت تعنى فوزى ، إن القاهرة العظيمة قدتوقفت كلها كما لوكانت فى حالة حداد ، لابيع ولاشراء ولاتعامل من أى نوع كان ، كلمة واحدة تتردد على الألسنة ، الجلاء .. الجلاء .. مكتوبة على الأرض وعلى الجدران وفوق الصدور ، وخيل لفوزى أنها مكتوبة فى السماء كذلك .

ولم يعدم فوزى أن يرى فى تجواله بعض الوجوه التى كانت تلوى كشحها عنه ، وتعرض وتزور ، ويغمغم فوزى مع نفسه « إنهم شيوعيون» أجل فالشيوعيون وحدهم الذين ينظرون له نظرة عداء ، ويطلقون عليه ألفاظاً ما أنزل الله بها من سلطان ، من أنه انتهازى وفاشستى ، ومتعصب وجاهل ومغرور . ويهز فوزى رأسه :

— إنهم مضللون ... ضللهم اليهود الذين يتزعمون الشيوعية والذين يكرهوننى لأننى عدو إسرائيل .

ولا يلبث أن يهز رأسه ، كما لو كان يريد أن ينفض منها الأفكار السيئة .

— ليكرهه اليهود أو الشيوعيون ما شاءوا أن يكرهوا ، ليقولوا عنه ما يريدون قوله ، إنه لا يكرههم . . بل إنه لراض عنهم كل الرضا فى هذا اليوم ، لأنهم يشتركون مع الشعب فى نضاله من أجل الجلاء .

وكانت المدينة فى الساعة العاشرة ، قد أصبحت تضج وتعج بأصوات الجموع والجماهير والهتافات التى ترتفع إلى عنان السماء ، وبدت المدينة كما لو كانت مرجلا يغلى بالغضب على الإنجليز ، بينما تحول قلب القاهرة إلى كتلة بشرية ملتحمة .

وقرر فوزى أن يذهب إلى الأزهر ، ولكن الزحام اضطره للتخلى عن السيارة والسير على قدميه للوصول إلى هناك ، ولكن ذلك بدا فى هذه اللحظات أمراً غير مستطاع ، فقد كانت الحشود فى شارع الأزهر قد التحمت وكأنها كتلة بشرية هائلة ، وعرفه بعض أفراد جماعته فالتفوا حوله وراحوا يدلون له بما لديهم من معلومات :

— لقد رأيت الشيخ المهدى متجهاً نحو الأزهر فى سيارة .

— وأنا رأيت صالح باشا وعزيز باشا .

ويسأل فوزى :

— وما السبيل الآن للوصول إلى الأزهر ؟

— لا سبيل إلا أن نحملك على الأعناق ونحاول اختراق الجموع .

— ولكنى لن أقبل هذا .

— ليس هناك سبيل غيره .

— فما العمل ؟

— ما الذى ننتظر ، فلنبدأ السير .

ويعترض فوزى :

— ولكن الساعة لم تبلغ الحادية عشرة بعد ، ويجب أن أكون مع إخوانى أعضاء اللجنة القومية .

— لم يعد باستطاعتك الاتصال بهم ، ولو انتظرنا حتى الحادية عشرة . لما وجدنا متسعاً لقدم نتحرك فيه .

ولم تدع الجموع فرصة لفوزى لكى يتردد ، فقد رفعته على الأعناق ، بينما كان الهتاف يدوى كالرعد :

— الجلاء .. الجلاء

الجلاء بالدماء .

وامتلأ قلب فوزى خشية وروعة ، وهو يطل من فوق الأكتاف على هذه الكتلة البشرية ، لم يكن يرى أفراداً ، لم تقع عيناه على أشخاص ، وإنما كان هناك بناء عملاق جبار من الإنسانية ، كائن لا يمكن أن يغلب أو يهزم ، لا يمكن أن يخاف من شىء أو يجبن ، لأنه هو القوة وهو الأصل

والأساس .. كائن عملاق لو حاول أن يفر لما وجد مكاناً يفر إليه لأنه يزحم الفراغ كله .. ويملأ الوجود .. كائن عملاق لا يعرف إلا أن يحقق وجوده ، من خلال تحقيق إرادته .. هـذا إذن هو الشعب . واستولى على فوزى ما يشبه اللوثة الصوفية فراح يهتف :

— الشعب ، الشعب ، الشعب ، الشعب

وزمجرت الجموع ، وأرعدت الدنيا :

— الشعب ، الشعب ، الشعب ، الشعب .

— الجلاء ، الجلاء ، الجلاء ، الجلاء .

واختلطت الأصوات ، وامتزجت ، وتحولت إلى رعد وهدير وزئير ، وتعالت الصيحات من كل جانب بشتى صنوف النداءات ، بينما كان الطوفان يزحف ، والزغاريد تجلجل من النوافذ والشرفات .

ولمع فجأة فى رأس فوزى خاطر ، ها هو يسير على رأس المظاهرة كالعلم ، ومعنى ذلك أن أى اصطدام مع الإنجليز سيقع على رأسه ، وطاف فى نفسه طائف من الخوف ، ولـكن رؤية العملاق الجبار الذى كان يحيط به ، جعلت هـذا الطائف ينقشع على الفور ، ويحل محله إحساس باليقين والرضاء والقوة . إنه جزء من هذا الشعب ، إنه خلية من خلايا هذا الجسد ، لا يمكن أن يموت ، حتى لو قتله الإنجليز برصاصهم ، فهو لا يمكن أن يموت فى هذا اليوم ، سيظل حياً بحياة هـذا الشعب . لا موت اليوم لمن يقتل بل حياة دائمة وبقاء إلى الأبد ، ووجد نفسه يردد أى القرآن الذى طالما تمثل به :

« ولا تحسبن الذين قتلوا فى سبيل الله أمواتاً بل أحيـــاء عند ربهم يرزقون » .

فليأت رصاص الإنجليز إذن في القلب أو في الرأس أو في الإثنين معاً ، ليكونن أكسير الحياة ، ليكونن مفتاح الخلود .

ولكن رصاص الإنجليز لم يأت ، ولم يكد فوزى يتنبه إلى ما حوله ، حتى لم يكن هو الوحيد المحمول على الأعناق ، بل إن عشرات غيره كانوا قد حملوا هنا وهناك وراحوا يتولون الهتاف، بل إنما أذهله أنه لم يكن على رأس المظاهرة ، إذ لم يعد للمظاهرة رأس أو مقدمة ... لقد انسد الطريق من أمامه بالكتل البشرية كما كان مسدوداً من خلفه ، حشود فوق حشود من فوقها حشود .

وبعد أن كانت أرض الشارع هى وحدها المغطاة بالبشر ، فقد أصبحت جدران الشارع ، حتى البيوت مغطاة بالبشر كذلك ... اختفت الأبواب والنوافذ والشرفات والأحجار والأخشاب ... ولم يبق إلا بشر ... بشر ، بشر فى كل مكان يزأرون ويجأرون :

الجلاء ، الجلاء ، الجلاء ، الجلاء .

* * *

لم يعرف فوزى كيف سارت الأمور بعد ذلك فى هذا اليوم ، ومتى أطلق الرصاص ، وتضرجت الأرض بدم الشهداء ، فقد أمضى هذا الصباح فى شبه غيبوبة بعد أن أسلم نفسه للجماهير وذاب فيها ، كل الذى يذكره ، أو بالأحرى ، ما راح يذكره أصحابه الذين أحاطوا به ورافقوه وتبادلوا حمله عن الأكتاف ، أنه كان يهتف من حين لآخر ، حتى بح صوته وانسد . وكانت بعض التيارات البشرية ، تستوقف الكتلة التى كان يرأسها ، وتصر

على أن يخطب فيها ، فيصرح ببعض ألفاظ لا تكاد تبين ، وسط الزئير والهدير المحيط به . وأن ذلك قد تكرر فى شرفة فندق الكونتننتال حيث الأجانب ، وفى شرفة نادى محمد على حيث الأمراء والوزراء والأغنياء .

وإذ كان على المظاهرة أن تسير من الأزهر حتى تصل ميدان عابدين ، فقد اكتظ ميـدان عابدين والشوارع المؤدية إليه بالجماهير والحشود ، وتحولت المظاهرة السائرة إلى مظاهرة واقفة ...

ويقول أصحاب فوزى ، إنهم عندما وجدوا صوت فوزى قد اختفى نهائياً ، ولم يعد ثمـة سبيل للحركة فضلا عن المسير نحو الأمام . . . فقد انتحوا به جانباً ، وحملوه من أحد الأزقة الجانبية ، إلى دار واحد من الأصدقاء ... ولم يحس أحد بانسحابهم ، كما لم يحس أحد بوجودهم ، لقد كان اليوم يوم الشعب ، حيث لاقادة ولا زعماء ، ولا كبير أو صغير ، حيث لا متقدم أو متخلف ، مع الشعب أو ضد الشعب ، لقد تلاشت كل هذه الصفات ، ولم يبق إلا كائن واحد جبار عملاق هو الشعب .

ولعل من الصور القليلة التى اختزنتها ذاكرة فوزى عن هذا اليوم ، هو رؤيته ضباط البوليس السياسى ، وهم يكادون يذوبون ، وهم يتوارون هنا وهناك والابتسامات تزحم وجوههم ... لقد ضاعوا كما ضاع غيرهم ... فلم يكن هناك سوى هذا الكائن الواحد العملاق الذى ذاب فيه الجميع :

— الشعب .

وظلت صيحة هذا الشعب العملاق الجبار فى هـذا اليوم هى : الجلاء بالدماء .

وما كان يمكن أن تتبدد هذه الصيحة هباء . . . وكان لا بد أن تتحقق ويذهب هذا اليوم فى التاريخ يوماً دامياً ، فعلى الرغم من فرط حذر الإنجليز واتخاذهم كل الإجراءات التى تحول دون الاحتكاك بينهم وبين الشعب ، فقد خرجت شرذمة منهم على التعليمات ... وحاولوا أن ينتقلوا بسياراتهم من مكان إلى آخر ... فارتعدوا من هول منظر الجبار العملاق ، وتصوروا أنهم سيمزقون ففتحوا أفواه بنادقهم ورشاشاتهم ، فانطلق الرصاص منها يصفر ويزمجر ... فسقط العشرات والمئات جرحى وقتلى ، بينما كان الغزاة المعتدون يفرون نجاة بأنفسهم ، ورويت شجرة الحرية بمزيد من الدماء .

وأحاط إخوان فوزى به فى البيت الأخضر آخر النهار منهوكين مبهورين .. لقد كان شيئاً لا يحلمون به .. لقد كان شيئاً لم يطف لهم فى خيال وهم يدعون إلى يوم الجلاء .. لقد تحرك القدر ، لقد تكلم القدر وكان لهم يد طولى فى إطلاقه وتحريكه .. أولم يكونوا هم الدعاة لهذا اليوم ؟

— ٢ —

قالت وفاء لزوجها وهى تودعه على باب مسكنيهما .

ـــ أذاهب أنت إلى البيت الأخضر ؟

ـــ كلا بل ذاهب إلى دار الدعوة المحمدية لحضور اجتماع اللجنة القومية ، سوف نبحث فيما يجب اتخاذه من إجراءات للاحتجاج على مصرع الشهداء بالأمس ، إن العجلة لا يجب أن تتوقف بعد اليوم عن الدوران حتى يتحقق الجلاء .

ـــ الله معكم .

ولم يكد فوزى يختفى عن أنظار زوجته وفاء ، وينطلق لحال سبيله بعد هذا الحديث القصير المتبادل ، حتى كان يمتلىء لأول مرة فى حياته بشعور من الخزى والمهانة فقد كان يكذب ، يكذب بكل ما تحمله هـذه الـكلمة من معنى على زوجته . حقاً إن اللجنة القومية كانت ستجتمع من أجل هذا الأمر الذى قاله لها ، ولـكنها كانت ستجتمع فى البيت الأخضر لا فى دار الدعوة المحمدية ، وكانت ستجتمع فى ساعة متأخرة من الليل ، وليس فى الساعة الخامسة كما قال لها ..

وهو يعرف لماذا كذب عليها متعمداً ، فقد كان ذاهباً لزيارة فاطمة بعد أن خرجت من المستشفى وعادت إلى بيتها ، لقد أخلف عهده معها أن يمر عليها ولو بضع لحظات فى نهاية اليوم ليطمئنها على سلامته وليحدثها عما جرى ، بل لقد فاته فى هول الحوادث أن يكلف أحدا بالاتصال بها ، وما كان ليجعل هذا اليوم يمر أيضاً دون أن يراها ، دون أن يحدثها ، دون أن يحتفل معها بهذا النصر المذهل فى يوم الجلاء .

ويسأل فوزى نفسه فى غلظة ، ولـكن لماذا كذب ، لقد سمح لنفسه أن يسكت عن قول بعض الحق ، أما أن يقول لوفاء ما يخالف الحق .. فهذا هو الـكذب .. لماذا .. لماذا .. ؟ ويروح يبرر لنفسه وينتحل المعاذير :

ـــ ولـكن ما جدوى أن يقول لها إنه ذاهب إلى فاطمة فى بيتها ، إن ذلك قمين أن يثير مشكلة حادة لا يمـكن أن تنتهى إلى خير أبداً . لقد أصبحت وفاء تتوهم وجود أشياء لا حقيقة لها فى علاقته بفاطمة . وهو لا يمـكن أن يتخلى عن فاطمة ، لا يمـكن أن يدعها وحيدة مع آلامها

وأحزانها ، وهو إذا كان يخفى ذلك عن زوجته ، فلكى لا يسبب لها الآلام ، وليتفادى أسباب النزاع . إنه يحب وفاء .. إنها زوجته والأثيرة عنده ، فلماذا يكدرها بالحديث عن فاطمة .

ووصل فوزى إلى العباسية ، حيث تقيم فاطمة ، وأوقف سيارته أمام باب العمارة التى تقطن بها . لطالما أوقف السيارة حيث أوقفها اليوم ، ومع ذلك فلم يحس لذلك بحرج كما يحسه اليوم ، ويسأل نفسه ، لماذا هو مرتبك ، وتجيب نفسه على تسائله : ماذا لو رأى أحد ممن يعرفه ، السيارة وأخبر وفاء بذلك ، أو أخبر من يحمل لها الخبر . إن الأخبار تصلها دائماً ، تصلها بطريقة تستعصى على التفسير .

ويقطع على فوزى سلسلة أفكاره ، ترحيب بواب العمارة به ، ويحمر وجه فوزى ، كما لو كان قد ضبط . ويشتد حنق فوزى على نفسه ، ماذا دهاه ، ما الذى جعله هكذا حساساً ، ما الذى أخجله من تحية البواب له ، لماذا أبى على البواب كما هى عادته أن يرافقه فى المصعد حتى شقة الدكتورة فاطمة كما هى عادته ، ماذا كان عليه لو تركه .. ماذا سيظن الرجل .

ويتوقف المصعد فيقطع على فوزى سلسلة أفكاره ، ولكنه سرعان ما يكشف أنه أخطأ الطابق المقصود ، وبدلا من أن يهبط بالمصعد إلى حيث يجب أن يهبط ، آثر أن ينزل على قدميه .

ودق جرس مسكن فاطمة ، وقد زداد خفقان قلبه .

ولم تكد فاطمة تفتح له الباب وتطالعه بابتسامتها ووجهها المشرق ، حتى امتقع وجهه فلم يسبق له أن رآها بكل هذا الجمال والجاذبية .

أيكون واهماً ، أهـذه فاطمة التى ألف رؤية وجهها أصفر واهناً ؟ ما بال الشفتين قد توردتا وامتلأتا وأصبحتا تنبضان بالحياة ، ما بال الوجنتين الباهتتين قد أحمرتا ، ما بال عينيها تشعان وهجاً وضياء نفاذاً .

وهتف فوزى :

ـــ لا أكاد أصدق ، هذا غير معقول .

ـــ ما هو الشيء الذى لا تصدقه ، ما هو الأمر الذى لا تراه معقولا ؟

ـــ أأنت فاطمة التى لم تبرح المستشفى إلا منذ أقل من القليل .

وضحكت فاطمة ضحكة لعوب وهى تتقدمه إلى حجرة الضيوف :

ـــ أكنت أبدو فى نظرك قبيحة إلى هـذا الحد ، بحيث أن قليلا من التزين قد غير صورتى ؟

المسألة أننى أردت أن أثبت لك أننى قد شفيت نهائياً ، وأن أعمل بنصيحتك فحاولت أن أقبل من جديد على الحياة . وعلى كل حال فحذار أن تنخدع ، إن وسائل التجميل الحديثة أصبحت تفعل المعجزات .. إن ما تراه ليس أنا .. إنه مزيج من المساحيق والطلاء .

ـــ أنت فاتنة .

ـــ يا سلام لقد بدأ الأستاذ فوزى يمارس أسلوبه الذى اشتهر به معى .

ـــ أى أسلوب ؟

— أن تشجع كل الناس ، وتجبر خاطرهم .

— ولـكنى أقسم أنى أقول لك الحقيقة ، لم أرك قبل اليوم بهذا الجمال .

— ربما لم تكن تنظر إلى .

— ولا بهذه الفتنة ؟

— أتراك تجعل مغازلتى جزءاً من العلاج ؟

واحمروجه فوزى وهى تتلفظ بكلمة المغازلة ، ونظرحوله فى ارتباك :

— أأنت وحيدة ؟

— تماماً .

وساد صمت لبضع لحظات ، أحس فيها الإثنان بشىء من الحرج ، دل على ذلك انطلاقهما فى الحديث فى لحظة واحدة ، ولم يلبثا أن ضحكا من نفسيهما عند اكتشافهما هـذه الحقيقة ، وتوقفا عن الـكلام فجأة فى آن واحد :

— قولى ماذا كنت تريدين قوله .

— بل قل أنت .

— بل قولى أنت فى الأول .

— وهل هذا يصح ، وهل تعلو العين عن الحاجب .

وابتسم فوزى ، وزال عنه التوتر وانطلق يحدثها فى سيل من الكلمات الجارفة عما حدث فى يوم الجلاء .

لقد تحركت عجلة الشعب أخيراً ، ولا توجد قوة على ظهر الأرض تستطيع أن توقفها حتى يتحقق الجلاء .

— قيل لى إن الدعوة المحمدية حشدت ألوفاً من أتباعها ، وكانت تستعمل سيارة مجهزة بالميكروفونات للسيطرة على المظاهرة .

— هذا ما توهموا قدرتهم على عمله ، ولكنهم ذابوا بالأمس ، ذابوا كما ذابت أى تكتلات من أى نوع كان ، لم يكن هناك سوى الشعب ، ولذلك فقد كنا نحن أكثر الناس سعادة بما نرى ، لأننا منه بمثابة الضمير والوجدان ، إن أى فرد من أفراد جماعتنا كان يعبر عن عواطف الشعب ، كان يقود وحدات منه فى يسر وسهولة . . . ولقد وقع بصرى أنا شخصياً على عشرات من إخواننا محمولين على الأعناق وهم يقودون الهتافات . . . كل من تعرفين أو تذكرين .

— الزيادى ، عبد الخالق ، عامر ، عبد الله ، صـادق ، صبيح ، عبد الوارث ، فخرى ، حلمى ، متولى ، الحصرى ، الجندى ، الصوالحى ، نصحى ، عبد الرحمن ، عبدالحميد ، الشهاوى ، عبد القوى ، حافظ ... من أيضاً ، ذكرينى .

— وشكرى هل اشترك شكرى فى المظاهرة ؟

— طبعاً ، طبعاً ، وكان يهتف ... هو وحمدى وسلومة ، ورأفت ، زكريا ، عبد العزيز ، المليجى ، الأمير ، مهدى ، شفيق ، فايز ، أنور ، عمرو ، نظمى ، توفيق ، كلهم يا فاطمة كانوا قواداً . . . كانوا يهتفون ، والجماهير تتابعهم على هتافهم ... هذا هو نحن .

— وما هى الخطوة التالية . . . الآن وقد سقط من سقط من الشهداء .

— سنلاحق التطور ، سنظل ممسكين بزمام المبادرة لقد اجتمعت الجبهة فى دارنا هذا الصباح ، وستعود للانعقاد فى دارنا كذلك هذا المساء فى الساعة الثامنة وقد اتفقنا مبدئياً على تحديد يوم ٤ مارس ، يوم حداد على الشهداء ، وسنعمل على تنظيم موكب كيفى هذه المرة لا كمى ، يسير فيه الوزراء والشيوخ والنواب والمستشارون والقضاة والمحامون ، وأساتذة الجامعة والأزهريون والمهندسون والأطباء .

— سأتولى أنا الإشراف على قطاع الأطباء . . .

وقبل أن يرد عليها فوزى دق جرس التليفون .

وشعر فوزى باضطراب مفاجئ لجرس التليفون ، فى الوقت الذى ذهبت فيه فاطمة لترد على المتكلم ، وكاد فوزى يصعق عند ما وجد وجه فاطمة يكفهر لدى معرفتها المتحدث ، ولم يخفف عنه تهلل وجهها بعد ذلك بل زاد اضطرابه عند ما سمعها تقول :

— أهلا وسهلا وفاء هانم ، أهلا وسهلا ، لا تتصورى مقدار سعادتى بهذه المكالمة ، إنها أول مكالمة أتلقاها بعد شفائى وعودتى إلى البيت من عز الحبايب .

وكان فوزى قد وثب من فرط الانفعال والهلع لمجرد ذكر اسم وفاء ، وراح يشير إليها إشارات تحذير لفاطمة ، وهو ممتقع الوجه ، حتى لا تذكر

وجوده معها ، ولم يبد على فاطمة أنها وعت إشاراته ، ومع ذلك فقد استرسلت فى حديثها الحار مع وفاء ، دون أن تلمح إلى وجود فوزى معها .

ولم تكد فاطمة تتم المحادثة وترد سماعة التليفون إلى مكانها ، حتى تهاوى فوزى متهالكا من فرط الاعياء على أحد المقاعد ، بينما كانت عيناه تتلاقيان مع عينى فاطمة فى نظرة واعية لما حدث ، وراح يجفف العرق الذى غمر وجهه .

وران على الإثنين صمت طويل ثقيل على الرغم من أنه لم يتجاوز بضع ثوان ، ومع ذلك فقد مرت عليهما كما لو كانت دهوراً ، وتحركت فاطمة أخيراً واقتربت من فوزى وعادت إلى مجلسها فى مواجهته ، وكأن هذه الحركة قد أعادت إلى فوزى شيئاً من الطمأنينة فقد كان هو أول من استأنف الحديث :

— أتتصورين يا فاطمة ،إننى أحسست كما لو كانت ترانى وتبصرنى .

— لقد كنت واهما ، إن فكرها أبعد ما يكون عن هذه الناحية ، لقد قالت إنها ستتفق معك لتحضر إلى زيارتى ، فلما قلت لها ، كما سمعت ، إننى أنا الذى يجب أن أزورها لأشكرها ، قالت لى : فى هذه الحالة يجب أن نعد لك حفلة استقبال ابتهاجاً بشفائك .

— قالت لك ذلك ؟

— وأى غرابة فى أن تقول ، أيدهشك هذا ؟

— طبعاً لا ... لا ، إن وفاء تحبك وتعزك وتعتبرك كأخت لها كما تعلمين .

— وهذا هو ما يسبب لى فى أكثر الأحيان شيئاً من الحرج والضيق ، وطالما خشيت أن أكون سبباً فى إيلامها لأى سبب من الأسباب.

أتراني قد أحرجتك بدعوتك إياى لزيارتى اليوم ؟ وامتقع وجه فوزى ، لقد لمست فاطمة فى بساطة الجرح الغائر الذى أصبح يدمى علاقته بها . ولكنه أسرع يقول فى مكابرة وانفعال .

— أعوذ بالله ، ما الذى جعل هذا الخاطر يطرأ على ذهنك ، أى حرج فى زيارتى لك .

— خشيت عند ما ...

وقاطعها فوزى قبل أن تتم عبارتها ، التى كان يعرف أنها تعنى إشارته لها بالتحذير ، والتى يحس الآن بالخزى لذاكرها :

— المسألة أننى نسيت أن أقول لها فى زحمة الحوادث أنك خرجت من المستشفى ، وأنى سأزورك اليوم . ولكن كيف عرفت بخروجك .

— قالت إنها سألت عنى فى المستشفى لتطمئن على فأجابوها بأنى خرجت .

واكفهر وجه فوزى ، إن وفاء تتعقبه ، وكأنها أحست أنه خارج لزيارتها فى المستشفى ، وازداد اضطراباً وارتباكا وسأل فاطمة فى لهفة :

— ولـكن من التى قلت عنها إنها طيبة بخير .

— إنها ماما ، لقد سألتنى عن ماما ، فقلت لها إنها طيبة بخير فطلبت منى أن أبلغها السلام .

وأصبح ارتباك فوزى جلياً للعيان :

— ولـكنها لم تفهم من كلامك طبعاً أنها مسافرة ، أليس كذلك ؟

— طبعاً ، طبعاً ، أو لم تسمعنى أقول لها إننى سأبلغها السلام ؟

لقد فهمت من إشارتك لى أنه من الخير أن لا أحدثها عن غياب والدتى وإننى بمفردى . وأحس فوزى كما لو كان قد طعن بهذه العبارة ، ونظر إلى فاطمة نظرة تنم عما كان يعتلج فى نفســه من اضطراب وألم وشعور عميق بالخجل ، لقد أصبحا يتصرفان كما لو كانا متآمرين ، يتفاهمان بالإشارة واللحظ والإيماء .

ووثب فوزى واقفاً فى عزم :

— يجب أن أنصرف ، لقد حان أوان اجتماع الجبهة .

— ولـكنى لم أقدم لك بعد فنجاناً من القهوة .

— أنت تعرفين أن لا لزوم لذلك .

— أرجوك يا أستاذ فوزى .

— يجب أن أنصرف يا فاطمة ، ولـكن أحقاً ما قلته لوفاء من أنك ستتسلمين عملك فى المستشفى بعد غد ؟

— طبعاً صحيح ، لقد اتصلت بالمستشفى وأبلغتهم هذا القرار .

— هذا حسن ، إن ذلك خير من بقائك وحيدة فى هذا البيت الذى لا يعاونك فيه أحد .

— كأنك لم تؤمن بعد أننى قادرة على خدمة نفسى ، تعال معى لترى بنفسك ماذا طهوت وماذا أكلت .

ولم تدع فاطمة فرصة لفوزى للتردد فقادته من يده إلى حيث تريد ، وأحس بالنشوة من هذه الحركة ، ومن ملامسة يدها ليده ، ونسى كل شىء ، قلقه وهمومه واضطرابه ، نسى لهفته على وضع حد لهذا الموقف منذ لحظات ، وأحس بفيض من السعادة ، وهى تكشف له أغطية أوانى الطعام ، وتعرض عليه أن يتذوق منها ، ولم يتمالك نفسه من أن يتذوق بعضها بالفعل ويبدى إعجابه ، وأحست فاطمة بمشاعره الجديدة فقالت له :

— والآن اجلس ، ودعنى أعد لك فنجاناً من القهوة ... لطالما أشدت بخبرتى فى عمل القهوة عندما كنت أخدمك إبان الاختفاء .

وشعر فوزى ، بالأرض تميد تحت قدميه ، وأنه يوشك أن يغرق فى لجة عميقة ، فاستجمع قواه من جديد ، وهتف بها فى توسل أودعه آخر ما فى نفسه من عزم :

— دعينى أخرج يا فاطمة أرجوك ، فلابد أن تكون الجماعة فى انتظارى ، وأعدك أن أعود مرة أخرى نشرب هذا الفنجان .

وانتزع فوزى نفسه انتزاعاً ، ولم ينتظر لسماع جوابها ، وانطلق يعدو

من باب الشقة كالهارب ، ولم يلبث أن تمالك نفسه خوفاً من أن يثير الشبهة ... فواصل هبوط السلم على مهل .

— ٢ —

عاد فوزى فى ساعة متأخرة هذه الليلة ، بعد أن فرغ من اجتماع الجبهة القومية التى وافقت على اقتراحات حزب فوزى ، من جعل يوم ٤ مارس يوم حداد على الشهداء فى طول البلاد وعرضها ، وإعلان الإضراب العام وتوقف المواصلات ، واقتصار الإذاعة على تلاوة القرآن ، وتنظيم موكب من مختلف طوائف الأمة وطبقاتها ليؤلف جنازة صامتة .

وكان فرح أعضاء الحزب بهذا الانتصار عظيما ، فقد أحسوا بأن جهودهم المتواصلة طوال خمسة عشر عاماً قد بدأت تؤتى ثمارها ، فالجميع أصبحوا يعترفون بدورهم الفعال فى قيادة النضال الوطنى ، وزمام المبادرة فى أيديهم ، والأحزاب القديمة التقليدية أوشكت أن تصبح سلبية وأن تتخلى عن قيادتها ، للأحزاب والحركات الجديدة الشابة .

وكان فوزى يدندن بإحدى الأغنيات وهو فى طريق عودته إلى البيت فرحاً مسروراً بهذه النتائج ، غير ملق باله للساعة المتقدمة من الصباح التى يعود فيها وهى الثانية صباحاً ، ولكنه لم يكد يضع مفتاح مسكنه فى القفل حتى كان ذلك كله يختفى ويتبدد أمام ما أصبح غارقاً فيه من مشاكل خاصة فقد وجد زوجته وفاء متيقظة فى انتظار عودته ، ولم تفته المحاولة اليائسة التى بذلتها لترسم على شفتيها ابتسامة ترحيب .

— أولم تنامى بعد يا حبيبتى ؟

— لم أستطع النوم .

— لماذا ؟ خيراً . . . هل الأولاد بخير .

— بخير والحمد لله ، ولكنى لم أستطع النوم .

وعلى الرغم من تظاهر وفاء بالهدوء وعدم الاكتراث ، فقد أحس فوزى بالثورة العارمة التى تتأجج فى داخل نفسها ، وغمرته موجة من الاستسلام ، إن الليلة لن تنتهى على خير إنه يعرف زوجته حق المعرفة ، بعد عشرة أربت على الثمانية أعوام ، إن ثمة عاصفة وراء هذه الابتسامة الوديعة الرقيقة ، وهذا الهدوء . . . وهى فى انتظار شرارة بسيطة لكى تنفجر بكل براكينها وزلازلها ورعودها وبروقها .

إنه لن يكون هو البادئ .. إنه متعب ومكدود ، بعد هذه السهرة الطويلة من المناقشات والخلافات التى أوشكت أن تصل إلى حد التماسك بالأيدى بين الشيوعيين والمحمديين ، وهو ليس مستعداً أن يخوض الآن معركة مع زوجته ، تدل كل الدلائل على أنها تتهيأ لها . ولكن لماذا ؟ إنه لا يعرف سبباً لهذه العاصفة . وتملكه الغضب ، أن يكون استقبالها له كذلك فى هذه الساعة من الليل ، ولكن لا .. إنه لن يثور .. إنه متعب ، إنه منهك .

ودلف إلى حجرة نومه متجاهلا حالة وفاء ، وشرع يخلع ملابسه فى صمت ، ولكن وفاء تبعته ، وراحت تعاونه على خلع ملابسه كما هى عادتها ، وإذ انحنت على قدميه لتخلع الحذاء ، قفز اسم فاطمة فجأة إلى

رأس فوزى ، لابد أن يكون لفاطمة علاقة بحالة زوجته ، وتداعت هذه الصور التى كانت حوادث الليلة قد أنسته إياها ، تلفونها وهو يدق فى بيت فاطمة وحالة الفزع التى استولت عليه وهو يعـــلم أنها المتحدثة . وغاض قلب فوزى ، أتكون قد أحست بوجوده مع فاطمة رغم تأكيد فاطمة أنها كانت أبعد ما تكون عن ذلك ، لطالما أذهلته بمعرفة أخباره وتحركاته عندما يكون فى الأمر إمرأة . . فما الذى يجعلها لا تعرف اليـــوم ؟

وسألها فى تثاقل محاولا اختبار الموقف :

— كيف حال الأولاد — خالد ، وجهاد وثبات .

— الحمد لله .

— هل ذاكر خالد دروسه ؟

— أجل .

— ماذا بك ؟

— لا شىء .

— اسمعى يا وفاء لا تثيرى أعصابى ، بهز رأسك وتكرارك لا شىء . لا شىء .. إنك ترتعشين من شدة الانفعال ، فهلا قلت ما تريدين قوله لكى ننتهى ، إننى متعب ومنهوك وأريد أن أنام ، ولن أستطيع النـــوم إلا إذا زال عنك هذا التوتر والانفعال .. قولى .. تكلمى ، ما الذى حدث ، لماذا ترتجفين هكذا .

— فاطمة ... ؟!

— مالها ؟

— خرجت من المستشفى وعادت إلى بيتها .

— وماذ فى ذلك ؟

— لماذا لم تخبرنى ؟

— ألا تقدرين مدى استغراقى فى أحداث يوم الجلاء واجتماعات الجبهة القومية .

— ولكن خبراً كهذا لا يمكن أن يفوتك أن تقوله لى أياً كانت الأحداث التى تشغلك ، هل عندنا من هو أهم من فاطمة ؟

— يا وفاء ، هذا صحيح ، ولكن ذلك عند ما كانت فى حالة الخطر أما وبعد أن زال عنها الخطر وتماثلت للشفاء ، فلم يعد أمرها مهما إلى هذه الدرجة .

— وما الذى يجعلك تتحدث عن زوال الخطر عنها وتماثلها للشفاء بكل هذا اليقين ، أنسيت أنك كنت تعارضنى إذا قلت ذلك حتى أيام قريبة ؟

وضاق فوزى بهذه المناقشة وأفلتت أعصابه ، وانطلقت مراجل غضبه .

— ليكن ، ماذا تريدين أن تقولى .. تكلمى .. انطقى .. أهذا هو الاستقبال الذى تستقبل به زوجة عادية زوجها ، فضلا عن زوجة محبة لزوجها، عندما يعود لها متعباً منهكا فى الثانية صباحاً .

— لماذا أخفيت عنى نبأ خروجها من المستشفى وعودتها إلى البيت ؟

— لم أخف عنك شيئاً .

— إنك لم تسألنى ، كيف عرفت نبأ خروجها من المستشفى ، إنك لا تفاجأ بهذا الحديث ، أقالت لك إننى اتصلت بها .

وارتج على فوزى وأحيط به ، وأحس أنه قد ينتهى بأن يعترف لها بكل شىء على سبيل التحدى ، ولكنه ضبط أعصابه وسلك فى دفاعه مسلكا آخر :

— وفاء .. يخيل إلى أن هذه الليلة لن تنتهى على خير ، وأنا لست على استعداد أن أشتبك معك فى شجار ، فإذا لم تهدئى وتكفى عن هذه السخافات التى أصبحت ممجوجة فسوف ارتدى ملابسى وأخرج من البيت ، سوف تضطريننى للذهاب إلى بيت والدتك فى هذه الساعة لأنام هناك .

ولم يكد فوزى يطلق هذا التهديد ، حتى أسقط فى يد وفاء ، إنها تعرف زوجها ، سوف ينفذ وعيده من غير شك ، سوف يقصد دار أمها ويوقظها فى هذه الساعة المتأخرة من الليل ، وتمثلت الفزع الذى سيصيب أمها ، ورد الفعل الذى يصيبها وهى المريضة بالسكر ، فاستجمعت آخر خيوط إرادتها ولاذت بها تنتقل من النقيض إلى النقيض ، فسيطر عليها الهدوء والسكينة ، وفاجأت فوزى بقولها :

— أنا آسفة .

وأحس فوزى بمجرد تلفظ وفاء بهذه العبارة لأول مرة فى حياتها ، كما لو كانت قد صبت عليه دشاً بارداً ، وأحس بمقدار تجنيه عليها وظلمه لها

إنها محقة فى شعورها وهو المذنب فى حقها ، لقد كذب عليها ، لقد بدل فى الحقيقة ومهو ، وما يزعمه لنفسه من أنه يفعل ذلك من أجلها من أجل طمأنينة نفسها ، وراحة بالها ، ليس إلا محاولة ساذجة لتبرير تصرفاته الخاطئة .

لقد عاش طول حياته حتى الآن متخذاً لنفسه شعاراً ، وهو أن لايعمل فى الخفاء ، ما يخشى الجهر به فى العلن ، فهل يجرؤ الآن على أن يقول لزوجته أنه كان مع فاطمة فى بيتها ، هل يجرؤ أن يصف لها كيف قادته من يده إلى المطبخ وراحت تذيقه من طهيها ؟ لا إنه لايجرؤ ، وإذنفهو خاطىء مرتكب . . . وهى على الحق والجادة . وأحس فوزى بالاتضاع والهزيمة ، فانحنى على رأس وفاء يقبلها :

— سامحينى يا وفاء

— أسامحك على ى شيء ؟

— على انفعالى ، على اهتياجى وعصبيتى ، على هذا التهديد السخيف الذى هددتك به ، من الذهاب إلى والدتك .

وطوقته وفاء بذراعيها فى حنان ولهفة :

— إنك تعرف يافوزى ، أننى على استعداد للتسامح معك فى كل شيء ، على استعداد لأن أقتل نفسى من أجل إرضائك وراحتك ، ولكنى لن أمل من أكرر لك ما قلته لك مذ صارحتنى بحبك لأول مرة إنك تقتلنى إذا أحببت أحداً غيرى .

واحتضن فوزى وفاء فى حرارة وقد ، ترقرقت فى عينيه الدموع من

فرط التأثر والانفعال والشعور بالندم ، وضغط على شفتيها الجميلتين الملتهبتين في قبلة طويلة حارة ، ثم راح يهمس لها في أذنها وهو لا يزال يطوق خصرها بذراعه :

— كيف تتصورين أنني يمكن أن أحب مخلوقة أخرى في الوجود غيرك ، أنت شريكة حياتي وأم أولادي ، من عانت معي ما عانت ، وتحملت ما تحملت .

وقالت وفاء وقد تهدج صوتها :

— لا يا سيدي لست أريد عرفانا بالجميل ، لست أريد وفاء أو تقديراً ، إنه لا غنى عن قلبك ... حبك الذي يجب أن يكون لي وحدي ... ولست أستطيع أن أحيا بغيره .

— صدقيني إنه لك ... لك أنت وحدك ...

وانطلق زورقهما سابحاً فوق تيار الحب .

— ٤ —

— برافو ... برافو

وتوقفت يد زوجة الرجل الأشيب المهيب الطلعة الذي هتف هذا الهتاف ، عن صب الشاي في فنجانه وقالت له في تطلع واهتمام ، وهي ترنو لجريدة الأهرام التي كان يطالع فيها :

— ماذا حدث ؟

— تقابلت الجبهة القومية مع رئيسى الحكومة ، واتفقا على أن تشترك الحكومة مع الشعب فى اعتبار يوم ٤ مارس حداداً على الشهداء ، وأن يقتصر الحداد على التوقف عن العمل ، دون تسيير الموكب حتى لا يقع اصطدام جديد مع الإنجليز ، وقد أصدرت الجبهة بياناً للشعب بذلك .

ولم تسمع السيدة شيئاً من هذا الذى قاله زوجها ، وكانت قد استأنفت من جديد صب الشاى فى فنجانه ، ثم أخذت لنفسها قطعة من الكعك وراحت تقول فى استهجان :

— لقد تصورت فى الأمر شيئاً ، إنك تشغل بالك يا باشا بأمور غير جديرة بالاهتمام ، إن السياسة لا يأتى منها إلا الدوشة ووجع الدماغ .

— يا زينب إن كل ما يجرى الآن فى مصر ينعكس على مركز ابنتنا وسعادتها . يجب أن تذكرى دائماً أنها الملكة وعليها واجبات نحو هذا الشعب .

— واحسرتى ياباشا على ابنتى وما حل بها ، من كان يتصور أن فاروق ينقلب هذا الانقلاب ضدها ، فبعد أن كان يعبدها عبادة ، لم يعد له من عمل إلا أن يتفنن فى إيلامها وتعذيبها . هذا هو ما يجب أن نفكر فيه ، أن تحدثنى عما ينبغى عمله لإصلاح الأمور بينهما . . . لا أن تنشغل فى مطالعة الصحف ، والمظاهرات .

أولم أحذرك منذ البداية . . . أولم أقل لك يا زينب إننى غير راض عن هذا الزواج .

— ما الذى كان باستطاعتنا أن نفعله يا باشا ، أنسيت أنه الملك ... كيف كان يمكن أن نرفض طلبه .

— كان هناك ألف حيلة وحيلة للتخلص منه ، ولكنك فرحت بأن تصبح ابنتك ملكة مصر ، وأن تكونى أنت أم الملكة ، فما الذى تشكين منه الآن ... أليس هذا هو ما كنت تطلبين ؟

— والله حرام عليك يا باشا أن تصور الموقف هكذا ... إنك تظلمنى وتنسى أن ابنتك صافى هى التى رحبت بخطبته وتجاوبت مع عاطفته ... أنسيت مقدار ائتلافهما فى سويسرا والأيام السعيدة التى أمضياها معاً قبل الزواج . لقد كانا نموذجاً فريداً للعاشقين السعيدين .

— يخيل إلى يا زينب ، والحوداث تؤكد تصورى . . . أنه أصبح شخصاً جديداً بعد حادث القصاصين ، لقد نجا بحياته ولكن شخصيته الأولى اللطيفة الوديعة ماتت فى الحادث ، حتى جسده أصبح مشوهاً ، لقد أصبح كما لو كان جثة ضخمة نمت بغير حساب .. أين ذهبت رشاقته .

وقطع على الزوجين حديثهما ، دخول إحدى الوصيفات تحمل سلة أنيقة وفيها تليفون وردى اللون موشى بخطوط من الذهب ، مرصع بالتاج الملكى ، وقالت الوصيفة بالفرنسية :

— عفواً ... إنها جلالة الملكة .

وهتفت السيدة

— صافى ؟ اللهم اجعله خيراً — ألو

— بونجور مامى

— بونجور يا روحى

— مامى يجب أن تحضرى حالا أنت وبابا لتأخذانى من هنا ، فلم أعد أستطيع الحياة .

وأسرعت السيدة تعاتب ابنتها بالفرنسية :

— عجباً يا صاف ، أهذا يليق بك ، أن تتكلمى بمثل هذا الكلام فى التليفون .

— لم يعد يهمنى شىء ، الدنيا كلها أصبحت تعرف ما بينى وبين فاروق لقد شكوت لرئيس الحكومة .

— ما كان يصح أن تفعلى ذلك ، أنسيت أنك قبل أن تكونى ملكة فأنت ابنة أصول .

— أصول . . أصول ، إن هذه الكلمة أصبحت تقتلنى ، لقد ضقت ذرعاً ولم أعد احتمل فليقل الناس عنى ما يقولونه ، ولكنى لم أعد أحتمل أقسم لك يا ماما ، أننى أتمنى لو كنت زوجة موظف صغير أو عامل كادح يحب زوجته ، خير من أن أكون ملكة لا يحترمها زوجها ، ويحاول أن يهينها دائماً على رؤوس الأشهاد .

— يا صاف لا تبالغى ، وعلى كل حال فأنا لا أستطيع المضى فى الحديث معك ، إنتظرى على الأقل حتى أجىء إليك ، ثم أضافت بالعربية المكسرة « الحيطان لها آذان » .

— إننى أكلمك من تليفونى الخاص (الديركت) المباشر لن يسمع أحد ما أقول ، إننى لم أعد أقوى على الصبر ... إن الغثيان يصيبنى وأنا أسمع عن هذه الفضائح والمهازل التى يرتكبها كل ليلة فى الكباريهات ودور القمار ... تصورى ياماما ..

وقطعت عليها والدتها الحديث ، بأن قدمت التليفون إلى زوجها :

— بونجور جلالة الملكة

— لماذا تكلمنى هكذا يا أبى ؟ !

— لأنك جلالة الملكة ، ويجب أن تذكرى ذلك دائماً ، وتصرفاتك يجب أن تكون تصرفات ملكة ، إنك لست زوجة رجل عادى ، إن عليك مسئوليات ، والتليفون لا يصلح لمثل هذه الأحاديث ، سوف أمر عليك أنا ووالدتك فى الساعة الخامسة اليوم .. سنتناول عندك الشاى .

— أتوسل إليك يا بابا .

— يا حبيبتى كونى مطمئنة : ما عليك إلا أن تتذرعى دائماً بالصبر ، ليس أمامك الآن إلا الصبر .

وقبل أن ترد الملكة على أبيها ، سمعت طرقات على باب حجرتها :

— عفواً يا أبى ، إنى أسمع دقات على الباب . . . أخشى أن يكون فاروق ' إلى اللقاء إذن .. اتفقنا

— الساعة الخامسة .

* * *

— من الطارق ؟

— هذه أنا يا مولاتى .

ولم تصدق الملكة أذنيها ، فسألت فى استنكار :

— أنت من ؟

— وصيفة جلالتك نازك .

وأسرعت الملكة تفتح الباب فى ذهول وهى لا تكاد تتصور أن تبلغ القحة والجرأة بهذه المرأة المستهترة ، أن تقتحم عليها مخدعها الخاص ، وقررت أن تلقنها درساً لا تنساه .

ودخلت نازك عونى ، فى أبهى حلة وزينة ، وقد رفعت رأسها فى خيلاء ، وقبل أن تتحرك الملكة أو تتلفظ بكلمة كانت نازك قد جلست على أحد المقاعد داخل المخدع ، وكانت بصحبتها الآنسة ميرفت كارم الوصيفة الثانية .

وقالت نازك بعد أن استقرت على مقعدها فى تحد :

— بونجور يا مولاتى .

وانعقد لسان الملكة فريدة عن الكلام ، وراحت تنظر بعينين تشعان شرراً إلى نازك تارة ، وإلى رفيقتها التى كانت واقفة إلى جوارها تارة أخرى .

وقالت نازك :

— أنا آسفة يا أفندم لإزعاجك فى هذه الساعة المبكرة ، أرى أن مولاتى لم ترتد ملابسها بعد ، أتحبين جلالتك أن استدعى (الفام دى شامبر) لمساعدتك .

وهمت نازك أن تضغط على أحد الأجراس ، لولا أن صرخت فيها الملكة :

— قفى !!

وتوقفت نازك فى برود وقالت بالفرنسية :

— عفواً يا صاحبة الجلالة ... إنما أريد أن أخدم .

— أنا أريد أولا أن أعرف كيف تسمحين لنفسك أن تدقى على بابى بدون أن أطلبك . . . وكيف تدخلين مخدعى بدون اذنى ، وبأية جرأة وقحة تجلسين هكذا أمامى .

— يظهر أن مولاتى اليوم منحرفة المزاج .

— أجل أنا مولاتك وسيدتك رغم أنفك ، وأنت لست سوى خادمتى ولذلك فإنى آمرك أن تغربى عن وجهى حالا ... الآن .

— مولاتى ، إننى أقوم بواجبى باعتبارى وصيفة جلالتك .

— وصيفتى لا تدخل حجرتى بدون إذنى ، لا تجلس حيث آمرها أن تتصرف ، لا بد أنك قد فقدت رشدك وجننت حتى تتصرفى معى بهذا الأسلوب .

وأخرجت نازك عونى علبة السجاير من حقيبة يدها ، وأمسكت بلفافة

وراحت تشعلها ، ثم لم تلبث أن قالت لجلالة الملكة :

ــ أتأذنين يا صاحبة الجلالة أن أدخن سيجارة

ألا تأخذين أنت نفسك سيجارة ربما تهدىء من أعصابك .

وهتفت الملكة بالفرنسية :

ولكن لا . . . ولكن لا . . . هذا جنون ، يجب أن تؤدبى فوراً يجب أن تطردى من هذا القصر كالكلبة فلن أسمح ببقائك بعد اليوم فيه ساعة واحدة .

وأسرعت نحو التليفون الخاص بالاتصال بالملك ، وصاحت بمجرد رفع السماعة :

ــ فاروق ه . . هذا أنت ، يجب أن تحضر حالا إلى حجرتى الآن الآن . . . حالا . لا يهمنى ، يجب أن تحضر حالا . . . أرجوك .

والتفتت نحو نازك وقالت :

ــ والآن ستعرفين من الملكة فى هذا القصر ، وفى هذه البلاد . لقد صبرت عليك طويلا . . واحتملت واحتملت على أمل أن تثوبى إلى رشدك وأن تعرفى مقامك ، فلم يزدك ذلك إلا تمادياً فى تصرفاتك الشائنة . . . أما أن يصل الأمر إلى حد التطاول على . . . هنا فى مخدعى فلابد أن أثبت لك من أنا ، ولن أقبل إجراء أقل من طردك حالا من هذا القصر .

ــ إن ميرفت شاهدة على أننى لم أسىء إلى مولاتى ، لقد حضرت لأقوم بالخدمة ، ومنذ وقع بصر جلالتك علىّ ، وأنت تهيننى وتسبيننى ،

دون أن أرد على جلالتك اعترافاً بمكانتك . أيكون قد كدر مولاتى أننى استأذنتها فى تدخين سيجارة ؟ إذن أرجوك أن تقبلى اعتذارى ، إننى آسفة
وراحت نازك تطفىء السيجارة ، وقد لمعت على شفتيها ابتسامة ساخرة ، ولم تلبث أن وضعت ساقا على أخرى . وأوشكت الملكة من فرط غضبها أن تنقض عليها وأن تمسك بها من شعرها وتجرها إلى الخارج ، وتمثل فى خاطرها المهانات التى جرعتها إياها هذه المرأة ، وهى تسمع من الحاشية أنها باتت فى مخدع الملك ؛ وهى تصحبه فى رحلاته وجولاته الليلية . ويضاعف فى مرارة المهزلة ، أن هذه المرأة الساقطة متزوجة من أحد رجال الحاشية وأن ذلك كله يتم بعلم زوجها ورضاه وبركاته . أى مأخورة تلك التى أصبحت تعيش فيها ، أين ذهبت هذه الأحلام الذهبية التى ملأت حياتها ، وهى تحب فاروق وفاروق يبادلها حباً بحب؟ أين ذهب هذا الشاب الرقيق الأنيق الرشيق ، بل أين ذهب هذا الزوج الصالح والملك الورع ، ما بال ذلك كله قد انقلب رأسا على عقب ، الصلاح إلى فساد ، والرقة إلى فظاظة والملك الورع ، قد تحول إلى ملك داعر مستهتر .. بسبب هذه المرأة ..
هذه المرأة التى تجلس الآن أمامها متحدية ، فلماذا لا تمزقها بيديها ، لماذا لا تطأها بأقدامها وتطهر القصر والبلاد من هذا الدنس .. إنها تحس من نفسها القدرة على فعل ذلك ، إن نازك تبدو أمامها كحشرة توطأ بالأقدام فلتصفعها على الأقل .. ولكن لا .. إنها الملكة .. إنها بنت أصول ، ألا يقول لها أبوها وأمها دائماً إنها ليست إمرأة عادية .. فليكن .. فلتصبر حتى يأتى فاروق ويطردها من القصر نهائياً ... أجل لن ترضى بغير طردها ... وإلا ...

وكأن نازك أحست فى هـذه اللحظات بمـا يجول فى خاطر الملـكة ، واستشعرت خوفاً ، فأنزلت ساقها وغيرت لهجتها وقالت فى أدب واعتذار حقيقيين :

عفواً يا صاحبة الجلالة ، إننى آسفة ، فعلا ما كان لى أن أزعج جلالتك ولـكنها الأوامر .

— أى أوامر ؟

— أوامر مولاى صاحب الجلالة .

وانفجرت الملـكة وانقلب حديثها صياحاً :

— صاحب الجلالة الملك أمرك أن تقتحمى علىّ مخدعى الخاص وأن تتحدينى ، وتدخنين السجاير فى حضرتى ، وتضعين ساقاً على ساق . إذا كانت لديك الشجاعة فقولى ذلك أمامه .. إنه قادم .

وجاء فاروق يهرول وفى أعقابه مدير شئونه الخاص بوللى ، وكان يرتدى معطفاً منزلياً (روباً) من الصوف والحرير الأحمر الفاقع ، وكان لا يرتدى شيئاً من الملابس الداخلية تحت (الروب) وكان شعر صدره الغزير يبرز من خلال فتحة (الروب) العلوية ، كما لم يكن يرتدى شيئاً على رأسه وكان شعر رأسه منكوشاً . ولم يكـد يلج إلى الحجرة حتى أشار إلى بوللى بالانسحاب وأغلق الباب وراءه وهو متجهم الوجه ، ثم قال للملـكة :

— بونجور يا فريده ، ماذا هناك . . . يا فتاح يا عليم .

— اتفضل يا جلالة الملك انظر بعينيك واحكم .

ونظر الملك صوب نازك التى كانت قد وثبت واقفة بمجرد ظهور جلالة الملك :

— صباح الخير يا نازك ، ما الذى حدث ؟

— لا شىء يا صاحب الجلالة كل ما هنالك أن صاحبة الجلالة الملكة منحرفة المزاج هذا الصباح .

وصرخت الملكة بالفرنسية :

— أخرصى يا ساقطة ، ياعديمة الحياة ، كيف تجرؤين على أن تتحدثى عنى .

اسمع يا فاروق ، ليس عندى سوى كلمة واحدة ، هذه المرأة يجب أن تطرد من القصر فوراً ولا تطأ عتبته من جديد .

وتجهم فاروق وقال :

— أولا تقولين ماذا حدث ؟

— سأقول لك بعد أن تطردها ، أما الآن فلست مستعدة لسماع أى كلمة إلا الأمر بطردها فوراً . إما أن أكون الملكة أو تكون هى الملكة .

وارتمى فاروق على الفراش وراح يهرش فى شعر صدره وهو فى ذروة الانفعال .

— طالما طلبت منك أن تكفى عن هذه المبالغة فى العصبية ، إذا كنت أنت الملكة ، فأنا الملك ولابد لى من معرفة ما حدث أولا .

وصرخت الملكة فيما يشبه الهستريا :

— أتريد أن تحقق معى أمامها ، أمام هذه المرأة التى جعلت سمعتك وسمعة العرش مضغة فى الأفواه ؟

ووثب الملك واقفاً فى حنق وغضب :

— قلت لك ألف مرة إننى أحظر عليك أن تتحدثى عن سمعتى وسمعة العرش ، إننى أنا المسئول ، أنا لست طفلا تحت وصايتك ، أنا الملك .

— فليكن ما دامت سمعتك لا تهمك فهذا شأنك ، أما أنا فلن أسمح أبداً أن تهان كرامتى ، فضلا عن كرامة منصبى ، إن هذه المرأة الوقحة ، اقتحمت حجرتى بدون إذنى ، وسمحت لنفسها أن تجلس فى حضرتى ، وأن تدخن وعندما طلبت منها مغادرة الغرفة امتنعت عن تنفيذ أمرى .

وقهقه الملك فى ضحكة هستيرية :

— لابد أنه قد حدث سوء تفاهم ، فقد أعطيت لها أوامر بالأمس أن تضع نفسها فى خدمتك وأن تكون رهن إشارتك ، فلعلك ترين الآن أنها لم تأت من تلقاء نفسها .

— كل هذا لم يعد يهمنى ، إنها يجب أن تطرد من القصر فوراً .

— أتريدين منى أن أعاقبها لأنها نفذت أوامرى .

— أوامرك أن تهيننى وتتحدانى ؟

— ألا ترين أنك تبالغين وتجسمين الأمور يظهر أنك بالفعل منحرفة المزاج .

وهاجت الملكة :

— إسمع يا فاروق ، لقد احتملت حتى الآن الكثير ، مما لا تحتمله أية امرأة فى الدنيا ، بفكرة أننى الملكة ، وأن على أكتافى مسئولية نحو هذا العرش . . . وحاول فاروق أن يقاطعها ، ولكنها رفعت صوتها وأشارت إليه فى حزم أن يسكت :

— لاتقاطعنى واسمع ماسأقوله لك ، فقديكون ماتسمعه الآن هو آخر كلمات لى فى هذا القصر ، لطالما رجوتك أن لا تهدد عرشك وكيانك بأعمالك الطائشة الهوجاء ، فأبيت إلا أن تسرف فى عنادك وتمضى فى طغيانك ، ولكن المسألة اليوم لم تعد مسألة عرش أو ملكة . . . إنها مسألة كرامتى أنا كسيدة ، كزوجة ، ولن أسمح لنفسى أن أفرط فيها قيد شعرة ... إننى أقول لك للمرة الأخيرة ، إما أن تخرج هذه المرأة من هذا القصر إلى غير رجعة ، أو أخرج أنا .

— وصاح فاروق فى هياج وقد انقلب إلى ثور معربد :

— أنا لا يهددنى أحد ، أنت مجنونة إذ تخاطبيننى بهذا الأسلوب ، أنا الملك ، أنا السيد ، سيدك وسيدهذه البلاد ورثتها عن آبائى وأجدادى ، وأنا أقول لك إنها لن تخرج من القصر إلا عندما أريد أنا ، بل لن تخرج من هذه الحجرة إلا بإذنى أنا . وامتقع وجه فريدة ، وغامت الدنيا فى عينيها ، وكادت أن تقع مغشياً عليها ، وقد تصورت ذلك بالفعل ، ميرفت الوصيفة الثانية ، فأسرعت نحوها لتسندها ولكن فريدة أوقفتها بإشارة ، وبدا على وجهها أنها تبذل جهداً جباراً لكى لا تقع على الأرض ، بينما راح فاروق يهرش فى رأسه تارة ، وفى شعر صدره تارة أخرى ، ويرطن

بالفرنسية حيناً ، وبالتركية حيناً آخر ، ويدور حول نفسه ، وأخيراً التفت صوب فريدة وقال :

— لطالما حذرتك أن تتحدينى ، أن تهدديننى ، إننى الملك ، ورفع صوته فى صراخ كالمجنون ... إننىالملك أتسمعين ؟ انى الملك أفعل ما أشاء وإذا لم يعجبك هذا فباب القصر مفتوح ... إنه يتسع لخروج الجمل .

وأمسك بيد نازك وقال لها فى غضب :

— هيا بنا من هنا . . لندع هذه المجنونة وشأنها .

وخرج فاروق آخذاً بذراع نازك .

* * *

بعد ساعة من هـذا المشهد ، كانت إحدى سيارات القصر الملـكى تنطلق نحو شارع الهرم وقد استقلتها الملـكة فريدة ، وهى تـكاد تدمى شفتيها ، ومن حين لآخر تغمغم وتتمتم :

— سوف ترى ... سوف تندم ... لن أغفر لك أبداً ... لن أعود لك أبداً .



الفصل الثالث

— ١ —

وقف سعد رفيق جهاد فوزى ورئيس شعبة الحزب فى الإسكندرية ، صبيحة الرابع من مارس فى ميدان المحطة بالإسكندرية وهو يشعر بحزن وأسى لإخفاق الخطة التى رسموها لإحداث حدث فى هذا اليوم . لقد قررت شعبة الحزب أن تخرج على قرار الجبهة بالامتناع عن التظاهر فى هذا اليوم ، وأحس الأعضاء بغريزتهم أن رئيسهم فوزى السيد إذا كان قد وافق على هذا القرار ، فإنما وافق عليه مرغماً حتى لا يتهم بأنه يخرج على الإجماع ، وإلا فهم يعلمون حقيقة رئيسهم ، وطبيعة حركتهم وهى الكفاح الدائب فى شجاعة ، والتصدى لقوى الطغيان أبداً ، فى غير كلل أو ملل . وأقسم أعضاء الحزب بالليل أن يحولوا الاسكندرية هذا اليوم إلى أتون ملتهب بالغضب على الانجليز والاحتلال . ولكن ذلك العزم لم يكن إلا سراباً ووهما ، فهاهو ذا يقف فى الميدان الفسيح وليس حوله أحد من أصحابه إلا بضع نفر . وحدق سعد فى ساعة يده للمرة الألف ، فوجد عقربها ، الذى كان يخيل إليه من فرط تحديقه فيه أنه لا يتحرك ، يشير إلى السادسة صباحا . أيكون قد جاء مبكراً بعض الشىء ؟ ونظر إلى من حوله فوجدهم لا يزيدون عن عدد أصابع اليد الواحدة وكانوا أكثر منه إحساساً بخيبة الأمل والمرارة .

ومسح سعد من جديد الميدان الفسيح المترامى الأطراف بعينيه ، لقد كان ساكناً خالياً من كل حركة ، كانت المواصلات متوقفة طبقاً لقرار الجبهة ، وليس إلا بعض سيارات خاصة تمرق من حين لآخر ، مسرعة آناً ومتباطئة آناً آخر ، ثم لا تلبث أن تختفى ، ويعود الميدان إلى سكونه الرهيب ، وثمة أفراد قلائل من الشعب يظهرون عبر الميدان من حين لآخر فلا يكادون يظهرون حتى يختفون .

وقال سعد بعد أن نظر من جديد إلى ساعته :

— لقد تسرعنا ، ما كان لنا أن نخرج على الإجماع ، لقد فشل مشروع المظاهرة .

— لالم يفشل بعد ، الساعة لا تزال مبكرة ، إنى متأكد أن إخواننا لابد سيجيئون .

واقترح مقترح :

— لماذا لا نذهب إلى المنشية حيث الزحام والاكتظاظ ونبدأ المظاهرة من هناك ، إن الجمهور سيلتف حولنا . ويجب ألا نتراجع أبداً .

على أن ومضة فرح لم تلبث أن برقت فى عيونهم ، فى الوقت الذى خفقت فيه قلوبهم عندما رأوا شرذمة من إخوانهم يأتون عدواً من آخر الميدان ، وهم يحملون علم الحزب مطوياً ، ويحملون لافتات مطوية كذلك على أخشابها .

وفرك سعد يديه ، ودب النشاط فى أوصاله وسرى الدم فى جسده :

— الآن يمكن عمل مظاهرة بأى ثمن بعد أن أصبح لدينا علم ولافتة.

ونشر العلم الأخضر ذو الأهرامات الثلاثة الحمراء وسط الدائرة البيضاء رمزاً على خلود مصر وكفاحها ونقاء سريرة شعبها ، وهتفت الجماعة .

— الله أكبر . . . الله أكبر والمجد لمصر .

ورددت القلة المحتشدة الهتاف فى هذا الخلاء والفراغ وأوشك اليأس أن يستولى من جديد على سعد لضآلة عددهم ، لولا أن الأرض بدت كما لو كانت قد انشقت عن بضع عشرات آخرين راحوا يرددون الهتافات ، فأوجد سعد نفسه محوطاً بحلقة صغيرة من المتظاهرين ، ولكنهم يفيضون وبالعزم والإيمان صدر أمره لهم بالتقدم نحو الأمام .

ونشرت اللافتة وقد خط عليها بحروف حمراء .

— أيها الإنجليز أخرجوا من بلادنا .

— وارتفعت الهتافات :

— الجلاء . . . الجلاء

— الجلاء . . . بالدماء

— تحيا ذكرى الشهداء .

وتجاوبت فى هذه اللحظات دقات أجراس الكنائس بشجوها المرعد وانطلق المذياع مردداً آيات القرآن الكريم حداداً على الشهداء . وشد ذلك من عزم المتظاهرين ، فقد أكد لهم أن قلب مصر كلها يخفق معهم فى هذا اليوم — وتضاعف عددهم مرة أخرى عند ما توسطوا الميدان . .

فقد كانت الأفراد الآتية من مختلف الشوارع التى تصب فى الميدان تنضم إليهم .

ولم يظهر البوليس فى الأفق ، ولم يحاول أن يتعرض للمظاهرة الصغيرة فضلا عن أن يصطدم بها ، فقد كان أعضاء الدعوة المحمدية وأنصارها فى الإسكندرية ، قد أعطوا الحكومة عهداً وميثاقاً أنهم لن يتظاهروا ، وكذلك بقية الهيئات والحركات ، ولما كان البوليس يعلم أن عدد أعضاء الحزب الديموقراطى وأنصاره صغيراً لايصلح لعمل مظاهرات ذات قيمة فقد كان مطمئناً إلى أنه لن تكون مظاهرة ، ولو حاول الحزب لكان فشله ذريعاً ومهيناً ، ولذلك فقد قرر البوليس الذى كان يرقب الحالة عن كثب أن لايتعرض لهذه المظاهرة الهزيلة ، التى لن تلبث أن ينفرط عقدها ، إزاء ازورار الجماهير عنها . ولكن المظاهرة كانت تشتد فى كل دقيقة بل وفى كل ثانية بمن كانوا ينضمون إليها ، حتى إذا أوشكت على قطع الميدان الكبير والاقتراب من الشوارع المؤدية إلى وسط المدينة ، كان عدد المشتركين فيها قد أصبح يعد بالمئات . وأشعل ذلك حماسة المشتركين فيها .

ورأى البوليس المراقب ، أن يحيط رؤساءه علماً بهذا التطور غير المنظور ، ولم يكن لدى الرؤساء أمر بالضرب ، فقد كانت الحكومة تعمل على أن تبدو متعاطفة مع أمانى الشعب ورغباته ، ولذلك فقد كلف الرؤساء ممثل البوليس أن يتصل بسعد قائد المظاهرة ويتفاهم معه بالحسنى على فضها ، نزولا عند قرار الجبهة القومية ، ريثما يتصلون بالقاهرة ويتلقون منها التعليمات ، فإذا رفض سعد أن ينصاع للأوامر فيجب أن يقبض عليه .

وجاءت إحدى سيارات البوليس ، تحمل الضابط الذى كلف بتنفيذ

هذه المهمة وفى معيته جماعة من الجند يحملون العصى ، ويرتدون الخوذات الحديدية . على أن السيـارة لم تـكد تظهر فى الميدان ، حتى تضـاعفت حماسة الجماهير التى كانت بدأت تراقب المظاهرة عن بعد ، ولم يكد ضابط البوليس يترجل من السيارة ويتجه صوب سعد ، ومن ورائه العساكر بعصيهم حتى تقاطرت أفراد الجماهير من أرجاء الميدان وهى تعدو وتثب فى تحفز وغضب ... وتوقف الضابط على مبعدة ، بعـد أن أحس بغريزته أن ليس من الخير أن يزج بنفسه وسط هذا الحشد الذى يتفاقم ، ورأى أن يقف حيث بلغ به السير ، وأن يقف العساكر من خلفه صفاً وينتظر وصول المظاهرة إليه .

ولـكن هذه الحركة أهاجت المتظاهرين ، وإذ كان عددهم أضعاف عدد رجال البوليس الذين لايحملون سوى العصى فقد ارتفعت هتافاتهم فى تحد :

— الجلاء بالدماء ... الجلاء بالدماء

وصاح ضابط البوليس :

— أمنعك يا أستاذ سعد أن تتقدم خطوة واحدة .

إنك تعلم أن الاتفاق قد تم بين الحـكومة وممثلى الأحزاب على عدم التظاهر اليوم . إن رئيس حزبـكم فوزى السيد قد وقع على البيان المنشور فى الصحف والذى أذيع أكثر من مرة فى الإذاعة ، والأوامر عندى أن أتفاهم معك على فض المظاهرة ، فاذا لم يجد التفاهم فسأكون مضطراً للقبض عليك وفض المظاهرة بالقوة .

ولم يكن للمتظاهرين إلا رد واحد :

— ليسقط الخونة ، ليسقط أعداء الشعب ، الموت لمن يقف ضد إرادة الشعب .

واجتاحت المظاهرة صف العساكر ، ورأى الضابط من حسن السياسة أن لا يصدر أمراً بالضرب ، فقد كانت قوته ضعيفة ، فانسحب وجنوده إلى السيارة ، التى أسرعت بهم ليبلغ رؤساءه هذا التطور الجديد .

عندما أدركت المظاهرة نهاية الميدان الكبير ، وبدأت تنفذ فى مشارف شارع النبى دانيال ، بدأت الجموع التى كانت تبدو هزيلة فى الميدان الكبير ، تسد الشارع سداً ، فى الوقت الذى فتحت فيه النوافذ والشرفات ، وانطلق منها التصفيق والهتافات ، وإذ تجاوبت البيوت مع الشارع ، والجدران مع الأرض ، فقد تضاعف المشتركون فى المظاهرة عدة مرات . . . بعد أن بدأت الجموع تنساب من الشوارع والأزقة الجانبية للاشتراك فيها ، وخفقت عشرات الأعلام واللافتات من كل لون وطراز .

— تحيا ذكرى الشهداء . . .

— الجلاء بالدماء . . .

— أيها الإنجليز أخرجوا من بلادنا . . .

وسرت أنباء المظاهرة التى بدأت من (محطة مصر) فى طريقها نحو محطة الرمل ، فى سائر أرجاء الاسكندرية ، سريان النار فى الهشيم ، فاذا بمختلف طوائف الشعب تتجاوب معها ، شبان وعمال وطلبة وطالبات ، وتألفت مظاهرات متفرقة فى شتى أحياء الاسكندرية ، وراحت بدورها تزحف نحو قلب الاسكندرية . . . نحو محطة الرمل ، وميدان المنشية .

واتصل بوليس الاسكندرية من جديد بوزارة الداخلية محيطاً إياها

بهذا التطور الجديد ، وامتلأت وزارة الداخلية أو بالأحرى رئيس الحكومة بالحنق والغضب ، وأصدر أمره بالضرب فى المليان ، انتقاماً من هؤلاء الذين اجترأوا على مخالفة ماتم الاتفاق عليه بين الحكومة وجبهة الأحزاب . وحشد البوليس جموعه فى مدخل الشوارع المؤدية إلى ميدان محطة الرمل وقد استعد لا بالعصى الغليظة فحسب ، بل وبالرصاص ، والتصميم على ردع المتظاهرين الذين بدأوا يغمرون محطة الرمل بجموعهم من كل مكان ، ولكن البوليس كان معنياً بالانتقام من المظاهرة التى يقودها سعد ، باعتبار المشتركين فيها هم المسئولون عن مخالفة أوامر الحكومة .

ووصلت المظاهرة بعد أن أصبحت جبارة عملاقة وفى مقدمتها العلم الأخضر ذو الأهرامات الحمراء والدائرة البيضاء .

ولم يكن ثمة تحذير أو إنذار هذه المرة .. وإنما أمر بالضرب .

— اضرب يا عسكرى

— بم ... بم ... بم

وانطلقت ثلاث قذائف ، لا للتخويف أو الإرهاب ، ولكن للقتل وإزهاق الروح ، وسقط لاشين وآخران معه ، ثلاث من أعضاء الحزب كانوا يسيرون فى المقدمة .

ومرت لحظات صمت وذهول لهول المفاجأة ، وكأنما توقف الزمن وتوقفت الطبيعة ، إذ هبت ريح الموت على هذه الحشود ، ولكن هذا الذهول لم يستغرق سوى أقل من ومضة ، ارتفع صوت سعد على إثرها يأمر بحمل المصابين إلى المستشفى ، بينما ارتفعت أصوات أخرى تدعو للهجوم

على مصدر الموت ... على البوليس الذى صرع ثلاثة من الأبرياء ... وانقضت الجموع .

وكان ذلك آخر ما يتصوره ضباط البوليس ، ووجدوا أنفسهم فجأة وليس لديهم وقت للمناورة ، بل وليس لديهم فسحة لإعادة إطلاق النار الذى لم يكن يعنى فى هذه الحالة إلا مزيداً من القتلى ومزيداً من الهياج ، ثم يفقدون آخر أمل لهم فى الفرار .

لقد أخطأوا الحساب والتقدير ، لم يكن ثمة مكان لتتفرق فيه الحشود لو أنها أرادت الفرار ، إن المكان الوحيد الذى يمكن أن تفر إليه هو أن تهجم نحو الأمام . . . فمن خلفها كانت الألوف قد تحولت إلى كتلة بشرية غير قابلة للتفرق ، كتلة لا تعرف الخوف . . . ولا تهاب الموت لأنها أقوى منه ، وأقوى من الطبيعة كلها .

وانقضت الجموع لتفتك برجال البوليس القتلة ... ولكن هؤلاء كانوا قد تلاشوا من الوجود كبوليس ... لقد أفزعهم رد الفعل الذى تسببوا فيه . .فاختفوا كما لو كانت الأرض قد بلعتهم . الرؤساء قبل الجنود .

وزاد اختفاء البوليس المفاجىء الجماهير غضباً وحنقاً ، وراحوا يبحثون عن مصب لانتقامهم ، لإعمال غضبهم .

وصاح صائح :

— هذه عمارة الإنجليز .

— العلم الإنجليزى .

وارتقى أبو المجد أحد شباب الحزب ، الشرفة التى كان يرفرف عليها

العلم الإنجليزى ، وشرع فى إنزاله .

— بم

وسقط أبو المجد مضرجاً بدمائه ولكن بعد أن كان قد نجح فى إنزال العلم وتشبث به . وهاجت الجموع وتحولت إلى عاصفة أو إعصار ، وارتفع من جديد الصوت :

— إنهم الإنجليز . اقتلوهم .

— بـ بـ بـ بـ بم بـ بـ بـ بم .

كان ذلك صوت مدفع رشاش راح يحصد الجماهير المحتشدة أمام العمارة التى يسكن فيهـا الانجليز ، وسقط عشرات على الأرض ، وبدأ فى لحظة كما لو كان كل شىء قد انتهى وأن الجماهير فرت . ولـكن واحداً من أبناء الشعب خلع جلبابه وأشعل فيه النار ، ومرق كالسهم داخل العمارة غير عابىء بالرصاص الذى أطلق عليه وقذف بجلبابه المشتعل فى المصعد الـكهربائى ، وفى لحة بينما كان ابن الشعب المجهول يتشحط فى دمائه .. كانت النار تشتعل على طول مسار المصعد حيث الشحوم والزيوت .. وتحول المصعد نفسه إلى كتلة ملتهبة وكأن هـذا الأسلوب الذى اتبعه ابن الشعب المجهول ، إيذاناً باستخدام هـذا السلاح الرهيب .. فقد انهالت كرات ملتهبة على مبنى الإنجليز الذى تحول إلى ثكنة .. وأسرع الإنجليز ينجون بأنفسهم من الدار المحترقة حتى لا يشووا فيها شياً . وتوقفوا عن إطلاق النار ، واختفوا من الشرفات والنوافذ . وانتشت الجموع بهذا النصر .. وارتفع هتافها مدوياً :

— الموت للانجليز .. الحرق للانجليز

وصاح صائح :

— الكشك

وكان يشير بذلك إلى كشك خشبي وسط الميدان اتخذ منه الإنجليز نقطة لبوليسهم الحربي . وفزع الجنديان اللذان كانا يرابطان فيه ، فأطلقا سيقانهم للريح ، بينما راحا يطلقان النـــار جزافاً فيتهاوى الأبرياء تحت طلقاتهم . ولكن الجماهير أدركتهما وأحاطت بهما ومزقتهما إرباً .

وزأرت الجموع فى نشوة :

— الموت للانجليز .. الموت للانجليز

وفى هذه اللحظة ظهرت دبابات ، فسرت همهمة بين الجماهير :

— الجيش المصرى .. الجيش المصرى

وهتف هاتف :

— ليحيا الجيش مع الشعب

ورددت الجموع :

ليحيا الجيش مع الشعب

وابتسم قائد الرتل الذى كان يطل برأسه من قبة الدبابة ولوح بيديه للشعب الذى كان يصفق له ، محيياً ، وكان يتحدث فى بوق :

— إطمئنوا .. إطمئنوا لم نأت للاعتداء عليكم ، بل جئنا لحمايتكم .

ولكن حسبكم ما فعلتم .. لقد عبرتم عن مشاعركم .. لقد أظهرتم السخط .. والآن لا تحرجونا .. فتفرقوا آمنين .

وصفقت الجموع وكادت تجن من شدة الفرح ، فقد كانت هذه أول مرة فى التاريخ يسمعون مثل هذه الملاطفة من ضباط الجيش ، ولكن الجميع فوجئوا بالرصاص ينهال على العلم الأخضر ذى الاهرامات الثلاثة ، والذى كان كالمنارة وسط هذه الحشود ..

وجرى البعض .. وتفرق الكثيرون ، ولكن حملة العلم تملكهم شعور بالثبات والرغبة فى أن لا ينكس علمهم أبداً ، وأن يموتوا تحت ظله إذا لزم الأمر .

وصاح قائد الجيش ، الذى رأى ثلة من رجال البوليس المصرى تضرب الرصاص :

— أوقف الضرب يا عسكرى .. الجيش الآن هو المسئول عن النظام والأمن .. أوقف الضرب وإلا سأضرب عليكم .

وهرع أحد ضباط الجيش الذى كان يوماً عضواً فى الحزب عندما كان يسمى حزب البعث ، وهمس فى أذن حامل العلم :

— هذا يكفى يا جابر .. وأنت يا حباك ، لقد أنجاكم الله بمعجزة ، أسرعوا بطى العلم وانصرفوا من هنا ، قبل أن يقبض عليكم أحد .

* * *

وخيم السكون على ميدان محطة الرمل ، بعد أن خلت إلا من دبابات تقف صامتة ، وامتلأت أرض الميدان بمخلفات المعركة — أحجار وحصى

وزجاج مكسور وأغصان شجر وطوب ، وخرق وأخشاب محروقة ورماد ومياه .. ودم بشرى .. دم المصريين والإنجليز ، وقد اختلطا وامتزجا ، الظالم والمظلوم ، القاتل والمقتول .. المعتدى والمعتدى عليه .

— ٢ —

ثارت وفاء لأول مرة ثورة عارمة فى وجه البكباشى إبراهيم علام الذى جاء يقبض على زوجها ، وعبثاً حاول فوزى أن يهدىء من ثورتها ، وأن يفهمها أن علام لا جريرة له ، وإنما ينفذ الأوامر التى صدرت له ، وأبت وفاء أن تسمع لرأى زوجها ومضت تقول :

— بل أنا متأكدة أنه هو الذى أشار بالقبض عليك .

ورد علام فى أدب :

— أقسم لك (يا مدام) أن الأمر كما يقول الأستاذ فوزى ، إنها أوامر من رئيس الحكومة مباشرة .

واندفعت وفاء فى ثورة غضبها :

— وهل جن رئيس الحكومة ؟ ألا يعلم أن فوزى يكره العنف ؟ أولم يوقع على بيان الجبهة بل كان هو الذى أعد مسودته ؟ أولم يمر اليوم فى القاهرة بسلام ؟ إنكم تعرفون فوزى ، إنه لا يعمل فى الظلام .

ولم يزد انصراف فوزى مع الضابط إلى السجن ، وفاء إلا ثورة وانفعالا .

وأسرعت إلى التليفون تتصل بسكرتير رئيس الحكومة تطلب منه موعداً لمقابلة رئيس الحكومة ، إنها لا يمكن أن تسكت على هذا الظلم

أبداً . . لم تكن هذه أول مرة يعتقل فيها فوزى ، ولكن أن يقع حادث فى الاسكندرية ، ليعتقل هو فى القاهرة ، كان ذلك فوق احتمالها ، ولذلك فقد قررت أن تقابل رئيس الحكومة لتحتج ، لتشرح له موقف زوجها، واستمهلها السكرتير لحظة ، فوجئت بعدها بصوت غير صوته يقول لها :

— نهارك سعيد يا هانم — أنا اسماعيل صدقى رئيس الحكومة ، أفندم ماذا تريدين ؟

وارتج على وفاء فلم تكن أعدت نفسها لهذه المفاجأة فقالت فى تلعثم :

— أرجو يا أفندم أن تأذنوا لى فى مقابلة دولتكم .

— لأى غرض من فضلك ؟

— لقد قيل لى إنكم أصدرتم أمراً بالقبض على زوجى الأستاذ فوزى السيد ، مع أن زوجى قد فعل كل مافى طاقته ليمر اليوم بسلام فى القاهرة .

— إسمعى يا هانم ، أنا آسف لاضطرارى لمخاطبة سيدة بهذه اللهجة ، ولكن زوجك لم يدع لى حيلة ، لقد ظللت حتى آخر وقت أحسن الظن به، لقد استقبلته فى مكتبى مع أعضاء الجبهة ، وأمرت الصحف والإذاعة أن تنشر وتذيع البيان الذى كان يحمل اسمه ولكن الحوادث أثبتت لى أننى كنت مخطئاً وأنه إنسان لا خلاق له ولا ضمير ، إنه (ديماجوج) .

— أنا لا أسمح لك أن تتحدث عن زوجى بهذا الأسلوب .

— وأنا أقول لك ، إن زوجك مجرم ، وأنا سأخرب بيته .

واسودت الدنيا فى عينى وفاء ولم تعرف ماذا تقول أو تفعل إلاأن تغلق

السماعة فى عنف بينما راحت تنتفض فى عصبية ، وهى توشك أن تختنق من فرط القهر والغيظ . ودخلت عليها فى هذه اللحظة بنتاها جهاد وثبات وهما تصيحان :

ـــ ماما . . ماما بابا ركب فى الأتومبيل مع العسكرى ، إلى أين يذهبون به . . لماذا لم يأخذنا معه ؟

وانفجرت وفاء فى عاصفة من البكاء واحتضنت طفلها بين ذراعيها وراحت تبلل وجهيهما بدموعها وهى تقول :

— أبوكم بخير وسلامة . . إنه مسافر وسيعود . . سيعود لنا كما عاد دائماً . . رافع الرأس موفور الكرامة .

* * *

وعاد فوزى كما تنبأت زوجته فقد أفرج عنه القضاء كما هو الشأن دائماً ، وجلس فى البيت الأخضر يتلقى تهانى المهنئين من أعضاء الحزب وأنصاره . وجاءت الدكتورة فاطمة فيمن جاء لتهنئته ، وما أكثر ما هنأته فاطمة من كل قلبها فى أمثال هذه المناسبات ، ولكنه هذه المرة تأثر بتهنئتها وهى تشد على يديه ، كما لو كان يراها لأول مرة ، كما لو كانت بعثت من جديد وانشق عنها الظلام .

لقد أحس بالذهول لمجرد وقوع بصره عليها ، وعندما مدت يدها إليه لتصافحه أحس بوخزة ألم فى ضميره ، فقد أحس كم أخطأ فى حقها ، كيف أساء إلى إخلاصها وأخوتها وحنوها ، ذلك أنه كان قد نسيها تماماً فى خلال هذه الفترة السابقة ، لقد استغرق بكليته فى المرافعات والمدافعات

والمعارضات ، ولم يكن هناك إلا إنسان واحد هو الذى يحتل نفسه خلال هذه المعركة ، وذلك الإنسان هو وفاء زوجته . ولم يكن ذلك أمراً جديداً عليه ، فقد كان هذا دأبه كلما سجن أواعتقل، حيث تتوزع عواطفه بين أداء رسالته ، وحدبه على زوجته التى يتجه إليها كلما سجن بكل ذرة فى كيانه وكل خفقة فى إحساسه . وفاطمة . . أين فاطمة ، إنه لم يذكرها إلا الآن . . الآن فقط ، وهو يرى وجهها الذى يفيض بالبشر والإخلاص والمحبة . . لشد ما ظلمها ، لشد ما يقسو عليها . ولكن فاطمة كانت تبدو غير شاعرة بشىء من هذا الذى يعتمل فى نفسه ، فقد كانت تفيض بالمرح وهى تقول له : أكان يجب أن تسجن وأن تحاسب على ما حـدث فى الإسكندرية ، ليعلم من لم يكن يعلم . . أننا أصبحنا نحن الذين نسير الحوادث؟

واحمر وجه فوزى خجلا ، بينما صاح متولى سكرتير لجنة باب الشعرية :

— لقد قررت الدكتورة فاطمة أن تفتح عيادة فى باب الشعرية لخدمة الفقراء .

وتهلل فوزى بشراً لسماع الخبر ، ونسى ما كان فيه :

— أحقاً ما يقول يا فاطمة ؟

— طبعاً ، ولقد استأجرت المكان بالفعل وأعددته ، ولـكن لم أشأ أن أفتتح العيادة رسمياً إلا بعد أن يفرج عنك لتأتى لمباركتها .

وهتف فوزى :

— رائع ! وهكذا ستظلين أبداً فى طليعة المجاهدين جداً وإخلاصاً وابتكاراً .

وانتهز أعضاء شعبة باب الشعرية هذه الفرصة لكى يلحفوا على فوزى أن يعجل بزيارتهم وافتتاح العيادة .

فوعدهم فوزى أن يتم ذلك قريباً .

وضغطت فاطمة على يد فوزى وهى تسلم عليه مستأذنة فى الانصراف وسألته فى رقة :

— ومتى ستأتى لترى العيادة قبل افتتاحها ، لتزودنى ببعض المقترحات .

وتلفت فوزى حوله ، فوجد الجميع منشغلين عنه فقال لها هامساً فى لهفة :

— الليلة إذا شئت .

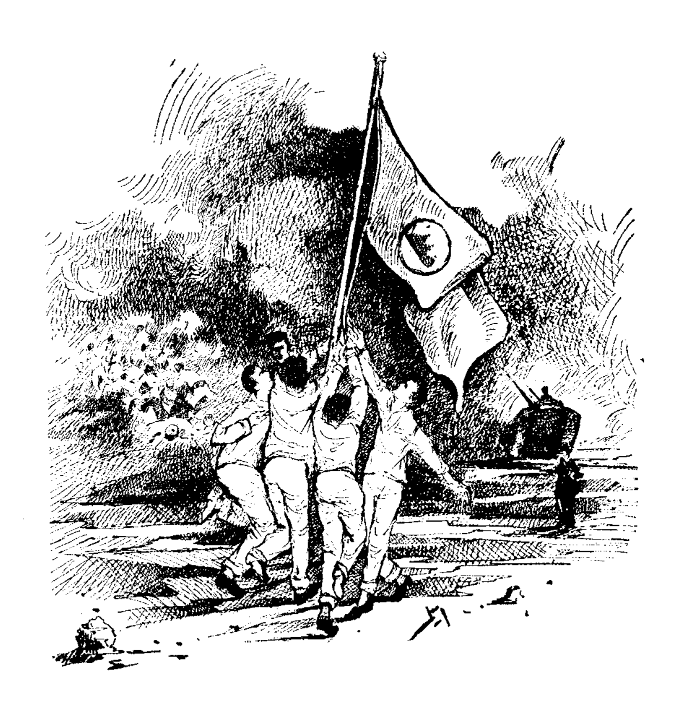
وتبادلا نظرات خاطفة ، وردت فاطمة هامسة بدورها :

إن على أن أعود مريضاً فى شارع محمد على ، ويجب أن أذهب الآن . ولكنك لو مررت على مسجد قيسون فى الساعة العاشرة ، لوجدتنى فى انتظارك لأذهب معك .

ونظر فوزى فى ساعته ، ثم قال فى صوت أشد خفوتاً ، وإن كان مضطرباً :

— وهو كذلك ، سأمر عليك .

كان فوزى يسائل نفسه وهو يذهب لمقابلة فاطمة فى الموعد الذى ضربته له : أيكون قد جن ؟ ما هذا الطيش والاندفاع ، أفى مثل هذه الظروف ، وفى هذه الساعة المتأخرة من الليل يذهب مع فاطمة لرؤية



عيادتها ؟ لماذا لا تتأخر هذه الزيارة حتى الصباح . . . أو لم يجاهد نفسه أكثر من مرة فى هذه الآونة الأخيرة أن ينأى بنفسه عن طريق فاطمة ، أو لم يكن قد نسى كل شىء عنها تحت تأثير الحوادث المتلاحقة ، حتى لقد فوجىء برؤيتها الليلة كما لو كانت تبعث بعد موت ؟ فما الذى جعل ذلك كله ينهار فى لحظة وينقلب إلى الضد، بحيث يتصرف بهذه الحماقة والاندفاع غير الـكريم . ويبطىء فى سير السيارة بحركة لاشعورية إنه لا يليق به أن يذهب إلى هذا الموعد ، سوف تقدر فاطمة أنه ما كان يليق بهما أن يتواعدا على هذا الشكل . ويهم فوزى بتغيير اتجاه السيارة ، ولـكنه يخيب فى محاولته إذ تخذله قواه ويهجس فى نفسه هاجس فى حنان وعطف :

— ولـكن ما ذنب فاطمة المسكينة ، أيتركها تنتظر فى الشارع ؟ سوف تنتظره حتى لو اقتضى الأمر أن تقف ساعة أوساعتين ، إنه يعرف فاطمة جيداً ، أهذا جزاؤها أن يعاملها بهذا الأسلوب ؟ أليس الأفضل من ذلك أن يذهب كما وعدها ، ويعتذر لها عن الذهاب إلى العيادة فى هذه الساعة المتأخرة من الليل ، ثم يوصلها إلى منزلها بدلا من ذلك . واطمأن لهذا الرأى ... وعاد يطلق للسيارة العنان .

* * *

قفزت فاطمة إلى جواره فى أقل من لمح البصر بمجرد أن توقفت السيارة أمامها ، بينما أسرع فوزى يعدو بالسيارة كما لو كان يهرب من شىء يلاحقه .

وران على الإثنين ، سـكون عميق ، ولم يسمع فيه غير أنفاسهما .

وكانت فاطمة أول من تكلمت وقد لاحظت الطريق الذى تسير فيه

السيارة . إذ اتجهت غربا قاصدة النيل :

— ماذا ؟ أنت لا تسير فى الطريق المؤدى إلى باب الشعرية ، ألديك ما يجب عمله أولا ؟

— الحق يا فاطمة أنه لا يصح لى أن أذهب معك الآن إلى العيادة .

— لماذا ؟

ووجد فوزى نفسه فى دوامة ، وإعصار يعصف بكيانه ووجد نفسه يقول فى اندفاع وغير تحرز وكأنه لا يعى معنى لما يقول :

— إننى أحبك يا فاطمة .

وسيطر عليهما سكون متوتر ، وبدأ فوزى يحس بهول ما قال ومافعل وخيل إليه فى لحظات . . أنه نائم يحلم ، وأنه يعانى كابوساً مخيفاً . . وتصبب العرق من جبينه ، وتلاحقت ضربات قلبه .

وكانت أنفاس فاطمة المضطربة المتلاحقة ، تكشف له عن مدى ما تعانيه هى الأخرى من رد فعل عنيف .

ولم يستطع فوزى أن يمضى فى قيادة السيارة ، فأوقفها فى ظل شجرة على شاطىء النيل ، حيث كان الظلام سائداً ، والمرور نادراً .

لم يحاول فوزى أن ينظر فى اتجاه فاطمة ، وظل يحدق أمامه فى الظلام ، عائشاً فى الدوامة التى ألقى نفسه فيها .

ومضت لحظات وخيل لفوزى أنها دهور .. ولم يستطع فى النهاية إلا أن يتكلم بدون أن ينظر إلى فاطمة :

— لماذا لا تقولين شيئاً .

وازداد تلاحق أنفاس فاطمة ، ولكنها لم ترد بشيء .

واضطر فوزى أن يلتفت صوبها ، وأن يمسك بيدها . ويهزها فى ارتباك ولهفة وخوف :

— فاطمة .. فاطمة ؟ ماذا بك ؟

وانهارت فاطمة تحت وقع هذه الكلمات.وغطت وجهها وانخرطت فى البكاء .

وارتبك فوزى ونظر حوله فى اضطراب وقلق ، خوفاً من أن يراهما أحد فى هذه الحال ، أو يسمعها رجل البوليس الذى رأياه فى أول الشارع. وحار ماذا يفعل أو كيف يتصرف ، وفكر أن ينطلق بالسيارة من جديد ، ولكن قواه كانت مشلولة ونفسه تحتدم بالانفعال من تأثير الموقف . على أن بكاء فاطمة الذى لم يكف ، بدأ يمزق قلبه ولم يعد فى نفسه إلا الشعور بأنه آلمها :

— أرجوك يا فاطمة ، إننى آسف سامحينى . . لقد كنت مجنوناً . . يظهر أن السجن المتوالى والإرهاق قد أثرا على أعصابى . لا أعرف كيف خرجت هذه العبارة من فمى . أقسم لك أننى لم أكن أقصدها . لابد أننى كنت أهذى. إنسى هذه العبارة لن تسمعيها منى ثانية ، أعاهدك على ذلك بل لن ترى وجهى بعد اليوم إذا شئت . ولكن هذا الكلام لم يكن له من أثر على فاطمة إلا أنه زاد فى نحيبها فأصبح لنشيجها صوت مسموع .

واستبد الفزع فجأة بفوزى ، أيكون انهيارها العصبى قد عاودها ؟ وهتف بها فى رعب :

— أأحملك إلى المستشفى ؟

وأعادت هذه الكلمة إلى فاطمة وعيها ، فقد توقفت عن النشيج فجأة وإن ظلت دموعها تتدفق من عينيها بغزارة ، ولم تلبس أن ألقت برأسها على صدره وشهقت من جديد بالبكاء ، بأعنف مما فعلت من قبل ، ولكن هذه الحركة جعلت فوزى يكاد يطير من الفرح ،ولم يعد يعبأ بشىء أو يخاف شيئاً ، لقد أزاحت عنه الاختناق الذى كان يعانيه ، وملأته بالنشوة ، ووجد نفسه يضم رأسها إلى صدره ، ويلثم شعرها ، ويربت على ظهرها فى حنان ووله .

وبدأ يحس باستكانة فاطمة على صدره ، وأنها قد ألقت بكل كيانها إليه ، ولولا عجلة القيادة التى كانت تفرق بينهما بعض الشىء ، لأخذها بين ذراعيه ولضمها فى عناق حار أفرغ فيه كل ما فى نفسه من عاطفة وحب وهيام .

ولكن فوزى لم يلبث أن تنبه إلى نفسه ، وحمد الله على وجود عجلة القيادة لتحول بينه وبين الاستجابة لما دار فى نفسه ، لقد كان يحس أنه هدم فى لحظة سدوداً وقيوداً وأطلق السبيل للفيضان ، ووجد نفسه تائهاً حائراً مضطرباً مرتبكا ، ولم يلبث أن خاطب فاطمة من جديد فى غير وعى :

— أو لم أسىء إليك بهذه المكاشفة . . . ؟ !!

— قل أسعدتنى وأعدت لى ثقتى بحياتى .

— ولكن . . . .

— لقد ظللت خمسة عشر عاما أتوق لسماع هذه الكلمة !

خمسة عشر عاماً ، أتسمعنى . . خمسة عشر عاما ، يوما بعد يوم ، وساعة بعد أخرى .

— وخالد ؟ ! .

— لم أحبه وأفنى فى حبه ، إلا لأنى أحببتك فيه . لقد فنى فيك حتى صار قطعة من نفسك .

ولم يتمالك فوزى نفسه من أن يمسك برأس فاطمة ويهوى على شفتيها بشفتيه الملتهبتين ، وكأن هذه الحركة قد أشعلت فى جسده ناراً ، وعلى الرغم من الظلام الذى كان يحيط بهما ، فقد كانت عيناها تتوهجان نوراً وناراً .

وتوقف فوزى فجأة ، وقال فى شىء من الخشونة والاضطراب والارتباك ولكن فى لهجة عزم قاطعة :

— لا يمكن . . لا يمكن . لا يجوز لى ، سأقودك إلى أقرب مكان تستقلين منه سيارة . ولم ينتظر منها ردا ، بل أسرع يحرك السيارة وينطلق بها فى فزع وخوف .

— ٤ —

مضت أسابيع لم يلق فيها فوزى فاطمة ، ومع ذلك فإن وقائع هذا المشهد الذى جرى بينه وبين فاطمة لم تبرح ذاكرته أو قلبه ولو للحظة واحدة . لم تستطع الحوادث ومظاهر النشاط التى انخرط فيها ، عشرات الخطب التى ألقاها بمناسبة مقدم وفد السودان إلى مصر ، عشرات الاجتماعات التى حضرها ، وفاء زوجته ، أولاده ، كل ذلك لم يستطع أن يحجب عن أذنيه

دوى هذه الـكلمات الرائعة « لقد أحببتك فى خالد » لقد أحببتك دائماً — طوال خمسة عشر عاماً يوما يوما وساعة ساعة .

وظلت تتردد فى سمعه كلما خلا بنفسه ، وبعد أن كان قد عقد العزم أن لا يرى فاطمة نهائياً إذا بحنينه إلى رؤياها يتضاعف يوماً بعد يوم وساعة بعد أخرى . وكاد يطير من الفرح عندما دعى ليخطب فى اجتماع أقامته لجنة باب الشعرية . . فلا بد أن سيرى فاطمة أخيراً فقد كان يعلم أنه منذ هذه الليلة وهى منـكبة على عملها فى العيادة .

وذهب فوزى إلى الاجتماع وراح يهدر من فوق منصة الخطابة وسط الجماهير منددا بالمفاوضات التى طالت واستطالت ، ويكشف القناع عن مناورات الحـكومة وتعاونها مع الإنجليز لتخدير أعصاب الشعب :

— إن الإنجليز تحاول أن تخدر أعصابنا من جديد بهذا الوعد الذى أطلقته عن استعدادها للجلاء عن مصر براً وبحراً وجواً فى خلال عام واحد ، ولـكن لتعلم انجلترا أننا قد سئمنا الوعود ، وفقدنا كل ثقة بهذه الوعود . . إن تاريخ الاحتلال البريطانى لمصر هو سلسلة وعود لم تنفذ ، ولذلك فلسنا نريد وعداً جديداً بالجلاء ، وإنما نريد جلاء ناجزاً بالفعل ، نريد أن يبدأ الإنجليز بسحب جيوشهم من المدن حالا ، على أن يمضى الجلاء بعد ذلك فى غير توقف ، وإلا فلتقطع الحـكومة المفاوضات ولتلجأ إلى هيئة الأمم ومجلس الأمن . إن الشعب قد سئم المفاوضات ويريد أن يتجه صوب هذه القوة الجديدة قوة هيئة الأمم التى أصبحنا أعضاء فيها والتى يحظر قانونها أن تحتل دولة عضو أرض عضو آخر .

وصفق الحاضرون لفوزى كأحر ما يكون التصفيق ، على أن التصفيق لم يكد يهدأ حتى اشتد وقوى من جديد ، كما لم يكنه فى أى لحظة مضت . وحار فوزى فى تعليل ذلك ، وأحس بشىء من الارتباك ، خاصة وقد لاحظ من فوق المنصة هرجاً ومرجاً عند مدخل الاجتماع . .

ولم تلبث عيناه أن وقعتا وسط الزحام على فاطمة والجميع يفسحون لها طريقها لتصل إلى المنصة وأدرك فى لمحة سر التصفيق ، وغمرته السعادة أن يكون ذلك مدى ما بلغته فاطمة من نفوس الجماهير .

وارتفعت هتافات بحياة الدكتورة نصيرة البؤساء والضعفاء ، وكادت فاطمة تذوب من فرط الحياء والخجل ، وخاصة عندما وصلت إلى المنصة ومد لها فوزى يده ليساعدها على الصعود إليها وعندما استأنف خطابه استهله قائلا :

صدقونى إذا قلت لكم إن هذه اللحظة من أسعد لحظات حياتى، وأنا أسمعكم تحيون الدكتورة فاطمة هذه التحية الصادقة. إن إيمانى لم ينقطع لحظة بعظمة هذا الشعب وحساسيته وتقديره للعاملين . إن الدكتورة فاطمة رمز على كل ما تنطوى عليه حركتنا من إخلاص وتفان ومثالية فى خدمة الجماهير .

* * *

سحب متولى سكرتير الحفل الدكتورة فاطمة من يدها وقادها إلى سيارة فوزى بعد انتهاء الحفل وزيارة فوزى للعيادة وقال له :

— أرجوك يا أستاذ فوزى ، إرحمها من نفسها ، امنحها الليلة أجازة إنها تفنى نفسها بالعمل طول الليل فى عيادة المرضى .

وسار فوزى بسيارته وسط التصفيق والتهليل ، حاملا معه هذا الكنز الثمين ، شاكراً من أعماق قلبه ووجدانه لمتولى هذه اللفتة غير المقصودة . على أن الهواجس سرعانما انتابته ، ومن أين جاءه العلم أنها غير مقصودة لماذا لا تكون مقصودة .. ؟

ولكن فوزى لم يكن مستعداً فى هذه اللحظة إلا أن ينعم بهذا اللقاء .. هذا اللقاء الذى كان يتوق إليه منذ أسابيع والذى لم يجد إليه سبيلا .

وقال فوزى هامساً :

— إلى أين نذهب ؟

— إلى حيث تريد .

— يجب أن نتكلم .

— طويلا .. طويلا .

— هل فى البيت أحد ؟

— عادت والدتى من عند أختى .

— أنذهب إلى شاطئ النيل حيث كنا ؟

— ما أجمل ذلك ؟

— ولكنا قريبون من مصر الجديدة ، فلنذهب إليها .

وانطلق فوزى بالسيارة صوب مصر الجديدة ، ولم يكد يصل فيها إلى طريق هادىء لا أثر للمرور فيه ، حتى أوقف السيارة . وبغير مقدمات أو تمهيد ، أمسك برأس فاطمة وراح يقبلها فى عنف ولهفة ، كما لو كان بركاناً يتفجر . واستسلمت فاطمة لقبلاته ، من غير أن تبادله إياها ، ويكتشف ذلك فوزى فجأة ، فيحمله هذا الاكتشاف على التوقف ، والشعور بالخجل واحتقار النفس ، ولا يلبث هذا الاحساس أن يتضاعف فى نفسه ، عندما يلقى نظرة إلى المكان الموحش الذى كان يقف فيه . ويسرع إلى مفتاح السيارة وعجلة القيادة ، وينطلق بالسيارة ، ثم لايبطىء السير إلا بعد أن يصل إلى شارع المأمون ، حيث الأنوار . . . والحركة .

ويقول لفاطمة فى ذل وأسى :

— أنا آسف يا فاطمة . . . آسف على إحضارى لك إلى هذا المكان ، على تقبيلى لك بهذا الأسلوب . إننى خجل من نفسى .

— ولكن لماذا ، وذلك كله طبيعى .

— تقولين طبيعى ؟

— أولسنا بشراً ؟

— أجل ولكن بأى حق ؟

— بحق حبى لك .

— لا . . . لا يا فاطمة ، أنا فى حاجة إلى عونك لانتشالى من هذا الذى انحدرت إليه . .

يجب أن تزجريني وتعنفيني ، يجب أن توقفيني عند حدى .

— ولكني أحبك .

— كنت ستتزوجين خالد .

— يأساً من حبك .

— ولكني لن أستطيع أن أتزوجك .

— كل الذى أعرفه اننى أحبك .

وران عليهما صمت عميق لم يكن يقطعه إلا وجيب قلبيهما وتلاحق أنفاسهما . وأمسكت فاطمة براحة فوزى ورفعتها فى هدوء إلى شفتيها ثم قبلتها فى هدوء ، وألصقتها بخدها وراحت تتمسح فيها ، بينما شرعت تتكلم دون أن تنظر إليه . . . ، وراح فوزى يقود السيارة بيده الثانية وكأن حديثها صوت ملائكى يناجيه :

— لقد وجدتنى منجذبة إليك منذ اللحظة الأولى التى سمعتك فيها تتناظر والأستاذ محي فى جمعية الشبان المسلمين حول الحضارة الشرقية والغربية وبأيهما نستظل ، أتذكر[1] ؟

— أذكر طبعاً ، لقد كنت لا أزال طالباً فى الجامعة .

— وأنا كنت فى المدرسة السنية . كان ذلك منذ خمس عشرة سنة ، لقد تظاهرت فى هذه الليلة بأننى من أنصار محي وكان ذلك مقاومة للشعور الذى طغى على من التعلق بك . إننى ما زلت أذكر كل حركة وسكنة وكلمة حدثت فى هذه الليلة ، عندما قال لك محي إننى أؤيد رأيه ، فقلت له

(١) أنظر الحلقة الأولى « أزهار »

وأنت تبتسم : ومعنى ذلك أن انتصارك يكون ساحقاً ، فليس يعنينا فى كل ماتقول أو تفعل إلا أثره فى الجنس اللطيف ، أتذكر ؟

وامتلأ قلب فوزى بالنشوة والسعادة ، وخفف ما استطاع من سير السيارة ، ثم استدار لها وقال :

— أذكر المناظرة طبعاً ، وأذكر أنى فزت ليلتها على محيى .. ولكنى لا أذكر هذه العبارة بالذات .

— أما أنا فما زلت أذكرها ، كما لو كنت قد نطقت بها الآن ، أذكر قسمات وجهك وأنت تتلفظ بها . ومنذ هذه اللحظة وأنت تتراءى لى فى أحلامى فى المنام واليقظة ، ورحت أتتبع نشاطك ، كل ما تكتب فى الصحف والمجلات ، لم تفتنى محاضرة أو مناظرة ، كنت طرفاً فيها ، أو أتصور أنك ستشهدها ... أتذكر محاضرتك عن باريس فى الجمعية الجغرافية الملكية ، والصور التى عرضتها ليلتئذ بالفانوس السحرى ... لقد كنت هناك ..

وأحسست بالحسرة واللوعة أن لم أكن معك فى باريس ، أشهد هذه المناظر إلى جوارك .

وعندما دعوت إلى مشروع القرش ، كنت أول متطوعة أتذكر ؟

— طبعاً أذكر ذلك بكل وضوح ، وأذكر تفوقك وامتيازك ، لقد بدأت منذ ذلك الوقت تستأثرين باعجابى وتقديرى وحبى .

— ولكن سرعان ما اكتشفت ، خطبتك لآمال وتعلقك بها ، وأنه لا فرصة لى فى جذب قلبك إلى . وكان زميلك فكرى فى هذه الفترة أكثر الناس شبهاً بك وقربهم من نفسك ، فشغل خاطرى بعض الوقت على سبيل

العزاء والسلوى . . ولكن فكرى التحق بالسلك السياسى وسافر إلى اليابان كما تعرف .

وبينما كنت أتصور أنك لا تزال خاطباً لآمال منتوياً زواجها ، إذا بك تفاجئنا أو بالأحرى تفاجئنى أنا قبل أى إنسان آخر بزواجك من وفاء ، فامتلأت نفسى باليأس من ناحيتك وأيقنت أننى بعيدة كل البعد عن فكرك وخاطرك ، ولا أكتمك أن ذلك ملأنى بشىء من الحنق عليك والسخط ، وفكرت فى أن أبتعد عنك نهائياً ، ولكن ذلك كان فوق طاقتى ، لقد أصبحت صلتى بك هى محور حياتى ، ولكن كبريائى المجروحة ظلت تحاول أن تصرفنى عنك ، حتى إذا ظهر الدكتور خالد فى سماء حركتنا بعد عودته من لندن ، وتألق كأروع ما يكون المجاهد الفدائى المثالى ، وسمعتك تقول عنه ، إنه أحسن منك ، وأنه أطهر منك ، وأعلنت على رءووس الأشهاد رغبتك فى التخلى عن رئاسة الحركة له ، ثم كانت غضبة خالد على هذا الاقتراح ، فقد استولى على قلبى فى هذه اللحظة بمقدار ما تبينت حبه لك . كنت أتخيل أنه لا يوجد فى الدنيا من يستطيع أن يحبك كما أحب . فاذا بخالد يفوقنى فى ذلك ، واتجهت بكل عاطفتى إليه . إننى أستطيع أن أتابع حبى لك إذ أحبه ، أستطيع أن أبقى قريبة إلى قلبك إذ أحبه ، أستطيع أن أرغمك على الاعتراف بى كزوجة لصاحبك وحبيبك . وسرعان ما أحسست أنت بعاطفتى الجديدة نحو خالد قبل أن يحس بها هو ، وأصبحت ألمس اهتمامك بى وقد تضاعف ، فزاد ذلك فى اندفاعى نحو خالد بكل إحساسى وجوارحى مادام ذلك يدخلنى فى دائرة اهتمامك العاطفى ، وبدأ الذى تعرف من تفانى فى حب خالد ، وكان كل الذى أطمع فيه . . . أن تعرف . . . أن تعرف فى خاتمة المطاف . . أننى أحببتك دائماً فى خالد .

وتنهدت فاطمة ، وزفرت زفرة حارة :

— أما الآن وقد عرفت ، فلست أطمع من الدنيا فيما هو أكثر . . ليأت الموت إذا شاء لقد أصبحت مستعدة للقائه ، أحس أن رسالتي في الحياة قد انتهت .

وأوقف فوزى السيارة ، وقد فاضت شجونه وتحدرت دموعه . . . وأمسك بيد فاطمة يمسح بها دموعه ويهدىء من لوعة نفسه :

— ولكن لماذا ؟ لماذا يا فاطمة لم تتكلمى . . لماذا كل هذا الصمت والاستخفاء ، لماذا لم تحـــاولى أى محـاولة أن تكشفى لى عن هـذه العاطفة .

— ماذا كنت تريـدنى أن أفعـل أو أن أقول ، أنسيت أننى أخت أزهار ؟

— أى شىء فى ذلك ؟

— إنها عقدة حياتى . إن أزهار كانت مصدر فخارى و عجابى ، ولكنها كانت مصدر شقائى كذلك . لقد كنت أعرف ماذا تبذل من ذات نفسها لتعلمنى أنا وأخى حسن ، وكنت أعرف من أين يجىء طعامنا ، كيف ندفع مصاريف مدارسنا ، بأى ثمن باهظ تشترى لى أزهار الكتب والملابس لأذهب لمدرسة السنية . وبعدها فى كلية الطب ، فآليت على نفسى أن أجعل حياتى تكفيراً عن خطيئة أختى ، أردت أن تكون طهارتى بحيث تكفينا نحن الإثنين ، وأن تكون مثاليتى ، بحيث تعادل سقوطها ، وهذا هو تفسير حياتى كله . . هذا هو سبب تعلقى بك ، وقد رأيتك تدعو وتعمل

للمثل العليا ، هذا هو تفسير ما كنت تصفه دائما بفدائيتي ، وتفاني . فماذا كنت تريد أن أفعل لألفت نظرك إلى ، لأحملك على حبي . . أفكنت تريدني أن أذكرك بأني أخت الراقصة . . . أخت أزهار

— أسكتي . . يافاطمة . . . لا تشوهي هذا الحديث السماوي بأفكار لم تطرأ لي على بال .. لم يحدث ان كان لحياة أزهار أي أثر في احترامي لك ، لقد ماتت أزهار قديسة ؟

— أشكرك .

— المسألة الآن أنني أصبحت في مأزق .

— أرأيت ، لقد كان هذا هو ما أخشاه ، أن أفقدك ، أن أفقد احترامك ، بمجرد أن أفاتحك بحبي .

— لا تكوني بلهاء ، كيف تتصورين أن تفقدي احترامي في الوقت الذي امتلكت فيه قلبي .

— ولكني أعرف أن هذا القلب لوفاء . . انني أعرف حبك لزوجتك ، ومدى ارتباطك بها ، وأنا من ناحيتي أحب وفاء وأعزها .

— لست أنكر ذلك ، وهذا هو ما أعنيه بالمأزق الذي صرت إليه . أجل إنني أحب وفاء ولا استطيع أن أتصور أن أسبب لهـا أي تعاسة أو ألم .

ولكني اكتشفت الآن أيضاً . . أنني أحبك ، كنت دائماً أحبك من حيث لاأدري . . لقد كنت دائماً قطعة من نفسي ، وكانت علاقتك بخالد

تحجب هـذه الحقيقة ، وتشبع عاطفتى ، فقـد كان خالد أعز على من نفسى .

— حسبك . . حسبك يافوزى ، لم أعد أقوى على احتمال كل هذه السعادة . . الآن فقط أدرك أن الفرح قد يقتل كالحزن تماما .

— يجب أن تشاطرينى إحساسى بعشكاتى .. أتعلمين ماذا تقول لى وفاء، ولا تفتأ تكرره فى كل مناسبة ؟ إنها ستموت يوم أن تعلم أن قلبى قد انصرف عنها .

— ولو كنت مكانها لكان هذا شعورى .

— معنى هذا ، أننى أقلكم فضيلة ومثالية ، وأكثركم أنانية .

— أنت أقوانا .

— نفس الكلمة التى كان يقولها خالد ، كلما شكوت أخطائى ونقائصى بالنسبة لاستقامته وكماله وتجرده . ولكن لماذا تلتمسولى الأعذار ، وأنتم جميعا أحسن منى

— لأنك أنت الذى جعلنا ما نحن عليه ، إن ما يعجبك فينا ، أنت الذى أثرته .

— لا . . . لا يافاطمة أنا لم أفعل شيئاً وما كان لى أن أفعل شيئاً . . أنتم الذين صنعتمونى . . . أنتم الذين أجريتم على لسانى بفضائلكم الحديث عن الفضيلة ، أنتم الذين حملتمونى بوطنيتكم وفدائيتكم على أن أزين للناس الوطنية والفدائية . . . أنا من صنعكم أنتم ... ولم تحسنوا صنعى . . . إننى أحس أننى أنانى ، إننى أحوز ماليس من حق .. أنال فوق ما أستحق .

— لو كنت أنانياً كما تدعى ، أكنت تستشعر كل هذا الحرج ؟ ؟

— هذا هو أخف ما يمكن أن أصف به موقفى الآن ، إننى أعرف أن شريعتنا الإسلامية ، تبيح الزواج بأكثر من واحدة ، وإننى لأومن الآن ، أنها قد شرعت لمثل موقفى ، ولكننى أريد أن أبدو فاضلا . . أريد أن أبدو كاملا ... إننى أحس بدين وفاء فى عنقى ، وهى تجود بكل شىء تحتمل كل شىء ، الفقر والاضطهاد والاعتقال والتشريد ، أفيمكن أن أسىء إليها ، أن أتعسها .. وماذا سيقول الناس فى . . ماذا ستقول أمها التى تعزنى كابنها والتى تداينى بكل شىء . . . ماذا سيقول أخوها أعز الناس عندى؟ ولكن أنت .. أنت أليس لك حقوق على .. إننى أشعر الآن أنك صاحبة الحق الأول فى قلبى ، وهذا تاريخك معى ، أيمكن أن أتخلى عنك . . . أيمكن أن أضحى بك . . . ماذا تسمين هذا . . . ساعدينى يا فاطمة . . . ساعدينى إننى فى مشكلة .

— إنك تعقد الأمور أكثر مما ينبغى ، إننى لا أطالبك بشىء ، لقد قلت كل ما كنت أعنى . لقد أصبحت تعرف الآن . . . وهذا هو كل ما كنت أصبو إليه .

— إنك تبسطين المسألة . . . إننى أتألم يا فاطمة .

— ليتنى مت قبل أن يكون ألمك بسببى ! !

— بل تحيين . . . تحيين يافاطمة وتسعدين . . . إننى أحبك . . أحبك . . . وعلى استعداد أن أجابه الدنيا كلها بهذا الحب وليكن ما يكون .

الفصل الرابع

— ١ —

لم يعرف فوزى كيف استطاع لأول مرة أن لا يثير شك وفاء وهو يغادر البيت فى الرابعة والنصف ، قاصداً بيت فاطمة . لقد كان أخشى ما يخشاه أن تحس وفاء بما يدور فى نفسه من لهفة على رؤية فاطمة التى لم يرها طوال أسبوعين ، وأن تدرك بحاستها السادسة التى طالما ارهقته مدى انشغال باله بهذه اللقاء .

حقاً لقد بذل غاية جهده ، لتكون تصرفاته طبيعية ، وأكثر من اهتمامه بزوجته واحتفاله بها ، ولكن ذلك كله ما كان ليدخل الطمأنينة إلى نفسه من ناحية وفاء . . وفاء التى تقرأه دائما كما لو كان كتاباً مفتوحاً . ولذلك فقد كانت مفاجأته كبيرة ، عند ما قالت له وفاء وهو يقبلها قبل انطلاقه إلى موعده :

— كم أحبك يا فوزى ، وأتمنى لو أفديك بحياتى فى كل لحظة ، عندما تكون مقبلا على ، رقيقاً معى .

— ولكنى دائماً رقيق معك يا وفاء ، مادمت غير ثائرة النفس .

— ليس دائماً . ما أكثر الساعات التى تستغرق فيها فى شرود البال ، حتى ليخيل إلى أحياناً أنك لا تشعر بوجودى ، وأضافت وفاء قائلة وهى تضحك فى دلال :

— إنك أحسن ما تكون معى عندما تكون سجيناً .

— وأنت أيضاً ياوفاء ، ليخيل إلى أن نفسك تهدأ عندما أصبح تحت القفل والمفتاح ، إذ أكون لك وحدك ، لايرانى أحد ولا أرى إلا رجال السجن ، أليس هذا إفراطاً فى الأنانية ؟

— سمه ما تشاء ، ولكنك كل شىء لى فى الدنيا ، إنى لأغار عليك من أفكارك ومشروعاتك التى تسلبك منى .

وابتسم فوزى ابتسامة شاحبة ، وهو يغادر البيت بالفعل ، ولم يصدق أنه خرج من هذه المحنة دون أن تحس النار المتقدة فى نفسه لهفة وشوقاً على مقابلة فاطمة لأول مرة فى بيتها ، حيث سيكونان وحيدين .

***

همس فوزى فى أذن فاطمة وهى تغلق الباب بعد أن دخل :

— لا أحد فى البيت ؟

— لا أحد .

وقبل أن تتم كلمتها كان يحتويها بين ذراعيه وشفتاه تضغطان فى نهم على شفتيها ، وذراعاه تطبقان عليها فى عنف وتعتصران جسدها عصراً ! ..

وتلاحقت أنفاسهما وغمرهما الشعور بالرغبة فى أن يفنيا فى بعضهما روحا وجسداً .

***

هدأت عاصفة فوزى الجسدية ، وسحب ذراعيه من حولها ، وتراخت موجة التوتر التى كانت تشد كل خلية من خلايا جسده ، وارتمى على أحد المقاعد ، ووجهه يتصبب عرقا ، وهو غير قادر على النظر صوب فاطمة .

— إننى خجل من نفسى . . .

— ألأنك أحببتنى .

— ليس هذا حباً إنه حيوانية ، أخشى أن أكون منافقاً . أى مجاهد أنا ؟

— أوليس المجاهد إنساناً ؟

— طبعاً ولكنه يجب أن يقاوم الحيوان فى نفسه .

— دعنى أحضر لك شراب الليمون الذى أعددته لك .

ولكن فوزى تشبث بها وأمسك بيدها :

— لا . . . لا تتركينى بمفردى ، فلست أعرف ماذا يمكن أن يحل بى ، إننى خائف مذعور . .

وأقبلت عليه فاطمة تجفف العرق المتساقط من جبهته براحة يدها ، وأحست بجسده يرتجف فقالت له فى خبث ومداعبة :

— أتعتبر معانقتك لى جريمة إلى هذه الدرجة ؟

ونظر إليها فوزى فى عتاب :

— أكانت هذه مجرد معانقة ؟ لقد كنت أحبك يا فاطمة حباً أحترم نفسى من أجله . . .

أما الآن . . .

— تحبنى أكثر .

— لقد آذيتك.

— أسعدتنى .

— حقاً يافاطمة ؟ أو لم تحتقرينى بعد إذ رأيتنى إنسانا ضعيفاً ؟

— ولكنك لاتستطيع فى دنيا الحب إلا أن تكون كأى إنسان آخر ، ولماذا تسمى الاستجابة للطبيعة ضعفاً .

— ولكن أنت . . . أنت لم تستجيبى للطبيعة ، إنك لم تقبلينى قبلة واحدة ، كنت مستسلمة بين ذراعى .

واحمر وجهها خجلا لأول مرة وتلعثمت وفارقها هدوؤها :

— لماذا تخجلنى هكذا ؟ أولا تستطيع ولو فى موقف واحد أن تتخلى عن رصدك لكل شىء ، ومحاولتك تحليل كل شىء والكلام فى كل شىء .

ونزعت فاطمة يدها من يد فوزى وقالت له :

— دعنى أحضر لك شراب الليمون ، إنك فى حاجة إليه .

ولم تكد فاطمة تختفى عن نظر فوزى ، حتى بدأ يتمثل التطور الجديد الذى وصلت إليه علاقته بها . لقد تأكد لديه أن فاطمة لن تتردد فى أن تسلمه نفسها ، تقدم له جسدها فى غير تردد أو تحفظ . لكن هو . . . هو

أيمكن أن يهبط بها إلى هذا المستوى . . . أيتصور للحظة واحدة أن يجعل منها عشيقته ؟ وثارت نفسه ثورة عارمة ، إن هذا لا يمكن أن يكون ، لقد عاش طول عمره يتحرج من كل إخلال بقواعد الأخلاق ، والفضيلة ، والمجتمع والدين قبل كل شيء ، أينزل عن ذلك كله ، أيفقد احترامه لنفسه الذى كان مصدر قوته ؟ وعندما يفقد هذا الاحترام ، أيظل قادراً على التأثير على الآخرين ، على قيادة الآخرين . ووثب واقفاً على قدميه وراح يتجول فى الحجرة ، إن الحل الوحيد هو أن يتزوج فاطمة ، إن الزواج هو الذى يصلح كل شيء . . إنه شرع الله ودينه ولا لوم ولا تثريب .

وتتجلى له صورة وفاء ، وهى تودعه فى ثقة واطمئنان وبراءة .. أيخون هذه الثقة ويعبث بهذه الطمأنينة . ويصرخ فى أعماقه صوت محتج :

— وفاء ، وفاء ... إذا كان لها على حقوق ، فإن لفاطمة حقوقاً كذلك ، وإذا كان يؤرقنى أن أسبب ألماً لوفاء ، فيجب أن يفزعنى بعد اليوم ، أن أشقى فاطمه . . إن فاطمة من حقها أن أتزوجها . . ذلك واجبى أمام ضميرى وأمام الناس والله .

ويدور فى نفسه حوار :

— أتصبح زوجا لاثنتين ؟

— وماذا فى ذلك ، أليست هذه شريعة الله ، أولم يتزوج الرسول أكثر من واحدة ؟

— دعنا من التلويح بذكر الرسول فى هذا الموضع ، إن لكل زمان ظروفه ، والرسول وإن كان بشراً فقد كان يوحى إليه ، كان الوحى يوجهه ويرسم طريقه

إنه لم يفعل شيئاً بأمره أو إرضاء لنزوة نفسه ، لقد أطاع الله فى كل ما عمل .
أنسيت مالا تفتأ تذكره من سيرة الرسول ، من أنه لم يتزوج على خديجة التى تكبره فى العمر ما بقيت على ظهر الحياة ، فما كان لإنسان متكامل أن يرزأ شريكة حياته وجهاده ونضاله .

— ولكن فاطمة ، وليست وفاء هى شريكة هذا الجهاد .

— ولكنها ليست شريكة الحياة ، إن وفاء هى أم أولاده . .

وتتراءى له صور أبنائهما : خالد وجهاد وثبات ، وصورة ابنه الذى فقده شكرى . . . إنه فلذة كبدهما الذى وسداه التراب معاً ، كم بكيا معاً ، وتألما معاً ، واحتملا ما احتملا معاً . . ويقطع عليه صوت فاطمة هذا الحوار :

— أنا آسفة لتأخرى عليك ، ولكنى أجد صعوبة فى إخراج مكعبات الثلج . . ألا تأتى لمساعدتى .

— لست فى عجلة من أمرى .

وينعطف قلبه على فاطمة كأقوى ما يكون فى لحظة من اللحظات . إنها تجود بكل شىء ، دون أن تطلب شيئاً ، بالأمس تعلقت بخالد من أجله دون أن تنتظر شيئاً ، وها هى اليوم على استعداد أن تهبه نفسها غير مطالبة بشىء مقابل ذلك . . . كيف يقبل هذه التضحية ، وهو لم يعد قادراً على الاستغناء عنها ، إنه يحبها . . يحبها بكل ذرة فى جسده بكل خفقة من خفقات قلبه ، لقد كان يحبها دائماً ، إنه لا يستطيع أن يستغنى عن حبها ، لا يستطيع أن يفقدها ، من يدريه أنه لم يكن يعيش إلا بهذا الحب الذى حملته له طوال هذه السنين ؟ ويحس بالضيق ، ويفرك يديه ، ويتلفت حوله باحثاً عن حل

لمشكلته ومخرج له من الضيق والحرج .

وتقفز إلى رأسه فكرة السفر إلى أمريكا ، ويعجب لنفسه كيف غابت عنه هذه الفكرة كحل مؤقت على الأقل لما بدأ يعانيه من مشكلته .. وتشبث بهذه البارقة ، تشبث الغريق بقشة طافية .

كيف فاته أن مجلس إدارة الحزب، سيجتمع فى هذه الليلة بالذات ليقرر سفره إلى أمريكا ، بعد أن رأوا أن يقدموا للحكومة الجديدة درساً عملياً فى وجوب التوجه بالقضية إلى مجلس الأمن وهيئة الأمم . لقد فشلت المفاوضات نهائياً مع انجلترا ، وسقطت حكومة اسماعيل صدقى ، وجاء النقراشى من جديد ، وليس أمامه إلا أن يتجه إلى هيئة الأمم .

وجلس فوزى من جديد على أحد المقاعد ، وقد استعاد بعض توازنه وثقته بنفسه وهدوئه : — أجل سيسافر .. سيسافر إلى أمريكا ، وسيمضى بها أطول وقت ممكن ، ستة أشهر ، أو سنة إذا لزم الأمر ، ومن يدريه أن لايقع له حادث فى الطريق ، أن لاتحترق به الطائرة كما يحدث كثيراً هذه الأيام .. بل ربما يتحقق مايحذره منه الكثيرون ، وهو أن تصرعه بعض عصابات اليهود فى أمريكا .. آه لو أنه مات .. ليكونن شهيداً ، سوف تنتهى هذه المشكلة التى عرضت له والتى لم يعد يستطيع لها حلا ، بل سوف تنتهى مشكلة الحياة كلها .. سيعتبر شهيداً ، سيلحق بخالد . ولا يكاد أسم خالد وصورته يعرضان له .. حتى يكفهر وجهه ويرتجف بدنه . . ياسوء مايجزى به خالداً عن حبه له وتفانيه فيه .. أن يعبث هكذا بالمرأة التى لم يحبب خالد غيرها كما قال والتى اختارها لتكون شريكة حياته .

وتنطفىء شعلة الأمل التى كانت قد بدأت تضىء له ، ويحس من جديد

بأنه غارق . . غارق حتى الأذقان فى الدنس والأوحال .

وتظهر فاطمة وهى تدفع أمامها عربة شاى صغيرة مثقلة بالكثير من معدات الشاى والفطائر والفواكه ، وشراب الليمون .

وهتف فوزى بحركة تلقائية :

— ما هذا كله ؟

— أكنت تنتظر أقل من هذا احتفالا بحبنا .

ولم يتمالك فوزى نفسه، من أن يمسك يد فاطمة فى حنان واستسلام، ويروح يقبل كفها فى هدوء ويتأملها :

— ماأجمل هذه اليد ، ما أرق هذه الأصابع ، ماأدق هذه الأنامل .

ومضى يقبل الأصابع فى رقة بالغة واحداً إثر واحد فى حنان وهدوء بالغين .

وابتسمت فاطمة فى سعادة وغبطة .ثم سحبت يدها منه فى رقة ودلال وقالت له :

— دعنى أسقيك الليمون أولا .

— وهتف فوزى بعد أن شرب كوب الليمون :

— الله !! الحمد لله .

وراحت فاطمة تعد له فنجاناً من الشاى ، وتختار له بعض الفطائر :

— أرى أنك أصبحت أهدأ بالا .

وغمغم فوزى :

— لست أدرى ؟

وتناول من يدها فنجان الشاى ، وبعد أن رشف رشفة قال لها :

— إن موضوع سفرى إلى أمريكا ..

وفوجئت فاطمة ، وظهر الأسى على ملامحها بينما مضى فوزى يقول :

— أولم أحدثك عن موضوع سفرى إلى أمريكا ؟

— أجل لقد حدثتنى عنه . . أكثر من مرة طبعاً . . كمشروعات وتمنيات ، ولـكن ما الذى ذكرك به الآن ؟

— لقد كنت أجرى استعداداتى لهذا الموضوع فى تكتم زائد .. واليوم فقط أبلغتنى القنصلية الأمريكية ، أنها تلقت موافقة على إعطائى تأشيرة دخول إلى أمريكا . . وسوف يجتمع مجلس إدارة الحزب الليلة . . ليصدر قراراً نهائياً بالموافقة على السفر .

وسكتت فاطمة ولم ترد عليه بشىء ، وظهر الأسى على وجهها ، وأحس فوزى بتأنيب ضميره للـكيفيةالتى ساق بها الخبر، وكأنه فرح للابتعاد عنها ، وقال لها :

— أنا آسف يافاطمة ، لم أكن أقصد أن أضايقك بهذا الخبر .

وحاولت فاطمة ، أن تتغلب على كآبتها وتبدو مرحة ، ولـكنها أخفقت فى محاولتها ، واكتفت بقولها وهى لاترفع رأسها :

— الحق أنك فاجأتنى .

— هذا صحيح ، ما كان ينبغى أن أعكر صفو هذه الساعة .

— المسألة لاعلاقة لها بهذه الساعة ، إن مابينى وبينك ليس رهناً بهذه

الساعة ، المسألة أنى فوجئت ، ولأمر ما تبدت لى وحشة الطريق ، إن حوادث الطيران فى الأيام الأخيرة تهز الدنيا وتقشعر لها الأبدان ، والوقت شتاء .

— ولكن مجابهة المخاطر فى سبيل واجبنا ، هو طابع حياتنا .

— إن هذا لا يغيب عنى لحظة ، ولكن أتظن أن ثمة جدوى من جراء هذا العمل ، ما الذى تستطيع أن تفعله ؟

— هذا الذى فعلته فى كل رحلاتى السابقة من هذا القبيل ، أتصل بالصحف ، وأكتب وأخطب ما استطعت إلى ذلك سبيلا ، وينعكس كل ذلك هنا على الشعب المصرى ، فيزداد إيماناً بعدالة قضيته وأنها تعرض على الدنيا وتفيد حركتنا دعاية من وراء ذلك فتقوى وتشتد .

واليوم وقد تحول مركز الثقل فى الحياة الدولية عن لندن وباريس وأصبح فى واشنطون وقامت هيئة الأمم فى نيويورك ، فقد وجب أن نقصد إليهما .

— ولكن هذه الرحلة فى حاجة إلى نقود . .. ونقود كثيرة ، فمن أين لنا المال اللازم لها ، إنك لم تدع لجمع أى تبرعات .

— كنت فى انتظار إتمام الإجراءات أولا ، وقد تبرع شكرى بكل المال اللازم ليكون بقدرتى السفر إلى نيويورك .

— شكرى ... شكرى دائماً شكرى . ماذا كنا نفعل بغير شكرى ، ولم تلبث فاطمة أن ضحكت وقالت :

ـــ أحمد الله . . . أنني قد صارحتك بحبي ، ومن ناحية أخرى فان شكرى متزوج ، وإلا أحببتك فيه كما أحببتك فى خالد .

ـــ لقد عوضنى الله بشكرى وسامح شقيق زوجتى عن الدكتور خالد .

ـــ ولكنك سوف تحتاج إلى ألوف من الجنيهات إذا أردت أن تسمع صوتك فى أمريكا ، ولا أظن أن شكرى سيكون قادراً على ذلك .

ـــ سوف يقدم لى شكرى الدفعة الأولى اللازمة لسفرى وإقامتى فى أمريكا بعض الوقت والشروع فى نشاطى ، ولكنى آمل بعد ذلك أن أنجح فى حمل الشعب على تمويل المشروع .

ولمعت عينا فاطمة وقد خطر لها خاطر :

ـــ وهل دفع لك شكرى ما وعدك به من المال ؟

ـــ ليس بعد . إنه فى انتظار قرار مجلس الإدارة ، وهو يدبر المال الآن .

وصاحت فاطمة :

ـــ الحمد لله . . الحمد لله .

وقبل أن يدرك فوزى مغزى حمدها لله،أسرعت نحو إحدى الحجرات ولم تلبث أن ظهرت منها بعد لحظات قليلة وهى تحمل فى يدها مظروفاً ، ووجهها يسطع ببريق الفوز والنصر ، وقدمت لفوزى المظروف وهى تقول :

لقد أصبحت أغار من شكرى ، لا بد أن أتفوق عليه فى شىء . . إننى أول متبرعة لمشروع سفرك .

وامتقع فوزى ، لهذه المفاجأة ، وراح يقلب فى المظروف الذى كان يبدو للوهلة الأولى أنه يحتوى على أوراق مالية .

وقالت فاطمة :

— إنه مبلغ بسيط تافه ، ولـكن على رأى المثل ، نواة تسند الزير .

وفتح فوزى المظروف ، وأخرج حشداً من الأوراق المالية ، واحدة من فئة المائة ، وأوراقاً من فئة العشرة والخمسة جنيهات .

— ما هذا . . . ما هذا ؟

— إنها مائتا جنيه فقط ، وكم كنت أتمنى لو كانت ألوفاً .

— ورد فوزى الأوراق النقدية إلى المظروف وأعاده إلى فاطمة قائلا لها فى حزم :

— يستحيل على أن أقبل هذه التضحية ؟

— ولماذا من فضلك ؟

— يا فاطمة يستحيل على أن أحرمك من كل مدخراتك ، إن أسرتك ووالدتك . . .

— ولماذا تقبل من شكرى ما لا تقبله منى . أليس له هو الآخر أسرة وزوجة وأولاد .

— إن شكرى غنى .

— لطالما قلت لنا إنه ليس غنياً إلى هذه الدرجة التى تتيح له تقديم هذه الأموال إلى حركتنا ، وأنه يحرم نفسه وأولاده من الكثير . إنك دائم الثناء عليه والإشادة به ، فلماذا تريد أن تحرمنى من أن أفعل بعض فعله أنا لست أقل منه .

— بل إنك أحسن من الكل ، إنك خير منى أنا .

وحاولت فاطمة أن تعترض فأوقفها :

— أحسن منى وأفضل وأعظم ، بل كلكم أعظم منى وأفضل ، إنكم تدفعون وأنا الذى آخذ ، يموت من يموت من الشهداء ، وأبقى حياً وأوصف بالمجاهد ، تتحملون العناء وتضطهدون وأنا الذى يتحدث عنى الناس ، أحس أننى مغتصب حقوقكم ، فلم أفعل ما أستحق من أجله كل هذا الحب والبذل والإخلاص .

— أتقول عن حياتك المتصلة من السجون والاعتقالات ، والمحاكمات والصدمات والمرارة التى تعانيها وانت لا تلقى من الأغلبية الساحقة سوى الجحود والنكران لما تفعل ، بل والتجريح والتشهير ، أتسمى معاناة ذلك ومكابدته ليست شيئاً ؟

— إنها ليست شيئاً على وجه الحق واليقين ، ما الذى فعلته بى السجون المتصلة والاعتقالات ، ها أنذا أقف أمامك سليما معافى لم ينقص لى عضو ، أو أصب بسوء ، إننى متزوج ولى أولاد ، وأجد طعامى موفوراً ، وأركب سيارة وها أنذا أفكر فى السفر إلى أمريكا فما الذى خسرته من الجهاد

والكفاح ، لو أننى استشهدت لاستحققت لقب المجاهـد ، أما قبل ذلك فلا .

ــ ولكنك لو مت لانقطع جهادك ، ولو مت لما كنت قائداً . إن القواد لا يموتون وإلا لانفرط عقد الجيش ، وعندما تعد الطبيعة فرداً ليكون قائداً ، فانها تحوطه بأسباب الحماية ليظل حياً يؤدى رسالته .

أى عظمة فى الموت وأى تضحية ، إن كل البشر يموتون ، فهم متساوون فى هذه الناحية ، وإنما الحياة هى المشكلة ، هى الأمر الصعب عندما نحاول أن نؤثر فيها ، أن نصوغها ونشكلها نحو الأفضل والأحسن ، وهذا هو ما تفعله ونعاونك فيه ، فلا تهون من حقيقة دورك ، ولا تبالغ فيما نسهم به .

ولم يستطع فوزى إلا أن يعانق فاطمة من جديد ، والدموع تترقرق فى عينيه ، ويقبلها فى حنان وحب :

ــ كم أنت غالية يافاطمة ، إننى أدرك الآن بأى قوة أحيا ، وبأى سر ، أواجه ما أواجه . وقبلته فاطمة لأول مرة على خده وجبهته ، ولكنه احتواها بين ذراعيه ، والتقت شفتاهما فى قبلة طويلة حارة ، أودعاها كل ما فى روحيهما من وله وحب .

* * *

— ٢ —

عاد فوزى فى ساعة متأخرة من الليل ليجد وفاء يقظة ساهرة ، وكان يعلم سبب سهرها ، فقد اتصل بها من البيت الأخضر ، وأعلمها أن كل شىء قد تم لتمكينه من تحقيق مشروع السفر إلى أمريكا . وقد فوجىء فوزى بها ترد عليه بأنها غير موافقة على المشروع ، وقد تصور أن ذلك مجرد رأى عابر ، أما الآن فقد كان مجرد إلقاء نظرة عليها ، يؤكد له أنه رأى وطيد لا سبيل لتحويلها عنه .

ولم يكد يحاول أن يلاطفها ، ويظهر لها ما فى هذه الرحلة من نفع يعود على الحركة ، حتى انفجرت مراجل غضبها وراحت تقول له فى صوت مرتفع ، غير عابئة بأن يوقظ صوتها أولادها ، أو أن يسمعها الجيران :

— لقد رضيت معك بكل شىء ، رضيت بالسجن والاعتقال وتوقع الموت لى أو لك فى أى لحظة ، ولكن هذه الرحلة إلى أمريكا تخرج عن دائرة أى احتمال وتوقع ، وقد حانت الساعة لتقدم لى دليلا على مكانتى عندك ، وعما إذا كنت تحبنى أم لا ، إذا سافرت فى هذه الرحلة ، فسوف أتأكد أنك لم تعد تحبنى ، وأن ليس لى عندك أى قدر أو اعتبار .

وحار فوزى ، ولم يعرف كيف يرد على هذه الثورة العارمة ، وانفجار العواطف ، فرأى أن يحاسنها ويحاول البعد ماأمكن عن الدخول معها فى مناقشة ، فقال لها :

— على أية حال ، الساعة متأخرة ، وأخشى أن نوقظ الأطفال بضجيجنا ... فلننتظر حتى الصباح لنتناقش فى الموضوع .

— إنه لن تكون هناك أى مناقشة ، إنها كلمة واحدة هى التى أريد أن أسمعها منك ، وهو أن تقول لى إنك لن تذهب إلى هذه الرحلة .

— ولكن هذا مستحيل .

— لماذا يستحيل

— لأنها تقررت وانتهى الأمر .

— وهل تقررت فى اللوح المحفوظ ، أرجوك أن تدع هذه اللهجة ، والتستر وراء القرارات ومجلس الإدارة . . إنك أنت كل شىء ... وما تريده يريدونه ، وما تقرره يقررونه ، ولو قلت لهم غداً ، إنك عدلت عن الرحلة لأنك وجدت المصلحة فى عدم القيام بها لهللوا وكبروا .

دعك من هذه الأساليب معى .. المسألة بينى وبينك .. إن معنى سفرك .. أنك نفضت يدك من حبى .. أن لا مكانة لى فى نفسك .

— ما هذه السخافة ، متى كنت تتكلمين بهذا الأسلوب .. مادخل حبى لك ومكانتك فى نفسى ، و القيام بواجباتى .

— ولكن هذه الرحلة ليست من واجباتك ، الله يشهد أننى لم أقف لحظة واحدة حجر عثرة فى سبيل جهادك ، ولكن هذه الرحلة إلى أمريكا ليست جهاداً ، ولا معنى لها فى نظرى إلا أنها رحلة لهو وعبث .

— أولم أسافر إلى انجلترا ، هل كان ذلك لهواً وعبثاً .

— كان ذلك قبل أن تتزوجني ، وكل شيء له ظروفه .

وعبثاً حاول فوزى أن يشرح لها أهمية هذه الرحلة بالنسبة لنجاح حركتهم وكيف أنه سيكون أول مصرى فى التاريخ يذهب إلى أمريكا للدعاية للقضية المصرية ، لقد سبقه السابقون للدعاية فى أوربا ، فى باريس وجنيف ولندن ، أما فى الولايات المتحدة الأمريكية فسيكون هو الأول ، وأنها فرصة لاتعوض . ولكن وفاء لأول مرة فى تاريخ حياتهما ، أغلقت كل نوافذ روحها ، وأصمت أذنها وعقلها وقلبها عن سماع شيء مما يقول ، وكان حديثه لايزيدها إلا هياجاً ، وتشبثا برأيها ، من أن سفره إلى أمريكا يعنى أنه لم يعد يحبها .

وبدأ فوزى يداخله الشك فى أن تكون هذه الثورة ليست بسبب رحلته إلى أمريكا ، بقدر ما هى رد فعل لتطور علاقته مع فاطمة ، وأنها بالشعور أو اللاشعور قد اختارت موضوع السفر إلى أمريكا ، ميداناً للاصطدام به وتفريغ ما فى نفسها من إحساس بالحنق ، والغضب والاحتجاج . . .

ووقع ما كان فوزى يتوقاه ، وهو استيقاظ أولادهما ، الذين انتابهم الفزع لرؤية أبويهما يصرخان فى وجه بعضهما . . . ولاذ الأطفال بأمهم وتعلقوا بها .

واستشاط فوزى غضباً ، وامتلأ بالرغبة فى أن يبطش بوفاء ، وينهال عليها ضرباً وركلا ، لهذا الموقف العنيد الذى تقفه منه ، وهذا الجو المفزع الذى خلقته فى البيت .

ولـكن فـكرة وجود علاقة بين موقف زوجته ، وما كان بينه وبين فاطمة ، كان يضغط عليه ، ويخفف غضبه ضد وفاء ، بل ويشعره بتأنيب الضمير ، فلم يسبق لوفاء أن وقفت منه مثل هذا الموقف من قبل . . . وأخيراً لم يعرف فوزى ماذا يفعل أو كيف يتصرف . . . فخرج من البيت لا يلوى على شىء .

* * *

لم يحدث أن حنق فوزى فى كل حياته على وفاء كل هذا الحنق ، وطاف فى رأسه لأول مرة طائف الطلاق . أجل ماذا لو طلقها ؟ لو أنها وقفت حائلا بينه وبين السفر إلى أمريكا لـكان طلاقها هو الجزاء الوحيد الذى تستحقه . أو لم يفصم عرى صلته الطويلة بآمال عندما طالبته بالتخلى عن جهاده ؟ أوليس هذا الذى تطلبه وفاء هو تخلى عن الجهاد ، فلماذا لا يطلقها ؟ ولـكنه على الرغم من شدة حنقه فإن ضميره سرعان ما كان يزجره :

— أى ظلم وتجبر أن تقارن وفاء بآمال . . . وفاء زوجتك التى وقفت إلى جوارك ، وفاء أم أولادك ، تقارنها بآمال المتغطرسة الأنانية ، ألست تقر فى حنايا نفسك أن علاقتك مع فاطمة هى السر فى هذا الهياج؟ ويستعيد يومه مع فاطمة . . . ساعة التصق جسداهما ، وهى تقدم له كل ثروتها وتبارك رحلته . . . لو أنه طلق وفاء إذن لحل الإشكال ، سوف يتزوج فاطمة فى هذه الحالة وتستقيم الأمور . . . وهو على استعداد بعد أن يصبح زواجه من فاطمة حقيقة مقررة ... أن يعيد وفاء إلى عصمته

وأن يحفظ لها مكانتها فى نفسه وفى قلبه . . . ويتوقف فوزى عن السير فى الشوارع على غير هدى . فقد وجد حل المسألة .

ولكنه لم يلبث أن عاد إلى المسير ، بعد أن اكتشف أنه فى الطريق إلى بيت والدة زوجته .

أجل سيذهب إلى حماته ، سوف يبيت عندها ، سوف يشكو لها وفاء . . . وسوف تعيد العقل إلى ابنتها .

ويتأسف فوزى لغياب سامح الذى التحق بجامعة باريس للحصول على الدكتوراه فى القانون ، لو أنه كان هنا الآن . . لعالج أخته بما ينبغى لها أن تعالج به . ولكن لا . . الحمد لله أن كان سامح غائباً عن مصر . . كيف كان يواجهه بهذه الواقعة الخطيرة ، واقعة حبه لفاطمة . . . لا . . . لا إنه لا يستطيع أن يواجه سامح ، بل لا يستطيع أن يواجه والدة زوجته إنها تثق به ، إنها تحبه كابنها وكانت خير عون له فى جهاده ، وهى تصون له زوجته وأولاده كلما سجن أو اعتقل وتقيهم شر السؤال أو الاحتياج لأحد . . . ويتنهد فوزى من فرط الشجن . . .

— إنه لا يستطيع أن يرزأ أم زوجته ، لا يستطيع أن يرزأ وفاء .. لا يستطيع أن يرزأ كل أصحابه وإخوانه بهذا الرزء . . . رزء طلاق وفاء أو زواج فاطمة . . فليس إلا الهرب من هذه المشكلة . . وأمريكا هى المهرب . آه لو تعرف وفاء .

— ٢ —

امتقع وجه شريفة هانم ، وهى تفتح الباب مذعورة بعد أن سمعت صوت فوزى يعلن عن نفسه ، وعندما وقع نظرها على منظر فوزي الأشعث الأغبر ، وملابسه المتهدلة ، كادت تقع من فرط الفزع وقالت له :

— أحدث شيء لوفاء أو الأولاد ؟

وأسرع فوزى يطمئنها ويقبل يدها :

— أنا آسف لإزعاجك . . . لم يحدث شيء مما تتصورين ، المسألة هى أننى لم أستطع النوم ، وظللت أجوب الشوارع حتى طلع النهار ، فوجدتنى أمام بيتك ، فرأيت أن أصعد إليك لأقبل يديك .

— ولكن لماذا كل ذلك يافوزى . . شغلت بالى ؟

— أو لم تتصل وفاء بك بالتليفون؟

— لا لم تتصل .

ودق جرس التليفون

— لا بد أن تكون هى .

وكانت وفاء هى المتحدثة بالفعل :

— ماما ؟ .

— ما ذاحدث يا وفاء ؟

— فوزى عندك ؟

— لقد جاء الآن فقط .

— لقد ترك البيت منذ الثانية صباحاً ولم أشأ أن أزعجك .

— ولكن ماذا حدث يا وفاء ؟

— سيقول لك . هذه الرحلة ياماما لأمريكا . . أنالا يمكن أن أوافق عليها ، لقد قلت لفوزى ، إنه اذا سافر ، فيجب أن يطلقنى أولا .

وقالت شريفة هانم :

— طيب . . طيب دعينى أولا أسمع منه الموضوع .. أما الآن فاذهبى ونامى ، إذ يظهر أنك لم تنامى أنت أيضاً طول الليل .

وقبل أن يقول لها فوزى أى شىء ، أصرت على أن يشرب فنجاناً من الشاى ويأخذ نصيبه أولا من الراحة وبعد أن يستيقظ ، سوف تسمع لمايريد أن يقوله لها ، واعدة إياه أن تحقق له مايريد. لم تكن هذه هى الأزمة الأولى أو الأخيرة بينه وبين وفاء ، والتى تولت شريفة هانم حلها بحبها له ، وطاعة ابنتها لها . واستغرق فوزى فى نوم عميق ، إنه فى أيد أمينة إن الله قد رزقه هذه الأسرة من السماء .

الفصل الخامس

– ١ –

لم يكن فوزى يصدق أنه أصبح فى نيويورك أخيراً ، وأنه فرغ من هذه الأهوال التى عاناها وهم يطيرون فوق المحيط الأطلسى ، وهو يمضى اثنتى عشرة ساعة متصلة ، ساعة ، ساعة ، دقيقة دقيقة ، بل ثانية ثانية ، وهو يتخيل الموت فى كل لحظة ، وهو يتوقع رؤية النيران تندلع فى أحد أجنحة الطائرة ، أو توقف أحد المحركات ، وصوت قائد الطائرة وهو يطلب منهم أن يربطوا الأحزمة ويلبسوا أطواق النجاة لأنهم سيهبطون اضطراريا إلى المحيط . كان خيال فوزى يجسد ذلك كله ويتمثله ، مجرعاً إياه غصصه ومرارته ، وكانت معدته تأبى إلا أن تسهم فى الموضوع ، فتقذف بكل ما فى داخلها ، ويتملكه الدوار ، ويصيبه الغثيان ، ويتداعى الجسد منهكا . . تحت وطأة هذه الانفعالات المثيرة .

هل انتهى ذلك كله الآن ، وأصبح من جديد يقف على الأرض . . الأرض الثابتة الصلدة ، أرض أمريكا التى قطع من أجلها هذه الرحلة الطويلة.

أجل . . إنه يقف الآن فى أمريكا ، بل فى نيويورك ذاتها ، وقد انتهت كل آلامه وتوتراته وقلقه وتخوفاته . . وما عليه الآن إلا أن يقذف بنفسه فى تيار هذه المدينة المجهولة حتى يتأقلم بجوها ، وبمنهاج حياتها ، حتى يعرف خططها وأساليبها ، وشوارعها ومواصلاتها ، ليبدأ فيها عمله الذى جاء من أجله .

— لم يبق أمامنا إلا أن ترسل البرقيات . . أولا تريد أن تبعث ببرقية إلى زوجتك تبشرها بنبأ وصولك ؟

كان هذا هو صوت رفيقه السورى الذى تعرف به فى الطائرة ، وتصاحبا منذ ذلك الوقت . . إن حديثه يدل على أنهما قد وصلا بالفعل واستقرا فى حجرتيهما بالفندق ولم يبق إلا أن يبعثا بالبرقيات إلى مصر . .

ولكن الماضى القريب كان لايزال يشده ، لم يكن فى لهفة إلى الاندفاع فى دنيا المجهول الجديدة .. بقدر ما كان متشبثاً بإصرار بهذا الذى مر فيه . هذا الذى حال بينه وبين الاستمتاع به ، ما كان فيه من توتر وخوف . إن كل شىء يبدو له الآن جميلا وحلواً ، بعد أن أصبح ذكريات ماضية . ما أجمل هذا الانفعال الذى أحس به وهم يعلنون له أن الطائرة تهبط إلى مطار أثينا فى اليونان ، وهم يعلنون بعد ذلك أنهم أصبحوا فى مطار روما . وكانت هذه الأسماء المألوفة إلى نفسه تثير بطريقة غامضة دنيا الإغريق والرومان ، ولكن عندما قيل له إنه قد هبط إلى مطار شانون فى غرب أيرلندا أحس أنه يغادر عالمه القديم .. عالمه المألوف الذى عاش طول عمره يعرف أبعاده .. أما شانون فشىء جديد .. إنه اسم لم يسمع به ، لقد بدأ يدخل إلى هذا العالم المجهول .

ولكن شانون كانت شيئاً رائعاً يأخذ باللب ، جبال ووديان وسهول كلها خضراء .. سندسية كما يقولون . . ويلف ذلك كله سماء زرقاء .. زرقة وخضرة غارقان فى بحر من السكون والهدوء الذى نفذ إلى كل عظامه وإلى كل خلية من خلايا جسده . وخيل إليه كما لو كان التاريخ أو بالأحرى

الزمن قد توقف . ويتنهد فوزى فى حسرة .. ليت الزمن يتوقف بالفعل ، ليته ينسى كل شىء . . من أين جاء وإلى أين هو ذاهب ، ليته ينسى ماضيه ومستقبله ويعيش فى اللحظة الحاضرة ، فلا يزيد عن الإحساس بالوجود . ماهى الحياة المثالية إلا أن تكون ذلك ، نسيان المشاعر كلها ، لا ألم ، لا أمل ، لا طموح ، لا كفاح من أى نوع كان ، وإنما مجرد وجود وحسب . أى شىء هذه الأهداف التى يملأ بها شدقيه ، ويتقاتل الناس من أجلها . وطن . . مجد . . حرية . . استقلال . . انتصار . أواثق هو أن هذه الأشياء لا تعدو أن تكون كلمات لا مدلول حقيقياً لها . .

أثمة شىء يسمى استقلالا أو حرية .. أهناك كائن حر أو مستقل .. أو لا يخدعون أنفسهم . . ليتعذبوا ويفرحوا ، ويشقوا ويسعدوا ، وليس ذلك كله إلا وهما وسراباً ، يصوره كل إنسان لنفسه ، بمقاييسه التى لا يشاطره فيها أى إنسان آخر .

أليست الحقيقة الوحيدة فى هذا الوجود هو مجرد الوجود ، آه ليته كان بعض هذه الحشائش النضرة التى تتماوج وتتراقص تحت وقع النسيم دون أن يعذبها وعى ، أو كان بعض هذه الربى ، أو بعض هذا الهدوء والسكون ، كم يتمنى لو يمتزج بهذا الهدوء . . لو تشع إلى ذرات وومضات ليصبح بعض هذا البهاء المحيط به .

وتملكته رغبة عارمة أن لا تقوم الطائرة أبداً ، اليوم أو فى الغد ، أو فى أى وقت من الأوقات .

ما أزهده فى أمريكا تلك التى كانت تؤلف بالنسبة إليه مطمحاً عزيزاً ، إنه لم يعد راغباً فى رؤيتها .. لم يعد حريصاً على الوصول إليها .. إن قلبه أصبح ممتلئاً بالرعب منها .

أى جنون ذلك الذى استولى عليه ليقدم على هذه المغامرة ، إنه يجىء إلى بلاد لا يعرف فيها إنساناً واحداً ، لن يقابله فيها إنسان واحد .. لا يعرف حتى اسم فندق لينزل فيه ، ما أشبهه بانسان يقذف بنفسه فى البحر دون أن يعرف أى قاعدة من قواعد السباحة .. اعتماداً على أنه سيعوم على كل حال . . ألا يمكن أن يغرق قبل أن يعرف قواعد العوم .. ليته لا يذهب إلى أمريكا أبداً .. ليت الطائرة لا تقوم . ليته بعض هذه الحشائش والربى والجبال والقمم والمزارع والسكون والضياء

ولكن الطائرة قامت ، وكان حتما أن تقوم لتستأنف رحلتها الكبرى عبر الأطلسى ، ولكى يعانى ما عانى خلال هذه الاثنتى عشرة ساعة ، حيث صاحب الموت والخوف والقلق والمرض والانهيار والتداعى

— يا أستاذ فوزى . . فيم أنت شارد ، لماذا لا ترد على ؟

ألا تريد أن ترسل برقية . . هذا هو المكان . . وهذه هى الأوراق المخصصة لذلك .

— آه طبعاً .. طبعاً أريد أن أرسل برقية ، أشكرك ، إن هذا هو بالفعل أول ما يجب أن أعمله .

ونظر فوزى بنظرات زائغة إلى صاحبه الذى كان قد بدأ فى كتابة برقية .. بينما لم يستطع هو أن يتخلص مثل صاحبه بسهولة من الانفعالات الشديدة التى عاناها طوال الساعات الست والثلاثين الماضية ، كانت لا تزال ناشبة فى جسده ، تهز مشاعره ووجدانه ؛ وتقيد عقله وخياله ؛ كان لا يزال يتمثل نفسه عندما وصلت به الطائرة إلى أول مطار على الطرف الآخر من المحيط

إنه مطار جاندر فى جزيرة (نيوفوندلاند) على ما قيل له ، وإذا كانت شانون ، قد أترعت قلبه بسكونها وخضرتها وبهائها ، إذا كانت قداحتضنت روحه ، وأشعرته بالجنة والنرفانا البوذية، حيث تزول الرغبات والأحاسيس والمشاعر ولا يبقى سوى الوجود . . . الوجود المطلق ، فإن جاندر قد ملأت قلبه خوفاً ووحشة وكشرت له عن أنياب العالم الجديد الذى هو مقدم عليه ، لقد قربت إلى ذهنه كيف يمكن أن يكون الجحيم على شكل ثلوج وجليد وبرد ، فقد كان الصقيع يهرأ الأبدان ، ويكاد يقطع الآذان ويدمى الأكف والأنوف ، وكل ذلك عاناه الركاب فى هذه الأمتار القليلة التى كان عليهم أن يقطعوها ، حتى يصلوا إلى فندق المطار ، حيث التدفئة الصناعية بدأت ترد عليهم أرواحهم وتعيدهم إلى الإحساس بالحياة .

وينظر من وراء الزجاج إلى هذا اللون الأبيض الذى يسربل الأرض كلها . . . ما أمقت هذا اللون إلى قلبه . . . وما أكثر ما يثير فى نفسه الإحساس بالرعب والفزع ، فلو أنه ضل فيه ساعة أو بعض ساعة . . . لكان ذلك ذروة ما يمكن أن يعانى الإنسان من الآم وسعير .

ويرتد فوزى بنظره إلى ما وراء الزجاج . . . إلى ما يحيط به داخل الفندق . . . إنه يحيا فى الدفء . . . إنه يشرب ويأكل هذا الطعام الساخن اللذيذ . . . ليته يبقى هنا طويلا . . . ولا يدعون من جديد للطيران . .

ولكن ما الذى يخيفه من الطيران . . . ما الذى يملأه رعباً من دنيا الفضاء . . . ويستعيد فوزى ذكرى هذا السؤال الذى طرحه على نفسه عشرات المرات ، دون أن يحظى بجواب على تساؤله ؟ أهو دون

هؤلاء الركاب جميعاً ، الذى يبدو عليهم منتهى الهدوء والاطمئنان والاستمتاع بالرحلة وبركوب الطائرة ، فى الشجاعة ، أهو جبان من دون العالمين .. أهو خائف من الموت . . أليس فى قلبه إيمان بالله من بيده ملكوت كل شىء ؟

ويومض فى ذهن فوزى تحليله لسر ما يعانيه . يقينا إن الموت لا يفزعه إن كل كائن حى لا بد أن يموت . . . بلى هو حى لأنه سيموت ، وطالما تمنى أن يموت . . . كلما فكر فى نفسه بعد أن يصبح فى سكينة الموت ، يحس بالراحة والطمأنينة . إنه دائم التطلع إلى ما وراء الحياة ، فما الذى يجعله بكل هذا القلق والخوف . . . إنه القدرة على الخيال والتصور ، والإحساس بهذه اللحظات التى تسبق الموت . الموت الذى لا يعرف الصورة التى سيأتى بها . ماذا سيكون إحساسه عندما يرى لأول مرة النيران التى تندلع فى جناح الطائرة ، أى نوع من الإحساس هذا الذى سيشعر به عندما ينسف جسده ويتمزق إرباً ويتناثر فى الهواء ، ويتبدد فى المحيط .

هذه التصورات والتخيلات ، التى يحاول أن يحسها وأن يتذوقها هى التى تسبب له كل هذا الخوف ، إن ما يخيفه هو أن يخاف ، وما يفزعه هو أن يفزع ، لا أن يموت . ليس هناك برهان واحد أو دليل قاطع على أن لا يكون ما وراء الموت خير من الحياة ، بل إن الوجدان والإلهام ليحدثان الإنسان أن ما وراء الموت أفضل من الحياة .

لطالما قال لنفسه ، إما أن يكون ما تبشر به الأديان ويقول به الرسل والأنبياء والملهمون ، أن ما وراء الحياة حياة أفضل للناس الصالحين الطيبين ، وإذ كان الموت هو السبيل لهذه الحياة فهو جدير إذن بأن يسعى

إليه . وإما أن لا يكون وراء هذه الحياة حياة أخرى كما يقول الماديون ، والعدميون ، ولو صح هذا لـكانت هذه الحياة التى نحياها ، نوعاً من العبث والهذيان الذى يجب أن لا يمضى فيه إنسان عاقل ، ويكون الموت إذن هو السبيل للخلاص من هذه المهزلة.

ليس الموت بالشيء الذى يهرب منه الإنسان فضلا عن أن يخافه ، فما ينتابه من قلق إذ يركب الطائرة . . . هو محاولة اكتناه سر هذه اللحظة الفارقة بين الموت والحياة ، بين إذ هو شيء يحس بوجود ويفكر ويؤمل ، وبين هذا الشيء الآخر المجهول ، الذى لم يصفه لنا إنسان واحد ، وهو خارج عن خبرة البشر وتجاربهم .

آه .. انتهى ذلك كله الآن .. انتهى وأصبح ذكريات جميلة ، وها هو ذا الآن فى نيويورك ، إنه لن يعود لركوب الطائرة أبداً . . لن يعانى هذه المحنة من جديد لأى سبب من الأسباب ، سيعود إلى مصر على ظهر باخرة هذا إذا كان سيعود . . . ليدع المستقبل البعيد ، وليعش فى الحاضر . . . إنه الآن فى نيويورك ... فى الفندق الذى يحمل إسمها « النيويوزكر » أحد فنادق نيويورك الـكبرى ، والذى وجدت شركة الطيران له فيه حجرة لمدة خمسة أيام فقط . . . ولـكن ماذا سيفعل بعد الأيام الخمسة . . أين يذهب ؟ ألا يكف عن تعذيب نفسه ، يجب أن ينعم بالحاضر ، بالدقيقة التى هو فيها .

إنه الآن فى أمريكا ، مقيم فى أحد فنادقها ، فى الدور الخامس والستين فى الحجرة رقم ٦٥٨ وهو الآن فى بهو الفندق . وعليه أن ينتهى الآن من إرسال برقية إلى زوجته وفاء .

ولـكن أواثق هو حقاً أنه فى داخل الفندق وليس فى العراء فى أحد الشوارع والميادين ؟ إن المـكان من حوله يعج بحركة صاخبة ، كأشد وأصخب ما تـكون الحركة ، زحام وجلبة ، عشرات الأبواب تفتح لينـدفع منها أو إليها عشرات الناس ومئاتهم ، إنها أبواب المصاعد التى تنقل الألوف إلى أدوار الفندق السبعين ، أجل إنه فى داخل الفندق رغم هذا الزحام الذى يشعره كما لو كان فى ميدان ، إن هذه الأبسطة الوثيرة تحت قدميه تؤكد له أنه ليس فى عرض الطريق ، وهذه الثريات البلورية المدلاة من سقف المكان،وهذه اللوحات الزيتية الـكبرى والصور والنهاويل كل ذلك يؤكد أنه داخل الفندق . . . أما الزحام . . أما الصخب والضجة فهذا هو الدليـل على أنه قد بات فى العالم الجديد ، العالم الذى يغاير العالم القديم فى كل شىء . وقطع على فوزى سيل تأملاته ، صوت رقيق يقول بالإنجليزية :

— عفواً ، ولـكن هناك خطأ فى هجاء هذه الـكلمة ...

وأحس فوزى أن الخطاب موجه إليهما ... أو بالأحرى موجه لرفيقه الذى كان يكتب إلى جواره البرقية ، والتفت صوب صاحبة الصوت ، ليجد نفسه أمام سيدة متوسط الحجم ، رقيقة الوجه ، نحيلة الجسد ، وقد اختلط عليه شأن عمرها ، فلم يعرف فى أى سن هى ، ولـكن كان من المؤكدأنها ليست صغيرة إنها امرأة مكتملة .

وتحقق حدس فوزى ، فقدكانت السيدة تخاطب صاحبه ياسين الشاب السورى :

وصعق فوزى عندما اكتشف حقيقة السيدة ، وأنها تدخلت لتصلح خطأ فى هجاء إحدى كلمات البرقية التى كان يكتبها صاحبه ياسين ليرسلها إلى أسرته فى دمشق .

وسأل ياسين فى إنكار :

— أين الخطأ ؟

— هنا فى هذه الكلمة . وتهجت السيدة الإملاء الصحيح .

ومزق ياسين الورقة ، وأخذ ورقة بيضاء أخرى ليكتب عليها .

وتدخلت السيدة من جديد :

— لماذا لا تسمحان لى أن أقوم عنكما بكتابة ما تريدان من برقيات سوف يسعدنى أن أقدم خدمة .

وأنكر فوزى هذا التطفل ، ولم يستطع رغم استعداده لتقبل أوضاع جديدة ، أن يسيغ هذا التطفل.ولكن ياسين كان على خلاف رأيه ... لقد جاء إلى أمريكا بشبابه ليعب من النساء عبا . . . وها هى ذى سيدة تبدأ الحديث والتعارف . . . فلماذا يضيع فرصته ، ولذلك فقد تخلى لها عن مكانه أمام المنضدة وأسلمها القلم ، وراحت تكتب ما يمليه عليها ياسين أولا ثم فوزى ثانياً :

السيدة وفاء — الروضة — القاهرة

وصلت نيويورك بعون الله — عنوانى فندق النيويوركر

لك حبي ولأولادي قبلاتي ، تحياتي لوالدتك وجميع الإخوان .

فوزى

وحملت السيدة البرقية إلى المكتب المخصص لذلك فى الفندق ، وتولت عملية المحاسبة ، ودفع فوزى ما طلب منه .

ومضت فرض نفسها :

— والآن وأنتما غريبان عن نيويورك ، فأنتما فى حاجة إلى دليل ومرشد ليعرفكما كيف تسيران فى المدينة حتى لا تضلا فى متاهاتها ، وإنى من حسن الحظ فى حالة فراغ ، فباستطاعتى أن أكون هذا الدليل . . . أين تريدان الذهاب ؟

وذهل فوزى ، لهذا التطور العجيب ، وكان ذلك أبعد ما يكون عن تصوره ، فقد كان لم يمض على وصولهما إلى الفندق سوى بضع دقائق تسلما فيها حجرتهما وأودعاها حقائبهما ثم نزلا إلى بهو الفندق ليبعث كل منهما برقية ، فإذا بهذه السيدة المتطفلة تتدخل فى حياتهما بهذا الأسلوب وتحاول أن تفرض نفسها عليهما فرضاً .

ونظر إليها فوزى متفحصاً فى شك وريبة . لم تكن بالمرأة الجميلة ، ولم تكن دميمة كذلك ، وعلى وجهها مسحة من الرقة ، لم تكن فى أناقة الأمريكيات اللواتى ما فتئت عيناه تقع عليهن مذ هبط إلى أرض نيويورك ولكنها لم تكن رثة الثياب كذلك . إنها امرأة وسط فى كل شىء ... حتى فى السن فلابد أنها جاوزت الثلاثين بعدة سنوات . وكان أكثر ما أخاف

فوزى منها هما عيناها اللتان كانتا تلمعان فى لهفة. وأصدر فوزى قراراً حاسماً إنه لن يسمح لهذه المرأة المجهولة أن تقودها . ما أكثر الذين حذروه من نيويورك وما سوف يلقاه فيها، لقد بلغ الأمر بواحد من المصريين المترددين على نيويورك أن ينصحه قبل سفره إليها أن لا يخرج محفظة نقوده فى الطريق أبداً ، وأن لا يحمل معه إلا دولارات قليلة حتى لا تنشل أو تؤخذ منه تحت تهديد مسدس . وإذا اضطر إلى حمل نقود ، فيجب أن لا يحملها فى جيوبه أو محفظته ، بل أن يربطها فى كيس حول صدره من داخل الملابس ، تماماً كما كان يفعل الحجاج إلى بيت الله الحرام فى سالف العصر والأوان ، عندما كانوا يحملون نقودهم فى (كمر) ملفوف حول أجسادهم خوف النهب والسلب من البدو والأعراب .

ولكن النصيحة التى أجمع الكل عليها ، هو أن يحذر النساء ، وكيد النساء ، وفتنة النساء . وكان مما قصوه عليه قبل سفره وجعل شعر رأسه يقف من الخوف والفزع ، تفاصيل بعض المؤامرات التى يلجأ إليها اليهود لتحطيم حياة أى سياسى يريدون تحطيم حياته وهو أن يسلطوا عليه امرأة تحتال عليه حتى توقعه فى فتنتها وتجره إلى حجرة فى أحد الفنادق ، حتى إذا احتوتهما الحجرة مزقت ملابسها ، وعمدت إلى الصراخ والاستغاثة ، مدعية أن الرجل استدرجها ثم هم باغتصابها كرهاً . ويأتى البوليس ويكون تحقيق وتملأ الفضيحة الصفحات الأولى من الصحف . . وتظل أياماً تتحدث عن هذا العمل الفاضح وقد ينتهى التحقيق بإثبات التدبير والافتعال وبراءة المتهم . ولكن الصحف تسكت عن نشر ذلك .. ولا سلطان لأحد يجبرها على النشر وهكذا تبلغ حملة التشهير ذروتها . ويقضى على الضحية .

لقد أقسم فوزى بعد سماعه هذه القصص ،أن يحذر النساء وأن لا يقترب منهن ، بل لا يسمح لأى واحدة منهن بالاقتراب منه . ومع ذلك فهاهو ذا ولما تمض على وصوله إلى نيويورك ساعة وبعض ساعة ، حتى تجيء هذه المرأة من عرض الطريق لتفرض نفسها عليهما . سوف يكون حازماً وسوف يصدها ، ولـكنه قبل أن يفتح فمه لينفذ مااستقر عليه عزمه ، كان صاحبه ياسين قد سبق إلى قبول ما عرضته السيدة .

لقد كان ياسين طالباً سوريا جاء ليلتحق بجامعة كولومبيا ، إنه لم يجيء للدعاية لقضية من القضايا ، وليس سياسياً فضلا عن أن يكون زعيما سياسياً لم يكن هناك ما يهابه ويخشاه ، ولذلك فقد سأل السيدة :

— ما هى اقتراحاتك لنبدأ جولتنا ؟

وقبل أن يعترض فوزى ، كانت المرأة تقول فى سرعة غير عادية لم تحتج فيها إلى شىء من التفكير :

— أتحبان المسرح ، ما رأيـكما فى المسرح ؟

ونظرت المرأة فى ساعتها ، وكانت تشير إلى الواحدة بعد الظهر ، ثم مضت تقول :

— إن هناك رواية جميلة ستمثل بعد ساعة واحدة من الآن ، وأعرف مكاناً تباع فيــه تذاكر رخيصة بنصف ما تحصلون عليه فى هذا الفندق ، إنها رواية جميلة جداً . . تدعى (سيرا نودى برجراك) .

وخفق قلب فوزى لمجرد سماعه الاسم الذى نطقت به المرأة (سيرانودى

برجراك) الرواية التى خلدها المنفلوطى فى العربيه باسم الشاعر . وعجب فوزى لهذا القدر العجيب ، لو أن المرأة قالت أى اسم آخر فى الدنيا لما استطاعت أن تثنيه عن عزمه فى الانصراف عنها فضلا عن أن تحمله على الاهتمام بها والإقبال عليها . لقد كان لهذه الكلمة (سيرانودى برجراك) فعل السحر فى نفسه ، لقد استلت كل السخائم ضد المرأةمن نفسه وأزالت كل حذر وكل حيطة ، وملأته باطمئنان ، ذلك أن (سيرانودى برجراك) كان يمثل له فى صباه ومطلع شبابه المثل الأعلى الذى يتوق لمحاكاته وتقليده ، ذلك الإنسان الموهوب الذى تجحده الدنيا وينكره المجتمع ، ولا يلقى الجزاء إلامن داخل نفسه ومن راحة ضميره، من إحساسه بكرامته واعتداده بنفسه. لقد ضحى سيرانو بكل عروض الدنيا من أجل كرامته ، واسترخص الموت ضناً بهذه الكرامة أن تراق ، فعاش حليف الفقر والاخفاق والعزلة ، وإن ظل موفور الكرامة عالى الجناب . كان يقول الشعر لايهديه إلى الكبراء ليظفر بنشره وطبعه ، فيسرقه السارقون وتضج الدنيا بشهرتهم . كان يؤلف المسرحية الشعرية فلايوجد من يمثلها ، لأنه لا يطرق أبواب الكبراء ، فيسطو عليها الأقزام وينسبونها لأنفسهم ، ويتحدث الناس بنبوغهم ، ويكللون رؤوسهم بالغار ، فاذا فوتح سيرانو فى ذلك ، لم يزد عن السؤال عن وقع المسرحية على الجماهير ، فاذا قيل له إنها أضحكت الجماهير وأبكتهم وألهبت أكفهم بالتصفيق ، أفتر ثغره وقال إن ليس هناك ما يسعده أكثر من ذلك .

وتومض حياة الشاعر الكبير التعس الحظ فى رأس فوزى عندما يشاء القدر أن يحب إبنة عمه روكسان ، فلا تبادله الحب ، بل لا تكاد تحس أنه يحبها ، وتلجأ إليه ذات يوم ليجمعها بمن تحب وأن يضمه تحت حمايته وأن

يحمله على كتابة خطابات غرام لها، ولم يكن هذا الغريم يعرف أن يخط حرفاً واحداً؟ فكان سيرانو هو الذى يكتب له خطابات الغرام ويتقاضى غريمه ثمن الخطابات الرائعة حباً وقبلا. وتتيه روكسان بهذه الخطابات ، وتتحدى سيرانو أن يخط مثلها ،فيطرق برأسه ولا يقول حرفاً .

وامتلأت نفس فوزى بالنشوة لهذه الذكريات لقصته الحبيبة ، وأقبل على السيدة يسألها فى لهفة :

— أحقاً تمثل هذه الرواية على مسارح نيويورك ويمكن رؤيتها بعد ساعة من الزمان ؟

وعندما ردت السيدة بالإيجاب . قال لها على الفور :

— أنا على استعداد لشهود هذه المسرحية .

ولم ينتظر فوزى رأى صاحبه ، إن ياسين لم يأخذ رأيه وهو يسمح لهذه السيدة بالتدخل فى حياتهما ، وهو يوافق على أن تكون دليلة لهما ، وقد جاء الآن دوره فى أن يقبل عرضها .

— ٢ —

لم يكد الستار يسدل على الفصل الأول ، حتى اصطحبت السيدة الغريبة ياسين لتدله على صالة التدخين ليدخن بها سيجارة ، بينما ظل فوزى فى مقعده ليشهد الناس من حوله ، وليتأمل صالة المسرح ونظامه. ولم تلبث السيدة أن عادت

إليه بمفردها وعلى فمها إبتسامة عريضة لأول مرة مذ تعارفا ، وفاجأت فوزى بقولها :

— إننى لم أقدم لك نفسى حتى الآن إسمى جاكلين بيكر . أما أنت فإنى أعرف اسمك ، فوزى السيد من مصر ، مدينة القاهرة .

وصعق فوزى لهذه المفاجأة ، ولم يبق شك لديه فى أن هذه المرأة جاسوسة عليه ، وسألها فى رنة لا تخلو من استنكار .

— ولكن كيف علمت اسمى الكامل وعنوانى .

وضحكت السيدة وقالت :

— عجباً ، أنسيت أنى أرسلت برقية باسمك إلى زوجتك فى مصر .

وتنفس فوزى الصعداء بعض الشيء ، وعجب لنسيانه هذه الحقيقة ، على أن المرأة لم تلبث أن فاجأته بوضع راحة يدها على يده ، وإذ أحس بحرارة يدها الندية بالعرق بعض الشيء ، فقد اشمأزت نفسه ، وازداد انكماشاً مادياً ومعنوياً من ناحيتها ، بينما مضت تذهله بحديثها :

— لقد عرفت صاحبك ببعض صديقاتى من الفتيات ليتسلى معهن ، لنفرح نحن لبعضينا ، إننى لا أحب الشبان الحديثى السن ، أفضل الرجولة الناضجة.

وانقبض فوزى لهذه الملاحظة الأخيرة ، ولم يدر سر انقباضه على وجه التحديد أهو لأن المرأة تحوك شباكها حوله ، كما هو واضح ، أم لأنها ذكرته بأنه تجاوز سن الشباب فى الوقت الذى يتصور نفسه فيه فى ريعان الشباب ، على أية حالة لقد كان عزمه قد تضاعف وقراره لم يعد يقبل أى نقض ، لا تكاد المسرحية تنتهى حتى يكون هذا هو آخر عهده بها .

على أن المسرحية لم تكد تنتهى ، ويمسح فوزى دموعه الغزيرة التى اعتادأن يسكبها كلما جاءإلى نهايةهذه القصة الحزينة ، عندماتكتشف روكسان حب سيرانو الدفين لها ، وأنه هو صاحب الخطابات التى كانت تسكرها وتملأها حباً وإعزازاً لحبيبها كرستيان الذى مات . لاتكاد روكسان تفتح عينيها وقلبها لحب سيرانو دى برجراك الكبير ، حتى يشرع فى الاحتضار ، وعبثاً تحاول روكسان أن تهيب به أن يحيا من أجلها ، من أجل حبهما ، وأن تقول له إنها كانت تحبه طول عمرها دون أن تعرف . . . لقد شاء القدر أن يموت الرجل العظيم . . . . محروماً من كل شيء ، حتى من تقبل حب من يحب .

وغادر فوزى مقعده ، وهو يحس أنه أكثر طهارة وصفاء ونقاء لما ذرف من دموع ، وسار بجوار صاحبه وصاحبته فى الطريق نحو الخروج . فماراعه إلا أن يجد فى بهو المسرح الخارجى سرباً من الحسان يضحكن فى وجوههم ويوجهن الحديث إلى جاكلين التى أسرعت تقول لفوزى :

— هؤلاء هن صويحباتى اللواتى عرفتهن بباسين .

وكاد جمال الفتيات يعشى بصر فوزى ، خاصة وقد كانت أنوار مدخل المسرح الساطعة قد أضيئت ، فألقت بضوئها على وجوههن فزادتهن جمالا إلى جمال : كانت الفتيات يتألقن تحت الأضواء بشعورهن الشقراء ونحورهن البيضاء العاجية وعيونهن الزرقاء ، وشفاههن القرمزية ، يلف ذلك كله معاطف من الفراء الأنيق الغالى الثمن البهيج المنظر .

وأحاطت الفتيات الخمس بفوزى وصاحبه ، وفوزى يكاد يسقط على الأرض من فرط الذهول والارتباك .

هذه هى أمريكا إذن فى خاتمة المطاف ، فتيات بالجملة فارعات ، شقراوات ، أنيقات جريئات .

وسألت إحداهن ياسين :

— أين تحبون أن تذهبوا ؟

وتوالت الاقتراحات ، دون أن يعى فوزى مما يدور حوله شيئاً ، فقد كان مأخوذاً بهذه الصورة العجيبة ، وانتبه على استئنافهن السير ، بعد أن اتفقوا على أن يقصدوا (كافتيريا) عينوها بالاسم .

ولم يكن باستطاعة فوزى أن يفكر أو يتدبر ، فقد كان منظر الفتيات شيئاً لا يسمح للانسان بالتفكر والتدبر ، ولم يكن أمامه إلا أن يسير حيث يقدنه ... أن يسبح مع التيار ... تيار الحياة الجارف فى نيويورك .

وسبح فوزى وسط التيار الآدمى خلال شارع برودواى الذى يدوى اسمه فى الآفاق كمركز للمسرات والبهجة فى قلب عاصمة العالم الجديد .

وسرعان ماوجد نفسه ومن معه من الحسان يذبن وسط اللجة الكبرى لجة السائرين فى شارع برودواى ، والأنوار التى تقهر أنوار الشمس تحيل الشارع إلى أكثر من ضوء النهار ، إلى شعلة من النور الباهر ، وكان ذلك يملأ فوزى بالنشوة ، إذ يجعله يحس بعمق أنه أصبح فى أمريكا ، فى

نيويورك . . . فى خضم العالم الجديد . بهره الضوء ، بهرته مظاهر الغنى والبذخ ، وروح المرح ، إنه شىء لم يسبق لها رؤيته فى لندن أو باريس أو برلين ، لقد بدت هذه العواصم كما لو كانت قرى ريفية بالنسبة لهذا الذى يراه الآن من حوله . . . هذا الوهج والازدحام والجمال والثروة والاستمتاع بالحياة .

جلس فوزى حيث أشير له أن يجلس ، حول مائدة مستديرة أحاط بها سرب الحسان من رفيقاته ، ولم يعن فوزى بمعرفة عددهن بالضبط أكن خمساً أم ستاً ، فمذ رآهن وهو لا يقوى على النظر اليهن مواجهة ، فكان يكتفى باستراق النظر من حين لآخر .

وطلبت الفتيات أنواعاً من مختلف الخمور ، أما هو فقد طلب كأساً من شراب الليمون ، وصاحت أغلب الحاضرات استنكاراً :

— ليمون فى مثل هذه المناسبة ، التى تحتاج إلى شمبانيا !

ولكنه لم يحفل باعتراضهن . وعندما جاء الليمون ، وبينما كان صاحبه يقرع كأسه بكؤوس الأخريات اكتفى هو برفع كوب الليمون إلى شفتيه ، وحانت منه التفاتة إلى ما حوله ، فوجد كل من فى (الكافيتيريا) يحملقون فى جماعتهم ، فقد كان المنظر يبدو غريباً غير مألوف ، حتى فى برودواى ، أن يجلس رجلان يحيط بهما ست أو سبع نساء فلا بد أن يكون للرجلين أو لأحدهما على الأقل شأن أى شأن ، لابد أن يكون أحد نجوم السينما ، أو أحد أبطال هذه الرياضة ، أو أحد رؤساء العصابات ، وإلا لما حف به كل هذا الحشد من الحسان .

وأعاد فوزى كوب الليمون ووضعه على المنضدة دون أن يشرب منه شيئاً ، وانخرط فى ضحكة أقرب إلى الهستريا منها إلى الضحك السوى .

وذهلت الفتيات ، ونظرن إليه فى تطلع ودهشة ، بينما استرسل فوزى فى قهقهته غير عابىء بزيادة تركز الأنظار عليه .

وضحك ما شاء له انفعاله وتوتر أعصابه ، أن يضحك ثم أمسك بكوب الليمون ، وشربه فى جرعة واحدة . وأخرج من جيبه منديلا وراح يمسح دموع عينيه التى ذرفها من فرط انفعاله فى الضحك .

وأصرت الفتيات أن يعرفن سبب ضحكه،وظهر الإستياء على وجوهن ولكن فوزى لم يعبأ بهن ، وقرر أن يطلق نفسه على سجيتها ، وينسى أنه فى أمريكا ، ويتصرف كما يليق به أن يتصرف ، ويتكلم بما ينبغى عليه أن يتكلم به ، لم يعد يشعر برهبة من هذه الحياة الجديدة التى قادته إلى مثل هذا الموقف الذى يرى نفسه فيه ، قبل أن يمضى عليه يوم واحد فى نيويورك .

— أحقيقة ترغبن أن تعرفن لماذا أضحك ؟

— طبعاً .

— إننى أضحك من هذا القدر الذى جعلنى ، ولما يمض على وصولى إلى نيويورك بضع ساعات ، أجلس فى أحد مقاهيها فى برودواى ، وحولى سرب من الحسان كأنى هارون الرشيد تحيط به الجوارى والإماء ، أو أغا خان تحيط به راقصات الفولى برجير .

وفوجىء فوزى بالفتيات يغرقن فى الضحك ، كما ضحك هو من قبل وحيث كان يتصور أنه سيثير استنكارهن بهذه العبارات ، إذا بهن يقبلن عليه أكثر وأكثر ، وانهالت التعليقات التى تدل على إعجابهن بهذه الصورة التى رسمها .

وأحس فوزى بالأرض تتداعى تحت أقدامه ، وبهوة لاقرارلها توشك أن تبتلعه . إنه يجب أن يضع حداً لهذه الجلسة ، يجب أن يخرج من هذا المكان على الفور ويقطع صلته بهاته الفتيات ، وبصاحبه ياسين إذا كانت صلته به ستؤدى إلى أمثال هذا المأزق ، إنه لايجب أن يغفل لحظة عن هدف حضوره إلى نيويورك ، لقد جاءها مجاهداً ، ولم يأتها معربدا ، جاء ليقوم بمهمة سياسية وطنية ، من أجل ذلك دفع له إخوانه ما دفعوا ، من أجل ذلك قدمت فاطمة له كل مدخراتها ، أيمكن أن يخون هؤلاء جميعاً ، ويعبث بأموالهم وثقتهم على هذه الصورة ، أيبدد طاقته فى مثل هذه الجلسة والعلاقات النسائية ؟

وفكر أن يقوم ، ولكن ساقيه خذلتاه ، فقد كان متعباً من فرط الجهد والانفعالات التى عاناها طوال الأيام الثلاثة الماضية ، وكانت الفتيات جميلات وكن مقبلات عليه ، وهو فى نهاية الأمر لم يضيع كبير وقت ، ما الذى يستطيع أن يفعله فى هذه الأيام الأولى ، فضلا عن الساعات الأولى إلا أن يتعرف إلى هذا المجتمع الجديد الذى جاء ليعيش فيه ويتعامل معه إن كل ما ينبغى عليه الآن ، هو أن لا يحاول توثيق صلاته بهاته الفتيات وأن يحرص على إبعادهن .

وقطعت عليه إحداهن تفكيره بسؤالها :

— هل أعجبتك نيويورك ؟

وقاطعتها صاحبتها :

— كيف تسألينه هذا السؤال ، ولم يمض عليه بضع ساعات ، إنه لم ير شيئاً من نيويورك بعد .

ورد فوزى فى خشونة :

— على أية حال فان ما عرفته منها حتى الآن لم يعجبنى . لكأن الناس كلهم قد أصابهم الجنون ، إن كل إنسان يجرى ، كل إنسان يعدو ويلهث ، لماذا ؟ لماذا؟ إننى مذ وصلت وأنا أعيش وسط الزحام ، إننى لم أجد دقيقة واحدة ألتقط فيها أنفاسى بعد رحلتى المضنية لقد اقتنصتنا جاكلين من الفندق ، وأخذتنا إلى المسرح ، واختطفتمونا أنتم من المسرح وجئتم بنا إلى هنا ، ومن هنا لست أعرف إلى أين ، ولماذا كل ذلك ؟ أين ومتى يجد الإنسان نفسه ، متى يخلد إلى نفسه ليفكر ويتدبر ويحس بانسانيته ، ليذوق طعم الحياة ويستمتع بها .

وصفقت إحدى الفتيات :

— برافو . . . برافو ... لقد وجدت أخيراً من يؤيدنى فى أفكارى وآرائى . . . كنت أقول لكن إننا لا نحيا ولكننا نعيش . أنا معك يا صديقى . . . إننى أكره نيويورك ومعيشتها الصاخبة ... أنا أحب الريف أحب الهدوء . . . أحب الحياة الرومانتيكية .

وأقبلت عليه شقراء ، ممتلئة الشفتين وقد انفرجتا فى ابتسام وإغراء . . .

— لا أظن أن حياتنا بكل هذا السوء ... ما رأيك فى فتيات نيويورك ؟

— أتردن أن أكون صريحاً ؟

وتعالت الأصوات :

— طبعاً . . . طبعاً لا نريد إلا الصراحة .

— لقد بهرتنى فتيات نيويورك بجمالهن ، وأناقتهن ، وجرأتهن ، ومع ذلك فأنا أفضل نساء بلادى ، اللواتى يذبن خجلا وحياء ، واللاتى يؤلف الدلال محور حياتهن ، دلال إذا وقفن ، دلال إذا تكلمن ، دلال إذا سرن .

إننى أفتقد هذا الدلال فيكن . المرأة عندنا تريد أن تكون زوجة وأماً فى الدرجة الأولى . . . أما أنتم فلست أعرف ماذا تردن ، وما هى أهدافكن فى الحياة .

وهتفت الشقراء التى تحاول فتنته :

— ولكن يا صديقى ، إننا تماماً كفتيات بلادك . . نريد أن نكن زوجات وأمهات . . . وتنهدت الفتاة وقالت :

— المسألة أننا لا نجد الأزواج ، وليس من السهل أن نصبح أمهات . . .

وتدخلت فتاة أخرى متحدثة فى جد :

ـــ لا تتصور أننا نختلف عن أى أنثى أخرى فى العالم ، ولكن الحياة هنا صعبة وشاقة ، ومن لا يعمل لا يأكل . لطالما تمنيت أن أكون إحدى الجوارى اللواتى نراهن فى الأفلام فى حريم أحد السلاطين ، لا عمل لنا إلا الطعام واللهو والتزين والاستمتاع . . . إن هذا يكون جنة .

وارتج على فوزى لهذا الجواب ، بينما كانت باقى الفتيات ينظرن إليه فى مرح وسرور ، كما لو كن يشهدن أحد المشاهد فى مسرح من المسارح أو ملهى من الملاهى ، ورحن يشجعنه على المضى فى حديثه بهذا الأسلوب وبدلا من أن ينفضضن من حوله كما أوهم نفسه زدن إقبالا عليه ، وانصرافا عن صاحبه الشاب .

ولم يلبث فوزى أن أدرك أن كل كلمة أصبحت تخرج من فمه ، يتلقفنها كما لو كانت تصدر من فم أحد ممثلى مسارح برودواى أو أفلام هوليوود ، وهو يصور سحر الشرق وعطور الشرق ، وحياة ألف ليلة وليلة ، وسمر شهرزاد ، وتجار الرقيق وهم يحملون السياط يلهبن به ظهور الجوارى والعبيد .

لا . . . إنه يجب أن يحذر ، إن هذا اللون العجيب من الحياة الأمريكية يوشك أن يبتلعه إذا لم ينصرف حالا فى عزم وقوة .

وفى عزم وقوة ، وقف فوزى وأعلن إرادته فى الانصراف . فقام الكل بقيامه .

وألح الجميع عند الباب الخارجى ، أن يتكرر اللقاء ، وعرضت كل منهن نمرة تليفونها ، فقال فوزى لهن :

ــ فليأخذها الأستاذ ياسين ، فهو شاب مثلكن ، أما أنا فرجل عجوز . .

واستغرقت الفتيات الشقراوات الفارعات الجميلات الأنيقات ، فى الضحك ، لما اعتبرنه دعابة جديدة ونكتة ، وتصورن صاحبه ياسين سكرتيراً له ، فرحن يتسابقن فى إعطائه نمر تليفوناتهن وأسمائهن وهن يبتسمن كلهن لفوزى ابتسامة ذات مغزى .

— ٣ —

تصور فوزى أنه قد أسدل الستار نهائياً على هذه المغامرة . وأنهى علاقته بهذه السيدة المتطفلة المغامرة جاكلين بيكر . وخاصة بعد أن اشتد عليها وهى تسأله إذا كانا فى حاجة إليها فى اليوم التالى ، فأجابها بالنفى وطلب منها أن لا تضيع وقتها معهما .

ولكنه لم يكد يهبط قبيل ظهر اليوم التالى فى أحد المصاعد الكهربائية وينفذ إلى بهو الفندق المكتظ بالرواد . والغاص بالحركة . . . حتى وقعت عيناه على جاكلين . التى كانت فيما تبدو جالسة تترقب نزوله ، ولا بد أن صاحبه ياسين الذى نزل قبله منذ وقت مبكر قد أعلمها أنه لا يزال فى الفندق . وحاول فوزى أن يزوغ منها . أو أن يتجاهلها ولكنها أسرعت تسد عليه الطريق :

ــ صباح الخير

ورد فى تجهم .

وتجاهلت جاكلين عبوسه وتقطيب وجهه ، وزادت فى ابتسامتها

العريضة وسألته :

— أرجو أن تكون قد قضيت ليلة طيبة بعد تعب الأمس .

— الحمد لله .

— إن وجهك ينطق بالراحة ، لقد أصبحت أكثر حيوية.

واحمر وجه فوزى لهذه الملاحظة ... ولم يقل شيئاً

— ما هو برنامجك لهذا الصباح ، أين تريد أن تذهب ؟

— عفواً ولكن هذه مسائل خاصة بى .

— من غير شك وأنا لا أتطفل عليك ، المسألة أنك فيما يبدو لا تعرف معنى أنك الآن فى نيويورك ، لن تستطيع أن تتحرك حركة واحدة بغير دليل أو مرشد فى أيامك الأولى ، سوف ترى نفسك ضائعاً مفقوداً وسط الشوارع المتشابهة المتقاطعة ، كيف تعرف أن تختار الأتوبيس الذى يوصلك إلى حيث تريد ، أو كيف يمكنك أن تستخدم المترو تحت الأرض بدون دليل .

— سوف أسأل قبل أن أتحرك ، وسوف أستعمل سيارة أجرة .

— إن سيارة الأجرة تكلفك الكثير جداً ، ولا توصلك إلى غايتك إلا فى ضعف المدة التى تصل فيها عن طريق المترو (الأندرجراوند) إنك لا تعرف نيويورك .

وقاطعها فوزى فى حدة ، وهو لا يعرف كيف يتخلص من هذه المرأة :

ولـكن هذه مشكلتي أنا وليست مشكلاتك ، وأنا لست طفلا ولست أريد أن أكون تحت وصاية أحد ، لقد تفضلت بالأمس فساعدتنا ، وإنني أشكرك ، ولـكني أرجو أن تعتبري الموضوع منتهياً عند هذا الحد ، وأن تدعيني وشأني .

وغضت جاكلين من بصرها وقالت :

— كان يجب لأقل من هذا الكلام ، أن أدعك وشأنك على الفور ، إنك تهينني ، ولـكن المسألة أنني واثقة أن هناك سوء تفاهم ، إنك تتصور أنني أفرض عليك نفسي ، أنني أتدخل في شئونك ، مع أن هذا أبعد ما يكون عن خاطري ، المسألة أنك لا يمكن أن تستغني عن دليل ، وأنا بالمصادفة خالية عمل ، فلماذا لا تتخذ مني دليلا لن يكلفك إلا أجرة المواصلات ، مهما كان عملك هنا ، وكان نشاطك الذي جئت من أجله ، فلا مناص لك من زيارة عمارة الإمباير ستيت بلدنج والصعود إلى قمتها ورؤية نيويورك من هذا العلو الشاهق ، ولا بد من زيارة تمثال الحرية ، وركوب المترو لترى كيف أنشأنا مدينة كاملة تحت الأرض ، ويجب أن تذهب إلى بروكلين وإلى لونج أيلند وتشهد حفلات الاستعراض في راديو سيتي أعظم سينما في العالم .

ولم يكن ذلك كله يزيد فوزي إلا ازوراراً . . . لم يغب عن إحساس جاكلين ، ولذلك فقد مضت تقول مغيرة لهجتها :

— وإذا كنت سياسياً ، فأول ما يجب أن تعمله هو زيارة هيئة الأمم ومجلس الأمن في فلاشنج ميدو .

ولانت ملامح فوزى وهى تذكر اسم هيئة الأمم ومجلس الأمن وخفق قلبه ... أجل ذاك مكان يتوق لرؤيته بأسرع ما يستطيع ، ووجد نفسه يقول بحركة تلقائية :

— ليس اليوم على كل حال ، إننى يجب أولا أن أذهب إلى ترست بنك لأفتح حساباً جارياً ، وأن أزور القنصلية المصرية لأسجل حضورى ولأستشيرهم فى بعض الأمور ... وعلى أن أذهب بعد ذلك ، إلى مكتب جريدة الأهرام هنا .

وابتعدت جاكلين عن فوزى ، وأسرعت نحو أحد الموظفين المختصين وراحت تسأله . . ولم تلبث أن عادت إليه وفى يدها ورقة تحمل عنوان القنصلية المصرية ، وعنوان تراست بنك وهى تقول له أما بالنسبة لمراسل الأهرام فلا بد أن عندك عنوانه .

وغلب فوزى على أمره ، وأدرك أنها مفيدة له بالفعل ، وباستطاعتها أن تساعده .

وقادته جاكلين عبر الشوارع فوق الأرض ، وفى قطارات المترو تحت الأرض ، وسط زحام لا ينقطع ، جعله يتصور نفسه قد تحول إلى نملة فى مدينة نمل ، أو نحلة فى خلية نحل . وصدمته حركة المدينة العاتية وتملكه يأس من أن يكون بقدرته أن يشق طريقه نحو ما جاء من أجله فى هذه المدينة العاصفة .

ودفعه اليأس إلى أن يستسلم لمرافقته تقوده حيث تشاء ، بينما راح يعزى نفسه :

— أولا يجب أن أحيط بالمدينة بالفعـــل ، وأتلقى دروسى الأولى فى كيفية السير والانتقال فإن ذلك يجعلنى أفهم بسرعة طبائع الأمريكان ، وأسلوب حياتهم وطرائق تعاملهم ... إن هذه مرحلة لا بد منها على كل حال .

وصعد مع جاكلين (عمارة الإمباير ستيت بلدنج) ، أعلى بناء فى الدنيا ، ووصل إلى الطابق الخامس بعد المائة ... إلى قمة البرج ، وراح يطل على نيويورك شرقاً وغرباً وشمالاً وجنوباً ، وقد ظهرت له كخريطة مجسمة أو لعبة أطفال محكمة .. وملأ فوزى رئتيه بالهواء المكيف داخل زجاج البرج . هذه اذن نيويورك ، لقد تحقق أمله الذى كان يبدو له منذ شهر واحد ، وكأن دونه الصعاب والمهلكات ، ولكن ها هو الحلم أصبح حقيقة ، وها هوذا فى نيويورك قلب العالم الجديد .. فما الذى يستطيع أن يفعله فيها ، لقد تملكه شعور باليأس والقنوط ، وامتلأ إحساساً بأنه ضائع وسط غابة كثيفة مليئة بالحيوانات المفترسة والوحوش ، والنباتات المتكاثفة السامة ، والهوام والحشرات . . . حيث لا يعرف له طريقاً بل لا يتبين موطىء قدميه .

وبينما كانت جاكلين تشرح له ما يرى ، وتفسر له لماذا انفردت نيويورك ببناء ناطحات السحاب . . . فهى تقع فوق جزيرة منهاتن ، ولما كانت الأرض محدودة . . . والمدينة تتضخم وتتسع ، فلم يبق إلا أن تمتد رأسياً حيث تمتد باقى مدن العالم أفقياً . . . كان هو يعيش فى دنياه الخاصة ، غارقاً فى تأملاته الحزينة السوداء :

ـ أى جنون دفعه إلى هذه البلاد ، لقد أخطأ إذ تصورها شيئاً يقارب انجلترا التى سافر إليها أكثر من مرة ... إن انجلترا تحتل مصر ، ومن هنا فان كل ساستها ، كل صحافتها تعرف كل شىء عن مصر ، ويهمها سماع ما يجرى فى مصر ... أما هنا فأى علاقة لهم بمصر . . . إنهم لا يحسون بمصر أو بأى مكان آخر فى العالم . ونقوده ... نقوده المحدودة التى يحملها أو التى ستجىء له فى القريب العاجل . . . بماذا تفيده إلا أن يأكل ويشرب وينتقل . .

ليته سمع كلام وفاء . . ليته لم يقدم على هذه الرحلة .

وأخرجه صوت جاكلين من تأملاته الحزينة :

ـــ والآن ادخل إلى هذه (الكابينة) لتبعث برسالة صوتية إلى زوجك وأصدقائك ، من قمة الإمباير ستيت بلدنج .

وخفق قلب فوزى وجاكلين تحدثه عن رسالة لزوجته ، وأعارها لأول مرة سمعه . فراحت تشرح له الموضوع ، لقد كان هناك جهاز آلى داخل حجرة صغيرة زجاجية الجدران ، وما عليه إلا أن يسقط ربع دولار فى الثقب المخصص لذلك ثم يشرع فى مخاطبة زوجته بما يريد فلا يكاد يفرغ من حديثه ، حتى يعاد ما قاله بصوته على مسمعه ، وإن هى إلا لحظات قصيرة حتى تبرز له اسطوانة وقد سجل عليها خطابه ، وما عليه بعد ذلك إلا أن يضعها فى غلاف مخصص لذلك ويكتب عليه العنوان المطلوب إرساله إليه ، ثم يودع المظروف فى المكان المعد لذلك ، لكى تبدأ رسالته الصوتية رحلتها من قمة الإمباير ستيت بلدنج نحو أى جزء من أجزاء العالم .

وابتهج فوزى ، وأدخلت إلى نفسه فكرة مخاطبة زوجته نسمة من تفاؤل وأمل ، وأسرع إلى تنفيذها ، وأسرع يخاطب زوجته :

زوجتى الحبيبة ، يا وفاء الغالية ، ها أنت أول من يبعث إلى بشعاع من الأمل وسط هذه الظلمات المحدقة بى ،ويعدنى الحديث إليك بقوة أقاوم بها هذا الشعور بالضياع ، كيف أنت يا زوجتى الحبيبة ، كيف أولادنا ، كيف خالد ، وجهاد وثبات ، كيف بيتنا على النيل ، كيف نسائم الفجر وقهوة الصباح ، لقد حرمت من ذلك كله يا وفاء . ليتنى استمعت إلى نصيحتك وظللت فى مصر ، أتراك لا زلت غاضبة على . . أكانت موافقتك تحت إلحاح والدتك عن غير رضا واقتناع ، أرجوك .. أرجوك ياوفاء أن ترفعى غضبك عنى ، فلا شك أن ما أعانيه الآن هو بعض ثماره . أحبك .. أحبك .. أحبك .

وكاد قلب فوزى يقفز من صدره من شدة الفرح ، وكلماته تعاد على مسامعه ، ثم وهو يتلقى بعد ذلك الاسطوانة الصغيرة المسجل عليها العبارات وهو يضع الاسطوانة فى داخل المظروف ويكتب عليها العنوان ، ويسقطها فى المكان المعد لها لتشرع فى رحلتها ، عبر الأطلسى نحو أرض النيل والأهرام .

وتفتحت شهية فوزى لمزيد من الرسائل والأحاديث ، فليبعث برسالة إلى شكرى وأعضاء الحزب ، ليسجل لهم انطباعاته الأولى :

— لقد بدأت أحس بصعوبة المهمة التى جئت من أجلها، بل لا أكتمكم أن اليأس يوشك أن يدب إلى نفسى ، لاستحالة رفع صوت مصر وسط هذه الغابة الموحشة والبرية المقفرة ، ومع ذلك فانى استمد من إيمانكم بمصر

إيماناً ومن عزمكم عزماً ، ومن تضحياتكم دليلا ومرشداً .

وسرح فوزى بخاطره نحو فاطمة .. إنه يجب أن يبعث لها كذلك برسالة ، ولكن ماذا يقول لها ، إن البريد يمر على الرقابة ، وهذه الأسطوانة بالذات ، لا يمكن إلا أن تسمعها وتتداولها أيد كثيرة .. لا إنه لا يستطيع أن يقول لفاطمة شيئاً فى رسالة مفتوحة .

ولم يكد يفرغ من إرسال هاتين الرسالتين ، حتى انطفأت من جديد فى نفسه هذه الومضة التى أضاءت حياته ، وهو يتصل روحياً ونفسياً بوطنه وزوجته وإخوانه .

ولا تكاد صاحبته تهبط به من جديد إلى شوارع نيويورك حتى عاوده الإحساس بالقلق والشعور بالضياع .

* * *

جلس فوزى وجاكلين فى أحد المطاعم يتناولان طعام (الغداء) .. وقد بدأت تزيده معلومات عن نفسها :

— إنها عاطلة عن العمل ، تبحث عن عمل ، وهى متزوجة ، ولكنها فى حالة انفصال جسدى عن زوجها ، تمهيداً للطلاق .

وامتلأ فوزى بالفزع لهذه المعلومات ، وطافت فى رأسه مئات الصور التى طالما شاهدها فى روايات السينما الأمريكية ، عندما يعمد أحد الزوجين لتدبير فضيحة لتكون سنده للطلاق من زوجته ، ما الذى يدريه الآن أنه لا يتخذ ذريعة لطلب الطلاق ، من يدريه أن زوجها ليس إلا واحداً من رجال العصابات والبلطجية ، وأنه لن يلبث أن يخرج عليه فى أى لحظة

من وسط هـذا الزحام ، ليصفعه أو يركله ، أو يرديه بلكمة من هذه اللكمات الأمريكية ، وأن يرى صوره وهو طريح الأرض منشورة فى كل الصحف . ويفقد فوزى شهيته فيتوقف عن المضى فى تناول الطعام ، ويبحث بنظره عن (الجرسون) ليدفع له الحساب ويهرب .

وكأن جاكلين قررت أن تجهز عليه إجهازاً .

— إننى يهودية كما تعرف !

وامتقع وجه فوزى بعد أن هرب الدم لا من وجهه بل من جسده . يعرف ؟ !

طبعاً إنه لا يعرف ، ولا يمكن أن يعرف ولا يحب أن يعرف . يهودية ؟ ! يا إله العرش والسموات والأرض ، والملائكة والشياطين والجن والأنس .

يهودية .. تلك التى تصاحبه مذ وضع قدميه على أرض نيويورك .

يهودية تلك التى يضع ذراعه تحت إبطها ويزاملها منذ الصباح ؟

ولم يعد لدى فوزى شك فى صدق إحساسه من أنها لا بد أن تكون جاسوسة عليه ، لحساب العصابات الصهيونية ، لا بد أنها المرأة التى سلطت عليه للايقاع به .

ويعود فوزى بذهنه إلى الوراء مستعرضاً الحوادث والطريقة التى دخلت بها فى حياته ، ليستبعد إمكانية أنها تعرفه ، فضلا عن توقع حضوره فى الفندق الذى تلاقت معـه فيه . لقد حولت طائرته طريق هبوطها إلى

شيكاغو بدلا من نيويورك ، بسبب الأحوال الجوية . وقد تركت الشركة لكل راكب حرية اختيار الطريقة التي يصل بها إلى نيويورك ، واختار هو طريق القطار ، والساعة التي يسافر فيها ، ولقد كان اختيار الفندق الذي نزل فيه بمحض الصدفة المطلقة ، وبمجرد وصوله إلى الفندق ، كانت هناك فيستحيل أن تكون قد عرفت بقدومه إلى هذا الفندق في هذه الساعة فوقفت تنتظره ، وهز فوزي رأسه ونظر إليها من طرف خفي :

— ومع ذلك ففي هذه المرأة شيء مريب ، إن قلبه قد نفر منها منذ اللحظة الأولى .. والآن وقد عرف أنها يهودية ، وهي على خلاف مع زوجها ، فلم يبق أمامه إلا أن يتخلص منها حالا ، وأن يختفي من وجهها بأي ثمن ، حتى لو أدى الأمر إلى مغادرة الفندق الذي يقيم فيه .

وعاد يتفرس فيها ، ويطيل النظر إلى وجهها ، إلى حركاتها ، إلى عمرها . ويلحظ فوزي لأول مرة ، بعد أن اعتاد رؤية ملابس الأمريكيات ، أن ملابسها بسيطة متواضعة تكاد تكون رثة من كثرة الاستعمال . ومن تأمل ثوبها ، انتقل إلى دراسة وجهها ، فالتقت عيناها بعينيه فاهتز بدنه تأثراً من نظرتها إليه ، التي كانت تخفي وراء ابتسامة مصطنعة ، نوعاً من التوسل .

وأحس بقلبه ينعصر ، ومن يدريه أن لا تكون صادقة في هذا الذي تقول ، يهودية خالية من العمل ، لا بيت لها ولا زوج تلتقط أول عابر سبيل لتحصل على غذائها ، فقد لاحظ أنها كانت تأكل بنهم . ويسائل نفسه في شك :

— لو أنها كانت جاسوسة لماذا لم يختاروا واحدة أجمل منها ، لماذا

لم يختاروها أصغر سناً وأكثر إغراء ، لماذا لا يلبسونها ملابس أكثر قيمة . . لماذا لم تكن كواحدة من فتيات الأمس ، اللواتى أدرن عقله .

ولكن الوساوس تحاصره من كل جانب :

— من يدريك أن لا يكون ذلك هو جزء من الخطة ، وسبيل لإحكامها . لا .. لا .. يجب أن يهرب منها .

وقال لها وهما خارجان من المطعم ، إنه يريد أن يعرف الدرس الذى لقنته إياه ، ويستخدم المترو لأول مرة معتمداً على نفسه .

ورجاها أن لا تحاول رؤيته بعد اليوم . ولكى لا يدع لها سبيلا للاعتراض .. قدم لها دولارين على سبيل الأجر .

وحلقت المرأة فى الدولارين ، وامتقع وجهها ، وتصور فوزى أنه قد أهانها لضآلة المبلغ .. فسحب الدولارين بسرعة وراح يعتذر ، ولكن جاكلين قالت له :

— لا داعى للاعتذار ، إنها مكرمة منك أن تقدم لى دولارين ، ولكن المسألة هى أننى لم أفعل شيئاً أستحق عليه هذين الدولارين ، لقد اتفقت معك أن أكون دليلا بغير أجر إلا أجرة المواصلات .. ولقد سعدت بصحبتك ، ودفعت عنى ثمن غدائى ، فلست أعتبرك مديناً لى بشىء .

ولم يكد فوزى يدرك أن هذا هو سبب ترددها حتى ألح عليها من جديد أن تقبل منه الدولارين .

ولم يصدق فوزى أنها أخذت الدولارين ، وتركته بمفرده أخيراً .
وراح فوزى يتأمل ظهرها وهى تبتعد عنه .. لقد أحس بشعور

طاغ بالشفقة عليها . . ومع ذلك فقد كان عزمه قد استقر . سوف يشترى خريطة لنيويورك ، سوف ينتقل من الفندق ، سوف يستعين بالمستر كاتبه مراسل الأهرام الذى تعرف إليه ، فيما يحتاج إلى عون . ولكنه لن يراها . لن يراها بعد اليوم .

— ٤ —

— مستر فوزى ؟

— نعم !

— أنا جاكلين ، أنا فى انتظارك فى بهو الفندق ، أم تحب أن أصعد إليك فى حجرتك .. إن لدى ما أعرضه عليك .

وكاد فوزى أن يصعق ، ما هذه المصيبة التى نزلت عليه ، وارتجف خوفاً من أن تنفذ تهديدها بالصعود إليه فقال لها :

— لا .. لا أنا نازل إليك .

وفكر فى أن يبحث عن وسيلة ليهرب منها ، لن ينزل عن طريق المصاعد الكهربائية ، سيستعمل السلم قبل النهاية .. ثم يخرج من أحد الأبواب الخلفية .. ويتولاه القنوط ولكنها ستظل تنتظر ، وستتصل به فى حجرته .. وسوف تتصل بموظفى الفندق سؤالا عنه .. ومن يدرى ما الذى تفعله .. من الأفضل أن يلاطفها ويلاينها حتى ينتقل من الفندق .

ونزل فوزى ، وعلى الرغم من محاولته اصطناع البشاشة ، فقد كان وجهه عابساً متجهماً ، ولكن جاكلين لم تلق بالها إلى عبوسه وقالت له فى غير مقدمات :

— لقد علمت من صاحبك ياسين أنك تبحث عن سكرتيرة لتكتب لك رسائلك على الآلة الكاتبة ، وتقوم بتنفيذ ما تريد تنفيذه من أعمال .

وفارق فوزى كل ما كان لديه من رغبة فى مصانعتها ، فقال لها فى جفاف وعبوس :

— أرى أن أخبارى أصبحت لديك أولا بأول ، ولتصحيح معلوماتك ، إننى أبحث عن سكرتير لا سكرتيرة .

— ألم أقل لك إنك لا تعرف نيويورك .. لا يوجد رجل واحد يقوم بعمل السكرتارية ، ولو وجدت رجلا فقد يكلفك مائتى دولار فى الأسبوع ، بينما لا تكلف السكرتيرة الممتازة أكثر من خمسين دولاراً فى الأسبوع .. وأنا أعرض عليك العمل بنصف ذلك القدر ، بعشرين دولاراً إذا شئت أو دون ذلك .

وأحس فوزى بلذعة حسرة فى قلبه نحو تلك المرأة ، إنها لا يمكن أن تكون جاسوسة بحال من الأحوال ، لا يمكن أن تكون مسلطة عليه من أى جهة من الجهات .. فالجواسيس والعملاء ، لا يتصرفون بهذا الأسلوب المكشوف ، لا بد وأن يكونوا أكثر كياسة وبراعة ، أما هذه فامرأة بائسة وسط هذه الدوامة والغابة .

وينعطف قلب فوزى نحوها :

— هل عندك آلة كاتبة ؟

— طبعاً . وإذا لم يكن عندى فإنى أستأجر ، لا عليك من هذه الناحية .

— ولكن السكرتيرة التى ستعمل معى ، يجب أن لا تلبس فساتين حمراء وزرقاء ، أو تطلى وجهها بكل هذا الطلاء ، يجب أن ترتدى ثوباً قاتماً وأن لا تتزين بأى زينة . إننى رجل جد وعمل ، ويجب أن يكون ذلك سمت من تعمل معى كسكرتيرة .

— أنا على استعداد أن أفعل كل ما تطلبه منى ، ولكن أريدك أن تعلم لمعلوماتك الخاصة . أن الفتيات فى نيويورك يتزين بمساحيق التجميل بمجرد بلوغهن العاشرة من عمرهن وربما قبل ذلك ولن تجد فى طول نيويورك وعرضها فتاة واحدة غير متزينة ، ومن لا تتزين تعتبر مريضة ، وتلفت الأنظار إليها بهذه الصفة .

— دعينى على كل حال أفكر فى الأمر ، أما هذا الصباح فلدى بعض الأعمال سأقوم بها .

ومد فوزى يده إلى جاكلين بدولارين .

ولمعت عيناها بالدموع ، وأخذتهما فى صمت وأودعتهما حقيبة يدها ، وقالت له وهى تنصرف :

— كأنك تحس أنى لم أذق طعاماً منذ تركتنى بالأمس ، فقد كان على بعض الديون التى سددتها بالدولارين اللذين أعطيتنى إياها بالأمس ، فلم يبق لدى ما أتعشى أو أفطر به .

وأحس فوزى بنبرة من الصدق فى كلامها ، جاسوسة أو غير جاسوسة ، يهودية » أو غير يهودية .. إنه لا يمكن إن يقاوم رغبة الخير فى نفسه ..

وجال فوزى لأول مرة جولة موفقة فى نيويورك .. حيث زار الصحف الأمريكية التى تصدر بالعربية وتعرف بأصحابها من العرب المتأمركين ،

والذين وعدوه بكل صنوف المساعدة ، ووضعوا صحافتهم تحت تصرفه .

وكان سروره الأكبر لعثوره فى جولته على كنز ثمين وهو الدكتور أبو شادى ذلك المصرى العظيم الذى وعده بأن يعاونه فيما جاء من أجله .

وفرك يديه وهو يعود آخر النهار من جولته .. وغمغم .. مهما بدأ الطريق طويلا وشاقاً ، حتى لو كان ألف ميل .. فيجب أن يبدأ الإنسان خطوة .. ولقد بدأ خطوته .

* * *

بكرت جاكلين فى اليوم التالى ، وكانت تحمل آلة كاتبة وارتدت (تاييراً) ولم تطل وجهها بأى مساحيق . ومست هذه الحركة شغاف قلبه وأحس بالأسى من أجلها . إن جولته الموفقة بالأمس قد جعلته يعدل عن أن يتخذ له سكرتيرة خاصة ، فقد وجد فى المكتب الفلسطينى العربى حيث يعمل مراسل الأهرام ، كل الأجهزة اللازمة لإنجاز ما يريد من أعمال . ولم يشأ أن يصدمها بعد ما بذلت من جهد لإرضائه ، ورأى أن يعوضها عما تحملته من أجله فقال لها فى عطف وحنان :

— أرجو أن توفقى للحصول على عمل مع من هو خير منى . لقد عدلت عن استخدام سكرتيرة خاصة ، ولكنى أدعوك لتناول طعام العشاء معى هذه الليلة .. وأدعوك بعد العشاء إلى شهود استعراض راديو سيتى .

عندما جاءت جاكلين فى المساء فى الموعد المتفق عليه ، لم يتمالك نفسه من التأثر وهو يراها وقد بذلت آخر ما عندها من جهد للتزين ، وارتدت خير ما عندها من ملابس ، وتحلت ببعض الحلى الزائفة واستنجدت بآخر ما لديها من أنوثة لتثير رغبته . وراحت طوال العشاء . تنظر له فى رقة وافتتان ، وتغمره بحنانها ورغبتها .

وهمست فى أذنه وهما يشهدان رواية السينما بعد أن فرغ الاستعراض العظيم :

— إن فندقى الذى أقيم فيه لا يتدخل فى شئون النزلاء ، وباستطاعتنا أن نخرج من هنا إليه ونمضى سهرة ممتعة .

وغاص قلب فوزى ، وعادت إليه كل شكوكه وهواجسه ، إنها تستدرجه للوقوع فى الفخ أخيراً ، لا بد أن كل شىء أصبح معداً فى هذا الفندق الذى تستدرجه إليه ، زوجها ، والبوليس السرى لضبطهما متلبسين فى حجرتها ، ليكون ذلك ذريعة للطلاق ، أو يكون فخاً نصبته عصابات الصهيونية التى بدأت تتحرك ضده . إن اليهود يعرفون نشاطه ضد الصهيونية ، لقد وقعت فى يده نشرات وكتب ذكر فيها اسمه باعتباره من أعداء اليهود ، ومن أعوان النازية .. لقد كتبوا فى بعض الصحف ينددون بوزارة الخارجية الأمريكية لسماحها لإنسان مثله بدخول البلاد . إنه فى خطر محقق ما بقى يساير هذه المرأة .

ما له هو وما إذا كانت صادقة أم كاذبة ، ما له هو وبؤسها وشقاؤها ، أجاء من مصر إلى نيويورك ، أترك بلاده وزوجته وأولاده ، لكى يحنو فى نيويورك على يهودية بائسة بفرض أنها كذلك؟ لتذهب إلى الجحيم ، سوف يغير من الغد الفندق الذى ينزل فيه . لقد استطاع أن يحصل على مكان فى فندق الكومودور بمساعدة هيئة الأمم المتحدة التى اعتمدته مراسلا صحفياً عندها . سوف ينتقل إلى الفندق الجديد ولن تعرف له مقراً . أما الآن فلا يجب أن يظهر لها شيئاً من ذلك .. إنها ليلة وتنتهى .

واعتذر لها فى رقة ، وأدهشه أنها لم تلح عليه فى قبول دعوتها .

وشكرته فى انكسار على دعوته أياها للعشاء والسينما ، وأحس فوزى بلذعة الألم فى نفسه وراح يناجى ربه :

— إلهى أنت تعلم سريرتى ، وتعلم أنه لا يشدنى إلى هـذه المرأة ويربطنى بها ، إلا إحساسى ببؤسها وحاجتها إلى العون . إلهى لا تجعل إحسانى يرتد على وبالا . إلهى احفظنى وارعنى مما يكيدون أو يحيكون .

ولم تكد جاكلين تبتعد عنه بعد أن صافحته مودعة ، حتى أسرع يناديها :

— جاكلين .

— أجل يا مستر فوزى .

— لقد نسيت دولاريك .

— لقد أنفقت على الكثير جداً هـذا المساء ... العشاء والسينما ... باى حق تعطينى نقوداً فوق ذلك .

— إنهما قد ينفعانك .

* * *

الفصل السادس

— ١ —

كان قد انقضى على فوزى منذ وصل إلى نيويورك ما يقرب من أربعة أسابيع ، وكانت العجلة بالنسبة له قد بدأت تدور ، فقد نشرت الصحف الأمريكية التى تصدر باللغة العربية ، وعلى رأسها جريدة الهدى والبيان كل شىء عن مهمته ، وعن القضية التى جاء لعرضها على المجامع الدولية ، وأهابت بالأمريكان من أصل عربى أن يقفوا إلى جواره ويمدوا له يد المساعدة . وكان قد قابل بعض الشيوخ والنواب الأمريكان وشرح لهم قضية الاحتلال البريطانى ووجوب جلاء الإنجليز عن مصر وتوحيد مصر والسودان . وكان مظهر استقراره ونجاحه فى توطيد أقدامه ، هو هذا الفندق الجديد الذى نزل فيه بتوصية من سكرتارية مجلس الأمم باعتباره صحفياً مصرياً . لقد أصبح يقيم فى فندق فخم بأجر معتدل ، ودون أن يطلب منه كل بضعة أيام أن يبحث عن فندق جديد . وكان منهمكا فى فى كتابة تقرير كامل لشكرى عن كل ما تم من خطوات ، عندما سمع دقاً على باب حجرته .

وأحس فوزى بشىء من الانزعاج . . . من الذى يدق على باب حجرته . أن موظفى الفندق يتصلون به دائماً عن طريق التليفون ، وليس يعرف أحد من معارفه وأصحابه الجدد مكانه فهو لم ينتقل إلى هذا الفندق إلا منذ يومين .

وأسرع يفتح الباب ، فاذا به يكاد يصعق ، ويقع مغشياً عليه لرؤية الطارق . . . إنها جا كلين وماء المطر يقطر من معطفها وقبعتها ، وهى تنتفض من شدة البرد ، وبدت فى هزالها كطائر جريح بلله المطر . وأسرعت قبل أن تقول شيئاً تغلق الباب وراءها . . . وفى أقل من لمح البصر كانت تخلع قبعتها ومعطفها وتضعهما على الأرض بالقرب من المدفأة ، التى قربت يديها منها وراحت تفركهما بشدة ، فى الوقت الذى كانت تتكلم فيه بسرعة فائقة :

— إن ملاحظة الطابق هى التى دلتنى على طريق حجرتك وأذنت لى بزيارتك ، وهى التى أمرتنى أن أتخلص بسرعة من معطفى وقبعتى المبلولتين ، وأن أتدفأ فى حجرتك وإلا أصبت بالتهاب رئوى .

ولم يبق لدى فوزى ذرة من شك ، أنه يصل الآن قمة الدراما التى كان يخشاها على الدوام ، وامتقع وجهه وخفق قلبه وأحس بدنو الكارثة ، ولم يغب عن باله قولة جاكلين إن ملاحظة الطابق هى التى دلتها على حجرته وهى التى نصحتها بالدفء فى حجرته ، بأى حق تفعل الملاحظة ذلك ، إنها تعلم أن قواعد الفنادق فى نيويورك تحظر أن تدخل امرأة غريبة إلى حجرة نزيل بالليل ، فلحساب من خالفت هذه القاعدة المرعية . . ؟ وتجسمت فى خاطره أطراف المؤامرة ، إما أن تخرج هذه المرأة فوراً ، وإما أن يخرج هو . وسرعان ما اكتشف أنه بملابس النوم ، فلم يبق إلا أن يطردها هى . وأسرع ليدق الجرس ليستدعى أحد الخدم ليكون شاهداً على ما يحدث ، وليطلب منه إخراجها ، فاذا به يفاجأ بما جعل الدم يجمد فى عروقه ويشل حركته ، فقد كانت جاكلين تخلع حذاءها وجوربها وتمد ساقيها العاريتين نحو المدفأة .

وارتج على فوزى ، وفقد القدرة على التصرف لبضع لحظات ، بينما قالت له جاكلين دون أن تنظر إليه .

— مالك تقف هكذا خائفاً مذعوراً ، قلت لك إن ملاحظة الطابق هى التى أمرتنى أن أخلع معطفى وحذائى وجوربى حتى لا أصاب بالتهاب رئوى . . . إنها سيدة طيبة وهى تعرفك وتقدرك ، ولم أكد أسألها عنك حتى قالت . . إننى أعرفه ذلك المصرى اللطيف ، إنه سيد مهذب ، وعندما رأت الماء يتقاطر من ملابسى . . . طلبت منى أن أسرع بخلعها وأن أتدفأ حتى لا أصاب . . . ووصفت لى طريق الحجرة .

— ولكن جاكلين ما الذى جاء بك إلى هنا ، كيف عرفت عنوانى الجديد . . . لقد حدثتك عن شدة حرصى على سمعتى ، وحدثتك عن ظروفى ومركزى ، وكيف أضار إذا عرف أن لى صلات نسائية .

ونظرت إليه جاكلين بعينين تفيضان تضرعا :

— أولا لا يغنيك حالى عن سؤالى ، أولا تعرف أننى لم أكن لأبتل هكذا كما لو كنت نقعت فى الماء ، لو كان لدى ما أركب به ، لقد كان على أن أسير حتى أجىء إلى هنا ، وأرجوك أن تصدقنى عندما أقول لك ، إنك عندما غادرت الفندق فجأة دون أن تدع لى عنوانك الجديد ، أو تشير لى على مااعتزمت عليه،أدركت أنك تريد التخلص منى ، ومن ناحيتى قررت أن لا أزعجك بأكثر مما فعلت . . . ولكن ماذا أفعل . . . لقد أصبحت الخيط الوحيد الذى يشدنى إلى الحياة ، ووجدت نفسى مغلوبة على أمرى إما أن أجىء إليك . . . أو أن أنتحر .

وصرخ صارخ فى نفس فوزى . . . إن ذلك كله لا يمكن أن يكون تمثيلا ، إنها امرأة شقية بائسة وسط نيويورك التى تسحق الضعفاء والبؤساء والتعساء . وانعصر قلبه شفقة عليها ، وتلاشت من نفسه فكرة طردها ، وحل محلها فكرة صرفها بالحسنى وإعطائها ما اعتاد أن يعطيه لها زكاة عن نفسه وبلاده ومبادئه .

وزال التوتر بعض الشيء من نفسه ، وراح ينظر إلى ساقيها العاريتين ، إلى جسمها الدقيق ووجهها الأبيض الذى كان مشرقاً بالتطلع اليه ، فلم تتحرك فى نفسه نزعة اشتهاء بقدر ما كان قوى الرغبة فى التخلص منها ، وقد زاده هذا الإحساس عطفاً على المرأة التعسة وشفقة عليها . الواجب أولا وكان واجبه أن يقنعها ألا تكرر هذه الفعلة ؛ وأن تنصرف الآن فى هدوء . . . على أن فوزى لم يطمئن باله ويدخل معها فى حديث ، إلا بعد أن لبس معطفه ، فوق (بيجامته) وفتح باب الحجرة ، وخرج إلى الدهليز الخارجى مستطلعاً ، وظل ينصت برهة طويلة فوجد كل شيء هادئاً . . . ولم تقع عيناه على ما يريب فعاد إلى الحجرة واقترب من جاكلين ، التى كانت قد ازدادت استرخاء بعد أن دبت الحرارة فى أوصالها ، وظهرت الحمرة فى وجهها فازدادت نضارة ، ولكن حواس فوزى ومشاعره كانت أبعد ما تكون عن الإحساس بأنوثتها أو رغبتها :

— جاكلين يا صديقتى ، لا أحسبك فى حاجة إلى أن أكرر لك ما قلته أكثر من مرة ، إننى إنسان متدين متمسك بدينى ، وأنا رب أسرة متزوج ولى أولاد ، وأحب زوجتى ، وأنا هنا فى مهمة قومية وعمل جاد لا يسمح لى بالاستمتاع بالحياة العادية .

وأنزلت جاكلين ساقيها من فوق المدفأة ، وزحفت فوق السجادة

المفروشة على الأرض ، حتى اقتربت من مكان وقوفه ، وقالت له فى رقة وعتـاب :

— لست فى حاجة أن تـكرر على مسامعى هذه الإسطوانة ، أولست أرى بنفسى أكثر مما تقول إنك لا تدخن ، ولا تشرب الخمر ولا تأكل لحم الخنزير ، إنك تصلى وتصوم ، ولو كان ذلك هو ما تقوله عن نفسك لما كان فى ذلك أى أثر فى نفسى ، ولما زدت فى نظرى عن أن تـكون واحداً من المنافقين المتاجرين بالدين والذين نلقى منهم الأمرين ، ولـكنى لست فتاة صغيرة غريرة ولى معرفة بالرجال ، لقد دفعنى اليأس وخلو ذات يدى لاصطياد أول رجل أصادفه ، وكنت أنت ذلك الرجل ، وعندما أخذتك إلى المسرح لم أتصور أن الليلة ستنتهى إلا ونحن ننام سوياً ،ولـكنك لم تفعل ورحت بعد ذلك تشركنى فى غدائك وعشائك وتصحبنى إلى السينما دون أن تطلب منى شيئاً ، فتصورت أنك خجول مرتبك ، فعرضت عليك الحضور إلى فندقى وصرحت لك أن أحداً لن يتدخل فى حريتنا ، ولـكنك رفضت واعتذرت،وفى كل مرة كنت تعطينى مالا ، تعطينى هذين الدولارين فى غير مقابل . . . ولـكن ضميرى يؤنبنى ، إننى أسلبك نقودك ولا أقدم لك شيئاً ، إن هذا ليس عدلا . ولذلك قررت أن أخطو الخطوة التى لا تقدم عليها امرأة ، أن أجىء إليك بنفسى ، ساعية على قدمى لأهبك نفسى . وتأثر فوزى بهذه الصراحة، واهتزت نفسه بالرضا عن الأثر الذى أحدثه بنفسها،وطاف بنفسه طائف من الغرور ، ومع ذلك فقد كان الخوف من أن يكون ذلك كله تمثيلا وجزءاً من مؤامرة ، يسيطر على نفسه وينعكس على تصرفاته ومشاعره ، فلم يزده كلامها ، إلا انكماشاً وازوراراً .

وتشبثت جاكلين بساقيه ؛ وراحت تصعد بذراعيها المحيطين به حول جسده وتهم واقفة . . حتى إذا استوت واقفة ، كان ذراعاها يضمانه إلى

صدرها بعنف بحيث أحس بكل أجزاء جسدها على جسده،وأحس بحرارة بطنها ، وحرارة صدرها ، بينما كانت شفتاها تبحثان عن شفتيه ،وقد مال برأسه بعيداً عنهما .

— فوزى . . . أرجوك . . . أتوسل إليك قبلة واحدة ، قبلنى ، إن أحداً لن يعلم ، إن زوجتك لن تعلم . . . إنها بعيدة جداً ولن تعلم . . وما دامت لا تعلم فلن تتأذى . . . ليس يؤذينا إلا ما نعلم .

ولم يستطع فوزى أن لا يستجيب لتوسلها ، فقبلها قبلة خفيفة متحفظة ولـكـنها أمسكت برأسه فى نهم وضغطت على شفتيه بكل قوة ، بينما كان جسدها الحار الدافىء ، ينصهر فوق جسده ، وأحست المرأة بأن جسده لا يجاوبها ، إنه يتقلص بعيداً عنها ، فانطفأت رغبتها فجأة ، وزايلتها نشوتها وسحبت ذراعيها من حوله وقالت له فى ذلة وانكسار :

— أترانى قبيحة إلى هذا الحد الذى يثير تقززك واشمئزازك.

وأوشكت الدموع أن تطفر من عينى فوزى شفقة على هذه المرأة التعسة وصاح بها فى صوت مضطرب :

— جاكلين إنى أحتج ، أمنعك من أن تؤلمينى بهذا الأسلوب ، إننى لم أسىء إليك لتعامليني هـكذا . . . أقسم لك إننى لو كنت متخذاً صاحبة لى فى نيويورك فستكونين هذه الصاحبة المسألة هى أننى لا أستطيع . . . زوجتى . . . لقد أقسمت لها . . . أولادى . . . ظروفى . . . مكانتى . . . عديد من العوامل ... لست أعرف ... لست أعرف ...سامحينى .

وجلس فوزى مطرق الرأس حزيناً فى أسى .

ولم تحر جاكلين جواباً ، ولكنها راحت فى صمت تلبس جوربها من جديد وتضع الحذاء فى قدميها ، وقد جعلت هذه الحركة فوزى يحس بكثير من الراحة ، ويطرد من نفسه آخر ما كان يعتمل فيها من قلق ، وبدأت نفسه تقطر شفقة وحناناً على هذه المرأة .

وبينما كانت تلبس معطفها وتثبت قبعتها فى المرآة فوق رأسها ، أسرع هو إلى حافظة نقوده ، وأخرج منها ورقة من فئة الخمسة دولارات ، فقد كان يحس أنه يجب أن يعمل شيئاً غير عادى للتنفيس عما يحس به نحوها من عطف وإشفاق . وربت على ظهرها :

— جاكلين .

ورفعت إليه عينيها وقد خلتا من كل حيوية .

— لا تغضبى منى ولا تحقدى على ، إننى أحبك ... أحبك كصديقة... كأخت ... وأرجوك أن تتقبلى منى هذا المبلغ الزهيد ، كبرهان على صداقتى وأخوتى .

وهزت رأسها ، وقد ظهرت عليها الحيرة من جديد :

— ولكن لماذا .. لماذا تدفع لى نقوداً فى غير مقابل . . . أنا لم أقدم لك شيئاً ، ولست أستحق شيئاً ، أو أداينك بشىء .

— أيجب دائماً ألا ندفع إلا فى مقابل شىء من الخارج . . . لماذا لا ندفع فى مقابل ما يأتينا من الداخل . . . من داخل أنفسنا . . . إننى إذ أقدم لك هذه المبالغ التافهة التى تقولين إنها تساعدك ، امتلاً مسرة وغبطة

وازداد ثقة بنفسى وإحساساً بقوتى واعتمادى على الله .

وأخذت جاكلين الدولارات الخمسة ووضعتها فى حقيبة يدها ، ولم تزد عن قولها .

ـ شكراً

واتجهت نحو الباب فى تثاقل وقالت فى صوت خافت .

ـ الوداع .

ولم يستطع فوزى أن يقاوم فى نفسه الشعور بأنه جرح كبرياءها ، مس كرامتها كأنثى ، فهتف بها :

ـ سامحينى يا جاكلين

ـ بل أنا التى أسألك الصفح والسماح .

ولم يتمالك نفسه فاختنق بالدموع ، فعادت إليه جاكلين تقبله على خده وهى تقول له :

ـ أشكرك ... أشكرك .

— ٢ —

انقضت أيام وأسابيع لم ير فيها فوزى جاكلين، أو يسمع عنها ، فبدأ القلق يدب إلى نفسه ، وتأنيب الضمير يستولى عليه ، لشد ما كان قاسياً

عليها ، لقد ظل حتى آخر دقيقـــة يسىء الظن بها ، والآن وقد أثبتت بانقطاعها هذا صدق أقوالها .. وأنها لم تكن جاسوسة .. ولم تكن عميلة للايقاع به ... فقد تسرب إلى نفسه طائف من الخوف . لقد قالت له آخر مرة ، إنها كانت بين أن تجىء إليه ، أو أن تنتحر ... والآن وقد صدها بهذا العنف ... أتكون قد انتحرت : ويفزع فوزى لهذا الخاطر ... تنتحر ... ويكون هو سبب انتحارها ، ومن يدريه أن لا يوقعه ذلك فى إشكالات تصل إلى حد الفضيحة ، فقد شوهدت معه فى المدة الأخيرة أكثر من مرة ... وموظفة الفندق رأتها ودلتها على حجرته ، أى إشكالات ... أى تعقيدات ...

على أن الذى كان يحز فى نفسه ... أن يكون سبباً فى انتحارها ، ويصيح صوت داخل أعماقه بالاحتجاج ... ولكنها لو انتحرت فلن يكون ذلك بسببه هو ، وإنما بسبب هـذا المجتمع الوحشى الفاسد الذى تعيش فيه والذى لا يرحم الضعفاء ...

ما الذى كان باستطاعته أن يفعله معها أكثر مما فعل ... لقد أطعمها ... لقد أحسن إليها ... لقد أبقى على صلته بها رغم علمه بأنها متزوجة ، وأنها يهودية ... ما الذى كان يستطيع عمله فوق ذلك ... أكان يجب أن يلبى دعوتها للنوم معها ، ولكن ذلك لا يدخل فى باب الإحسان...ومن الواضح أنها كانت تقدم له نفسها رغبة منها فى أن تقدم له شيئاً مقابل دولاراته...

ويعود إلى تذكر هذه الأمسية ... وهى تدق عليه الباب ، وهى تخلع معطفها وقبعتها ، وهى تخلع جوربها وتبدى سيقانها العارية ... ما أبيض هذه السيقان ...

ويحس بجسدها الدافىء على جسده ... وهى تضغط بكل ذرة من جسدها على ذرات جسده ... إنه يمتلىء بالنشوة لهذه الذكرى ... ولكن أين اختفت ما الذى جعلها تنقطع هكذا فجأة، وهى التى كانت تطارده ولم تنفع كل حيلة للتخلص منها . إنه يجب أن يكون مرتاح الضمير ... إنه لم يؤذها ... ويروح يغرق فى لجة العمل الذى بدأ يتسع ويتشعب ويغزر ، فقد دعى من بعض الجمعيات والهيئات لإلقاء محاضرات عن القضية المصرية بل لقد دعى لإلقاء محاضرات عن الإسلام فى بعض الكنائس — ووصل نشاطه إلى أن (دروبيرسون) أحد كبار المعلقين الأمريكان شن هجوماً على فوزى نشر فى خمسمائة صحيفة أمريكية . وجاءته محطات الإذاعة تطلب منه رداً ... وكانت أخبار هذا النشاط تنعكس فى مصر ، فتنشر الصحف أنباءه مجسمة مضخمة . وبدأ يعمل اثنتى عشرة ساعة متصلة ، وأربع عشرة ساعة يرد على الخطابات التى تأتيه من مصر بالعشرات ومن داخل أمريكا ، ويحرر مقالات بالعربية لتنشر فى الصحف الأمريكية العربية ، ومقالات لتنشر فى الصحف المصرية ، ومقالات لتترجم إلى الإنجليزية لتطبع فى نشرات وكتيبات يرد فيها على مطاعن اليهود ... ودعاوى الإنجليز ...

لقد بدأت العجلة تنطلق ... تنطلق فى قوة ... ولكن ذكرى جاكلين واختفاءها بهذا الشكل العجيب من حياته ... كان يعاوده من حين لآخر ... ويضغط على نفسه أن تكون قد انتحرت .

وتلقى فى أحد الأيام خطاباً من فلوريدا ، ولم يدهشه ذلك فقد أصبح يتلقى خطابات من سائر أنحاء الولايات المتحدة .. من الطلاب المصريين فى مختلف الجامعات الذين يدعونه لزيارة ولاياتهم وإلقاء محاضرات بجامعاتهم .

ويفتح الخطاب فى تفاؤل ... إنه يتوق بالفعل لزيارة فلوريدا ولـكن الخطاب لم يكن بالعربية ... بل كان بالإنجليزية ... فلا بد أن يكون من أحد الأمريكان ... ولم يستطع فى بادىء الأمر أن يتبين اسم مرسل الخطاب فقد كان التوقيع لا يتبين منه شىء ، وكان الخطاب على غير العادة بخط اليد .

ولـكنه لم يكد يشرع فى تلاوة الخطاب حتى ومض فى ذهنه أنه من جاكلين ، فـكاد يطير من شدة الفرح ... وعاد يطالع الخطاب من جديد على هذا الضوء ، وبدأت الـكلمات التى استعصت عليه فى بادىء الأمر تلين ! والعبارات المغلقة تتضح بعد أن عرف أن كاتبته هى جاكلين :

عزيزى فوزى

أعتذر إليك لانقطاعى المفاجىء ، فقد تلقيت عرضاً مغرياً للعمل فى فلوريدا ، براتب جيد وعمل نظيف ، وكان أهم مافى العرض أنه كان مشفوعاً بتذكرة سفر ، وخمسين دولاراً تحت الحساب ، ودعوة للحضور بسرعة ، ولم يكن أمامى إلا أن أسافر على الفور .

ولقد وصلت إلى فلوريدا ، وأصبحت أعيش فى حجرة نظيفة أنيقة وعمل مريح وتسلمت راتب بضعة أسابيع ، ولم أكد أجد الدنيا تبتسم لى من جديد ، حتى اتجهت إليك بكل عواطفى وأحسست برغبة لا تقاوم أن أكتب لك الفصل الأخير من قصة تعارفنا . لقد حدثتك عن نفسى ، عن انفصالى عن زوجى تمهيداً للطلاق ، عن يهوديتى ، ولـكن الشىء الذى أخفيته عنك ، حتى لا أزيدك رعباً فوق ما كنت أحس أنك فيه من رعب ، هو أن زوجى الشرير كان يلاحقنى ليخرجنى من أى عمل ألتحق به ، ليميتنى جوعاً ويضطرنى إلى أن أركع تحت قدميه . ولـكننى إذ كنت مصممة على أن

لا أعود إليه ... فقد وصلت إلى حالة من اليأس ، جعلتني أكفر بالله وبالناس والمجتمع والقانون... واعتنقت الشيوعية علّى أجد فيها ما يخفف من نقمتي على الله والناس والحياة ، فلم أجد عندها غير السراب ... تعد بجنة على هذه الأرض والواقع يثبت العكس في الاتحاد السوفيتي حيث تحولت الحياة إلى ما يشبه الجحيم . وهكذا انهار آخر خيط تعلقت به ..، ومرت على أيام ، لم يكن أمامي من سبيل للحصول على قوت يومي إلا أن أتسول ، ولكنني إذ كنت كفرت بكل القيم فقد قررت أن أنزل عن آخر ما بقى لى وهو كرامتي فأتاجر بجسدى ... وأبيع نفسى للطالبين .

ولست أريدك أن تفهم من هذا أنني كنت قبل ذلك قديسة فنحن هنا فى أمريكا لا نقيم كبير وزن لهذه العلاقات الشخصية كما تفعلون فى الشرق، ولكن الأمر الذى لم أكن أتصور أن أنحدر إليه فى يوم من الأيام ، أن أرى نفسى مضطرة للاتجار بجسدى لآكل . ولقد كنت أول إنسان غريب رأيت أن أبيعه بضاعتى ، فكان هذا الذى تعرف وحميتنى حتى من نفسى ، وحفظت على كرامتى وإنسانيتى .

وهكذا رددت إلى إيمانى بالحياة ، وأن الدنيا ليست كلها وحوشاً وغيلاناً ، وإنما فيها أيضاً ملائكة وأبراراً .

علمتنى أن لا يزال فى الدنيا أقوام يؤمنون بالله فى صدق ، يؤمنون بالأخلاق ، بالفضيلة ، بالوفاء لزوجاتهم ، وأهم من ذلك كله أن لهم قلوباً يحسون بها آلام الآخرين .

وبعد ياصديقى ، إننى أعرف الآن من طباعك وظروف حياتك ، أن خير ما أكافئك به على حسن صنيعك معى ، هو أن أختفى من حياتك

وإلى الأبد ، ولذلك فلن أكتب لك عنوانى ، وسيكون هذا الخطاب هو آخر العهد بيننا ، ولـكننى أريدك أن تذكر ما حييت ، حيثما كنت ؛ سواء كنت لاتزال فى أمريكا أو عدت إلى بلادك .. بعد سنوات طالت أو قصرت، أن هناك فى مكان ما من هذا العالم ، إذا كنت لاأزال على قيد الحياة ؛ أو فى العالم الآخر (إذا كان هناك عالم آخر) قلباً يخفق بحبك ، ويكرم ذكراك ، بمقدار ما رددت له الإيمان والثقة بالنفس ، وأعدته إلى طريق الحياة النظيفة ، طريق الإنسانية والخير والرجاء .

ودمت لمن ستظل تذكرك إلى الأبد .

جاكلين

وأجهش فوزى بالبكاء ، بكاء يفيض بالفرح والحـــنان والرحمة والشعور بالانتصار .

لو أنه أعطى أموال الدنيا فى هذه اللحظة ، لما أحس بكل هذه السعادة الغامرة التى يشعر بها .. لقد كوفىء .. فوق ما كان ينتظر ويتوقع .

لقد كان يعلم أنه يخاطر كثيراً باتصاله بها ، رغم يهوديتها . . رغم ظروفها .. ولـكنه وضع ثقته فى الله ، فى الخير المطلق ، وها هو ينجح .. والله يكافئه .. ويالها من مكافأة .

وراح يقلب ورقة الخطاب بين يديه ، ويتأمل الخط الرقيق الذى كتب به الخطاب ... ثم يعيد تلاوته ، فقرة فقرة ، ويتعمق معانى كل كلمة وكل حرف ، فلا يزيده ذلك إلا انفعالا ونشوة وسروراً .

وجلس على أحد المقاعد وأرخى لخياله وخواطره العنان ... ترى أيستطيع أن يحدث وفاء عن دخول جاكلين إلى حجرة نومه ، وكيف خلعت حذاءها وجوربها ... إن هذه الحركة أصبحت مثيرة بعد أن أصبحت ذكرى ماضية ... أتستطيع وفاء أن تصدق أن قبلته لجاكلين كانت على سبيل الإحسان والشفقة ؟

ولكنه يعرف وفاء ، يعرف غيرتها المتقدة ، لن تصدق حرفاً واحداً من هذه الرواية ، حتى لو تظاهرت بتصديقها فستظل هذه العلاقة تعمل فى نفسها وتنعكس على تصرفاتها . إنها يجب أن تجهل كل شيء عن هذا الحادث وعن أمثاله من حوادث اتصاله بالنساء . إنه يقابل فى كل خطوة ، فى كل حركة نساء جميلات فاتنات . فى الفندق ، فى الشارع ، فى المطعم فى المتجر، فى السينما، فى المكاتب التى يتعامل معها.. كلهن.. كلهن نساء جميلات شقراوات فارعات جريئات منطلقات ، كلهن يحدثنه ويضحكن له ويضحك لهن، وتضطره الظروف إلى دعوة بعضهن لتناول الغذاء أو العشاء أو الذهاب معهن إلى السينما، إنها طبيعة الحياة فى أمريكا حتى فى الكنائس التى حاضر فيها التقى بفتيات جميلات جلسن إلى جواره لتناول الشاى أو العشاء الذى كان يمد بعد هذه المحاضرات .

هل كانت وفاء تدرك ذلك بمحض غريزتها وهى تعترض على السفر الى أمريكا ؟ إنه لا يستطيع أن ينقل لها بعض هذه الصور يجب أن تظل مدفونة فى حنايا نفسه .

وهذا الخطاب . . . هذا الخطاب السماوى الذى وصله من جاكلين

هذا الخطاب الذى يعتز به كأثمن ما يعتز به فى الحياة ، وا أسفاه إنه يجب أن يمزق . . . يجب أن يتلاشى وإلا وقع بطريقة ما فى يد وفاء .

ولكن كيف يقع ، إنها على بعد ألوف من الأميال .

ويغمغم فوزى فى يأس ، إنه يقع بالرغم من ذلك كله لو أنه احتفظ به . أيمكن أن ينسى ثورتها العارمة عندما وقعت فى يدها خطابات إحدى الطالبات المصريات التى تعرف بها إبان وجوده فى إحدى رحلاته بانجلترا على الرغم من مضى سنوات على هذه العلاقة وانطوائها فى زوايا النسيان ؟ وراح يتذكر الحوادث التى تعثر فيها أمام زوجته وهى تكتشف هذه العلاقة الماضية أو هذا الخطاب . . . أو هذه الصورة .

إن هذا الخطاب العزيز يجب أن يحرق من أجل سلام وفاء ... من أجل راحتها وهنائها . وقرب الخطاب من النار ليحرقه ولكن يده ارتدت فى ذعر ، حرام أن يحرق هذا الخطاب ...

أتكون وفاء قد نجحت فى اخافته وإرعابه الى هذا الحد ؟ ألا يبالغ فى قدرتها على معرفة كل شىء عنه بطاقة خفية ؟ وتبرز فاطمة فى مجال خواطره لقد أصبحت فاطمة تشغل قلبه ونفسه ، وقد تطورت العلاقات بينهما حتى ليريد أن يجعل منها زوجته الثانية فما بال وفاء لم تعرف ؟ ويهجس فى نفسه هاجس :

— ومن قال لك إنها لا تعرف ؟ . . إنها تعرف يقيناً .

— لا تكن مجنونا . . . كيف تعرف .

— أقول لك إنها تعرف ... تعرف . أولا تلاحظ أنها لم تعد تحدثك ،

لم تعد تشير إليها من قرب أو بعد .

— وأى شىء فى ذلك ؟

— يا غبى ، لقد كانت تثير أشد العواصف والزوابع ، لأقل من هذا ، لقد كانت تفاتحك بموضوع فاطمة فى الصباح والمساء :.. فما الذى أسكتها هـكذا فجأة ، فلم تعد تذكرها .

— وعلام يدل ذلك ؟

— يدل على أنها بدأت تدرك بغريزتها ، أن العلاقات بينك وبين فاطمة قد دخلت فى مرحلة شديدة الخطورة . . . أصبح الضغط عليك بخصوصها غير مأمون العواقب . . .

إنها حكيمة . . . إنها عاقلة . . . إنها تحبك ، وهى تعمل بكل ما فى نفسها من طاقة للاحتفاظ بك .

وتنهد فوزى ، ونظر من جديد إلى الخطاب فى يده ... حسبها موضوع فاطمة . . فلا يزيد عليها الـكروب بفتيات أمريكا . ومد فوزى يده بالخطاب إلى النار . . وراح اللهب يلتهم بسرعة الورقة البيضاء ويحيلها سواداً وظلاماً وهباء . ولـكن عينيه طالعتا العبارة التى ختم بها الخطاب والتى نقشت على صفحة روحه :

«ولـكنى أريدك أن تذكر ما حييت ، حيثما كنت ، بعد سنوات تطول أو تقصر ، أن هناك فى مكان ما من هذا العالم ، إذا كنت لا أزال على قيد الحياة ، أو فى العالم الآخر ، إذا كان هناك عالم آخر ، قلباً يخفق بحبك ويكرم

ذكراك ، بمقدار ما رددت عليه الإيمان والثقة ، وأعدته إلى طريق الحياة النظيفة ، طريق الإنسانية والخير والرجاء » .

— ٣ —

نظر فوزى إلى هذا الحشد من الخطابات الذى تلقاه هـذا الصباح بغبطة وارتياح ، ما أعظم الرحلة التى قطعها منذ اليوم الأول الذى وضع قدميه فيه على أرض نيويورك وهو يحس باليأس والضياع ، وبين ما أصبح عليه اليوم . أى ثقة تملأ نفسه ، وقد ذرع الولايات المتحدة شرقاً وغرباً يخطب ويحاضر ، وتنشر صوره على صـدر جرائد لوس أنجلوس ، مع تصريحاته المدوية بوجوب جلاء الإنجليز عن مصر . . . وينعكس ذلك كله فى مصر ، ويتردد صداه ... وهذا البريد الذى يتزايد ، أعظم دليل على ذلك ... بريد من مختلف الأشـخاص والطبقات ... وزراء ، ورؤساء وزراء سابقين ... أيمـكن أن ينسى خطاب على ماهر ، وهو يشيد بمجهوده ، ويثنى على خطابه المفتوح الذى بعث به إلى ترومان ؟ إنه لم يعد غريباً ... لم يعد وحيداً ... لم يعد ضعيفاً . . إنه على الطريق .

وراحت عيناه تبحثان عن خطابات وفاء وشكرى ، ولم يكن هنـاك فى بريد اليوم خطاب من شكرى ، ولـكن خطاب وفاء كان موجوداً ، إنه يميز خطها ، وهذه الخطابات الجوية المزركشة باللونين الأحمر والأزرق ... إن قلبه يعرف الخطاب قبل عينيه ... ولقد كان المظروف هذه المرة أكبر من المعتاد ، وأمسك بالخطاب فى لهفة منحياً باقى الخطابات ، ولـكنه قبل أن يفتح الخطاب ، وقعت عيناه على كلمات بالعربية ، وكاد قلبه يقفز

من صدره ... إنه خط فاطمة ... فاطمة أخيراً التى لم تكتب له منذ وصوله إلى أمريكا ، فى الوقت الذى كتبت له فيه الدنيــا كلها . . . وهم بفتح الخطاب أولا ... ليطفىء لاعج الشوق إلى أخبارها ... ولـكن لا . . ليمض على سنته ، إنه يفزع دائماً من تغيير ما اختطه من قواعد ومبادىء ... خطاب وفاء هو الأول دائماً .

ولم يكد يفتح خطاب زوجته ، حتى وجد به صــورة لها وأولادها الثلاثة فى إحدى الحدائق العامة ... وانهال فوزى على الصورة لثماً وتقبيلا وراح يضمها إلى صــدره ويخاطب أولاده . . . وراحت عيناه بعد ذلك تلتهمان سطور الخطاب :

زوجى العزيز :

أبعث إليك بأشواقى وحبى ، إننى أصلى إلى الله كل يوم فى الفجر لـكى يحميك ويرعاك ويسدد خطاك . كل شىء هنا على ما يرام ، صحتى وصحة الأولاد بخير والحمد لله ، كما تثبت لك الصورة المرسلة مع هذا الخطاب فلا تشغل بالك من ناحيتنا ، وامض لما أنت فيه على بركة الله ، لقد بدأت أحس كم كنت أنانية وحمقاء وأنا أحاول أن أصدك عن هذه الرحلة ، فلم يحدث أن عرف الشــعب المصرى قدرك كما يعرف الآن ، لقد ذرفت اليوم دموع الفرح عند ما عاد خالد إبننا من المدرسة ، ومعه مائتان وخمسون قرشاً فى صرة ، جمعها تلاميذ مدرسته تحت إشراف الناظر ، وسلموها إليه ليبعث بها إليك ، فأخذها منهم خالد وأحضرها إلى ، ولـكن الأستاذ شكرى صحح الموقف ، بأن أخذها وسلمها لجريدة الأهرام التى فتحت اكتتاباً قومياً من أجلك ، وقد سلم خالد الإيصال الخاص بهذا التبرع لناظر المدرسة الذى

جمع الطلاب ، وطلب منهم أن يصفقوا لخالد تحية لك ... أرأيت يازوجى الحبيب كيف بدأت مصر كلها تنبض بحبك وتقديرك ، ولقد قصصت عليك هذه القصة لتغفر لى وتسامحنى .

ولم يستطع فوزى أن يمضى فى مطالعة الخطاب ... إلا بعد أن يمسح دموع الفرح والسعادة ... إن ذلك فوق احتماله ... ما الذى فعله ليستحق ذلك كله .

وعاود مطالعة الخطاب ، بعد أن هدأ انفعاله :

— ولست تتصور يا زوجى الحبيب مقدار سعادتى بخطاباتك الجميلة التى تبعث بها إلى ، إنها نور حياتى ، وغذاء روحى . . إنها تجعلنى أسعد نساء مصر ، وتملأنى إحساساً بالغرور . . أن أكون أنا . . أنا وحدى من تتسلم منك هذه الخطابات . وعلى فكرة لست تتصور مقدار الرعب الذى استولى على .. عند ما نشرت الصحف ، تفاصيل اصطدامك مع هذا الصحفى اليهودى ، ورفعك لأول مرة فى تاريخ أمريكا الحديث ، جنحة مباشرة ضده أمام محكمة الجنايات .. وكيف كادوا يبطشون بك فى المحكمة .. لقد كاد قلبى يقف . . على الرغم من أنك قلت فى وصفك للحادث إن الله سلم ، وأنك خرجت من هذا الموقف وقد ازددت عزة ومناعة .

ومع ذلك فأرجوك أن تسامحنى ، إذا رجوتك . . أن تنأى بنفسك ما استطعت إلى ذلك سبيلا ، عن هذه المواقف . إنك تعلم أن ليس لى فى الدنيا إنسان غيرك فاهتم بنفسك ، واعتن بصحتك ، أرجوك أن تأكل ، وأن تاكل جيداً ، إننى أعرفك عند ما تنسى نفسك ، ولكنى أرجوك أن



تأكل وتتغذى من أجلى ، من أجل أولادنا .. من أجل مصر التى تحبها.
لقد روعنى منظر الجليد الذى يكسو كل شىء فى نيويورك والتى نشرت
الصحف هنا صوره .

لابد أنك حصلت على معطف وملابس تقيك هذا البرد الشديد .

إننى أعرف أننى أثرثر ، إننى أكتب بغير تنظيم أو ترتيب ولكن ماذا
أفعل .. إننى لست بارعة مثلك فى كتابة الخطابات الجميلة .. ماما تقيم معى
أكثر الوقت وهى تبعث لك بحبها الذى تعرف . وقد كتب لى أخى سامح
من باريس وقال لى إنه على اتصال دائم بك ، وتنشر الصحف الباريسية
بعض أخبارك .

خالد وجهاد وثبات يقبلون يديك وهم يصلون معى كل ليلة أن يحفظك
الله ، وأن يرعاك وأن يعيدك إلينا سالماً .

زوجتك المتفانية فى حبك — وفاء

ومن جديد اغرورقت عينا فوزى بالدموع ، لقد أصبح حساساً جداً
.. كل عاطفة صادقة ، كل حركة نبيلة ، كل عبارة كريمة ، تجعل الدموع
تسرع إلى عينيه .. أى رجل هو ؟ .. أيليق به ذلك ؟

يليق أولا يليق ، رجل أو غير رجل .. هكذا هو .. إنه بكّاء سريع
التأثر والانفعال ، ووقعت عيناه على خطاب فاطمة الذى كان قد نسيه فى
غمرة مطالعته لخطاب وفاء.. وأحس بوخزة فى قلبه ، وبتأنيب فى ضميره ،
وأسرع يفض الخطاب ، وقد عاوده الشوق إليها إلى درجة الاشتعال .

عزيزى ورئيسى وسيدى فوزى :

أنا سعيدة ، سعيدة يا فوزى لا أعرف كيف أصور لك ما أنا فيه من سعادة ، إن أحلامنا كلها توشك أن تتحقق ، كل ما جاهدنا من أجله ، وكافحنا وتعبنا وشقينا أصبح يلوح على الأفق . . وإن ما كان الكثيرون يتصورونه مستحيلا ، قد أصبح قريباً دانى القطوف .

لقد جلا الإنجليز بالفعل عن القاهرة والاسكندرية بعد خمس وستين سنة من احتلالهم لهما ، وهكذا تطهرت كل هذه الأماكن التى كانت قلوبنا تخفق بالخوف والبغض والحقد كلما مررنا إلى جوارها ، أتذكر ثكنات قصر النيل ؟ لقد أصبح العلم المصرى الآن يرفرف فوقها ، وحيث كانت فرق الجنود الانجليزية تلعب الكرة فى هذا الفراغ الفسيح ، أصبح أولادنا وشبابنا هم الذين يلعبون . ونوافذ الثكنه يا فوزى . . . أتذكر هذه النوافذ الملعونة التى طالما أطلق منها الإنجليز النار على شهدائنا ، والذين كنا نرى الإنجليز فى غدواتنا وروحاتنا وهم جلوس على قواعدها يحملقون فى الرائح والغادى ؟ لقد أصبحت اليوم خاوية على عروشها ، فى انتظار معاول الهدم ، لأن الحكومة قد قررت أن تهدمها وتمحو آثار العار من حياتنا .

والعباسية . . العباسية ، أتذكر هذه المدينة المترامية الأطراف التى لم نكن نعرف أولها من آخرها ، والتى كانت تغص بمئات الألوف من الجنود المرتزقة الذين احتشدوا فيها طوال سنوات الحرب ، لقد تسلمتها الحكومة المصرية ورفع عليها العلم المصرى بدورها . أما قلعة صلاح الدين فقد عادت إلى عزتها ، تطهرت من الدنس وأصبحت مصرية لا تعبث فيها خيول الإنجليز .

إننى فرحة . . فرحة يا فوزى أن عشت لأرى هذا اليوم ، إن دماء شهدائنا لم تذهب هدراً ، إن تضحية الدكتور خالد لم تضع هباء ، فهل كان هذا الجلاء يتم ويتحقق ، لولا هذه الدماء التى أريقت عبر السنين الأخيرة بصفة خاصة .

وأنا أعلم أن هذا الجلاء عن القاهرة والاسكندرية ، لا يعنى شيئاً ، فهم لا يزالون هناك، بوجوههم الحمراء وشعرهم الأشقر ، وأسلحتهم البغيضة على ضفاف القنال ، فى السويس والاسماعيلية وبور سعيد والتل الكبير .. ولكنهم سيخـرجون . . . سيخرجون حتما كما خرجوا من القاهرة والاسكندرية .

واستولى على فوزى الانفعال من جديد .

لقد طالع فى الصحف الأمريكية أنباء هذا الجلاء فى سطور قليلة . . ولكنها كانت أنباء جامدة لا نبض فيها ولا حياة ، أما حديث فاطمة ، فقد جعل جسده ينتفض ، وهى تصور له وتجسد هذا الذى تحقق .

وانفتح قلب فوزى لفاطمة ، كما لم ينفتح مذ وصل إلى أمريكا ، بل لقد أوشك أن ينسى حبها فى غمار استغراقه فى العمل، أما الآن وهو يطالع خطابها ، وقلبه ينبض مع نبضات قلبها ، فقد تفجر حبه لها كأعنف مايكون التفجر ، إنهال على سطور خطابها لثماً وتقبيلا كما فعل من قبل بصورة وفاء وأولاده .

« وأنت يافوزى، أنت ، ترى هل استطاع أحد أن يصور لك مقدار النجاح الذى ظفرت به والوثبة التى وثبتها حركتنا بفضل جهادك . . ؟

أيمكنك أن تتخيل كيف أن اسمك يتردد فى كل مكان ويجرى على كل لسان ، بالإعجاب والتمدير والثناء والحمد .

إننى لا أكاد أصدق أذنى أحياناً ، وأتخيل أننى فى حلم . . أين ذهب كل هذا الحقد الذى كان يحاصرنا ، أين اختفت الغيرة والحسد ، أين ذهبت المحاولات للغض من كل ما تفعل ، أين ذهب ذلك كله وأصبح الجميع صوتاً واحداً ، فى الإشادة بك ، فى الثناء عليك ، فى خلع صفات الجهاد والكفاح والزعامة والفدائية عليك .

إن البيت الأخضر فى الحلمية ، يغص منذ الصباح المبكر حتى الليل المتأخر بالزوار الذين يجيئون من كل فج عميق ، ومن مختلف الطبقات، عمالا وفلاحين وشباباً وحرفيين ، من شتى الأحزاب . . كلهم يجيئون مهنئين متبرعين،فنحولهم إلى جريدة الأهرام التى تبنت عملية جمع التبرعات من أجلك ، وقد وصل ما جمعته حتى الآن خمسة آلاف جنيه . . أتتصور يا فوزى خمسة آلاف جنيه ، وليس ذلك سوى البداية .

أما أخبار نشاطك الرائع ، محاضراتك ، خطبك ، مقابلاتك مع الشيوخ والنواب ، تحديك لهذا الكاتب الصهيونى الوغد وجرك إياه إلى المحاكمة ، كما لم يجرؤ إنسان من قبلك على ذلك ، لقد نشرت الصحف هنا كل ما جرى فى الجلسة ، ووقوف أمريكان أفاضل إلى جوارك ، وإذا كانت القضية قد انتهت بالحفظ . . فقد أثبت قوة أعصابك ، وشجاعتك الفائقة، وأنت توقف كاتباً أمريكياً موقف الاتهام . . إن الناس هنا .. تكاد تفتن بهذه المواقف .. حتى محطة الإذاعة الحكومية ، انضمت إلى جوقة المشيدين بجهادك ، المهتمة بكل أخبارك . . فأصبحت لا تخلو نشرة من نبأ عنك .

ولابد أنك قد علمت من الإذاعات والصحف الأمريكية أن المفاوضات بين مصر وانجلترا قد قطعت نهائياً ، وأعلنت حكومة النقراشى باشا عن عزمها على الالتجاء رسمياً إلى هيئة الأمم ، وإن كانت لم تحدد بعد الزمان والمكان أو الكيفية ، ونحن نؤمن جميعاً بأن لك نصيباً كبيراً فى هذا التحول بالقضية المصرية ، ونقلها من متاهات المفاوضات وغياهبها السرية ، إلى علنية المناقشات والمحاجات فى أروقة هيئة الأمم ، تحت الضوء وعلى أسماع الدنيا . وتوقف فوزى عن المطالعة . أى مخلوقة هذه ؟ بأى سحر تكتب وبأى قوة واقتدار ، أى كنز هى من السماء ، أى كتيبة وأى عملاق ، ما أكثر ما تلقى الخطابات من مصر ، من زوجه وأولاده ، ومن شكرى وبقية إخوانه الأحباء . ولكن أى منهم استطاع أن يصور له الموقف هذا التصوير ، أى منهم استطاع أن يعتصر قلبه بمثل ما فعلت فاطمة . إنه يحبها . . يحبها إنها أغلى شىء عنده فى الدنيا .

ويعود لمطالعة الخطاب :

« وبعد يا فوزى أتراك تقدر شعورى وإحساسى وأنا أعيش وسط ذلك كله ، وأدرك أن لى ، لى أنا ، مكاناً خاصاً فى قلبك مهما كان صغيراً ومتواضعاً فهو خاص بى ، أليس كذلك يا فوزى ، أليس كذلك يا حبى الكبير ، أما زلت أنا فاطمتك ، فاطمة التى صارحتها بحبك لها .

« إنك لم تفكر أن تكتب إلى ولو سطراً واحداً تطمئنى على أنى مازلت حيث كنت فى آخر لقاء لنا ، ولم أشأ من ناحيتى أن أزعجك . . إننى أعرف الناس بك ، عندما تنخرط فى عملك حتى تحقق ما تصبو إليه أما الآن وقد حق لك أن تطمئن إلى مافعلت ، أترانى أطمع أن أتسلم منك

رسالة صغيرة لاتزيد عن بضعة سطور ، أو إن شئت لا تزيد عن بضع كلمات . . كل الذى أريد أن أطمئن إليه أننى مازلت فاطمتك .

«إن الأوهام والهواجس تستبدبى أحيانآ عندما أتصور أننى قدفقدتك ، فقدتك بسبب طيشى وحماقتى إذ أطلعتك على سرى الذى كان يجب أن يموت معى ، وهو أننى لم أحب ولن أحب أحداً فى الدنيا سواك » .

فاطمتك

وأحس فوزى بالاختناق ، كما لو كان محبوساً مقيداً بالأغلال .... لقد تملكته رغبة جبارة فى أن يطير ليجتمع إلى فاطمة ، ليضمها إلى صدره ، ليفنى بها وتفنى فيه ... وإذكان طيرانه فى هذه المرة مستبعداً ، فلم يبق إلا أن تجىء إليه فاطمة . ولم يكد هذا الخاطر يعن له ... حتى راح يفرك يديه من فرط السرور . . . أجل يجب أن تحضر فاطمة إلى نيويورك . . . أى مانع يحول دون ذلك ، وعندما تأتى فسوف يتزوجها هنا فى نيويورك . . ويقضيان متزاملين أسعد أوقات الحياة ، سوف تكون مساعدته وسكرتيرته ورفيقته التى تذهب عنه الإحساس بالوحشة والغربة التى أصبحت تطحنه طحناً .

ويروح فوزى يستمرىء الفكرة وينميها فى نفسه . . . وينظر بعين الخيال إلى فاطمة وقد راح يطوف بها نيويورك التى أصبح يعرفها جيداً ، وهو يتردد معها على سينما راديوسيتى التى تفتنه باستعراضاتها الفنية الرائعة ، وهو يصعد معها عمارة الأمباير ستيت بلدنج ، وهو يجتازمعها حديقة نيويورك الكبرى (سنترال بارك) . . . وهو يقدمها إلى أصدقائه ومعارفه الذين التفوا حوله من الأمريكان . سيسافر معها إلى شلالات نياجارا ، وسيعود

معها إلى هوليوود ولوس أنجلوس، وسان فرانسسكو وشيكاغو ، وسيروى فى نفسه هذا الظمأ الذى بدأ يشتد من جديد .. إلى حبها ، إلى حنانها إلى جسدها . . . كم يتوق إلى هذه الضمة التى أوشك أن يصهرها فيهـا على صدره .

ويدق جرس التليفون ... إنها القائمة بأعمال سكرتاريته ... تذكره بالمواعيد والأعمال التى يجب أن يقوم بها اليوم ... وتسأله عما إذا كان لديه تعليمات ... ويسألها إذا كانت أرسلت الـكتيبات المطبوعة ، إلى دور الـكتب وإلى الصحف والنوادى ... وترد عليه بالإيجاب . . ويسألها إذا كانت قد فرغت من كتـابة المقـالات التى ستوزع على الصحف على الآلة الـكاتبة .. وعن ... وعن ... وعن .

حتى إذا فرغ من هذه المحادثة ، وجد نفسه يعيش من جديد فى دنيا الواقع ، الواقع بقيوده وأوضاعه وواجباته . . . إنه لا يستطيع أن يدعو فاطمة إلى نيويورك ليتزوجها ...

أيجمع له الشعب النقود التى تعينه على الإقامة فى نيويورك ليستغلها فى أغراضه الشخصية ... لينعم بها ويمضى شهر عسل ، وهل هذه مكافأة وفاء التى كتبت له تستغفره عن خطئها نحوه ...

لا ، إنه لا يمكن أن يستدعى فاطمة . . . إن كل ما يستطيعه هو أن يكتب لهـا ، وأن يكتب فى تحفظ فالرقابة تفتح الخطابات ، ولابد أن الـكثيرين من الرسميين الآن أصبحوا يطلعون على خطاباته ، إن فاطمة يجب أن تصبر، إن فاطمة يجب أن تضيف تضحية جديدة إلى تضحياتها التى أصبحت

سلسلة من التضحيات ... إنها تدرك ... إنها تفهم . وتنهد فوزى فى ألم وحسرة :

— لماذا ... لماذا يارب تختص بعض عبيدك بأن تـكون حياتهم كلها ألماً وتضحيات ؟ ..

— ٤ —

حملق فوزى فى هذا الإخطار من البنك ، إشعاراً له بأنه قد وصله من مصر تحويل بخمسة آلاف دولار .. خمسة آلاف دولار ؟ وهو الذى عاش فى أمريكا حتى الآن ، طوال شهور خمسة بألفين من الدولارات ... فما الذى يفعله الآن وقد وصل إلى يده خمسة آلاف دولار .

سوف يحقق الحلم الذى طالما صبا إليه واعتبره ذروة النجاح لو تحقق ، وهو أن ينشر صفحة كاملة على سبيل الإعلان فى جريدة النيويورك تيمس يكتب فيهـا كل ما يود أن يقوله عن القضية المصرية ، ليصل إلى أسماع كل أمريكى . . . بل كل ناطق بالإنجليزية فى العالم . وسيقول فى هذه الصفحة كل ما يريد أن يقوله لبنى الإنسان ، لن يكون سلام فى العالم ، ما بقى هناك استعمار ، لا نجاة للبشرية إلا بالتخلى عن فـكرة استغلال الإنسان لأخيه الإنسان ،إن مخاطر الحرب وأهوالها لم تعد قاصرة على شعب دون شعب ، أو أمة دون أخرى لم يبق أمام البشر إلا أن يعيشوا معاً فى تعاون وإخاء . وإما أن يفنوا وتفنى الحضارة الإنسانية .

أجل سيكتب عن ذلك كله متخذاً من تحرير مصر والسودان سبيلا

لأداء هذه الرسالة . وأعد فوزى المادة المطلوبة لهذه الصفحة بمعاونة صاحبه (حبيب كاتبه) مراسل الأهرام .

نداء من شعب وادى النيل .

إلى الشعب الأمريكى .

إلى مندوبى هيئة الأمم .

إلى كل محب للسلام .

لن يكون فى العالم سلام ، إلا بالقضاء على الاستعمار . إن الإنجليز يجب أن يجلوا عن وادى النيل ، وأن تتحقق الوحدة بين مصر والسودان فكلاهما يكمل الآخر .

ومضى المقال ، يبسط الحجج ويناقش ويجابه الإنجليز وقوى الاستعمار ، ويثبت بالدليل ، الخطر الذى تتعرض له البشرية إذا ظل الإنجليز يحتلون وادى النيل وغيره من المستعمرات .

وتعاقد فوزى مع إحدى دور الإعلان ، لنشر الصفحة فى جريدة النيويورك تيمس .. وقبلت إدارة الجريدة نشر الصفحة الإعلانية ، وقبضت الآلاف الخمسة من الدولارات أجراً لنشرها . ولكن كل من سمع النبأ من المصريين أو الأمريكان ، هزوا أكتافهم وأكدوا له أن الصفحة لن تنشر ، فلن يسمح اليهود المسيطرون على الصحف بنشرها .

ومرت الأيام دون أن تنشر الصفحة ، وامتلأ فوزى خوفا من أن تصدق تنبؤات المتنبئين . قال له السفير المصرى ، إن السفارة حاولت

عشرات المرات ، وعرضت عشرات الألوف من الدولارات لنشر مثل هذه الصفحة ففشلت .

وقال له الأمريكان .. حتى لو نشروا للدنيا كلها فلن ينشروا لك بعد أن تجرأت على إيقاف صحفي أمريكي أمام محكمة جنايات .. إن دور الصحف كلها تتعاون مع بعضها .. وقد وضعوك في القائمة السوداء .

حتى إذا مضى أسبوعان ولم يتم النشر ، وأعلن مدير وكالة الإعلان يأسه من إمكان النشر ، رأى فوزى أن يطلق لغضبه العنان ، أن ينسى أنه أجنبي لا حول له ولا قوة وسط هذا المجتمع الوحشي ، فانفجر في وجه مدير وكالة الإعلانات :

— أي بلد هذا البلد .. وأي مجتمع هذا المجتمع .. أهذه أمريكا .. أهذه بلاد الحرية والكرامة والديمقراطية كما يحلو لكم أن تصفوا أنفسكم ؟

ما أشد خيبة أملي فيكم ، وما أعظم الفارق بين ما تدعونه لأنفسكم وما أنتم عليه في الحقيقة . إنني لا أرى في الأمريكان سوى شعب من العبيد ، عبيد لهذا النفر من اليهود الذي يسيطر على الصحافة ، ويصوغ للشعب الأمريكي أفكاره ومبادئه وأسلوب حياته . ألا تعرفون في هذا البلد شيئاً اسمه احترام الكلمة ، ألا تعرفون القانون ، أداء الالتزامات وتنفيذ العقود والاتفاقات .. أولم تقبض مني أيها الرجل مالا .. أولم توقع معي عقداً تلتزم فيه بنشر هذه الصفحة . . أين ذهب كل ذلك ، أي عذر لك . . أي عذر للنيويورك تيمس . . الحق إنني أخجل من أجلكم .

وتوقف فوزى فجأة وهو يلهث ، بعد أن وجد الرجل الأمريكي ينظر

إليه مذهولا ، وقد أدرك فوزى أنه ذهب بعيداً فى ثورته ، وأنه أهان الرجل وأهان الأمريكان كلهم . . ومع ذلك فقد وقف متحدياً ، مكفهر الوجه مصفره ، مرتجف اليدين ، على استعداد لاحتمال رد فعل كلماته ، ركلا وصفعاً أو طرداً إلى عرض الطريق .

وساد صمت عميق بعد هذا الذى قال .. ولم يعد يسمع سوى خفقات قلبه .. بينما كان مدير الوكالة الأمريكى لا يزال مشدوها .

ومرت لحظات .. تكلم بعدها مدير الوكالة مخاطباً مساعده الذى يجلس إلى جواره .. وتكلم فى بطء وتثاقل وكان ما قاله آخر ما يتوقعه فوزى :

— أنظر إلى هذا المصرى الذى جاء من بلد طالما اعتدت أن أتكلم عنه وعن أمثاله من البلاد باحتقار واستهجان ، متصوراً إياهم قطيعاً من البرابرة أو الهمج ، أو المتسولين .

أنظر إليه كيف يتحدانا فى مكتبنا ، فى بلدنا .. واسمع إليه وهو يلقى علينا درساً فى شرف الكلمة ، وتنفيذ العهود . وكان يجب أن أحطمه .. أن أطرده .. ولكن كل كلمة خرجت من فمه حق .. حق .. وإنى لخجل مثله تماماً ، أن يكون ذلك هو تصرف النيويورك تيمس ، بعد أن تعاقدت معى على نشر الصحيفة وقبضت ثمن النشر .

وراح الرجل يجيل النظر فى فوزى ويقيسه بنظراته طولا وعرضاً ، وقد راح يعمل فكره فى الطريقة التى يتصرف بها ، ولم يلبث أن وقف من وراء مكتبه وقال لفوزى :

— اسمع ، أتستطيع أن تـكرر هذا الذى قلته الآن أمامى ، بنفس هذه الثورة ، بنفس هذا الانفعال ، إذا أخذتك معى لرئيس تحرير النيويورك تيمس المختص بنشر الإعلان ؟

كم أتوق لأن أراه وهو يتجرع ما جرعتنى إياه ، كم أتحرق لرؤية وجهه إذ ترسل عليه هـذه الشواظ من النار . . قل يا فوزى . . أتقدر على مواجهته وتحمل النتائج ؟

— إننى قادر على أن أتحدى رئيس جمهوريتكم نفسه بهذا القول . . قدنى إلى أى مكان شئت وسيسمعون منى أضعاف ما أسمعته لك الآن . . لم أعد أبالى بما يحدث لى .. إننى عائد إلى بلدى على كل حال . .

* * *

فوجىء رئيس تحرير النيويورك تيمس بفوزى يقول له ، بعد أن قدمه له مدير وكالة الإعلان :

— أأنت الرجل المسئول هنا ؟

وقطب الرجل وجهه فى غضب لما أحسه فى رنة السؤال من تحد :

— ماذا تريد ؟

— انى أسألك أولا ، أأنت المسئول الذى بيده التصرف حتى أتوجه إليك بالـكلام .. أم أن هناك من هو أكبر منك وصاحب الـكلمة هنا ؟

وذهل رئيس التحرير من هذه اللهجة ، ونظر إلى مدير وكالة الإعلان مهدداً ..

ـــ هل جئت إلى مجنون ؟

وكانت آلات كتابة المحررين قد توقفت عن الدق ، واسترعى مظهر فوزى وصوته ، وكلام رئيس التحرير نظر المحررين وأسماعهم ، بينما كان فوزى يقول فى انفعال :

ـــ أى جنون فى أن أسألك إذا كنت أنت صاحب التصرف هنا لأتوجه إليك بشكواى ، إننى صحفى مثلك ، وأنا صاحب جريدة فى مصر ، وقد دخلت النيويورك تيمس ، وأنا أتصور نفسى أدخل إلى أعظم مؤسسة صحفية فى العالم، لا من حيث الغنى وضخامة المطابع وكثرة الصفحات وألوف المحررين ، ولـكن من حيث احترام العهد ، والإيمان بحرية النشر ، وحق كل إنسان أن يقول ما يريد فى حدود القانون .

أتستطيع أن تقول لى ، أين صدق المعاملة ، أين حرية النشر ، أين حق الـكلمة ؟

وصرخ رئيس التحرير من جديد فى مدير الوكالة :

ـــ عن أى شىء يتحدث هذا المجنون .

وأخرج مدير الوكالة من جيبه المستندات الدالة على دفع مبلغ خمسة آلاف دولار ، وعن استلام مواد الصفحة للنشر .

وأخذ رئيس التحرير الأوراق .. ولم يلبث أن هز رأسه وقال :

ـــ أجل لقد رأيت هذه الصفحة .

وأسرع فوزى يقول :

— لقد راهننى الـكثيرون على أنـكم لن تنشروها ، ولـكن إيمانى بالشعب الأمريكى وقيمه الأخلاقية ومثله العليـا ، جعلنى أقبل الرهان ، ويبدو أننى قد خسرته.. ولـكنى إذا كنت قدخسرته فسوف أكسب الشىء الـكثير .. سوف أعلم بلادى من هم الأمريكان .

وقال رئيس التحرير :

— لا أسمح لك أن تزيد حرفاً ، سوف تنشر هذه الصفحة غداً ، وعليك أن تنصرف الآن من أمامى وإلا طردتك .

ونشرت الصفحة كما وعد الرجل .. فى صباح اليوم التالى ، صباح اليوم الذى يبدأ فى الواحدة صباحاً ، وراحت الطبعات تتوالى حتى السادسة صباحاً ، وهى تحمل هذه الصفحة من صفحات النيويورك تيمس .. تقول للانجليز بالخط العريض أخرجوا من وادى النيل ، وتقول للدنيا كلها ، لن يكون سلام للعالم ما بقى هناك ظل للاستعمار .

وارتجت الأوساط المصرية والإنجليزية واليهودية لهذا النشر الذى لم تـكن له سابقة .

وانهالت التليفونات على فوزى فى الفندق .. ما بين مهنىء ، وما بين ساخط ، ومهدد ومتوعد . انجليز فقدوا برودهم التقليدى فراحوا يسبونه فى التليفون .. ويهود يلعنونه .. ومصريون يباركونه يسألونه عن كيفية حدوث هذه المعجزة ؟ !

وغضبت الصحف الإنجليزية على الحكومة الأمريكية لسماحها بهذا النشر . وسأل النواب الإنجليز وزراءهم فى البرلمان الإنجليزى ، كيف يتفق هذا النشر مع الصداقة الإنجليزية الأمريكية . ورد الوزراء الإنجليز مذكرين بحرية الصحافة الأمريكية فى النشر ، وأن ما نشر كان إعلاناً .. ورددت شركات البرق فى أوربا وأمريكا أصداء ذلك كله .

وأحس فوزى أنه انتصر أخيراً وسط هذه الغابة الموحشة ، أنه قد رفع الصوت ، وأثار حنق الإنجليز . . ، ولفت أنظار المسئولين من الأمريكان إلى القضية المصرية التى لم يكونوا يعرفون عنها شيئاً أكثر مما يقوله سفراؤهم . ولما كانت الأخبار قد جاءت من مصر بأن حكومة مصر فى طريقها إلى مجلس الأمن لعرض قضيتها . . فقد انتهت رسالة فوزى فى أمريكا . . ولم يبق أمامه إلا أن يعود إلى مصر .. حاملا للمصريين ثمرة تجربته وإيمانه الجديد . إن قضية مصر لن تحل فى المحافل الدولية ، بل ستحل فى القاهرة نفسها بأيدى المصريين . . عندما يؤمن الإنجليز بأن بقاءهم فى مصر أصبح مستحيلا ، عند ما تتحول مصر بالنسبة لهم إلى بحر من الكراهية والنقمة والعداوة ، أجل إنه يجب أن يعود إلى مصر . . إلى مواطنيه ، ولينذرهم ويحذرهم أن لا يعولوا كثيراً على هيئة الأمم أو مجلس الأمن . وليصحح لهم معلوماتهم عن الولايات المتحدة الأمريكية ، وأنها ليست هذه الجنة التى يتصورون . إنها صحراء بلقع ، صحراء مقفرة من كل العواطف الإنسانية والمثل العليا ، بل حتى الإيمان بالله . . أيمكن أن ينسى هذا الأمريكى الذى عند ما سمع فوزى يقول إن شاء الله ، ضحك ملء شدقيه وقال له فى سخرية وما دخل الله فى هذا .

إنه يحلو للأمريكان أن يعتبروا أنفسهم أعداء للشيوعية مع أن فلسفة الشيوعية المادية ، نبعت من الحيـاة الأمريكية ، حيث أصبح المعبود هو الدولار ، به تقاس الأشياء ، الخير والشر ، القبح والحسن، الحق والباطل ، لا مقياس إلا الدولار .

إنه يجب أن يعود إلى مصر ، أن يحذر مواطنيه ، أن يحـذر بنى الشرق جميعاً ، من أن ينحدروا إلى هذه الهوة التى تردى فيها الأمريكان فى ظل ماديتهم وسعرهم الجنونى إلى ماديات الحياة ، فماذا أورثهم ذلك ، إلا القلق والاضطراب العصبى والجنون . . . إن الذين يموتون منتحرين أكثر من الذين يموتون بأى مرض آخر ، والذين يموتون فى حوادث السيارات ، وعلى أيدى القتلة والعصابات يفوقون أمثالهم فى الدنيا كلها . إن العصابات الإجرامية تؤلف نقابات واتحادات تسيطر على البلاد ، إن الجريمة هى القوت اليومى للحياة الأمريكية ، . . . تعيش عليهـــا الصحف . . وتنسج حولها القصص والأفلام البوليسية والتليفزيونية ، وليس ذلك كله سوى النتيجة الحتمية للتفكير المادى ، فحيث تختفى المثالية ، حيث يختفى الإيمان بالله الرحمن الرحيم ، الذى أودع سره فى هـذا الإنسان ، ودعاه للتراحم والتآخى والتعاون ... فما الذى يبقى لبنى الإنسان ، إلا أن يقتل بعضهم بعضاً ، ويعذب بعضهم بعضاً .

كم أصبح تواقاً للعودة إلى مصر ، ليحذر مواطنيه من هذا المصير ، أن لا يتصوروا السعادة كل السعادة فى الحصول على السيارة للجرى بها ، والتليفزيون ، والفريجيدير ، والسينما ، والتحلل من كل القيم ، وإنما السعادة هى القناعة ، فى راحة الضمير ، فى الصحة والرضا ولا سبيل إلى

ذلك كله إلا من خلال الإيمان .. الإيمان بإله واحد ، يأخذ بيد المحزونين ويأسو جراح الضعفاء والمضطهدين . . . عن طريق الرجاء والأمل . . . فى حياة أفضل يسودها العدل والحب والنور .

وحزم فوزى أمتعته ، شوقاً إلى مصر ، ونسى خوفه ورعبه من الطائرات ، نسى العهد الذى قطعه على نفسه أن لا يركب طائرة ما دام حياً . . . نسى رغبته فى أن يعود إلى مصر فى إحدى السفن العظيمة ليستمتع بالحياة فى البحر ... لم يعد يذكر إلا أنه وقد أدى واجبه ، وقام بمهمته . . . فلم يعد يطيق البقاء يوماً واحداً بعيداً عن مصر . . . بعيداً عن شعبها الحبيب ... المسالم الوديع ، بعيداً عن إخوانه وزملائه المجاهدين الصادقين ، بعيداً عن زوجته الحبيبة وأولاده الأعزاء ... بعيداً عن فاطمة ... فاطمة حبيبة الروح والقلب والفؤاد .

الفجر

الفصل الأول

— ١ —

لم تكد الطائرة تستقر بفوزى فوق أرض مطار فاروق حتى وجد نفسه ضائعاً وسط الحشود ، مأخوذاً بالهتافات التى تدوى من حوله باسمه ، فلم يكن يصدق أن كل هذه الحفاوة من أجله .

وشق طريقه من المطار من مصر الجديدة حتى البيت الأخضر ، وقد وقف إلى جواره فى السيارة المكشوفة ، زعيم السودان ، رامزين سوياً لوحدة وادى النيل التى رفع فوزى لواءها فى أمريكا .

وفى البيت الأخضر ، كان قد أقيم سرادق احتشد فيه الألوف . . . وراح فوزى يخطبهم ، مقللا من شأن هذا الذى فعل فى أمريكا ، مستنكراً على نفسه هذا الاستقبال الحار الذى يدل على كرم الشعب الذى يغمر أبناءه بالتشجيع والتأييد .

* * *

ومضت الأيام التالية ، وفوزى لا يستطيع أن يجد دقيقة واحدة يخلو فيها إلى زوجه وأولاده ، فضلا عن أن يخلو بفاطمة ، التى كانت تشغل باله طوال طريق العودة .. وكان يعد الدقائق التى تفصله عنها .

ولقد وقعت عيناه عليها فى المطار ، ولكن الزحام حال دون أن يتصافحا . . وأصبح يراها كل ليلة فى البيت الأخضر ، دون أن تتاح له فرصة

الانفراد بها، فإن الدار لم تعد تخل ليلا ونهاراً من حشود المهنئين والراغبين في مقابلة فوزى وسماع انطباعاته عن أمريكا ، وعن مستقبل القضية المصرية . . كثير من الوزراء ، والشيوخ ، والرجال من كل قطع ومن كل لون ، ومن كل طبقة . ولم يكن حاله فى البيت ، وخاصة فى الأيام الأولى يختلف عن ذلك كثيراً ، فقد كانت بعض المقابلات الخاصة تتم فى البيت ، وكانت التليفونات تلاحقه ، حتى بعد أن يعود إلى البيت . . والصحف والمجلات والإذاعة .. قد اتخذت من عودة فوزى ، وأخباره وآرائه ومقالاته مادة ترضى بها قراءها ، الذين كانوا يلتمسون المزيد .. وضاق فوزى بذلك كله فى نهاية الأمر . . وحار فى تعليل تصرف هـذا الشعب معه . . لقد أمضى فى الخدمة العامة خمسة عشر عاماً ، وما أكثر ما تعرض له من اضطهاد ومحاكمات وسجون ، فلم يحظ من تأييد الشعب بمثل ما حظى به بمناسبة سفره إلى أمريكا ، فما هو تفسير ذلك . . ما تعليله ؟ ولم يكن يهدىء من نفسه ، إلا أن يقول إن هذا التأييد هو ثمرة حياته الماضية كلها يعبر عنه الشعب بمناسبة هذا العمل الأخير .

وأعلن رئيس الحكومة أخيراً ، موعد سفره إلى مجلس الأمن لحضور مناقشات مجلس الأمن عند نظر شكوى مصر ، وكان هذا الإعلان وتحديد موعد سفر رئيس الحكومة بمثابة إنهاء كتاب سفر فوزى إلى أمريكا ، فقد بدأت عواطف الشعب واهتماماته تتجه صوب رئيس الحكومة وما سوف يجرى فى مجلس الأمن .. وفهم فوزى ما لم يكن يفهم من موجة الشعب الجارفة ، لقد كان يعبر بهذا الأسلوب عن رغبته فى الاتجاه نحو مجلس الأمن ، كان يضغط بهذه الصورة على حكومته ، فلما أن استجابت

الحكومة لرغبة الشعب توقف التيار أخيراً .

وعادت حياة فوزى إلى سابق مألوفها ، واستولى عليه الخاطر الذى عقد العزم عليه مذ بدأت رحلة العودة إلى مصر ، وهو أن يتزوج فاطمة سراً ، ريثما يهيء السبيل تدريجياً لإعلان هذا الزواج.. وكان يحز فى نفسه بعد أن أصبح ينظر لفاطمة كزوجة ، عدم تسويته بينها وبين وفاء . لقد تلقته وفاء بمجرد عودته وفرحت بقدمه وفرح بها ، وغمرته بقبلاتها وهو يقدم لها ما أحضره لها من هدايا ، وأطفأ شوقه إلى زوجته، ولكن فاطمة ظلت بعيدة عن لقائه.. بعيدة عن إطفاء شوقه إليها ، بعيدة عن أن تدرك مقدار ما يحمله لها فى قلبه وروحه من حب عنيف طاغ ، لم تعرف بعد أنه قد جاءها من أمريكا (بشبكتها) . لقد استطاع فى إحدى المرات ، أن يهمس لها خلسة فى أذنها ، بأن لها عنده هدية ، ولكنه لم يجد الفرصة لينفرد بها ، ويقدم لها هذه الساعة ذات الأسورة الذهبية ، المحلاة بالأحجار المنمقة المزركشة ، بحيث تفوق الماس الحقيقى .

ولم يكن ثمة سبيل لتلاقيهما فى بيتها فقد كانت والدتها موجودة .. ولم يبق إلا العيادة لتكون مكان اللقاء ، ولم تحن الفرصة إلا أخيراً بعد انقضاء أكثر من أسبوعين على عودته من نيويورك ، فقد دقت له فاطمة التليفون .

— صباح الخير .. ها أنذا أكلمك كما طلبت منى .

— أيمكن أن نتقابل اليوم ؟

— كما تحب .

— ولكن والدتك فى البيت ؟

— أجل .

— لم يبق إلا العيادة . ولكن ألا يقيم المرض بها ؟

— إنه ينصرف كل يوم بعد تمام عيادة الصباح فى الثانية .

— ومتى يعود ؟

— لا يعود قبل السادسة .

— هل أمر عليك فى الثانية والنصف ؟

— أخشى أن أموت من الشوق قبل هذه الساعة .

— إلى اللقاء .

— إلى اللقاء .

ولكن فوزى لا يكاد يضع سماعة التليفون فى مكانها ، حتى يحس بالعرق يتصبب من جبينه ومن كل جسده ، ويدرك أى مجهود عصبى قد بذل فى هذه المكالمة .. وأى جو غير كريم قد سادها .

إنه يريد لقاء جسدياً مع فاطمة .. وكل حركة ، وكل إشارة ، وكل تدبير يصرخ بذلك ويعلن عنه ، وإلا فقد كان يراها وقد رآها .. وكان باستطاعته أن يجتمع بها فى بيتها مع وجود أمها ، بل كان فى استطاعته أن يجتمع بها فى حضور وفاء .. ولكنه تربص طوال هذه المدة كلها ليجتمع بها فى خلوة .. ليكونا وحديهما ، لينهل من جسدها .

ويتصبب العرق من جديد ، ويخفق قلبه .. أيليق به ذلك .. أواثق

هو أنه يتصرف تصرفاً كريماً ؟

ويصرخ قلبه : ولكني أحبها .. أحبها .. وهى تحبنى . ولكن صراخ ضميره يعلو فوق صراخ قلبه :

— ولكن المجتمع والشرائع ، قد نظمت طرائق الحب وسبله ، وحددت نظام الزواج .

— وأنا سأتزوجها .

— سراً

— طبعاً سراً

— لماذا طبعاً هذه ، لأنك لا تريد أن تؤذى وفاء .. لأنك تريد أن لا تؤلمها ، أن لا يقول عنك النـاس أنك تخليت عنها وغدرت بها بعد طول وقوفها إلى جوارك .

— هذا صحيح ، اعترف .

— فلماذا لا تأبه بعواطف فاطمة ، ولا تفكر فى مشـاعرها وأحاسيسها ، بأى حق تقبل منها تضحية جسـدها الذى تعرف أنت أنها ستبذله لك .. وليس هذا اللقاء الذى دبرته والجو الذى أحيط به ، إلا لقبول هذه التضحية .. أيرضى صاحبك خالد عن هذا الذى تفعل ؟

ويحمر وجه فوزى ، لورود اسم خالد على ذاكرته .. لا .. لا .. إنه لن يدنس ذكرى خالد .. إنه لن يتقـدم على شىء يجعله غير جدير بخالد القديس الذى عاش طول حياته يسيطر على عواطفه ورغباته . إنه

لن يذهب لفاطمة فى الموعد المتفق عليه .. إذا أراد ، أن ينعم بحب فاطمة الجسدى ، فيجب أن يتزوجها أولا .. وعلناً وعلى رؤوس الأشهاد .. أما بغير هذا الثمن فلا .. لا .. لا .. وألف مرة لا .

ويحس فوزى بشىء من الراحة .. إنه لن يذهب .. لن يقترف هذا الإثم ، سيعلو فوق حبه ، سيسيطر على رغبته .. الواجب فوق كل شىء .

ويخرج فوزى ، الساعة التى كان سيقدمها لفاطمة ، ويعيدها إلى درج مكتبه .

وينهض فى عزم وتصميم ليذهب إلى بيته .. أجل سوف يذهب إلى البيت .. سوف يحتمى بوفاء وأولاده .. إن وجوده مع وفاء ووسط أولاده ، سوف يساعده على التغلب على أزمته ، والسيطرة على رغبته .

وهرب من الحجرة لا يفكر فى شىء .. ولكن سكرتيره لحق به على السلم :

— طبعاً حضرتك لم تنس موعدك مع زعيم فلسطين فى مصر الجديدة الساعة الرابعة ؟

وأحس فوزى كما لو كانت ضربة شديدة نزلت على رأسه ، فقد كان ، فى غمرة احتدام عواطفه ، قد نسى كل شىء عن هذا الموعد الهام .. الذى تم الاتفاق عليه ، لوضع الخطط اللازمة لتعبئة الشعب المصرى خلف قضية فلسطين ، بعد أن أصدرت الجمعية العامة لهيئة الأمم قرارها بتقسيم فلسطين وإنشاء دولة يهودية .

ونظر فوزى فى ساعته ، وكانت تشير إلى الثانية والربع ، وسرعان ما ذكر موعده مع فاطمة ، الثانية والنصف .. إن عيادة فاطمة فى الطريق إلى مصر الجديدة ، فماذا عليه لو مر عليها ، ومكث عندها وقتاً قصيراً ، ثم ذهب إلى مصر الجديدة إلى موعده ، إنها الأقدار هى التى رسمت ذلك .. أفلم يستقر تصميمه على الذهاب إلى البيت إن الله الذى يعلم السر وأخفى يشهد أنه كان ذاهباً إلى البيت . ولكن هذا الموعد الذى كان قد نسيه قد غير كل شىء . . . إنها الأقدار . .. ليس فى استطاعته أن يحارب الأقدار ... ليفوض أمره لله ، وليدعوه أن يجنبه كل زلل وعثار .

ويعود فوزى إلى حجرة مكتبه ، ويستعيد الساعة التى سيقدمها لفاطمة . ويعن له خاطر جديد ، فيجلس على المكتب ويأخذ ورقة من أمامه ، ويشرع فى الكتابة .

بسم الله الرحمن الرحيم — إنما الأعمال بالنيات ولكل امرىء ما نوى .

إقرار — أقرر بموجب هذا أنا فوزى السيد على المحامى أننى أشهد على نفسى أننى قد تزوجت بموجب هذه الوثيقة ، الدكتورة فاطمة حسن إبراهيم زواجاً شرعياً بإيجاب وقبول فيما بيننا ، أحاسب عليه أمام الله والناس والقانون .

وقد وقعت الدكتورة فاطمة العاقلة البالغة الرشيدة على هذا الإقرار بالقبول .

وإذا كانت العلانية تستلزم وجود شاهدين ، وإثبات الحقوق الناشئة

عن هذه الزوجية تستلزم كتابة إشهاد أمام المأذون ، فإنى أقرر بموجب هذا ، أننى سأتم هذه الإجراءات فى أقرب فرصة ، ولـكنى منذ الآن أعتبرها زوجتى ولها كافة الحقوق على . والله على ما أقول شهيد .

وختم فوزى هذه الوثيقة بتوقيعه .

وقال لصاحبه السكرتير وهو يغادر الدار :

— أرجوك يا حسن أن تتصل بالبيت وتقول لهم . أن لا ينتظرونى على طعام الغداء بسبب توجهى إلى مصر الجديدة . . . إلى حيث تعرف .

— ٢ —

لم تتهيأ الفرصة لفوزى أن يقدم وثيقة زواجه العرفى لفاطمة ، فقد استغرقتهما حرارة اللقاء وأشواقه وخلوتهما لأول مرة ببعضهما بعد هذه الفترة الطويلة . وقد أشبع فوزى رغبته ، وانتشى بفاطمة ، وهى مستسلمة بين يديه ، تدل كل جارحة من جوارحها على أنها وهبته نفسها ، ومع ذلك فلم يجرؤ على معاملتها كما لو كانت زوجته بالفعل ، لقد تهيب ، لقد توقف ، واستفرغت العاصفة الجسدية نفسها دون أن تترك آثاراً غير قابلة للاصلاح .

وتمدد فوزى على سرير المرضى ، وبدنه يرتجف ، بينما كانت فاطمة تجفف له عرقه بمنديل يدها ، وتعيد تنظيم شعره .

وكان فوزى ، يتابع حركات فاطمة المتئدة الهادئة ، ويقارن بينها وبين ما كان عليه هو منذ لحظات ، وهو فى ذروة اهتياجه الجسدى ، فيحس بالخجل من نفسه ، ويعود إلى هذه الدقائق العاصفة وهو يغمر فاطمة

بقبلاته وعاطفته المشبوبة ، إنها لم تنبس ببنت شفة ، كان يحس بقلبها خافقاً فوق قلبه ، بجسدها متقداً لصق جسده ، ولكنها لم تكن مثله ، إنها تعطى ولا تأخذ . صامتة هادئة ، كما لو كانت تتعبد فى محراب الحب .

وانتهز فوزى فرصة خروج فاطمة لتحضر له كوباً من الماء ، لكى يخرج الاشهاد من جيبه ويقدمه لها بمجرد أن عادت .

وطالعت فاطمة الوثيقة ، وافتر ثغرها ولمعت عيناها ، ولكنها لم تلبث أن أعادت الوثيقة ، إلى فوزى وهى تقول فى ابتسامة عريضة :

— إن ما بيننا ليس فى حاجة لهذه العهود والمواثيق المكتوبة ، إن ما بيننا أقوى من ذلك كله ، إننى لا أطالب بحقوق ، ولست أعتقد أن لى قبلك أى حقوق . .

— ولكن المسألة يافاطمة ، ليست مسألتى ومسألتك ، إننا نعيش فى مجتمع له قواعد وتقاليد .

— أنت لا تستطيع أن تنسى فى أى لحظة أنك رجل مجتمع وتقاليد ، إنك زعيم مسئول ، ولذلك فلا تستطيع أن تنظر إلى الأمور إلا من خلال هذه النظرة . . . أما أنا فأعتبر نفسى امرأة عاقلة رشيدة كما تقول فى وثيقتك ، وقد وهبتك نفسى فى غير مقابل ، إلا أن تحبنى ، إلا أن تظل على حبى حتى بعد أن أعطيك جسدى ، فان ما يخيفنى . . . هو أن أفقد احترامك ... أن تحتقرنى بعد أن أهبك جسدى .

ولم يتمالك فوزى نفسه من أن ينفعل من فرط التأثر ، فانحدرت الدموع من عينيه واحتضن فاطمة فى قوة وحرارة :

— أنا ... أنا يا فاطمة أحتقرك ، لعنت إذن ! !

إنك لا تعرفين كيف تعظمين فى نظرى وتعظمين ، إننى أتصورك من طينة غير طينة البشر ، أتصورك ملاكا ، فلست أظن أن بنى الإنسان يفعلون كل هذا أو يتصرفون هكذا .

وضحكت فاطمة ضحكتها اللعوب ، لتغير الموقف وهتفت بفوزى :

— مهلا . . . يا فوزى ، إياك والمبالغة ، لست أحسبنى شاذة ولا غريبة إذ أحب وأبذل نفسى راضية من أجل هذا الحب . . . أنسيت أن أختى أزهار قد سبقتنى إلى هذا الحب . . بالرغم من أن فؤاد الذى أحبته كان وغداً لئيما انتهازياً ؛ وأين فؤاد منك ... إن الدنيا كلها تحبك .

— لا ... لا يا فاطمة لا تقارنى نفسك بأزهار ، لقد كانت أزهار يائسة من حياتها ، وظنت فى فؤاد سبيل الخير والطهارة فتعلقت به . . . أما أنت ... فأنت الطهارة كلها ... أنت الخير كله .

ووثب فوزى ناهضاً وقد تجلى العزم على وجهه :

— اسمعى يا فاطمة ، أقسم بالله أننى إذا لم أتزوجك على رؤوس الأشهاد ، فلن أكون رجلا ، فضلا عن أن أكون رجل مبدأ ، ولأكونن أحط من فؤاد نفسه الذى تصفينه بأنه كان وغداً لئيما .

ووضعت فاطمة يدها على فم فوزى لتحول بينه وبين الاسترسال فى الكلام :

— ما كان يصح لى أن أذكر اسم فؤاد ، إننى أعتذر لك عن ترديد هذا الاسم .

إننى أعرف ما الذى يؤخرك عن زواجى ، وهذا ما يجعلنى لا أطالبك به ، أنا أعرف مبادئك ومثلك العليا ، إننى أقدر رغبتك فى أن لا تؤذى وفاء زوجتك ، وأنا من ناحيتى لا أحب أن أكون سبباً فى إيذائها ، وإنه ليؤلمنى أن يجعل منا القدر غريمتين فى حبك ، فى الوقت الذى أتمنى لو أفديها بحياتى من أجلك لأنك تحبها وهى تحبك .

— ليت وفاء هنا لتسمع وترى ... إنها لا تستطيع أن تتصرف هكذا كما تتصرفين ... لا تستطيع أن تكون منصفة هكذا كما تفعلين ، إنها أنانية مفرطة فى الأنانية ...

— إنها تحبك .

— وأنت أيضاً تحبيننى ... ومن الظلم أن تتعذبى .

— ولكن من الذى قال لك إننى أتعذب ... إننى فى ذروة السعادة ، بعد أن حظيت بحبك ، بعد أن أصبحت المرأة فى حياتك وفى قلبك .

لقد نلت كل ما كنت أصبو إليه مذ عرفتك ... لقد كان أملى هو أن تحس بوجودى كامرأة ، كشريكة لقلبك ، أن تدرك مقدار مالك فى نفس من حب ، وما أنا على استعداد لبذله من أجلك .. والآن وقد عرفت فلم أعد أطمع فى شىء أكثر من ذلك . أرجوك يا فوزى أن لا تشقى نفسك من أجلى ، ليس هناك ما سوف يعكر صفو نشوتى بعد أن أصبحت تعرف ، إلا أن أكون سبباً لشقائك ، ليس يؤذينى حبك لوفاء ، إنها أم أولادك .. وأنا أحبها وأحب أولادك ، ويجب أن تدرك من أسلوب حياتى الماضية ، إننى أستطيع العيش على القليل ... على القليل جداً .

وأمسك فوزى برأس فاطمة ، كما أمسك يوماً برأس وفاء ، وراح يحدق فى شعرها ، فى كل قسمة من قسماتهـا ، فى العينين المشعتين بالضياء ، فى الوجنتين الملتهبتين حمرة ، فى الأسـنان اللؤلؤية الدقيقة ، فى الفم والشفتين القرمزيتين ، وهتف وهو يغص بالدموع :

— فاطمة .

— فوزى .

— من أنت قولى ... من أنت .

— فاطمتك ، خلقنى الله من أجلك ، لأكون دائماً إلى جوارك ، مساعدتك ، معاونتك ، وحبيبتك .

وراح فوزى يلثم فى حنان ووله قسمات وجهها ... عينيها ، وجبينها ، شعرها وأسنانها ... وهو يحاول أن ينفذ إلى ما وراء ذلك ، أن يقبل نفسها ، أن تعانق روحه روحها .

— ٣ —

قالت وفاء لزوجها وهى تبتسم ابتسامة مغتصبة :

— أوحشتنا بالأمس طول النهار .

— أنا آسف يا وفاء ، إن موضوع فلسطين يتطور تطوراً خطيراً ، إن زعيم فلسطين يستغيث فى طلب السلاح والمال لشعب فلسطين ، وإلا فسوف ينجح اليهود فى إقامة دولتهم .

— وأين تغديت ؟

— أكلت (سندوتشاً) فى طريقى إلى مصر الجديدة .

— ألم يكن فى استطاعتك أن تأتى ولو لمدة ساعة ، لتأكل ، إنك فى حاجة للغذاء لتكون أقدر على مواصلة جهودك .

— شكراً يا وفاء ، إنك مشغولة أبداً بتغذيتى ، ماذا كنت أفعل بغيرك .

— ولماذا جعلت حسن هو الذى يتصل بى ، ولم تكلمنى أنت .

وأحس فوزى بوفاء تضيق الخناق عليه، وقد أدرك منذ بدأت هذه المناقشة أنها تغلى كمرجل يوشك أن ينفجر ، وقرر من ناحيته أن يقابل التحدى بالتحدى ، فاذا حدثته عن فاطمة ، فسوف يجابهها بكل شىء ، سوف يعلنها بحبه لفاطمة ، بعزمه على زواجها .. أجل إنه يجب أن يفعل ذلك .. الآن .. ونظر إليها متحفزاً .

ولكن وفاء لم تذكر شيئاً عن فاطمة ، وإنما لوحت فى وجهه بشىء بين أصابعها وسألته فى سخرية :

— أتسمح أن تقول لى ما هذا ؟

وفوجىء فوزى بحركتها . ولم يتبين شيئاً ، فلم يزد عن قوله فى اندهاش :

— ما هذا ؟

— أجل ما هذا .. ألا تعرف ما هذا ؟

— من أدرانى أنا ما هذا .

— إذن أنا أقول لك يا سيدى الزعيم،إنه مشبك .. مما تستعمله النساء فى شعورهن (بنسة) يعنى .

— ما هذه السخافة .

— طبعاً من حقك أن تتصور أننى غارقة فى السخافة .. ولكن هل تعرف أين وجدته .

— .. ..

— وجدته يا سعادة البك فى جيب سترتك وبقى عليك أن تقول لى كيف وصل إلى هذا المكان ؟ إننى لا أستعمل هذا النوع من المشابك .. وهو مشبك سيدة ، وقد بقى أن تقول لى أى سيدة هى وأين ذهبت بالأمس .

وانهار فوزى تحت وطأة هذه المفاجأة غير المتوقعة ، واحمرت أذناه واحمر وجهه من فرط الخجل ، وضاع من نفسه كل عزم وتصميم على أن يجابهها بحبه لفاطمة .. ولم يزد عن قوله :

— لن أرد على هذه السخافات .

— سمها كما تشاء .. أما أنا فأقول لك فى غير عصبية ، وأنا فى كامل هدوئى ، إذا لم تفسر لى أين كنت بالأمس ، وكيف وصل هذا المشبك إلى جيبك فلن أبقى فى البيت لحظة واحدة ، إننى لا أريد أن أتسرع فأقول لك من الذى يستعمل هذه المشابك ، وأنا أعرفه جيداً ، ولكنى

أريد أن أسمع منك تعليلا يقنعني ، وإلا فانني سأذهب .. سأذهب من هنا الليلة .. الآن إذا شئت .

واسترد فوزى أنفاسه الضائعة ، واستولى عليه الهياج فصرخ فى وجهها ثائراً :

— أهذا يليق بك .. أهذا تصرف سيدة عاقلة رشيدة أم أولاد .. أبعد هذا العمر الطويل الذى عشناه معاً ، بعد كل هذا الرباط المقدس من أولادنا ، ليس أسهل عليك من التهديد بمغادرة البيت . أنسيت مركزك الاجتماعى ، أنسيت أنك أم لثلاثة أولاد .. أهذا يليق بك ؟

— قل ما شئت ، لم يعد هناك شىء فى الدنيا يهمنى .. إنك تعرف العهد والميثاق بيننا وخير ما تفعله الآن هو أن تقول لى مشبك من هذا وكيف وصل إلى جيبك ؟

وصاح فوزى فى غضب وعصبية :

— وأنا لن أقول لك شيئاً ولن أرد على هذا التحقيق السخيف وافعلى ما تريدين !!

* * *

راحت وفاء تبكى بدون انقطاع وفى مرارة مذ وصلت إلى بيت والدتها ، وكان بكاؤها فى بادىء الأمر هستيرياً تشنجياً عند ما وقع نظرها لأول مرة على والدتها ، .. ثم ذهبت عنها نوبة الهستريا ، واستمر البكاء المر فى حرارة وألم . وعبثاً حاولت أمها أن تواسيها ، أن تعرف

منها سبب ألمها ، أن تحملها على الهدوء بتذكيرها بوجود أخيها الدكتور سامح الذى عاد من باريس فى أجازة قصيرة ، لقد مضت وفاء فى بكائها وراحت تكرر أنها لن تعود إلى البيت ثانية ، وأنها مصرة على الطلاق . وتقول شريفة هانم وتعيد القول :

— ليس عندنا بنات يفعلن هذا ، لم أسمع عن أحد فى عائلتنا قد طلق .

— إذن أقتل نفسى .

— لا تكونى مجنونة ، وصلى على النبى وقولى لى ، ما سر هذه الثورة ألم تعودى تحبين فوزى ؟

— المسألة ليست مسألة حب ... لن أستطيع العيش معه بعد اليوم .. يجب أن أطلق .

وجاء الدكتور سامح شقيقها من الخارج ، ليجد المشكلة فى انتظاره ، وعندما حاول كعادته أن ينحو باللائمة على أخته ، ردت عليه فى تحد :

— اسمع يا سامح ، إننى أختك الكبيرة ، ولن أسمح لك أن تفعل هذه المرة ما اعتدت أن تفعله أنت وماما أيا كان رأيك فى الموقف ، فيجب أن تحقق لى مشيئتى ، إننى أريد أن أطلق... لن أعيش مع فوزى بعد اليوم .

وأحس سامح بالثورة العارمة التى تعصف بشقيقته فراح يعالجها بما فى طبعه من رقة ولين :

— وهو كذلك يا وفاء . . . لا بد أن تنفذ مشيئتك سوف نطلقك من فوزى .

— اليوم .

— اليوم ... اليوم كما تشائين . ولكن ألا تقولين لأخيك الذى سيلبي رغبتك السبب فى هذا الطلاق ؟

— بدون أسباب ، هكذا أريد .

— عفواً يا وفاء ، سنلبي كل رغباتك ، ولكن أين تعقلك الذى اشتهرت به أستقول للناس وللأولاد ، وللأقارب . . . هكذا شاءت الطلاق .

— لست مستعدة لإبداء أسباب والدخول فى مناقشات. هكذا أريد .

ونظر سامح إلى والدته فى طلب العون منها :

— ألا تقولين لى يا ماما ماذا حدث ؟

— إنها لا تقول شيئاً سوى الشكاوى المعتادة ، إنه يهملها ، لا يهتم بها ، لم يتناول طعامه فى البيت بالأمس ، وكلف السكرتير أن يبلغها ذلك ، ولم يعد إلى البيت بالأمس إلا فى ساعة متأخرة جداً .

وقال سامح فى شيء من السخرية :

— ولكن يا وفاء يا حبيبتى ، أى جديد فى هذا الذى تقولين ، أليست هذه هى حياته ؟

سفر أو اعتقال أو سهر ... لقد كرس حياته من أجل الخدمة العامة وقد كنت تعرفين ذلك قبل أن تتزوجيه .

وصرخت وفاء :

— إنكم لا تعرفونه كما أعرفه لقد تغير ، إننى لم أشك أبداً من بعده

عنى ، لم أشك من سهره ، لقد اعتذرت له لاعتراضى على سفره إلى أمريكا . إن المسألة عندى إحساس ، وإحساسى يقول لى ، إنه تغير ، إننى لم أعد عنده كما كنت ...

— ألن تكبرى أبداً ... ألن ترتفعى فوق هذه الغيرة الحمقاء .

واهتاجت وفاء :

— سامح ، قلت لك إننى لست مستعدة لسماع هذه اللهجة . . . لقد فاض بى ... إما أن تطلقنى أو أنتحر .

ولم يتمالك سامح نفسه رغم حرصه على أن يكون هادئاً ، إلا أن يحتد عليها :

— ولكن هذا غير معقول ... هذا جنون . . . لا بد أن تقولى لنا ما الذى يجعلك تقولين هذه الأقوال ... أتخفين عنا شيئاً ؟

وخفضت وفاء رأسها ، وأجهشت فى البكاء ، فقد لمس شقيقها الوتر الحساس ، وهى أنها تخفى عنهم موضوع مشبك الشعر الذى وجدته فى جيب سترته . لا تستطيع أن تقول لهم ما تؤمن به ، كما لو كانت تراه رأى العين ، من أنه يحب فاطمة ، وأنه يخلو بها ، وقد تسرب هذا المشبك من شعرها إلى جيبه ، إنها تعرف هذه المشابك جيداً ، لقد كانت تنظم شعر فاطمة أثناء مرضها بهذه المشابك .

ومحال عليها أن تقول لوالدتها أو أخيها شيئاً من ذلك ، إنها تعرف ، كم تحب أمها فوزى وتعزه ، وكم يبجله سامح ويحترمه ، ومثل هذه القصة

عن فوزى ، ستخدش سمعته عند أخيها ، ستهز صورته عند أمها ، وهى لا يمكن أن تكون مصدر أذى لفوزى ... ليقولوا عنها مجنونة ، ليصفوها بالحمق ، ولكنها لن تشهر به أمام الناس ، حتى لو كانوا أقرب الناس إليها ... أمها وشقيقها .

ولذلك لم تزد عن البكاء ... البكاء المتواصل فى مرارة وألم .

* * *

واتصل سامح بفوزى ، ينقل له صورة مما يحدث ويجرى ، وأسقط فى يد فوزى عندما علم أن وفاء لم تذكر شيئاً عن مشبك الشعر ، أو علاقته بفاطمة لأمها أو أخيها ، وانهارت كل عوامل المقاومة والتحدى فيه ، لم يبق فيه سوى الإنسان ... الإنسان المحب لوفاء التى هزمته بصمتها .. هزمته بحرصها على سمعته فآثرت أن يصفها أخوها بالحمق والجنون ، على أن تدافع عن نفسها .

وعندما خاطب شريفة هانم ليعتذر لها عما يسببه ووفاء لها من متاعب وأكدار ، غمرته بحبها وحنانها ، وثقتها الكاملة فيه . أيمكن أن يختار هذه اللحظة لإعلانه حب فاطمة ، وانتوائه الزواج منها .

إن فاطمة عاقلة ، لقد تعلمت الصبر الطويل . . . فلماذا لا يتعلم هو بدوره الصبر ، أجل إنه يتألم من أجل فاطمة ، يتألم من موقفه غير الكريم فى هذه العلاقة السرية بينه وبينها ، ولكن ماذا يفعل . . . هكذا تفرض عليه الأقدار ، إنه يجب أن يحتمل ... يجب أن يصبر .

* * *

وعاد إلى وفاء ، وتكررت الصورة المألوفة ، لا تكاد تراه بعد خصام حتى تنسى كل شيء ، ولا يكاد يقبل رأسها ويسمعها كلمات الإعزاز والحب الذي يحمله لها ، حتى تكون على استعداد أن تبذل حياتها ، هناءها من أجل إسعاده . وعادت معه إلى البيت .

— ٤ —

استقبل الشيخ المهدى فوزى فى حجرة بيته بترحاب شديد ، ولكن فوزى لم يستطع بمجرد جلوسه على أحد المقاعد أن يخفى دهشته من منظر الحجرة إلا بصعوبة وجهد . لقد كانت حجرة شاذة وفريدة فى بابها ، فعلى الرغم من ضيقها النسبي، فقد قسمت إلى قسمين ، أقيم على القسم الأكبر منها، مصلى فرشت بالحصير ، وأقيم حاجز خشبى ليفصل هذه المساحة عن باقى الحجرة ، وقد تناثرت القباقيب الخشبية إلى جوار الحاجز ، بينما حشر الشيخ المهدى مكتباً له فى القسم الضيق الباقى من الحجرة ، وكان الفراغ الباقى بعد وضع المكتب يكفى لمقعد واحد يحشر فيه الضيف حشراً ، وزاد فى شذوذ الصورة ، بعض ماء منسكب على الأرض الخشبية أسفل قوائم المكتب وحولها ، وقد عنى الشيخ المهدى أن يحذر فوزى أكثر من مرة ، حتى لا يقرب هذا الماء المنسكب ، مع التنبيه المتكرر بأنه ماء طاهر .

ودخلت طفلة جميلة الوجه ، بيضاء البشرة حافية القدمين ملوثتهما من اللعب فى التراب والطين ، وكان التراب على ثوبها ووجهها يدل على أنها كانت تلعب طول النهار فى الشارع ، ومدت يدها الصغيرة لفوزى لتصافحه ،

بينما كان الشيخ المهدى يقدمها له على أنها ابنته مؤكداً له أنها تمد يدها لمصافحته ، لتثبت له أنه رغم اتساخ ثوبها ووجهها ، فإن يدها نظيفة .

وقهقه الشيخ المهدى رضا وسروراً بتوريته عن نظافة يد ابنته . واغتصب فوزى ابتسامة مجاملة ، فقد كان المهم الذى جاء من أجله يستدعى منه أن يجامل الشيخ المهدى إلى أبعد الحدود . . . بل أن يعمل على إرضائه وإشعاره بمكانته .

— شرفتم بيتنا المتواضع يا أستاذ فوزى ، إنه بيت دراويش .

— بيت الخير والبركة إن شاء الله .

— الله يبارك فيك يا أستاذ فوزى يا طيب . وكيف تجرى أحوال الدنيا هذه الأيام ، يا أستاذ فوزى ؟

— لقد أبلى النقراشى باشا فى مجلس الأمن بلاء حسناً ، إنه أول رئيس حكومة مصرية يتحدى الانجليز ويصفهم بالفراصنة ، ويندد بجرائمهم فى مصر . ومع ذلك فلم نصل بعد إلى حقنا .

— هذا صحيح ، حقاً لقد أصدر المجلس قراراً بجلاء الجيوش الانجليزية عن مصر ، ولكن القرار تعثر بعد ذلك حول وحدة مصر والسودان .

على أن قضية مصر ليست هى التى تشغلنى الآن يا أستاذ فوزى وإنما كارثة فلسطين .

— معك كل الحق وهذا سبب زيارتى لك اليوم .

— إنها كارثة ... مصيبة يا أستاذ فوزى ، هذا القرار العالمى بتقسيم فلسطين ، ولكنى أؤكد لك أننا سننتصر بالرغم من كل شىء ، إن كتاب الله صريح يا أستاذ فوزى إن اليهود لا يمكن إلا أن يخرجوا أبداً بالخيبة والدمار واللعنة .

« وإذ تأذن ربك ليبعثن عليهم إلى يوم القيامة من يسومهم سوء العذاب ، إن ربك لسريع العقاب » .

واليهود من أجبن الجبناء يا أستاذ فوزى ، بنص القرآن الكريم :

« لايقاتلونكم جميعاً إلا فى قرى محصنة أو من وراء جدر بأسهم بينهم شديد تحسبهم جميعاً وقلوبهم شتى ، ذلك بأنهم قوم لا يعقلون » .

— صدق الله العظيم ، ذلك وصف اليهود أيام سيدنا محمد رسول الله ، وليس وصفهم اليوم فى القرن العشرين ، بعد أن تسلحوا بالعلم وأصبحت أسلحة القتال الحديث الآلية فتاكة .

وإذا كان الله سبحانه وتعالى سيجرى قضاءه فيهم ، فأنت تعلم أنه يجرى قضاءه من خلال البشر ، ومن خلال مدى إيمانهم واستعدادهم وقدرتهم وطاقاتهم .

— حق ... هذا حق ولذلك فقد قال وهو السميع العليم : وأعدوا لهم ما استطعتم من قوة ومن رباط الخيل ... فطلب منا الاستعداد والطلب لا التواكل والاستسلام .

— ولعلك توافقنى يا شيخ مهدى،أن أول مراحل العمل والاستعداد هو ضم الصفوف والاتحاد بدل التفرق .

ونظر الشيخ المهدى إلى فوزى بعينين فاحصتين ، إذ أحس بذكائه أن وراء هذا القول أمراً ما .

— حق ... حق ، إن ما تقوله هو عين الحق « واعتصموا بحبل الله جميعاً ولا تفرقوا » .

— لقد سهلت على مأموريتى ، إن هذا هو سبب مجيئى اليوم .

إن قوى الشر قد تجمعت لتضرب مصر والعرب ، إنجلترا وفرنسا وأمريكا ...

— وسيحبط الله كيدهم أجمعين ، إن النصر محقق لنا باذن الله .

— هذا هو ما نرجوه ونؤمل فيه ، ولكنه لن يكون إلا ثمرة جهدنا وإخلاصنا ، وأولا وقبل كل شيء ثمرة اتحادنا .

ولما كنت أومن بالاتحاد ، فقد رأيت أن أقدم مثالا للشعب المصرى والعربى على وجوب الاتحاد ... وقد استطعت أن أقنع زملائى ، أن أعرض عليك اندماج جماعتنا فى جماعة واحدة مع جماعتكم ، بتنظيماتكم الراهنة ، بتشكيلاتكم ، بمبادئكم ، تحت زعامتك وقيادتك ، بعد أن أثبت أنك أنجح من شهدته هذه البلاد فى تنظيم الجموع وحشدها . وليس لنا شروط أو مطالب من أجل تحقيق هذا الاندماج ، فنحن نضع أنفسنا تحت تصرفك كجنود فى حركة واحدة ، وكل الذى نرجوه ، هو أن تعرف الدنيا أننا اتحدنا ، فيكون هذا العمل قدوة لباقى الجماعات والهيئات لكى تتعاون وتتحد فى وجه الخطر المشترك . ولا تنس يا شيخ مهدى ، أن اتحاد حركتنا هو الذى سيقضى القضاء الأخير على الأحزاب القديمة البالية .

وهتف الشيخ المهدى :

— الله أكبر ولله الحمد ، صدق وعده ونصر عبده وأعز جنده وهزم الأحزاب وحده .

الله يفتح عليك يا أستاذ فوزى ، لقد أبلغت وأعذرت ، أشهد لقد أديت الأمانة وبلغت الرسالة .

وأقبل فوزى على الشيخ المهدى يعانقه لفرط فرحه ، فقد كان يتوقع أن يخذله الشيخ المهدى كما حذره أصحابه وأنذروه :

— الله يبارك فيك ياشيخ مهدى ويطيل فى عمرك .

أأفهم من هذا أنك موافق على الاقتراح ؟

— وهل تتصور غير ذلك ، أيمكن أن لا أوافق ...

— أأدفع الخير الذى جئت به ... وأين أذهب من الله .

— وإذن ؟

وإذن لا يكون إلا كل خير باذن الله ، سوف أعرض هذا الطلب الكريم على إخواننا فى مجلس الإرشاد ، ولن يكون إلا رد واحد بطبيعة الحال ، وهو القبول بالسعادة والغبطة .

— ومتى يتم ذلك ؟

— امنحنى أسبوعاً واحداً .

— أليس الأسبوع كثيراً ؟

— الله يكرمك ... دائماً متعجل على الخير إن شاء الله .. المسألة هى أنى أرجوك أن تدعنى أعمل بأسلوبى .

— وهو كذلك .

* * *

استقبل الشيخ المهدى الأستاذ فوزى فى الموعد المتفق عليه بعد انصرام الأسبوع بحفاوة بالغة أكثر من المعتاد فاغتبط فوزى وامتلأ نشوة وسعادة بقرب تحقق أمله فى ضم الصفوف وتوحيد الجبهتين ، وسأل الشيخ المهدى فى لهفة :

— بشرنى ... هل تمت الموافقة والحمد لله ؟

وابتسم الشيخ المهدى وقال :

— ألم أقل لك إنك متعجل على الخير إن شاء الله . . . لن يكون إلا خيراً ... فتح الله عليك . . أو لا تنتظر حتى يستقر بك المقام وتشرب فنجان القهوة أو لا — أوتراك تفضل شراب الينسون ، إننى أرتاح إليه جداً ، وأفضله على القهوة ، إنه مهدىء للأعصاب ما رأيك . . . جرب معى فنجاناً من الينسون .

— لقد سألتك وأريد أن أسمع جواباً .

ومرة أخرى ابتسم الشيخ المهدى ابتسامة عريضة :

— يظهر يا أستاذ فوزى أن كثرة التحقيقات معك قد جعلتك أشبه بوكلاء النيابة ... كم مرة يا أستاذ فوزى حقق معك وسجنت ... عشرات المرات فيما أعتقد .

ولم يحر فوزى جواباً ... وظهر الضيق عليه ، فدخل الشيخ المهدى فى الموضوع :

— المسألة يا أستاذ فوزى ، أننى عرضت رسالتك الكريمة على مجلس الإرشاد ، فشاركونى رأيى فى إكبار هذه الروح السامية التى أوحت إليك بهذا الموقف الصادق وكلفونى أن أبلغك شكرهم وتقديرهم .

وتوقف الشيخ المهدى عن الحديث ، ولكن فوزى مضى فى صمته ، بينما زاد فى تركيز بصره على الشيخ المهدى ، الذى لم يلبث أن غض بصره ، واستأنف الحديث :

— المسألة أن بعض الإخوان ، يرون أن المصلحة العامة التى نهدف لها كلنا ، تستلزم أن يبقى الوضع على ما هو عليه ، على أن نعمل متساندين إن شاء الله .

— لقد تقدمت بطلب محدد هل وافقتم عليه أم رفضتموه ؟

— لم يوافق عليه سوى عضو واحد وهو أنا ، ورفضه باقى أعضاء المجلس الخمسة والعشرون .

وانفرجت أسارير فوزى لأول مرة فى ابتسامة تفيض بالمرارة والسخرية :

— يا مسكين وقفت أنت وحدك مع القرار وجميع المجلس ضدك .

— والله هذا ما كان يا أستاذ فوزى .

— وما هذا الذى رفضوه ولم يوافقوا عليه ؟

— موضوع الاندماج ، أى حل جماعتكم والانضمام إلى جماعتنا .

— ولماذا ؟

— إنهم يرون أن نعمل متساندين فى الوقت الحاضر ، ليعمل كل فى جبهته سنداً لأخيه فى الجبهة الأخرى فيتحقق المراد .

— ولكنك يا شيخ مهدى ، وأنت سيد من يضرب الأمثال من حياة الرسول ، وتاريخ الاسلام .. تعرف أن جيوش المسلمين كادت تفقد النصر فى معركة اليرموك لأنها كانت تقاتل متساندة ، ولم يواتها النصر إلا عندما اقترح عليها خالد بن الوليد ، أن تعمل متحدة مندمجة تحت قيادة أمير واحد .

— الله يفتح عليك يا أستاذ فوزى . وهل هناك من ينكر أن الاتحاد أقوى من التساند ... المسألة أنهم يريدون تحقيق الاتحاد على درجات ... فنبدأ بالعمل متساندين .

ولكن يا شيخ مهدى ... نحن لم نتقدم بأى شروط ... لم نفرض أى قيد ، إننا نعرض أن نكون جنوداً تحت رايتك ، أترفض أن يؤمن بك وبزعامتك جماعة من الناس .

— يا أستاذ فوزى ، إن هذا شرف ، من الذى قال ... إننا نرفض ... المسألة مجرد تأجيل ... أعطنا فرصة ... دعنى أعمل بأسلوبى .

— أى أسلوب ... أسلوب أن تقول لى إن خمسة وعشرين قد رفضوا وواحداً فقط هو الذى وافق وهو أنت ؟ أهذا هو أسلوبك ... أهذا هو أسلوب زعامتك وقيادتك الروحية التى تريد أن تقود بها هذا البلد ...

إسمع يا شيخ مهدى ... لقد خطوت هـذه الخطوة لتكون الفيصل النهـائى بينى وبينك ، فاما تعاون صادق مخلص ، وإما حرب لن تنتهى إلا بكشف النقاب عن الأكذوبة الكبرى التى تمثلها .

وحاول الشيخ المهدى أن يظهر الغضب فقال له فوزى :

— خير لك أن تظل بهدوء أعصابك الذى هو أكبر ميزاتك ، وأن تسمع منى ما أريد أن أقوله ، على الأقل لتعرف بدقة من أنا وماذا يدور فى خلجات صدرى ، لتتصرف على هدى ذلك .

إنك لا يمكن أن تكون داعية خير فى نظرى .. لأنه لا يوجد داعية ولم يشهد التاريخ داعية ، يأتيه نفر من الناس يرغبون العمل تحت لوائه ، فيقول لهم لا . فلو أننا عصاة مجرمون ، أوليست لنا توبة على يدك يا داعية الخير ، هبنا كفرة أو مشركين ، أوليس من حقنا أن نسلم ، والإسلام يجب ما قبله ؟

ماذا تتصور يمكن أن يكون رأيى فيك وفى جماعتك .. وأنا أعلم من نفسى والله يعلم من خبيئة سرى أننى وإخوانى جئناك بقلب طاهر نقى ، نعلن استعدادنا لحـل كياننا الصغير ، والفناء فى كيانـكم الـكبير لإظهار عزم المسلمين على التكتل والتوحد فى مواجهة العدو المشترك . فتقول لى لا . قل لى أنت لو كنت فى موضعى ماذا يكون حكمك على تصرفك .

— الحق إنك صورت الموضوع بصورة لم تطرأ على أذهاننا ... إنك تناقش القضية من زاوية عجيبة .

— أى زاوية ... وأى صورة ... ؟ اسمع يا شيخ مهدى ما دمت

قد تحدثت عن الزوايا .. فاعلم إذن أن الخطين المستقيمين لابد أن ينطبقا ، فاذا لم ينطبقا تماماً ... دل ذلك على أن أحدهما أعوج أومنحرف ... ونحن بطبيعة الحال نتصور أنفسنا خطاً مستقيما .. وقد جئنا لننطبق على خطكم المستقيم ، فاذا تعذر ذلك ، فان هذا معناه أن طريقكم غير مستقيم ، وأنا أصارحك ... أننى سأخرج من عندك بخيبة أمل لم أشعر بها فى يوم من الأيام ...

— يا أستاذ فوزى ، إننى كما تقول طويل البال ... وأنت فى بيتى ، وأنا أقدر لك إخلاصك وغيرتك وحماسك ، ولكن المسألة قد تطورت معك ...

— أكنت تريدها أن لا تتطور ؟ ... هذا هو الفارق بينى وبينك ، إننى إنسان ككتاب مفتوح . إن أى إنسان يحضر مقابلتنا هذه ، يستطيع أن يدرك على الفور ، من أنا ، ماذا أريد ، ما الذى يرضينى والذى يسخطنى ، أما أنت ، فهل يعلم أى إنسان أى شىء تريد ... ؟ أى شىء ينطوى عليه صدرك ..؟ إنك تبتسم لى .. ومع ذلك فهل يعنى هذا الابتسام شيئاً ... هل يعلم سوى الله ، ماذا يدور الآن فى تلافيف مخك .

إننى سأخرج من هنا ، ولن يكون لى عمل إلا أن أذيع على العالمين هذا الذى جرى بيننا ، ما الذى قلته لك وما الذى رددت علىّ به ، وسأدع للأمة والشعب والتاريخ أن يحكم علينا .. لقد أصبحت الآن مؤمناً ، أن حركتكم حركة غامضة هدامة تهرب من النور وتعمل فى الظلام .. وهأنذا أنذرك وليسجل الله على ، ولتشهد الأيام ... إنه لن يمضى عامان فقط من الآن ، حتى يكشف الستار عن القناع الزائف الذى تستتر وراءه حركتك ، وسوف تحل وتصبح حركة محرمة محظورة يطارد المنتسبون إليها .

ووقف فوزى فى انفعال فى طريقة للخروج دون أن يصافح الشيخ ، بينما وقف الشيخ وقد امتقع وجهه ومع ذلك فلم تفارق وجهه الابتسامة :

— والله لا أدعك تخرج وأنت غاضب هكذا .

وأمسك الشيخ بذراع فوزى :

— يا خسارتك يا أستاذ فوزى ... يا خسارتك فى هـذا الانفعال ، ولـكنه دليل على طيبة قلبك ، على إخلاصك . إنك لو فكرت فى هدوء وتبصر ، بعيداً عن هذه الثورة وهذا الغضب ، لرأيت أنك تتجنى علىّ وعلى الحركة .

أنا لم أكذبك عندما قلت لك إننى موافق على وجهـة نظرك . وأنا مؤمن بضرورة التعاون والاتحاد ، كل الذى أطلبه منك بعضاً من الوقت ، أتمكن فيه من إقناع بقية الإخوان .. هل فى هذا الطلب ما أعاب عليه .. إمنحنى وقتاً ... ولن يكون إلا كل خير إن شاء الله .

— وهو كذلك يا شيخ مهدى ... السلام عليكم ورحمة الله .

وقابلت فوزى على سلالم المنزل ، الطفلة الجميلة ابنة الشيخ ، ونظرت إليه وعلى وجهها ابتسامة جميلة مشرقة وقالت له :

— إننى أخبز عجيناً .

ونظر فوزى ، إلى الطين الذى كانت تصنع منه الخبز ، وقال لها :

— شاطره ... شاطره .

* * *

— ٥ —

شق فوزى طريقه بصعوبة وسط هذه الحشود التى تجمعت حول الأزهر لسماع خطب الزعماء وقادة الرأى العام فيما ينبغى عمله من أجل فلسطين . كانت أنباء المعارك بين اليهود والعرب ، ونبأ سقوط عبد القادر الحسينى زعيم المناضلين الفلسطينيين ، قد روع العالم العربى ، وأفزع الجماهير وألهب عواطفها ، وكان الحديث عن وجوب الانتقام السريع ، يجرى على كل لسان . وبدأت الدول العربية تتسابق فى إظهار العزم على بذل كل جهد من أجل إنقاذ فلسطين من المصير الذى يعد لها ، وأعلنت جمهورية سوريا نبأ افتتاحها معسكراً لتدريب المتطوعين من أنحاء العالم العربى للجهاد من أجل فلسطين .

ودعت الجبهة القومية ، لاجتماع حاشد فى الأزهر ، لتقرير مايجب عمله وكان على فوزى أن يكون من بين خطباء هذا اليوم ، وقد سهر طول الليل لإعداد عناصر خطابه ، ليكون ذا مذاق جديد ، لا يقف عند حد التنديد باليهود كيهود ، لا يقف عند حد المعانى والأهداف الدينية ، أو الوطنية ، بل يشرح القضية الصهيونية ، كما أصبح يفهمها ، إنها حركة رجعية ، تعمل ضد الزمن وضد التاريخ ، وضد الحياة .

إنها تتخذ سنداً وأساساً لانطلاقها قولا مزعوماً سخيفاً لا يسيغه عقل فى القرن العشرين ، وهو أن الله قد عقد مع جدهم الأعلى عقداً ، أن يكون هو وأبناؤه شعب الله المختار فيعبدوه ويقدسوه ، وفى مقابل ذلك يعطيهم أرض فلسطين وكل ما يجاورها . وليس ذلك إلا تفكيراً وثنياً بحتاً . إن إنشاء دولة على أساس الدين ، هو بدعة فى القرن العشرين ، فالبشر

يجب أن يعيشوا فى كل بلاد العالم على اختلاف أجناسهم وأديانهم ومعتقداتهم فى سلام وإخاء وتعاون ، لا أن يستقل كل أصحاب لون خاص ، أو لغة خاصة ، بدولة خاصة بهم ، تنظر إلى باقى الدول والوحدات الإنسانية نظرة عداء وبغضاء .

وإسرائيل التى يريدون إنشاءها تقوم على هذا الأساس الشاذ ، هذا الأساس البغيض .

فمحاربة الصهيونية ليست واجب العرب فقط أو المسلمين ، بل هى واجب البشر أجمعين ، واجب كل محب للسلام الإنسانى ، كل عامل على التقدم البشرى .

وراح فوزى يجتر هذه المعانى التى فكر فيها فى الليل ، ويرددها ويلوكها وهو فى الطريق إلى الأزهر .

ولكنه لم يكد يصل إلى الأزهر ، ويرى هذه الجموع الحاشدة التى لم يشهد لها مثيلا من قبل إلا فى يوم الجلاء ، لم يكد يرى الجماهير الغاضبة المتفززة حتى أدرك أنه لا يستطيع أن يقول حرفاً واحداً من هذا التحليل لحقيقة الصهيونية ... إن هذه الجماهير ، لم تعد تطيق كلاماً ... إنها تريد عملا ...

وتوالى الخطباء ... توالى الزعماء على منبر الأزهر ، وهم يصرخون ويهتفون ، وهم يندرون باليهود الجبناء ، ويشيدون بالعرب الصناديد الأبطال ...

وتنهمر أبيات الشعر ، وآيات القرآن ، وأوصاف اليهود ، ابتداء من القردة والخنازير ، حتى الفئران والسحالى .

وبدأ فوزى يزهد فى الكلام .. بل بدأ يأنف ، وفكر أن يصرخ فى هؤلاء جميعاً .. كفى .. كفى .

واعتلى الشيخ المهدى المنبر فى خاتمة المطاف ، فارتجت جدران الأزهر بالهتاف الراعد والتكبير والتحميد ، ولم يسمع فوزى حرفاً واحداً مما قاله الشيخ المهدى ، فقد عاد بذاكرته وروحه إلى اجتماعهما الأخير .

وتقرع أسماع فوزى وهو سابح فى ذكرياته .. آيات ينطق بها الشيخ المهدى «إن الله يحب الذين يقاتلون فى سبيله صفاً كأنهم بنيان مرصوص» «واعتصموا بحبل الله جميعاً ولا تفرقوا ولا تنازعوا فتفشلوا وتذهب ريحكم» .. وراح يطالب الجماهير ، أن تنسى خلافاتها ، وخصوماتها ، وأن تتوحد فى جبهة واحدة فيد الله مع الجماعة ..

وفكر فوزى ، إن هذه خير مناسبة ليكشف الستار عما جرى بينه وبين هذا الشيخ الداعى إلى الاتحاد والوحدة والاعتصام بحبل الله ، والقتال فى سبيل الله صفاً كالبنيان المرصوص .

ولكن لا .. إنه لن يكون عامل فرقة فى هذا اليوم ، من الأفضل أن يضرب عن الكلام ، وأن ينزه نفسه عن هذه المظاهرات الجوفاء .

ولكن الدور جاء عليه .. وامتدت إليه الأيدى تعينه على ارتقاء المنبر ، وتدفعه دفعاً إلى القمة ، وقد بلغت الحماسة ببعض إخوانه إلى درجة الجنون .

وحار ماذا يفعل ، أو ماذا يقول ، لقد كان مصمماً أن لا يخطب ،

إنه يربأ بنفسه أن يكون واحداً من هؤلاء الثرثارين الذين يبيعون الشعب كلاماً ، ويخدرون أعصابه ويوهمونه أنهم يفعلون شيئاً .. أستغفر الله ، بل وهم يعوقونه .. لا إنه لن يكون كواحد منهم . ومع ذلك فقد أصبح على قمة المنبر ، وبدأت ألوف الأعين تتطلع إليه ، وألوف الأذهان ترهف نفسها للاستماع إليه ، ووجد نفسه يقول بحركة لاشعورية :

— أيها الناس إنني مسافر غداً إلى دمشق للالتحاق بمعسكر التدريب الذى افتتحته الحكومة السورية للمجاهدين من أجل فلسطين فى قطرنا ، فمن أراد الجهاد فليتبعنى .

ونزل فوزى يهرول من فوق المنبر ، وقد ضاعت كلماته وعباراته وسط اللغط والاندهاش والذهول .. فلم تكن الجموع الحاشدة كلها قد تهيأت لسماعه .. وعندما أعلن عن شخصيته وبدأت الجماعات تتهيأ لسماع ما سوف يقول .. كان قد قال عباراته القصيرة وغادر المنبر .. وراح كل من فى المسجد يتساءل عما قال .. وكان الأكثرون لم يسمعوا ، ومن سمع لم يع . وصفقت أياد قليلة هنا وهناك .. كانت قد سمعت ووعت .. وارتفع صوت الخطيب التالى يهدر من فوق المنبر .. بينما كان فوزى يشق طريقه فى استحياء للخروج من المسجد وهو فى دهشة بالغة أكثر من أى إنسان آخر لهذا الذى قال وتعهد به .

ما الذى يستطيع أن يفعله فى فلسطين ، إنه رجل قلم لا سيف ، رجل هداية وإرشاد وتوجيه ، لا رجل قتال وحرب .. ما هذا الذى قال ..

ما هذا الذى فعل ؟

ولـكن الأمر كان قد قضى .. لقد وعد وتعهد أمام الله والناس .. وأصبحت رجولته وشخصيته ومستقبله رهن تنفيذ هذا العهد .. أن يكون أول المتطوعين .. أول المجاهدين .. أول المحاربين من مصر فى سبيل فلسطين .

الفصل الثانى

— ١ —

لم يكن فوزى يصدق أن حلمه الذى كان يحلم به فى الآونة الأخيرة ، وأن وعده الذى قطعه على نفسه أمام الجماهير ، وهو أن يكون أول المجاهدين من أجل إنقاذ فلسطين يوشك أن يتحقق ، وأنه بعد ساعات قليلة ، سيدخل بالفعل إلى أرض فلسطين ، مجاهداً ومقاتلا ، فى سبيل الله وليس يعرف ما الذى تخبؤه له الأقدار ، وهل سيصرع برصاصة من أول لحظة ، أم ستقدر له الحياة ؟ هل سيقتل يهوداً ، أم يقتله اليهود ؟ المهم أنه صدق الوعد وهاهو ذا يدخل مع الداخلين من فوج اليرموك إلى أرض فلسطين.

ويحس فوزى بالاغتباط والنشوة ، ويحكم لف العباءة الصوفية الثقيلة التى زوده الجيش بها ، حول جسده ليرد غائلة البرد ، وكان جسده لا يزال يرتجف من هول ما عاناه فى الليل من برد شديد ومخاطر ، وكانت أشعة الشمس الواهنة التى بدأت تضىء السكون تحدث أثرها فى نفسه ، فتخفف من وطأة البرد ، بعد أن ذهب الظلام وأشرقت الشمس .

وعجب فوزى لهذا الهدوء الذى يغمر المكان من حوله ، والذى يملأ نفسه من الداخل . لماذا لا يحس بشىء من الخوف والقلق . لماذا لا تفزعه فكرة المصير الذى قد يكون فى انتظاره .

ويتطلع فوزى إلى هذا الجبل الشامخ الذى يجلسون فى مواجهته . إنه الحد الفاصل بين فلسطين ولبنان فى منطقة بنت جبيل . وسوف

يجتازون هذا الجبل بعد قليل ، مبتدئين بذلك جهادهم فى سبيل فلسطين .. فى سبيل الله .

وراح فوزى ، كما أصبح دأبه كلما وقف فى مفترق الطرق ، يستعرض شريط الحوادث الماضية ، وهو يتلفظ بحركة لا شعورية بهذا العهد الذى قطعه على نفسه أن يكون من أول الداخلين إلى فلسطين ، وهو يفاجىء زوجته وأولاده ، ويفاجىء فاطمة فى الدرجة الأولى بهذا القرار الجديد ، صورة زوجته ووالدتها وأولاده ، وقدكانوا هم وشكرى ، كل الذين كانوا فى وداعه فى المطـار ، وكيف تجلدت وفاء وهى تودعه ، إنها لم تذرف دمعة واحدة ، لم تحاول أن تثنيه عن عزمه ، لقد قالت له فى هدوء عندما أبانها الخبر .. إن شاء الله ستعود لنا بالسلامة .

إنه لا يمكن أن ينسى صورتها وهى تلوح له فى المطار ، وهذه البسمة العريضة على شفتيها كم هو فخور بزوجته .. كم هو سعيد بها .

وعندما وصل إلى دمشق ، كيف أنـكر الـكل عليه عزمه على التطوع ، كيف صاحوا به ابتداء من رئيس الجمهورية ، حتى آخر وزير وصحفى ، أن قراره غير حميد ، أن مكانه ليس فى ميدان القتال ، ولـكن وراء الجبهة ليعبىء الشعور ، ويلهب الجماهير . ولـكنه أصم أذنيه عن سماع شىء من ذلك ، لقد قضى الأمر وجاء من مصر ، ليتدرب وكان لابد من قبوله بين المتطوعين .

ويستعيد ذكرى هذه التدريبات العنيفة التى اشترك فيها ، وهو يخفق فى إجادة التصويب نحو الهدف وهو يتمرن على إطلاق النار كأسوأ ما يكون

الجندى ، والجليد يغطى أرض المعسكر فى قطنا ، والماء يتجمد فى الأنابيب والصنابير .

وتطل فى ذاكرته بعض الحوادث فيغمره الاكتئاب ، ويتلفت حوله بحركة لا إرادية فى شيء من الضيق .. عندما يستعيد هذه المضاربات والمشاحنات بين الفلسطينيين أنفسهم ، وأبناء كل بلدة يتعصبون لبلدتهم ولا يقبل فلسطينى من نابلس رئاسة أحد عليه من بلدة جنين . كيف استنجد به قائد المعسكر ليخطب فى الثائرين من أبناء البلاد الفلسطينية المتشاحنة .. وكيف راح يندد بسلوكهم ، وينذرهم إن لم يكفوا عن مشاحناتهم السخيفة فسوف يخلع رداء العسكرية ويعود لبلاده ، فمن العبث أن يهجر المتطوعون من العرب بلادهم وعائلاتهم وأسرهم لإنقاذ فلسطين ، فى الوقت الذى يتشاحن فيه أبناء فلسطين بهذه الصورة المزرية .

ولكن هذه الذكرى القاتمة ، سرعان ما تفسح الطريق ، لذكرى أخرى سارة ومبهجة ، يوم وصل أول فوج من إخوانه من مصر على متن الطائرات ، مؤلفين أول كتيبة من فرقة الدكتور خالد . وكيف راح قائد المعسكر السورى ، يستعرضهم بنظامهم البديع ، وملابسهم الخضراء الجميلة فى إعجاب وزهو .

وكيف أثبت حمدى رئيس الكتيبة ، الضابط المصرى الذى استقال من الجيش ليأتى على رأس الكتيبة ، تفوقه على الضباط السوريين منذ اللحظة الأولى ، عندما جرت مباراة فى إطلاق النار .

وأخيراً وهو يودع رفقاءه من أبناء مصر فى المعسكر ، لكى يدخل وحده مع الفوج الأول تحقيقاً لوعده والعهد الذى قطعه على نفسه .

ويتلفت فوزى نحو رفقائه من السوريين والفلسطينيين من أعضاء فوج اليرموك الراقدين على الأرض والمبعثرين على غير هدى هنا وهناك .. فى انتظار الأمر لهم بالمسير من جديد . لقد أمضوا ليلة ليلاء ساهرين مترقبين .. وهم الآن يغطون فى سبات عميق ، من فرط التعب والإنهاك الذى عانوه .

لقد اختارت قيادتهم بلدة «بنت جبيل» من أعمال لبنان لتكون منطقة اجتياز الحدود والنفوذ إلى فلسطين ، ونزولا عندمقتضيات السلامة والأمن العسكرى ، فقد أحيط تحرك هذه القوة بالسرية والكتمان ، فبدأت الرحلة عند منتصف الليل ، وإمعاناً فى الاحتياط رؤى أن لا تسير فى الطريق العادى ، وأن تدور دورة كبيرة فى سوريا قبل أن تصل إلى لبنان . فسارت القافلة فى طرق جانبية من الدرجة الثانية غير مهيأة بطريقة جيدة لاجتياز السيارات الكبيرة ، وكادت بعض السيارات المحملة بالمتطوعين أن تتردى فى الهاوية إلى يمين الطريق .. لولا أن الله سلم فكان تعثرها فى الجانب الآخر من الطريق حيث يقوم الجبل . وكانت إجراءات السلامة تحول دون إضاءة مصابيح السيارات ، واختيرت هذه الليلة بالذات ، حيث كان القمر فى المحاق . . وكان على السيارات أن تتحسس طريقها فى بطء غير مستضيئة إلا بما تبعثه النجوم والكواكب من ضوء خافت ... وغلب النعاس على سائقى السيارات ، وكادت تقع عدة كوارث .. ولكن الله سلم مرة أخرى ، وصدر الأمر للمتطوعين الجالسين إلى جوار السائقين أن يخاطبوهم على الدوام حتى يظلوا متنبهين ، وكان انخفاض درجة الحرارة انخفاضاً شديداً يضاعف فى آلام أفراد الفوج . ومع ذلك فقد احتمل الكل

هذه المتاعب والآلام والمخاطر ، فى صبر وفى غير تململ . . كانوا يدركون أنها الحرب . . وقد كانوا مستعدين لبذل الروح من أجل قضيتهم المقدسة .

ووصلوا أخيراً إلى «بنت جبيل» مع الفجر، وهبطوا من السيارات ، وطلب منهم أن ينالوا قسطاً من الراحة ، فاستغرق الكل فى سبات عميق . . ولكن النوم لم يعرف سبيله إلى عينى فوزى ، فقد كان يتابع فى هدوء ومسرة طلوع الفجر . . وبزوغ الشمس بعد ذلك . . غير أن الشك بدأ يتسرب إلى نفسه فى حكمة قائد الفوج الذى كاد يعرضهم للهلاك بالليل ، تمسكا بالسرية والحذر ، وهم لا يزالون فى سوريا بلادهم ، والآن وقد أصبحوا على حدود فلسطين ، وقد طلع عليهم النهار ، فلا شىء من إجراءات الحذر أو الاستخفاء ، وها هم يقيمون معسكرهم فى وضح النهار فى مواجهة أرض العدو . . فيم كانت هذه المتاعب إذن بالليل ؟

واقترب فوزى من الشيشكلى قائد الفوج ، الذى كان يحدق من خلال منظاره المكبر نحو الحدود الفلسطينية .

— صباح الخير يا سيادة القائد .

— صباح الخير يا أستاذ فوزى . تعال انظر معى إلى قمة الجبل ، أترى هذا المبنى العسكرى ؟ إنه نقطة حرس الحدود الإنجليزية .

وحدق فوزى فى المنظار ، فلم ير شيئاً فى بادىء الأمر لاضطراب نفسه و ... نه الذى بدأ يغمره بعد الهدوء :

— لست أرى شيئاً .

— عجباً . . كيف لا ترى شيئاً . . إن المبنى واضح كل الوضوح . .

أبوابه ونوافذه .. انظر جيداً . . حتى الحارس الديدبان الإنجليزى واضح كل الوضوح بملابسه وسلاحه . ولم يعن فوزى باعادة النظر ، وناول المنظار المكبر إلى الشيشكلى وقال له فى برود :

— ولكن ألا ترى أنه إذا كنا قد أصبحنا ننظر إلى الإنجليز ، فهم بدورهم ينظرون إلينا كذلك ، ويحصون عددنا ، ويقدرون أسلحتنا ، ونحن نهيء لهم الآن الفرصة الكاملة لكى يرسموا الخطة اللازمة لإبادتنا بمجرد اجتياز الحدود ، أو على الأقل ليرشدوا اليهود إلينا ويعلموهم بموقعنا وقوتنا ؟

وأنزل الشيشكلى المنظار من فوق عينيه ، ونظر إلى فوزى فى ابتسامة صفراء ، وهز رأسه فى غموض ، وأبتعد عنه مهرولا .. باحثاً عن أركان حربه ليتشاور معهم .

وهز فوزى رأسه من جديد وقد تضاعف شكه فى حكمة القائد ، وقلقه من الحوادث المقبلة . إنه لا يعرف فى العسكرية بطبيعة الحال ، ولم يتلقن دروساً فى فن القيادة والمعارك الحربية .. ومع ذلك فقد بدا الموقف واضحاً لا يحتاج إلى فن للحكم عليه بالخطأ . . أن يسير أقوام داخل بلادهم طول الليل فى حذر حتى لا تتسرب أنباؤهم للعدو . . حتى إذا طلع النهار ، جلسوا فى مواجهة العدو . . لا يمكن أن يكون ذلك هو الفن العسكرى .

لقد كان الشيشكلى لطيفاً مع فوزى فى المعسكر وقد أمره بالرغم من كونه نفراً عادياً ، أن يتناول الطعام فى ميس الضباط معه . وكثيراً ما استوقف فوزى نحول جسد الرجل وضآلته بالنسبة لكونه قائداً عسكرياً ، وكثيراً ما سأل عن سر اختياره ليكون قائد أول فوج يدخل فلسطين ، فكانوا يحدثونه عن تاريخ الرجل الوطنى فى الجيش ، وأنه قاد تمرداً على الفرنسيين قبل حصول سوريا على الاستقلال ، فملأه ذلك إكباراً للرجل وتمجيداً . .

أما الآن . . وبعد حوادث الليلة الماضية . . الآن وقد بدأت أشعة الشمس تشتد وتغلظ وتملأ الدنيا نوراً ووهجاً ، والفوج يعسكر تحت أنظار الانجليز الذين يطلون عليه من قمة الجبل ، فقد زال من فوزى كل احترام وتقدير للرجل .. ونسى أنه ليس إلا متطوعا كأى من المتطوعين .. وأسرع نحو الشيشكلى يقول له فى شيء من الشدة :

ـــ إننى أرى ما دمنا قد وصلنا إلى هنـا ، أن نشرع على الفور فى اجتياز الحدود ، لنستفيد على الأقل من ضوء النهار ، ولنلقى أعداءنا مواجهة قبل أن يستعدوا .. بدلا من أعطائهم الفرصة الكاملة للتدبير والإعداد ضدنا .

ورد الشيشكلى على فوزى فى تجهم وصرامة :

ـــ أنا يا سيد فوزى لا أستطيع أن أخالف أبسط القواعد العسكرية ، وهو أن يتم التحرك ليلا ، إننى المسئول عن قيادة هذا الفوج والمحافظة على أرواح من فيه .

ـــ أنا لا أشك فى ذلك ، ولست أنازعك حقك المطلق فى القيادة ، ولكنك أنت الذى تفضلت فكنت تطلب منى الرأى فى كثير من المسائل ، وتشجعنى على إبداء الرأى لك .

ـــ كان هذا فى المعسكر ، أما الآن ونحن فى الميدان فلا تنس أننى أصبحت القائد المسئول . ورفع فوزى يده إلى مقدمة رأسه بالتحية العسكرية قائلا :

ـــ أسألك العفو والصفح ياسيدى القائد .

ولانت أسارير الشيشكلى وافتر ثغره فى وداعة وقال :

— أنت يا أستاذ فوزى أخونا ، وفى عيوننا ، ولكن المسألة هى أننى أريدك أن تطمئن فكل شىء سيسير إن شاء الله على ما يرام .

* * *

ومضت ساعات النهار ثقيلة متباطئة والفوج فى انتظار الأمر بالسير والتحرك حتى إذا أوشكت الشمس على المغيب وقبل أن تظلم الدنيا ، أصدر الشيشكلى أمره ببدء السير لقطع الجزء الباقى من السهل اللبنانى وارتقاء الجبل الفاصل بين لبنان وفلسطين . وقسم الفوج إلى كتائب صغيرة ، ووضع على رأس كل كتيبة دليل من المتطوعين الفلسطينيين الذين يعرفون المنطقة .. وصدر الأمر أن تكون بلدة ترشيحا الفلسطينية العربية المتاخمة للحدود ، هى نقطة التجمع والالتقاء .

وعهد إلى فوزى بمسئولية المحافظة على أثقال الجيش ، المؤلفة من صناديق الذخيرة والعتاد ، وجهاز اللاسلكى والمؤونة . وكانت هذه الأثقال محملة على خمسة بغال . ولما كانت هذه المهمات هى أثمن ما عند الفوج ، فقد جعلت فى مؤخرة القوة ، وطلب من فوزى أن يكون آخر من يجتاز الحدود ، ليضمن سلامة الطريق ، وكانت كتيبته مؤلفة من عشرين متطوعاً ، أربعة لقيادة كل بغل وحماية حمولته .

وخفق قلب فوزى مع تحرك أول قطاع من قطاعات الفوج ، والمتطوعون يتقدمون أخيراً نحو المجهول .

وكان منظر الكتيبة الزاحفة يبهج النفس ، فقد اكتست وجوه أفرادها بالجد والصرامة ، واستطالت القامات ولمعت العيون ، وبدأ عليها العزم والتصميم .

وراحت عيون الفوج ترقب هذه الكتيبة الأولى ، وهى تتقدم فى بطء ولكن فى عزم وثبات ، جندى إثر جندى .. ولم يلبثوا أن اختفوا عن الأنظار وسط ثنيات الجبل ومنحنياته .. وبعد انقضاء ربع ساعة ، لم يسمع فيها ما يريب ... صدر الأمر لجماعة أخرى بالتقدم ، وهكذا ظلت الجماعات توالى التقدم والاختفاء . . . فى الوقت الذى كان الليل قد بدأ فيه يرخى سدوله .

لم يبق سوى فوزى وجماعته ، وكان عليه هو أن يلحق أمر التقدم ، فاستشار الدليل الفلسطينى الذى جاء لإرشاده ، فطلب منه أن يتوكل على الله فنظر لمن معه وقال :

— بسم الله الرحمن الرحيم .. على الله توكلنا .

وعجب فوزى من نفسه ، وقد بدأ مسيرته ، إنه لا يشعر بشىء غير عادى ، قلبه لا يخفق إنه يتصرف بهدوء وبرود ، كما لو كان يصدر أمراً للمطبعة لتبدأ فى الدوران ، أو يخط أول حرف فى مقال .

وانتهى المنبسط من الأرض ، وبدأت مرحلة التصعيد فى الجبل ، وقد خيم الليل بسواده . وكان فوزى يشعر بالرضا . فها هو ذا يعهد إليه بعمل خطير ، وهو حماية الذخائر والأعتدة .. وأهمها جهاز اللاسلكى الخطير ، عين الفوج وأذنه .. وحلقة الاتصال بينه وبين القيادة العليا فى دمشق .

وسأل الدليل :

— أكل شىء على ما يرام فى المقدمة ؟

— كل شىء على ما يرام .

— هل وصلت الكتائب كلها إلى ترشيحا .

— وصلوا بسلام ، واستقبلوا بالزغاريد والأهازيج .

— ألم يتعرض لهم أحد .. ألم يجدوا صعوبة من أى نوع كان ؟

— لا صعوبة .

— والإنجليز ؟

— لم يظهروا .

— واليهود ؟

— كأن لا وجود لهم .

وعجب فوزى ، كأن مخاوفه كانت على غير أساس ، إن الشيشكلى كان يعرف من الظروف مالا يعرفه ، وإذن فقد كان مخطئاً حينما تسرع فى الحكم عليه ، وعلى أسلوب قيادته وحكمة تصرفاته . وكأن إحساسه بالندم أفقده توازنه فاذا به يتعثر ويسقط على الأرض الصخرية باحدى ركبتيه . ومد الدليل له يده بسرعة ليعينه على النهوض وسأله فى لهفة :

— أحدث لك مكروه ؟

— لا والحمد لله .

على أن هـذا الحادث البسيط كان كافياً ، لدهشة فوزى ، أن يذهب عن نفسه الصفاء ، ويحس بنفسه تتجهم ، فقد بدأ الطريق يصبح وعراً ، والليل يزداد حلكة ، ولم يكن تعثره إلا نتيجة ذلك ، وكانت زاوية الميل فى الجبل تزداد حدة ، ولم يلبث البغل السائر فى المقدمة أن انزلق بدوره ،

فتراجع بضع خطوات كانت كفيلة بإحداث الاضطراب فى القافلة كلها ، إذ ارتطم بعضها ببعض . وأعيد تنظيم القافلة الصغيرة ، وطلب من سائقى البغال أن يمسكوا بلجمها ويقودوها فى حذر . واشتكى السائقون من أنهم لا يسيرون فوق دروب مطروقة ، وأنهم يسيرون على غير هدى . حيث صخور الجبل ملساء مما يجعل حوافر البغال الحديدية تنزلق عليها .

وسأل فوزى الدليل :

— أواثق أنت أن هذا هو الطريق ؟

— لا طريق غيره .

— وهل تعرف معالمه على الرغم من الظلام المخيم .

— أنا ابن هذه المنطقة ... إننى أعرفها كما لو كانت بيتنا الخاص .

وتعثر أحد البغال من جديد وسقط ما عليه من أحمال وعتاد ، وعم القافلة الاضطراب ، وجأر البعض بالصراخ لوقع المفاجأة ، وانتهر فوزى من معه وطلب منهم الإخلاد للسكينة ، فليس أضر عليهم فى هذه اللحظات من ارتفاع أصواتهم ، إذ تدل الأصوات العدو على مكانهم ، وقد يبيدهم ، ومرور من سبقهم فى سلام ، لا يعنى أن يكون ذلك نصيبهم ، فهم لا يخوضون حرباً نظامية وإنما هى حرب عصابات وكمائن ، لا يعرف متى تجىء ولا أين تضرب .

واكتشف الفحص أن ساق البغلة التى تعثرت قد كسرت ، فلم يعد باستطاعتها النهوض فضلا عن السير .

وأسقط فى يد فوزى ، ماذا يفعل وكيف يتصرف ، وكان الظلام

قد أصبح حالكا ، بحيث لم يعودوا قادرين على رؤية ما يزيد على مترين أو ثلاثة ، وبدأ الإحساس بالضياع وسط متاهات الجبل يتسرب إلى نفسه ، واستقر رأيه على أن يدع البغل وأحماله التى سقطت فى حراسة الأربعة المختصين به ، وأن يمضى فى السير ببقية القوة ، حتى يصل إلى مركز القيادة فيبعثوا من يعينون جماعة البغل المكسور . واستأنفوا السير أشد بطئاً وحذراً ، ولم تعد البغال تتقدم إلا إذا أعانها مرافقوها ، فواحد يشدها من الأمام وآخر يدعمها من الخلف ، والإثنان الباقيان يسندانها من الجانبين .

وتعثر بغل آخر ، ودوى هذه المرة صوت رهيب إثر وقوع ما كان على ظهره من حمل ، ولم يكن هذا الصوت الرهيب الذى كاد يخلع قلب فوزى ، إلا صوت سقوط جهاز اللاسلكى على الصخر .

ودب اليأس إلى قلب فوزى ، أن يتحطم على يديه أثمن ما يملك الفوج وهو جهاز اللاسلكى ، ما الذى سيقوله الآن الشيشيكلى عند ما يبلغه نبأ تحطيمه ، لأنه لم يكن لديه أدنى شك أن هذه السقطة لابد أن تكون قد عصفت بأجزاء الجهاز الدقيقة وصماماته الزجاجية عصفاً .

من الذى سيقدر موقفه وأنه غير مسئول عن هـذا الذى حدث ، فهو لا يعرف معابر الجبل ، ولم يكن هو الذى أشار باستعمال هذه البغال ، أو الذى حملها ، ولم يكن هو الذى أشار بالسير فى الليل .

وقيل لفوزى إن البغل الذى تعثر يرفض بدوره أن ينهض . ودب الهلع إلى نفسه ، إنه لا يمكن أن يعرض باقى البغال للكسر ، والحمولة للضياع ، ولذلك فقد أمر بتوقف القافلة حيث بلغ بها السير ، وأن تسهر على حراسة

نفسها ، ربما يذهب هو بمفرده مع الدليل لعرض الموقف على الشيشكلى ، ليرسل من الرجال من يقدرون على نقل هذه الأثقال . وقال فوزى للدليل :

— تقدم بى للأمام سريعاً ، وأوصلنى للقائد العام .

ولكن من أنى لهما السرعة ، ولم يكن بوسعهما إلا أن يدبا على الأرض دبيباً ، زاحفين على أرجلهما وأيديهما معاً ، إذا أراد السلامة والأمان . فقد بدأت الأرض الصخرية المنزلقة ، تصبح مغطاة بالأشواك والعوسج والحفر والمطبات وقطع الأحجار والحصى .

ولم تعد الرؤية ممكنة لأكثر من متر واحد ، وقد حال دون تمزق ساقى فوزى وجسده ، ملابسه السميكة ، وهذه العباءة الصوف الوبرية التى كانت تحيط بجسده كله ، وكان يلبس فى يديه قفازات جلدية ، حالت بين نفاذ الشوك إلى يديه ، ومع التعب والكلل بدأت الأعصاب تضعف ، والخوف يتسلل إلى نفسه . إنه الآن فى أرض العدو ، والموت يتربص به فى كل خطوة ، على صورة خنجر ينغرس فى قلبه أو رقبته فى غمضة عين كما علموه أن يفعل هو فى التدريبات . أو قد تستقر رصاصة عن بعد فى رأسه أو قلبه . وزوده هذا الخوف الطارىء بقوة جديدة دافعة ليلحق بأصحابه ، إنه يجب أن يواصل التقدم ، يواصل التصعيد فى الجبل .

ومضت ساعة أو يزيد ، وهو يجاهد ورفيقه لقطع بضعة عشر متراً كانت لا تزال تفصلهما عن القمة ... وكان يبدو فى بعض الأحيان ، كما لو كان من المستحيل أن يصلا إلى هذه القمة العمودية .

وكان الدليل هو أول من توصل إلى القمة فى خاتمة المطاف ... فجلس يلهث من الإنهــاك طالباً من فوزى أن يتريث حتى يرتاح هو ، ويعد يده لمساعدته .

وبلغ فوزى القمة بدوره ... ولـكن التوتر كان قد بلغ إلى حد جعله لا يفكر فى الجلوس ليلتقط أنفاسه ... كان فرحه ببلوغ القمة ، قد أعطاه قوة جديدة ، وكان ما يسيطر عليه هو أن يلحق بالجماعة ، بالأمان ، وأن يبعث النجدة لمن تركهم خلفه .

وكانت السماء ملبدة بالغيوم ، فلم يكن هنــاك أى بصيص من النور ، وأصبح الظلام حالـكا دامساً ، بحيث يستحيل رؤية أى شىء . وسأل فوزى الدليل فى قلق :

— أما زلت على ثقتك من معرفة الطريق ؟

— طبعاً ، ولـكن المسألة هى مسألة هــذا الظلام الملعون . . . إنى ما رأيت ليلة أشد حلـكة من هذه الليلة .

ودل ذلك فوزى ، على أن رفيقه قد ضل الطريق وسط الجبال ، جبال فلسطين ، وسط الإنجليز واليهود ، وصرخ فى الدليل :

— انهض وقم ... وسر بنا .

ونهض الدليل فى تثاقل ، واستحثه فوزى على أن يتقدمه . وغصت الأرض التى بدءا يطآنها بأشجار الشوك والعوسج ، ولم يعد فوزى يخشى من الإنجليز أو اليهود ، بقدر ما أصبح يخشى أن يفاجأ بشجرة تفقأ عينيه أو تدمى وجهه .

وعلق فوزى البندقية فى كتفه ، ومد ذراعيه بطولها أمامه ، وراح يتحسس طريقه خطوة خطوة ، وقد بدأت عوامل اليأس والخوف والملل تتسلط على نفسه ، ولم يشعر فوزى إلا وهو يسقط فى هوة تحت قدميه وأحس إحساساً حاداً بأنه فى طريقه للتحطم على صخور الجبل فى الهاوية ، ولكنه تنبه إلى نفسه معلقاً وسط شجرة عوسج ، كانت هى التى حالت بينه وبين هذه الميتة الشنيعة .

وتشبث فوزى بكل ما فى نفسه من إرادة الحياة بفروع الشجرة وأغصانها ، وأحس بإبر الشوك تنفذ إلى يده من خلال قفازه السميك ، ولكنه كان سعيداً بهذا الشوك الذى نفذ إلى لحمه عساه يساعده على البقاء متعلقاً بالشجرة . ولم يكن إحساسه بالشوك قاصراً على يديه فقط ، بل لقد أحس بالشوك ينفذ إلى كل جسده فلا يشعر لذلك بأى ألم ، فقد كان الذى يستغرقه فى هذه اللحظة ، هو مدى قدرة هذه العوسجة التى حالت بينه وبين السقوط ، على احتمال ثقله ، وإمكان انقلاعها من جذورها وسقوطها به .

— أستاذ فوزى .. أستاذ فوزى أين أنت ؟

كان هذا هو صوت الدليل الجزع ، لم يسمعه فوزى إلا بعد أن زالت عنه صدمة الوقوع المذهلة .

— أنا هنا ... ساعدنى .

ومضت ثوان ، استولى على فوزى ذلك الشعور الذى كثيراً ما انتابه فى حياته ، الشعور بتوقف الزمن والحياة والوجود . ولكن هذا الشعور لم يستمر طويلا ، فقد غمرته موجة من الهستريا جعلته يضحك ، ويضحك

وترتفع قهقهته فى هذا الليل المخيف . . . حتى لقد تصوره رفيقه قد جن .
كان فوزى فى ضحكه الهستيرى يستعرض صوراً وأفكاراً تبعث فيه هذا الضحك ... تصاريف القدر ، الجهاد من أجل إنقاذ فلسطين ، المجد ، البطولة . . الحياة والموت . . الوجود ، ويضحك ويضحك ولا ينفك يضحك .. بينما كان يناجى نفسه ، وخواطره تتطاير وتتناثر كما لو كانت برقاً خاطفاً يومض ويظلم :

— أنظروا إليه ، أنظروا إلى فوزى السيد ، سبع (البرمبة) البطل المغوار ، أنظروا إليه وهو يغرق فى شبر (ميه) أنظروا إلى الإنسان الذى يتصور نفسه زعيما ، وهو معلق بين الأرض والسماء ، بين الحياة والموت . أنظروا إليه كم هو ضعيف الحيلة ، مشلول الإرادة ، كما لو كان ذبابة تتخبط فى بيت عنكبوت ، أو فأر فى المصيدة .

وليس يبقيه على قيد الحياة إلا عوسجة . . . شجرة من الشوك ناتئة فى جدار الجبل ، وهى التى تبقيه حتى الآن حياً ، أمطمئن هو إلى أنه يبقى حياً لبعض لحظات أخرى ؟ وينخرط فى الضحك .. أو بالأحرى يواصل ضحكه الهستيرى الذى لم يعد يعرف ، ولم يكن يفكر فى أن يوقفه .

أمن أجل هذه النهاية المضحكة المخجلة ، جاء من مصر ، تاركا أولاده وزوجته وإخوانه .. أمن أجل هذا المصير ترك فاطمة ؟ وتطوف صورة فاطمة فى وجدانه فيصرخ بها من أعماق روحه ، ولكن صرخته لا تنبعث من بين شفتيه :

— أين أنت يافاطمة .. لترى صاحبك الذى عشت تحبينه فى أحبابه

تعالى أنظرى إليه وهو يموت قبل أن يطلق طلقة واحدة فى سبيل الله ، قبل أن تقع عيناه على العدو ، أو تقع عين العدو عليه ، تعالى أنظرى إليه وهو يموت (فطيساً) لم ينعم حتى بامتحان نفسه أجبان هو فى حومة الوغى أم شجاع ؟ ! !

وكأن تمثله صورة فاطمة قد حرك فى نفسه نوازع الحياة والتشبث بها فاذا به يكف فجأة عن الضحك ، ويتطلع إلى السماء ، وكانت الغيوم الملبدة قد بدأت تنقشع عن رقعة كبيرة بدت نجومها تلمع .

ويهتف بكل وجدانه :

— يارب لا تجعل نهايتى بهذه التفاهة .. بهذا الخزى والعار .

وسمع صوت رفيقه الفلسطينى :

— يا أستاذ فوزى .. سأدلى إليك بالحبل بعد أن جعلته مزدوجاً ، أمسك به ولكن لاتتحرك قبل أن أقول لك ، يجب أن أثبت طرفه الآخر هنا فى بعض الصخور ، وسوف أساعدك .. يجب أن لاتتحرك إلا بحذر .

ولم يعلم فوزى ، كم مضى عليه من الزمن ، ولا ماذا بذل من جهود ، ومدى ما عرض له رفيقه نفسه من الخطر لإنقاذه ، كل الذى تنبه له ، هو أنه وجد نفسه من جديد على سطح الجبل ، جالساً على الأرض ، وهو يلهث ، والعرق يتصبب منه بالرغم من جو الليلة الجليدى ولسانه لا يكف عن ترديد :

— لك الحمد يا رب ، لك الحمد يا رب .



ولـكنه لم يكد يسترد أنفاسه ، ويجمد الصقيع العرق الذى تصبب منه حتى بدأ يمتلىء من جديد بالحافز العنيف لاستئناف السير ، إنه لا يستطيع أن يقف فى هذا المكان ، يجب أن يلحق بالجماعة ، ومن جديد سأل صاحبه :

— إن حلـكة الليل قدخفت فهل باستطاعتك أن تميز الطريق الآن ؟

— سأحاول .

— هيا بنا .

ومضت نصف ساعة وهما يسيران على غير هدى ، يتعثران ويرتطمان ، دون أن يبدو لهما الهدف المنشود ، بل دون أن يلتقيا بكائن حى ، عدواً كان أوصديقاً ، وليس سوى القدر الموحش ، وأصوات السحالى والزواحف من كل نوع والحشرات ، هى وحدها التى تخشخش بين الحشائش الجافة والأشواك والصخور .

وكان ما يدهش فوزى أكثر من أى شىء آخر ، هو هذا السكون المطبق الذى يلفهما ويحيط بالمنطقة التى تشرف على كل شمال فلسطين من سهول ووديان ... لاطلقات رصاص ، لادوى معارك ، أين اليهود إذن الذين كان وهمه وخياله يصوران له أنهم سيصادفونهم فى كل خطوة ووراء كل منحنى ، وأنهم سيردونه قتيلا برصاصة مسدس أو نصل خنجر، أو يأخذونه أسيراً . وها قد مضت عليه ثلاث ساعات .وهو فى هـذه المتاهة ، وأعداؤه ليسوا اليهود أو الإنجليز بقدر ما هم الظلام والضياع والشوك ، والتدهور من قمة الجبل ، وقبل ذلك كله وبعد ذلك ... الـكلل والتعب والإنهاك .

ولمح فوزى لأول مرة نوراً فى الأفق البعيد ، وكاد قلبه يقفز من شدة الفرح ، على الرغم من أن النور كان بعيداً جداً ، على قمم جبال تفصلها عن موقعه وديان سحيقة .

وخطر لفوزى أن يضىء المصباح الكهربائى الذى يحمله ، ولكنه لم يلبث أن توقف بغتة وقد اكفهر وجهه ، من يدريه أن هذا النور ليس منبعثاً من إحدى المستعمرات اليهودية . إن التعليمات المشددة التى أعطيت لهم جميعاً قبل البدء بالسير أن لا يشعلوا ناراً ، أو يحملوا ضوءاً حتى ولو بعود ثقاب ، أيخالف هذه الأوامر المشددة ... وهو وحيد ضائع لا يدرى مصيره .

واستقر رأيه أخيراً على أن يتوقف عن السير نهائياً ، حتى يطلع النهار إنه لا يستطيع أن يضرب هكذا على غير هدى حتى يرى نفسه من جديد متردياً فى هوة لا قرار لها ، أو مطعوناً بخنجر ، أو واقعاً فى يد اليهود . إن خير ما يفعله الآن هو أن يتوقف نهائياً عن السير ، وأن يتشاطر وصاحبه الحراسة فينام أحدهما ويحرسه الثانى ، وهكذا حتى يطلع الصباح .

واختار فوزى صخرة آوى إلى ركنها واستلقى على الأرض منهوكا متعباً ، وطلب من صاحبه أن يبدأ النوم . وأن يتولى هو حراسته ، ولم يكد صاحبه يسمع منه هذا التصريح حتى راح يغط فى سبات عميق ، بينما سرح فوزى بخاطره نحو الشيشكلى ذلك القائد الأحمق . إنه لم يظلمه وهو ينزع ثقته به من داخل نفسه ، فهو مسئول عن ضياعه هكذا . إنه مسئول عن إصابة البغال بالكسر وتحطيم جهاز اللاسلكى . إن القيادة ليست شيئاً فى الكتب ولا يمكن أن تكتسب من التعليم فى المدارس . إنها موهبة حسن التقدير والتصرف على ضوء الوقائع المتغيرة ، لا السير وفق قواعد متحجرة .

لو أن الشيشكلى بمجرد وصولهم إلى الحدود ، أرسل طلائع ترتاد الطريق ، وتتصل بالقرية العربية التى يقصدونها ، ولمعرفة ما يعترض الطريق من عقبات أو فخاخ ، أو سلطات انجليزية.. إذن لأمكن الدخول فى وضح النهار ، أو فى الليل ولكن بمساعدة سكان المنطقة . . ولما ضاع هكذا . . وتعطلت ذخائر الفوج ومهماته وعتاده .

وقطع على فوزى سلسلة أفكاره ، وقع حوافر حصان ، وسمع صوتاً يهتف :

— هل الأستاذ فوزى موجود ؟

— نعم أنا فوزى .

— اتفضل اركب الفرس لأوصلك إلى القرية .

وتصور فوزى أن هذا الإنسان الذى برز له من الظلام يناديه باسمه ، أقرب ما يكون إلى ملاك الرب الذى كان يظهر فى جبال فلسطين المسيح وأتباعه ، فقد كان ظهوره المفاجىء معجزة ، ونجدة إلهية ، بعد أن أوشك اليأس أن يغرقه .

وسأل فوزى ، صاحب الفرس ، وقد تدفقت فى شرايينه كل عناصر القوة والحياة :

— من الذى أرسلك ؟

— أرسلنى المختار .

وكان فوزى قد ألف معنى كلمة المختار وأنه عمدة القرى السورية

والفلسطينية . ومن جديد عاوده الشعور بأنه قد ظلم الشيشكلى فهو لم يتخل عنه ، وهو ليس بهذه الغفلة التى تصوره عليها ، فها هو ذا يذكره فى محنته ولا ينساه ، ويبعث إليه بمن ينجده وينقله .

وتعاون صاحب الفرس مع الدليل ، على حمل فوزى ووضعه فوق الفرس ، ولكن فوزى لم يكد يستقر على ظهر الفرس ، حتى راحت تثب وتقف على قدميها الخلفيتين ، وتقذف به من فوق ظهرها ، وهى تصهل .

ووجد فوزى نفسه يطير فى الهواء ، ثم يهوى على الصخر ، فيرتطم جسده به ، محدثاً ارتطامه دوياً شديداً .

وغاب فوزى عن الوعى،وتنبه على صيحات مرافقيه وهم ينادونه باسمه ، ولا يعرف كم من الزمن مر عليه وهو غائب عن الوعى . ولم يتصور إلا أنه غارق فى دمائه وأن مؤخر رأسه المرتطم بالأرض قد تهشم . بل لقد تصور أن عموده الفقرى لا بد وأن يكون قد انكسر .

وعجب من جديد لتصاريف الأقدار ، أن يصاب هكذا بالعجز والشلل فى اللحظة التى تصور فيها أنه قد نجا نهائياً .

وسمع صوت الرجلين فى جلاء يسألان فى لهفة ، وقد انحنيا عليه ، عما إذا كان قد أصيب بسوء .

ورد عليهما أنه لا يعرف بالضبط ماذا أصابه . وانشرح صدره إلى أنه على كل حال يسمع ويعى ويتكلم . ورفع رأسه فى حذر ، فاذا برأسه يرتفع ، وفكر أن يحرك يده اليمنى فتحركت ، إن مخه لا يزال يتحكم فى كل عضلة من عضلات أطرافه وامتدت إليه أربع أيد :

— هل نعاونك على النهوض ؟

— لم لا ؟

وأمسك بالأيدى الممتدة . . . فاذا بالقوة تواتيه ، والقـدرة تدب إلى أوصاله ، وإذا به يقف .

وذهل فوزى وانعقد لسانه من فرط الانفعال والتأثر .

أسالم هو ، لا كسر ولا عطب ؟ ويتحسس بيده مؤخر رأسه حيث سقط ، ويهز يديه ويهز ساقيه ، كل شىء على ما يرام ، الله أكبر . . . الله أكبر

ويجأر للمرة الثانية فى هذه الليلة بالحمد لله سبحانه وتعالى .

ويرفض فوزى بطبيعـة الحال ، الدعوة التى وجهت إليه من جديد لإعادة ركوب الفرس ، وأصم أذنيه عن سماع الضمانات والتأكيدات التى قدمت له أن لا يتكرر ما حدث ، وأبى إلا أن يسير كما يسيران ، وعرض على صاحبه أن يركب هو الفرس إذا أراد .

— ٢ —

كان القدر يدخر لفوزى أكبر مفاجأة فى هذه الليلة ، عند ما وصل إلى قرية ترشيحا ، إذ كان هو أول من وصل إليها من الفوج كله ، ولم يجد أحداً فى القرية يعرف شيئاً عن مصير الفوج ، أو مكان الشيشكلى

الذى كان يظن أنه هو الذى أوصى بارسال الفرس إليه ، بل إن المختار الذى قيل له إنه هو الذى أرسل إليه الفرس لم يكن موجوداً عند ما وصل إلى القرية .

وسأل فوزى فى حيرة أهل البيت الذى وجد نفسه فيه :

— أمصرون أنتم على أنى أول واصل إليكم ؟

— طبعاً ... طبعاً ، أنت أول واصل إلينا . يا ألف أهلا وسهلا ومرحبا . . لقد سمعنا منذ الصباح أن فوج اليرموك سيشرفنا . . وأعددنا الترتيبات اللازمة لاستقباله ، ولكن أحداً لم يصل إلينا إلا حضرتك .

— من إذن الذى دلكم على مكانى ، وبعث بالفرس لإحضارى .

— . . . . . .

— من هو صاحب الفرس لأشكره .

— . . . .

ويتلفت فوزى حوله فى ذهول ، وهو لا يعى مما جرى ويجرى حوله شيئاً ، ونظر فى بلاهة إلى صاحب البيت الذى كان يقول له :

— يا ميت هلا .. يا هلا . نتشرف بحضرتكم يا أفندم .

— أنا فوزى السيد من مصر ، وقد تطوعت للعمل من أجل فلسطين وكنت آخر من اجتاز الحدود من فوج اليرموك .

— نحن فى انتظار مقدم الفوج كما قلنا لحضرتك منذ الصباح ولكنك أول قادم .

وبدأ الخوف يتسرب لنفس فوزى ، لغرابة ما يسمع وما حدث له ..
ولم تهدأ نفسه بعض الشيء ويزول عنه قلقه إلا عندما جيء له بالماء ليشرب ، ثم الشاى بعد ذلك . ولو لم يصب الماء فى أكثر من كوب وكذلك الشاى ، وشاطره الحاضرون الشرب .. لما اجترأ على شرب الماء فضلا عن الشاى خوفاً من أن يكون فى الأمر دسيسة .

ولا يكاد يشرع فى شرب الشاى ، حتى يسمع لغطاً خارج البيت الذى يقيم فيه ، ثم يدخل عليه الشيشكلى ومعه أركان حربه وأكرم بك النائب السورى ، الذى كان قد تطوع مثله فى الفوج .

وامتلأ فوزى بموجة طاغية من الفرح والسرور جعلته يثب عن الأرض ، فينسكب الشاى على ملابسه وعلى الأرض ، ولكن فوزى لم يحفل بشيء من ذلك ، فقد كان فرحا برؤية الشيشكلى ومن معه ... إنهم عائلته ، إنهم وطنه ، إنهم شاطئ الأمان بالنسبة له . ولم يكن فرح الشيشكلى ومن معه برؤيته دون فرحه ... وكان عناق ... وكانت دموع الفرح .

— ألف حمد لله على السلامة .

— حمداً لله على السلامة .

ويسأل فوزى الشيشكلى :

— متى وصلتم ؟

— الآن فقط .

— وبقية الفوج ؟

— لست أدرى ، لا أعرف ماذا حدث ، لقد ضللنا الطريق فيما يبدو .

وكاد فوزى أن يصعق لهذه الحقيقة ، لقد كان اعتقاده حتى هذه اللحظة أنه هو وحده الذى ضل الطريق من دون الفوج الأول كله ، فإذا هو الوحيد الذى اهتدى إلى الطريق ، حيث ضل الفوج كله باستثناء قائده ومرافقيه .

وامتلأ فوزى رعباً وغما ، ماذا يمكن أن يكون قد حل بباقى الفوج ، ماذا لو كان اليهود قد دهموهم فى هذا الليل البهيم وأفنوهم ، بل من يدرى أن لا تكون قطاعات الفوج قد اصطدم بعضها ببعض تصوراً من كل جماعة أنها تواجه العدو . ولم يكن يخفف من حدة قلق فوزى إلا أنه لم يستمع إلى طلقات نارية من أى نوع كان . . . وأن السكون كان يغمر سطح الجبل حيث كان والجبال المحيطة به .

ويقص فوزى ما حدث لجماعته وما أصاب البغال ، وجهاز اللاسلكى وأنه رأى من الأصــوب أن تظل الجماعة حيث كانوا حتى يبعث لهم الشيشكلى نجدة .

وقال الشيشكلى :

— لن نستطيع عمل أى شىء قبل طلوع النهار و نعرف ما حدث بالفعل .

على أنه لم يمض على وصول فوزى والشيشكلى ساعة ، حتى بدأت الجماعات المتفرقة تصل تباعاً ، وقد بلغ بها الإنهاك والإعياء درجة غير متصورة ... فكان القادمون لا يكادون يصلون إلى القرية ، ويجدون سقفاً يستظلون به من أى نوع كان حتى يتهاووا إلى الأرض ويروحوا فى سبات عميق .

وتتابع مجيء الكتائب الضالة فى صباح اليوم التالى . . ووصلت آخر جماعة بعد الظهر ، وبعد أن كان القلق قد استبد بالجميع خوفاً على مصيرها .

ولكن فرحة فوزى الكبرى ، بلغت القمة ... عندما جيء بالذخائر والأعتدة المختلفة ، وتم تركيب جهاز اللاسلكى ، فاذا به سليم لم يتعطل ، وجرى استعماله وتشغيله بالفعل ، وسمع فوزى الشيشكلى يقول ، للقاوقجى قائد جيش الإنقاذ :

— كل شيء تمام يا أفندم . وصل الفوج سالماً إلى الهدف ، نحن نستعد الآن للخطوة الثانية .

— عظيم ... رائع ، هذا انتصار ساحق .. سأبلغ الخبر فوراً لوزير الدفاع ، ورئيس الجمهورية ... أريد أن أسمع عن انتصاراتك المقبلة .

— إن شاء الله .

— هل تريدون شيئاً ؟

— فى الوقت الحاضر كل شيء على ما يرام .

— إلى اللقاء فى الميدان .

— إلى اللقاء .

— المجد للعرب .

— والموت لليهود .

* * *

— ٣ —

كان قد انقضى على فوزى قرابة أسبوعين ، وهو بين جبال فلسطين وقراها ، ولكن روحه المعنوية فى ختام هذين الأسبوعين كانت قد وصلت إلى الحضيض وزحف على نفسه شعور غامض بخيبة الأمل واليأس . لم يكونوا حتى هذه اللحظة قد خاضوا أى معركة مع اليهود ، بل لم تقع أبصارهم على اليهود أو الإنجليز ، وكل الذى فعلوه فى هذين الأسبوعين ، هو أن يحطموا أعصابهم وقواهم فى عملية التنقل بين الجبال ، عن غير طريق الدروب المسلوكة . وقد رفضت قرية بيت جن الدرزية أن تستضيفهم ، بل رفضت حتى أن تقدم لهم الماء ليشربوا . وأخيراً استقر بهم النوى فى مكان اعتبره الشيشكلى أنسب موقع ليتخذ منه مركزاً لعملياته ، بدلا من قرية بيت جن الدرزية التى رفض أهلها إيواء الفوج عندهم .

وطلب الشيشكلى ذات صباح من فوزى أن يصحبه فى رحلة استطلاع تتألف منه ومن مرافقه وفوزى .

واستقل الثلاثة سيارة صغيرة ، وسارت من خلفهم سيارة نقل كبيرة تحمل ثلاثين جندياً . ووقع نظرهم لأول مرة منذ هبطوا إلى فلسطين ، على سيارة نقل ضخمة محملة بجنود الإنجليز قادمة من الاتجاه المضاد .

وغمغم الشيشكلى :

— إنهم إنجليز .

وخفق قلب فوزى وأمسك ببندقيته وهجس فى خاطره :

— بدأ القتال أخيراً .

ولكن سيارة الانجليز اقتربت منهم ومن فيها يلوحون لهم بأيديهم ، ومرقت السيارتان دون أن تتوقف إحداها ، وسمع فوزى صيحات وأصوات متبادلة بين سيارة الإنجليز وسيارة الحرس المرافقة .

وأوقف الشيشكلى السيارة بعد أن ابتعد الانجليز ، وسأل من فى السيارة عما حدث :

— كان الانجليز يحذروننا من وجود سيارة يهودية محملة بالمحاربين اليهود . وشوهدت بالفعل سيارة تسير فوق الطريق الذى يلتف حول الجبل الذى كان يبدو عند الأفق .

وخفق قلب فوزى :

— إنه القتال أخيراً ، القتال الذى كان يتوقعه منذ وطئت قدماه الأرض المقدسة ، ولكن الأيام مرت تلو الأيام دون أن يشهد منه شيئاً ، ها هو ذا يجىء فى النهاية .

وسحب فوزى ترباس البندقية كما تعلم ، لتكون على استعداد للاطلاق بمجرد أن يصدر له الأمر بالضرب .

وراح يحاول أن يحلل مشاعره ، لقد كان قلبه يخفق ولكن رأسه كان بارداً ، وكان يفكر فى هدوء وبرود ، وتلفت حوله يتأمل ما يحيط به من مناظر ، كانت الشمس تسطع على السفوح والقمم والوديان ، والسكون عميق ينفذ إلى العظام ، ترى ما الذى سيحدث بعد دقائق من الآن ...

من سيموت منهم ومن سيبقى على قيد الحياة ، من الذى سيبقى سليما ومن الذى سيجرح أو يشوه . من منهم سيقتل يهودياً وأيهم الذى سيقتله اليهود .

وتصور فوزى نفسه يردى يهودياً ويصرعه ، ولم يطرب لهذا الخاطر بل أحس بالكآبة تغمره . ما أكثر ما تصور نفسه وقد غاص خنجر فى قلبه ، أو نفذت رصاصة إلى رأسه . فلم يحس بكآبة لهذه الصورة . لطالما تمنى أن يستشهد فى سبيل مثله العليا ، لطالما تمنى أن يختم حياته بهذا الأسلوب المشرف ليلحق بصاحبه خالد ، ولينجو بنفسه من مشاكل الحياة وأزمتها التى لا تنقطع ، ويرتاح من هذا الضنى .

أما أن يقتل يهودياً ، أن يريق دمه ، أن يهوى بخنجر إلى قلبه فهذه صورة لم تطف له حتى الآن فى خيال ، وها هم اليهود أمامه ، ولن تلبث أن تنشب المعركة بينهم ، فماذا سيفعل وكيف سيتصرف . ولم يكن هناك مجال للتفكير . . . فقد كانت الحوادث تتوالى مندفعة إلى هذا الذى يفكر فيه . لقد ترجل الشيشكلى من السيارة ، وأمر الجميع أن يفعلوا مثل فعله وانتحوا إلى جانب الطريق ، واستتروا ببعض الأشجار القريبة ، وطلب منهم الشيشكلى أن يكونوا مستعدين لإطلاق النار على العدو بمجرد أن يشير لهم بيده .

ووجد نفسه يتساءل فى قوة وصراحة :

— أأقتل ؟

— ولكن ذلك ليس قتلا ، إنها الحرب وإذا لم يقتل فسوف يقتل هو .

— لكن ، إنه مستعد أن يموت ولكنه ليس مستعداً لأن يقتل .

فليقتل الآخرون إذا كان لا بد من القتل . أما هو فخير له أن يستشهد من أن يلوث يده بدم إنسان . إنه لم يزهق حتى الآن روحاً ولم يكن سبباً فى إزهاقها ، وسيظل كذلك طول حياته . إنه رجل فكر ، إن سلاحه هو القلم والمداد ، وليس الرصاص والدم . لقد صدق القوتلى وهو يقول له : إن أى إنسان عادى أصلح منه فى الحرب والقتال . إن مكانه هو وراء الجبهة ليعبىء الشعور وينظم القوى .

ولكن هل كان يستطيع أن يدفع الناس إلى الميدان دون أن يبدأ بنفسه ، ألا يكون منافقاً إذا دعا الناس إلى ما لا يفعله هو ويعرض له نفسه .

وهمس الشيشكلى فى أذنه :

— أستعد للضرب يا أستاذ فوزى .

واستجاب فوزى للأمر الصادر إليه ، ووضع يده بحركة لا شعورية على (تتك) البندقية ، ومرت اللحظات دون أن يصدر الأمر التالى بالضرب . ذلك أن صوت السيارة الذى كان قد اقترب لم يلبث أن ابتعد من جديد ، ولم يلبث أن تلاشى ، ولم تظهر السيارة اليهودية ومرت دقائق دون حدوث شىء ، وبدأ الشيشكلى يتحرك مستكشفاً الطريق فى حذر . .

لقد اختفى كل أثر للسيارة ولم تعد ترى ، كما لم يعد يسمع لها صوت .

وظن الشيشكلى أن فى الأمر كميناً يدبر لهم ... وانكب على خريطة المنطقة يفحصها ، وسرعان ما اكتشف ، أن هناك قبل موضعهم طريقاً آخر لا بد أن تكون سيارة اليهود قد انحرفت إليه أو أنها كامنة عند مدخله تتربص بهم .

وأصدر الشيشكلي أمره بركوب السيارتين ، والانطلاق بهما في سرعة . واعتبر فوزي ذلك حماقة جديدة من حماقات الشيشكلي ، ولكن كل شيء مر في سلام .

ووصل الركب ، أخيراً إلى هدفه المنشود ، وهو قرية عربية تشرف على إحدى المستعمرات اليهودية .

وجلسوا في بيت المختار ، ودارت عليهم فناجين القهوة العربية وسط الترحيب والتأهيل بهم . وبدا الموقف لفوزي كما لو كانوا في نزهة خلوية .

وقادهم المختار بعد أن فرغوا من شرب القهوة ، إلى حيث يستكشفون المستعمرة اليهودية القائمة عبر الوادي الذي تطل عليه القرية العربية .

ودهش فوزي من بساطة المستعمرة اليهودية ، والسكون الذي يهيمن عليها وعلى كل ما يحيط بها . لم تكن شيئاً مخيفاً أو مرعباً ، بضعة بيوت بيضاء اللون وغير مرتفعة عن الأرض ، بريئة المنظر . ولكن شرح المختار بدأ يلفت نظر فوزي إلى مالم يلاحظه من البداية ، ففي وسط المنازل كان يقوم بناء رفيع سامق . إنه البرج ، برج الملاحظة والمراقبة ، ويرتفع صوت المختار بعض الشيء :

— إنهم يروننا ويراقبوننا كما نراقبهم ، إنهم يقظون لكل ما يجرى حولهم ، وفي هذا البرج مدافع رشاشة مسلطة على كل الطرق التي تؤدى إلى المستعمرة . والمستعمرة محوطة بالأسلاك الشائكة التي لا نراها من هنا لبعدها ، ويحيط بالمستعمرة أوكار مبنية تحت سطح الأرض لا يظهر منها سوى فتحات إطلاق النار ، حيث تبرز منها المدافع الرشاشة .

ويقول المختار فى حماسة :

— لقد اصطدمنا بهم أكثر من مرة ، ونصرنا الله عليهم . . . إنهم فريسة سهلة على الطرقات وخارج المستعمرات ، أما فى المستعمرة فهم جن وشياطين .

ولذلك فإن أعظم ما يمكننا من تحطيمهم ، هو أن نقذفهم من هنا بالمدافع الثقيلة .. إن باستطاعتنا أن ندك المستعمرة على رأس من فيها لو كانت لدينا مدافع الهاون والمورتار .

وذهل فوزى لبساطة الاقتراح وفاعليته فى ذات الوقت . هؤلاء هم عرب فلسطين يعيشون مجاورين لليهود ، وهم أعرف بمسالك الجبال وشعابها ومكامنها وأخطارها ، وهم يعيشون فى حالة تأهب مستمر للحرب مع اليهود ، فما على البلاد العربية إلا أن تدع لهم مهمة قتال اليهود ، وأن تزودهم بالأسلحة والأعتدة الثقيلة ، والخبراء والفنيين ، والمؤن والمهمات .

أما جلب المتطوعين من الخارج ، متطوعين يضلون طريقهم بين شعاب الجبال ، ويسيرون عشرات الكيلو مترات ليصلوا إلى قرية عربية يطلبون منها أن تأويهم وأن تطعمهم ، فهذا هو العبث الذى لا يراد به إلا مجرد التظاهر والادعاء .

إن ما يجب أن يعمل فوراً ، هو أن تتألف حكومة لعرب فلسطين تتولى تجنيدهم وتدريبهم والدفاع عن قراهم وبلادهم ، ومهمة الدول العربية هى الوقوف خلف هذه الحكومة بكل الإمكانيات المالية والعسكرية والسياسية .

ولم تكد هذه الفكرة تتضح فى رأس فوزى ، حتى أحس أنه يضيع وقته عبثاً ، ليشترك فى مظاهرة لم يقصد من ورائها سوى الدعاية كما لا يقصد الجميع سوى الدعاية ، وما هو وراء الدعاية من المؤامرات والمناورات لتحقيق الأغراض الذاتية . أيمكن أن ينسى هذا الهمس الذى طالما سمعه فى المعسكر من ضباط الجيش السورى الذين يقومون بالتدريب . . أيمكن أن ينسى الحديث الصريح الذى تبادله الحورانى والشيشكلى أمامه ، من أنهم سيصلون إلى حكم دمشق من خلال القدس وفلسطين ؟ !

لا ... لا ، إنه يجب أن يواجه الحقيقة والواقع .. إنه لا يصلح للقتال على أية حال ، لقد قام بنصيبه ، وقدم القدوة لغيره ... أما الآن فمكانه فى مصر ... للدعوة لما تكشف له من حقائق .

— ٤ —

خفق قلب فوزى وهو يستلم خطاباً بعث به إليه من دمشق ، وعندما فتحه وعلم أنه من فاطمة ، نسى حذره المألوف ، لم يعبأ بمن يكون قد اطلع على الخطاب ... فقد كانت سعادته الغامرة بتلقى الخطاب تفوق كل شىء .

حبيبى وسيدى .

لقد سمحت لنفسى هذه المرة أن أناديك بحبيبى ، لأنى واثقة ومطمئنة إلى أن الخطاب فى أيد أمينة وأنه سيصل إليك دون أن يطلع عليه إنسان .

لعلك تذكر يا فوزى ما قلته لك مراراً وتكراراً ، أننى إذا كنت

قد حرصت طول حياتى معك على كتمان عواطفى ، فليس ذلك خوفاً مما يمكن أن يحيق بى ، ولكن حرصاً على هدوء بالك ومكانتك والنزول عند أحكام المجتمع الذى أعرف أنك ترتضى أحكامه ، وتعمل حسابها وتخضع لها . أتراك تحتقرنى يا فوزى ، أو أهبط فى نظرك ، إذا قلت لك إن شعوراً جديداً من الخوف قد أصبح يستولى علىّ ، كلما فكرت أنك وسط المستعمرات اليهودية ، وأنك قد تصاب بسوء ؟ لقد اكتشفت الآن فقط ، أننى إذا كنت قد احتملت كل الصدمات التى مرت بى حتى الآن : وفاة أزهار واستشهاد خالد ، فما ذلك إلا لأنك كنت دائماً هناك أتطلع إليك بروحى ، وأتجه نحوك بكل مشاعرى من حيث أدرى أولا أدرى . والآن وأنت تعيش وسط المخاطر ، فإن قلبى يوشك أن يقف أحياناً من الرعب . إن مكانك الطبيعى يا فوزى ، هو هنا . هنا فى مصر . لقد أديت رسالتك وأثمرت قدوتك . إن مصر كلها تلتهب بالحماسة ، ومئات الشبان يترددون يومياً على البيت الأخضر ، ويلحون فى الالتحاق بمعسكر التدريب الذى أقمناه بحلوان . وهل تعرف من الطبيب الذى يقوم بالكشف على المتطوعين ، إنك لن تصدق .. إنه الدكتور شرف الدين ، ولعل هذا يصور لك مقدار الحماس الجماعى الذى وصل إليه الشعب . وقد هال الحركة المحمدية ما أحرزناه من نجاح فى السبق بإرسال المتطوعين من كتيبة الدكتور خالد فأعلنوا أنهم لم يتأخروا عن إرسال المتطوعين مثلنا بالطائرات ، إلا لأنهم يعدون ألوفاً من المتطوعين ويجهزونهم بالسلاح وهو ما يحتاج إلى استعداد ووقت .. حتى الحكومة ، رأت نفسها مضطرة أن تعلن عن افتتاح مراكز لتدريب المتطوعين فى معسكرات الجيش لتوقف تدفق الشباب على البيت الأخضر وحماسهم للتطوع والتدريب ، وقد طلب عشرات من ضباط الجيش

المتحمسين أجازة من الجيش لكى يتطوعوا لإنقاذ فلسطين . وقد سرحت الحكومة ضابطاً عظيما يدعى أحمد عبدالعزيز الذى ألف كتيبة ضخمة تستعد للاشتراك فى معركة فلسطين .

فلم يبق لوجودك فى فلسطين إذن أى معنى إلا أن تعرض نفسك للخطر بدون جدوى . إن مكانك هنا .. فأرجوك أتوسل إليك أن ترجع .. إن كل أعضاء الحزب يريدونك الآن . وأنا من ناحيتى أحذرك إذا لم تبادر بالحضور فسوف أسرع إلى جوارك . إن فكرة تطوعى واستشهادى من أجل فلسطين أصبحت تملأ على نفسى وفكرى ، ولولا خوفى من أن أسبب لك شيئاً من الحرج لكنت أنا أول المتطوعات .. بعد أن كنت أنت أول المتطوعين .

وتوقف فوزى عن المطالعة وقد اغرورقت عيناه بالدموع ، ونظر إلى السماء الزرقاء ، سماء فلسطين .. سماء الأرض المقدسة وهتف من أعماق روحه :

— أمخطىء أنا يارب أن أستجيب لهذا القلب الكبير ، وهذه الروح العبقرية ، أمخطىء أن يخفق قلبى بحبها ، وأن أتمنى الآن لو كان باستطاعتى أن أطير للقائها . أأعتدى على زوجتى وفاء إذا أنا تزوجتها ؟

ووجد فوزى — إذ يحدق فى السماء — طيراً يرف بجناحه خلف صاحبته ، فغمغم قائلا :

— بإذنك يارب سأعود إلى مصر . . سأعود إلى مصر بعد أن اتضح لى طريقى العام والخاص . . . أما فلسطين فيجب أن تشكل لها حكومة

مسئولة تتولى إعداد الشعب للحرب والقتال من أجل أرضه من أجل حياته من أجل كرامته وعرضه .

أما أنا .. فقد أصبح لزاماً على أن أتزوج فاطمة .. فحسبها ما صبرت ، حسبها ماضحت ، حسبها ما تألمت وعانت واحتملت .

... ...

وعاد فوزى إلى مصر .

.. ..

الفصل الثالث

— ١ —

بهرت انتصارات الجيش المصرى الذى دخل إلى فلسطين فى الخامس عشر من مايو سنة ١٩٤٨ أفئدة المصريين ، وتصوروا أن الجيش يسير فى نزهة خلوية ، وبدا على الأفق كما لو كانت عملية احتلال فلسطين بالجيوش العربية هى مسألة أيام .. ولكن هذه الصورة لم تلبث أن اهتزت ، وحلت محلها صورة أكثر قتاما وتشويشاً . ولم تكد تمر ثلاثة أسابيع على بدء العمليات الحربية ، حتى تدخل مجلس الأمن وفرض على المتحاربين هدنة . ولكن كل الأطراف المعنية كانت تعرف أن هذه الهدنة ليست سوى هدنة مؤقتة ، وأن ستكون هناك جولة ثانية ، راح اليهود يستعدون لها بكل قوة بعد أن أصبحوا دولة اعترفت بها الولايات المتحدة بعد دقائق من إعلانها . وتدفقت عليها الأسلحة الثقيلة التى كانت تنقصها ، واكفهر الجو العربى وغشيه الضباب رغم أن الوقت كان فى صميم الصيف .

وكان مقر جمعية الهلال الأحمر يصور الموقف الجديد الذى وجدت فيه مصر نفسها مرتبطة بحرب مع اليهود فى فلسطين .

كان شارع الملكة نازلى حيث تقع الجمعية يئز بالنشاط كما لو كان خلية نحل ، وعشرات من السيارات البيضاء تزحم الأرصفة أمام المستشفى وخليط من الشباب والجنود والأطباء والحكيمات ينزلون من السيارات وتنصفق أبوابها وراءهم فى دوى يسمع فى طول الشارع وعرضه أو يصعدون

إلى هذه السيارات ، فتهدر محركاتها وتنطلق السيارات مسرعة تعدو وهي تثير الأعصاب بأبواقها .

وفي وسط هذا الخليط من السيارات ، كان نوع آخر من السيارات يثير نشاطاً وانتباهاً ويشيع في الجو حيوية ، وتلك هي سيارات القصور الملكية ، حيث تفد بعض الأميرات أو رجال الحاشية وبعض نسائها ، باعتبارهن متطوعات ومجندات في سلاح الخدمة الطبية .

وكانت نازك عوني وصيفة الملكة الرسمية ، وعشيقة الملك قد نزلت من إحدى هذه السيارات . وارتج لها الحراس والخدم والحشم مذ هبطت بساقيها الرشيقتين من السيارة على أرض الشارع حتى وصلت إلى حجرة مكتبها في المستشفى ، حيث كانت تزاول عملها باعتبارها نائبة رئيسة الجمعية . وكان زيها العسكري يزيدها فتنة ، وشعرها الكستنائي يبرز من جانب قلنسوتها العسكرية الرقيقة ، أما عيناها النجلاوان ، وشفتاها الأرجوانيتان ، وصدرها الناهد خلف السترة العسكرية ، فقد كانت تذكر كلها بالمكانة التي وصلت إليها السيدة من حظوة عند الملك .

ولم تكد السيدة تستقر في حجرة مكتبها التي خصصت لها في الدار ، والتي جهزت بأفخر الأثاث ، بفكرة أن جلالة الملك قد يزورها في أي لحظة ، حتى دق جرس التليفون الخاص ، وأمسكت نازك سماعة التليفون في تثاقل وملل ، ولكنها لم تكد تعرف محدثها ، حتى شهقت في سرور وسعادة ، وأشارت بحركة خفيفة من حاجبيها إلى من كان في الحجرة لكي ينسحبوا منها ، ولم تكد تصبح وحيدة حتى بادرت تقول في لهفة :

— أهلا كمال .. أهلا يا روحي .

— سأنتظرك بالعربة الليلة الساعة الثانية فى مكاننا المعهود ، سوف نسافر الفيوم ، لقد أعددت لك سهرة ممتعة .

— ولكن الليلة مستحيل يا كوكو ، أنسيت أن الليلة هى موعد الحفل الكبير فى قصر محمد على الذى سيشرفه مولانا ، وأنت تعرف أننى مسئولة عن إعداد بعض اللوحات ، وفوق ذلك فيجب أن أكون فى استقبال جلالة الملك .

— كل هذا لا يعنينى لقد رتبت كل شىء ، وإذا لم تحضرى فاعتبرى كل ما بيننا قد انتهى .

— لماذا تعذبنى هكذا يا كمال ؟ ألا تتكلم بعقل يا حبيبى ؟ إن ما تطلبه منى مستحيل ، كيف أتخلص من صاحبك جلالة الملك .

— صاحبك انت يا .. اعتذرى بأى عذر ، قولى إنك مرضت .

— ولكنك تعرف أنى عند ما أقول إنى مريضة فسوف يأتى على الفور لزيارتى .

— اعرفى شغلك.

— اعرفى شغلك ، أعرفى شغلك ، أهذا ما وعدتنى به آخر مرة ، أن تقدر ظروفى فى تعقل .

— المسألة هى أنك لا تعرفين الحب .. لو كنت تحبيننى كما أحبك ، لفهمت موقفى وقدرت عواطفى ..

وتنهدت نازك :

— أنا لا أحبك ؟! الله يسامحك يا كمال .. أبعد ذلك كله تقول إننى لا أحبـك كما تحبنى ، أنا التى أخاطر بمركزى ووظيفتى وأسرتى ، وأطلب الطلاق من زوجى لأعيش معك ، وبعد ذلك كله تقول لى إننى لا ..

وتوقفت نازك فجأة عن أن تتم عبارتها فقد دخل عليها فى هذه اللحظة زوجها شاهر بك عونى ، فحيته بهزة من رأسها . وإذ تصور وهى تمسك بتليفونها الخاص أنها تخاطب جلالة الملك فقد بقى بعيـداً عنها ، وراح يتشاغل برؤية الصور المعلقة على جدران الحجرة .

وأنهت نازك المكالمة وهى تقول بالفرنسية :

— إتفقنا .. إتفقنا .

ولما كانت الإشارة بين الحبيبين أنها إذا تكلمت بالفرنسية فذلك يعنى أن عزولا قد تدخل بينهما فقد شرع يقول لها :

— وهو كذلك يا بنت الـ . أمرى إلى الله سـأُلغى الترتيبات ، سأنتظرك غداً عند الظهر فى المكان المعهود .

— وهو كذلك .

ووضعت نازك سماعة التليفون فى موضعها وقد خيم على صدرها هم ثقيل وقالت لزوجها فى برود :

— أهلا شاهر .

— أهلا يا روحى ، هل كان مولانا هو الذى يكلمك ، هل قال لك ،

إنه يصر على أن تحضر البرنسيس فاطمة حفلة الليلة وأن تجلس إلى جواره ، ويطلب منك عمل الترتيبات النهائية لذلك .

وهتفت نازك فى احتجاج :

— مالى ولـكل هذه الدوشة ووجع الدماغ ، لقد تعبت ، وأنا أقول لك إننى لن أذهب لحفلة الليلة .

— أجننت ؟! سلامة عملك ، أهذا وقت الهزل .

— من الذى قال إننى أهزل ، إننى فى تمام عقلى ، لقد ضقت ذرعاً بمولاك هذا ، الذى لا تنتهى طلباته الشـاذة ، وأصبح يعاملنى كما لو كنت إحدى جواريه .

— سبحان الله يا نازك ، ألسنا نعيش فى خيره ، أنسـيت أنه رب نعمتنا .

— رب نعمتك أنت يا أخى وليس رب نعمتى ، وعلى رأى المثل ، ماذا يهمك أنت ، إننى أنا الذى اضطر لاحتمال سماجته وثقل دمه . وهأنذا أقول لك : لقد فاض بى ولم أعد أحتمل ، إننى إنسانة .. من لحم ودم لى إحساس ولى قلب وعواطف .

— أنا أمنعك من الاسترسال فى هذه السخافات ، أنسيت أن للجدران آذاناً . وما جدوى هذا الكلام الفارغ الذى تتفوهين به إلا أن يطردنى أنا وأنت من القصر .

— إن ذلك يكون يوم المنى .

وكاد شاهر عونى أن يصعق من قول زوجته :

ولكنك مجنونة ... لقد فقدت عقلك من غير شك ، لابد أن من كان يحدثك هو هذا الضابط الكلب القذر .

— شاهر لقد حذرتك ألف مرة ألا تجيء بسيرة هذا الضابط على لسانك ، إن علاقتى بكمال هى كعلاقتى بأى واحد من هؤلاء الضباط ، الذين تجيء بهم إلى بيتنا ، وتجتمع بهم ، وتدبروا ما تدبرون لإنفاذ مشاريع مولاك .

وصرخ شاهر عونى محذراً ومنذراً :

— نازك !؟

ولم تأبه نازك بصرخته وقالت فى برود :

— وعلى أية حال فأرجو أن لا تلعب هذا الدور الذى لا يناسبك ، دور الزوج الغيور .

واشتعلت مراجل شاهر عونى غضباً :

— أتريدين أن تقارنى بين علاقتك بجلالة الملك حاكم البلاد وسيدنا وبين علاقتك القذرة بهذا الولد الحقير .

وخلعت السيدة الحسناء عن نفسها كل وشاح سيدة البلاط ، وكل مظاهر التهذيب التى تضفيها عليها تربيتها ومكانتها وهمت بأن ترد عليه بعبارات فاحشة بذيئة ، لولا أن دق تليفونها الخاص مرة ثانية ، ورفعت السماعة وأثر التوتر والانفعال يسيطران عليها :

— ألو .

— أمازلت عندك يا بنت الـ . . . . .

— أولا تقول أولا بونجور .

— اسمعى ، أنا الآن فى انتظارك . أنا فى حجرة النوم لن أخرج حتى تجيئى .

— الآن يامولاى ؟

— الآن .

— ولكنى ذاهبة حسب أمر جلالتك لأشرف على الترتيبات النهائية لحفلة الليلة ولأتصل بالبرنسس فاطمة .

— لقد غيرت رأيى ، وكلفت بوللى بالقيام بهذه المأمورية ، أما أنت فأريدك حالا .. حالا ، سأبعث إليك بسيارة .

— لا داعى لذلك سيارتى حاضرة .

— نازك .. احذرى ، لا أستطيع أن أحتمل ولعلك أنت تعرفين .

وضحكت نازك ضحكة خليعة :

— طبعاً عارفة .

وانتظرت نازك حتى أغلق جلالة الملك التليفون ثم راحت تضع السماعة فى تثاقل وهى تتنهد :

— اتفضل يا سيدى ، مولاك يريدنى الآن فى حجرة النوم .

وفتح شاهر عونى عينيه وقال بالفرنسية فى دهشة :

— فى هذه الساعة ؟

— فى هذه الساعة . أرجوك أن تصدقنى عند ما أقول لك إنه إنسان شاذ مجنون .

— يا نازك يا حبيبتى ، أرجوك أن تكفى عن هذه العبــارات ، للجدران آذان ، أتريدين أن يخرب بيتنا .

— اطمئن إننى أقول له هذه العبارات فى وجهه .

وحملق إليها شاهر عونى فى تساؤل :

— وماذا يقول لك ؟

— إنه يكون فى حالة لا يستطيع عندها الكلام ، وأحياناً يضحك ضحكته المزعجة التى تثير أعصابى ويقول لى :

— أتعرفى يا نازك ما الذى يجعلك حبيبة إلى قلبى ولا أستطيع الاستغناء عنك ، هو أنك الوحيدة التى تقل أدبها معى .

وسمع الزوجان طرقاً على الباب .

وقالت نازك بالفرنسية :

— أدخل .

ودخل أحد السعاة ببزته العسكرية وقدم التحية :

— الهانم الرئيسة حاولت أن تتصل بالتليفون بسعادتك فكان الخط مشغولا ، وهى ترجوك أن تمرى عليها فى مكتبها إذا لم يكن لديك مانع ، وإذا شئت حضرت إليك هنا .

وتدخل عونى بك فقال فى لهفة وحزم :

.. مستحيل يا ابنى . قل للهانم الرئيسة ، أن نازك هانم متوجهة إلى جلالة الملك الذى طلبها بالتليفون .

ووقفت نازك هانم فى رشاقة وخفة ، وخطت نحو باب الحجرة وقد أخذت حقيبة يدها من فوق المكتب وقالت للساعى :

— سأذهب إليها .

وقدم الساعى التحية العسكرية وخرج من الغرفة ، بينما كان شاهر يصيح فى استنكار واحتجاج بالفرنسية :

— هذا غير معقول ، إنك تلعبين بالنار يا نازك . . . إنك تعرفين فاروق ... إنه لا يقف عند حد ... قد يقتلك ويقتلنى .

— اسكت انت من فضلك ودعنى أتصرف ، إننى أنا المسئولة وأنا أعرف كيف أعامله ، إننى سأفقد كل سلطانى لو تصرفت بطريقتك السوقية البلدية . . . إنه يجب أن ينتظر .

وهز عونى بك كتفيه فى استنكار واستسلام ، وسار إلى جوار زوجته فى طريقها نحو رئيسة جمعية الهلال الأحمر .

— ٢ —

— إنها نازك عونى .

— ومن هذا الذى يسير بجوارها ؟

— ألا تعرفه ؟ إنه زوجها شاهر عونى

— الـ . . . . .

— هس ... أتريد أن تذهب فى داهية ؟

— وهل قلنا شيئاً ... تشرفنا يا سيدى .

— ولـكنها ليست جميلة بالصورة التى يصفونها بها .

— الدنيا حظوظ .

— أمن أجل هذه غاضب الملـكة فريدة . ألا تعلم أنها فى بيت أبيها منذ سنة .

— ما لنا ولهذه الأحاديث ...

— كيف تقول ما لنا . . أليست نازك هذة وأمثالها هى سر المصائب والنكبات التى أصبحت تتوالى علينا فى الجبهة ؟

— هس

هكذا تناثرت التعليقات فى الدهاليز والممرات ، بين الخليط الذى كان يزحمها من الضباط المرضى والناقهين ، والمتمردين على مستشفى الهلال الأحمر .

ولـكن نازك عونى وزوجها لم يكونا يسمعان شيئاً من ذلك ، ولا يريان إلا الرؤوس والظهور التى تنحنى كلما مرا أمام أحد .

ووقفت رئيسة الجمعية بمجرد دخول نازك وزوجها :

— أهلا ... أهلا نازك هانم . خطوة عزيزة يا عونى بك ، لم نعد نراك كثيراً هذه الأيام .

— إن جلالة الملك مشغول جداً كما تعلمين ، وهو يبقينى طوال الوقت إلى جواره .

وردت رئيسة الجمعية :

— أطال الله عمر مولانا ، من أجل مصر والعرب والإسلام ، إنه ينهك صحته هذه الأيام ، حتى يحقق لنا النصر .

وارتسمت بسمة سخرية على شفتى نازك ، وأخرجت من حقيبة يدها علبة سجائرها ، ثم جلست بجوار الرئيسة وقالت لها بعد أن أشعلت لفافتها :

— خيراً يا حنيفة هانم ؟

— دعينى أقدم لك الدكتوره فاطمة .

ونظرت نازك هانم صوب المكان الذى أشارت إليه حنيفة هانم رئيسة الجمعية ، ليقع نظرها لأول مره على شابة فى الثلاثين من عمرها تجلس على أحد المقاعد فى آخر الحجرة .

واستوقف نازك فى نظرتها العابرة ، جمال فاطمة ورشاقتها وشعرها الأسود الفاحم وما يبدو عليها من شخصية،وأحست نحوها بنفور وكراهية بينما كانت حنيفة هانم تمضى فى تعريفها بفاطمة :

— الدكتورة فاطمة جاءت تعرض تطوعها للخدمة فى الميدان فى

الصفوف الأولى ، وقد تصورت أنها تريد العمل فى مستشفانا فى العريش أو فى غزة ، فإذا بها تصر على أن تكون فى أحد مستشفيات الميدان ، حيث يدور قتال بالفعل .

وقالت نازك فى استنكار واشمئزاز :

— ولكن النساء لا يذهبن إلى الميدان ، وهذا ضد التعليمات .

وتدخل شاهر بك عونى :

— يا دكتورة فاطمة إننى أحيى فيك هذا الشعور الوطنى النبيل ، والحق أن حرب فلسطين هذه قد كشفت عما فى شعبنا من ذخائر روحية ، لكننا لم نصل بعد إلى القسوة التى تجعلنا نبعث بشابة جميلة مثلك إلى الميدان حتى لو كانت التعليمات تسمح بذلك .

وردت فاطمة محتجة :

— أنا أولا لست فتاة جميلة ، إنما أنا طبيبة أعمل فى مستشفى الدمرداش ، وليست المسألة عندى أن أنتقل من مستشفى إلى مستشفى وإنما أنا أريد أن أكون فى الصف الأول مع المقاتلين .

وقالت نازك فى برود وسخرية :

— ما هذا الحماس كله ، لا بد أن للدكتورة فاطمة حافزاً معيناً للذهاب إلى الجبهة ... ترى ما اسم هـذا السعيد الذى تريد أن تذهب لتعالجه ، وفى أى مكان من الجبهة ؟

— أنا آسفة يا نازك هانم ، ليس لى زوج أو خطيب فضلا عن صديق بين الضباط أريد أن أذهب إليه ... إنما أنا أريد أن أؤدى واجبى كمواطنة ،

وأن آخذ نصيبى من الآلام والمخاطر التى يتعرض لها أبناؤنا فى فلسطين .

وصفقت نازك هانم فى استهزاء وسخرية :

— برافو ... خطبة حماسية عظيمة ... اسمعى يا فاطمة . لابد أنك من جماعة الدعوة المحمدية ... أم تراك من مهاويس فوزى السيد ؟

ووثبت فاطمة واقفة فى غضب ، وراحت تقول بصوت متهدج من فرط الانفعال :

— أنا سعيدة يا نازك هانم أنك حددت مكانى الصحيح ، أجل إن لى الشرف أن أكون من مهاويس فوزى السيد .

وتدخل شاهر بك عونى متوسلا إلى زوجته :

جلالة الملك يا نازك ... تذكرى أنه فى انتظارك . . . والتفت صوب حنيفة هانم وقال لها :

— تصورى يا حنيفة هانم أن جلالة مولانا فى انتظارها !

وانزعجت حنيفة هانم وهتفت .

— مولانا فى انتظارها ؟! أنا آسفة جداً ... أنا شديدة الأسف ... اتفضلى يا نازك هانم .. اتفضلى يا افندم لا يمكننا أن نؤخرك .

والتفتت حنيفة هانم صوب الدكتورة فاطمة وقالت لها :

— أرجوك يا دكتورة فاطمة أن تتسكرى بانتظارى فى حجرة السكرتير وسوف أحقق رغبتك إن شاء الله .

ولم تكد فاطمة تخرج ، حتى نظرت نازك إلى حنيفة هانم فى استنكار :

— ما هذا الذى سمعته يا حنيفة هانم . . . أنت تحققين رغبة هــذه السليطة اللسان عديمة التربية .. لقد تصورت أنك ستطردينها .

واعترض عونى بك محتجاً بالفرنسية :

— يا إلهى هذا غير معقول ، كيف تطردها يا نازك . . . أتريدين أن تحدثى لنا فضيحة . . . هل تريدين أن ينشر فوزى السيد ما جرى بينكما بالخط العريض ؟

— ألم تسمع بأذنك كيف تحدثنى وراحت تخاطبنى بانفعـــال وغطرسة؟

— لم يكن هناك أى مبرر لأن تزجى باسم فوزى السيد فى الموضوع .

— وما هذا الحماس المفاجىء لفوزى السيد ... أليس هو المهرج كما اعتدت أن تقول .

واسترسل عونى بك فى رطانته الفرنسية :

— ليس هذا أوان التشاجر ، إن مولانا ينتظرك ، ومكتب حنيفة هانم ليس هو المكان المناسب لذلك .

وتدخلت حنيفة هانم تهدىء الجو

— هذا بيتكم وأنا لست غريبة عنكم. المسألة يانازك هانم أننا يجب أن نقدر الظروف ، والبنت كما ترين ليست بنتاً عادية ، ولو رفضنا تطوعها ، فسوف تثير الدنيا علينا ، إنك تعرفين ما أصبح يقال ويردد ، من أننا

لا نفعل شيئاً إلا أن نقيم الحفلات ، ونظهر فى الصور ، ونتحلى بالألقاب العسكرية . وعندما دعوتك ، أردت أن أنتهز فرصة تطوع هذه البنت ، لنظهر مدى مساهمة نساء الهلال الأحمر فى الحرب الفعلية . وما دمت الآن ذاهبة إلى جلالة الملك فإنها تكون فرصة مناسبة ، لتعديل التعليمات بما يسمح بارسال هذه البنت وأمثالها من الطبيبات والممرضات إلى الجبهة .

ونظرت نازك هانم إلى حنيفة هانم ، وقد بدأت ثائرتها تهدأ :

— أهذا رأيك ؟

— وأرجو أن توافقيني عليه .

وصمتت نازك هانم بعض الوقت ثم قالت :

— وهو كذلك سأفعل ذلك إكراماً لخاطرك أنت ، إنك تعلمين مكانتك فى نفسى وتقديرى لشخصك .

— عشت يا نازك هانم ، والآن أرجو أن لا تمانعى فى أن أستدعى فاطمة من الخارج لتسمع بأذنها تأييدك لطلبها حتى تزيل الجفوة التى وقعت بينكما .

وتدخل عونى بك قائلا :

— هذه فكرة رائعة . ستكون هذه أعظم دعاية لك يا نازك ، أنك من هيأ السبيل لإرسال المتطوعات من الطبيبات إلى الجبهة .

واستدعيت الدكتورة فاطمة ، وكان الانفعال لا يزال بادياً على وجهها ولكن حنيفة هانم استقبلتها بابتسامة عريضة :

— يا دكتورة فاطمة . أرجو أن تنسى هذا الحادث العابر . . . إن نازك هانم وعونى بك وأنا ، كلنا معجبون ببسالتك وقد استطعت أن تقنعينا أنك قادرة بالفعل على احتمال المخاطر ، وقد استقر رأينا على أن نحقق لك رغبتك . كل الذى أرجوه منك أن تكونى هادئة ، باردة الأعصاب ، لا تسمحى لأى شىء أن يثيرك ، وإلا فكيف سيكون بقدرتك أداء واجبك فى الميدان ؟

— سأفعل إن شاء الله .

— وقد أخذت نازك هانم على نفسها عهداً أن تسهل سفرك إلى الجبهـــة .

— متشكرة يا فندم .

وقالت نازك هانم التى كانت قد عادت إلى رقتها وذهبت عنها عنجهيتها وأصبحت حريصة على كسب ود فاطمة :

— أما زلت غاضبة على يا فاطمة ؟

— كلا .

— أنا آسفة ، لم أكن أقصد المساس بك .

وصاحت حنيفة هانم فى ابتهاج :

— يا سلام . . . يا سلام . تصورى يا دكتورة فاطمة ... نازك هانم عونى ، هى التى تعتذر لك وتعلن أسفها ، أرجو أن تكونى مقدرة معنى ذلك .

— أنا مقدرة يا أفندم — وأنا بدورى أبدى أسفى واعتذارى .

وصاح عونى بك :

— برافو . . . برافو ، رائع ، جميل . هذا هو الجو الذى يجب أن يظلنا جميعاً هذه الأيام ... إننا فى حرب وكلنا فداء للوطن .

وقالت حنيفة هانم لفاطمة :

— هذا شاهر بك عونى كبير تشريفات جلالة الملك يا فاطمة .

وردت فاطمة فى هدوء :

— تشرفنا يا فندم ، لقد حذرت ذلك ، فضلا عن أننى رأيت صور سعادته .

وأخرجت نازك من حقيبة يدها خمس تذاكر وقالت لفاطمة :

— إذا أردت أن تثبتى لى أننا أصبحنا أصدقاء ، وأن المثل البلدى الذى يقول ، أن لامحبة إلابعد عداوة قد صدق ، فأرجو أن تقبلى منى هذه الهدية ، خمس تذاكر لحفلة الليلة التى ستقام فى قصر محمد على وسيشرفها مولانا .

وصاحت حنيفة هانم :

— خمس تذاكر ! والناس تتقاتل للحصول على تذكرة واحدة .

— إنها عربون صداقتي للدكتورة فاطمة .

وأخذت فاطمة التذاكر من نازك هانم وقالت في هدوء :

— أشكرك يا فندم .

— وأرجو أن تبلغي تحياتي للاستاذ فوزي ... لقد كنا معجبين به جداً وهو في أمريكا ، ولقد سمعت مولانا يثني عليه ، ولكنه يكتب بشدة جـــداً .

— إنه الآن لا يكتب ... لقد كان في جبال فلسطين ، ولم يعد إلا منذ أيام .

— أعرف ... أعرف . على كل حال حذار أن تتغيبي عن حضور الحفلة ، سوف أبحث عنك بنفسي ، وقد تتاح لي فرصة فأقدمك فيها لجلالة الملك .

ولم تكد نازك هانم وزوجها شاهر بك عوني يخرجان من الحجرة حتى مدت فاطمة يدها بتذاكر الحفلة إلى حنيفة هانم وقالت لها :

— لقد تقبلت هـــذه التذاكر حتى لا أعقد الموقف ... ولكني أرجوك أن تأخذيها وتنتفعي بها ، فلا أنا ، ولا واحد ممن أعرفهم يمكن أن يذهب إلى هذه الحفلات .

— طبعاً ... طبعاً يا بنتي ... إنني أفهمك ... وأنا شخصياً أطالع

مجلتكم ، وأوافقكم على كل ما تقولونه عن هذه الحفلات الماجنة الخليعة التى تقام كل ليلة ، ورحى الحرب تدور فى فلسطين ، تزهق أرواح شبابنا الطاهر . وكم كنت أريد أن أكون غير مقيدة بظروفى الخاصة ، فلا أحضر هذه الحفلات ... ولكن ماذا أفعل ... إنك تعرفين طبعاً أننى زوجة رئيس الحكومة السابق .

— طبعاً ... طبعاً يا افندم .

— وتعلمين أنه خال الملكة فريدة ؟

— أجل أعرف .

— ولكنك قد لا تعرفين ، أن هذه المرأة بالذات نازك عونى هى من أكبر العوامل لإفساد ما بين جلالة الملك والملكة . لقد خرجت فريدة من قصر عابدين بسبب هذه المرأة ولم تعد إلى القصر ثانية منذ أكثر من عام .

— حضرتك تعلمين أن عواطف الشعب كله مع جلالة الملكة فريدة .

— وما قيمة عواطف الشعب عند فاروق .

وكأنما أحست حنيفة هانم أنها قد انزلقت أكثر مما ينبغى فى حديثها مع فاطمة ، فتوقفت فجأة عن الحديث ، وتلفتت حواليها فى حذر ثم قالت لفاطمة هامسة ومحذرة :

— أرجوك يا فاطمة أن لا تقولى حرفاً واحداً مما سمعته منى الآن ، لقد انفتح قلبي لك مذ رأيتك لحدثتك بخبيئة نفسى ، ولكن إذاعة مثل هذه الأقوال عنى تعرض زوجى للمتاعب وتزيد فى تعقيد الأمور بين جلالة الملك والملكة فريدة .

— إطمئنى إننى مستعدة للسفر اليوم إذا شئت وبهذا لن تكون أمامى أى فرصة للتحدث مع أحد ، حتى إذا أردت .

ونظرت حنيفة هانم إلى فاطمة وكأن فكرة جديدة قد طرأت عليها :

— إسمعى يا فاطمة ... إننى مسافرة غداً صباحاً إلى العريش ، ما رأيك أن تأتى معى .. لتعملى بضعة أيام فى مستشفى العريش ، ريثما أعد لك العدة للذهاب إلى المجدل وهو خطنا الأمامى ؟

وقالت فاطمة وقد لمعت عيناها :

— أنا على استعداد .

— وهو كذلك . . . عليك الآن أن تملئى هـذه الاستمارات وأن توقعى بعض التعهدات .

وملأت فاطمة كل ما قدم لها من استمارات ... ووقعت كل ما طلب منها من تعهدات .

— ٣ —

كان فوزى يعد الساعات الثمانى والأربعين التى طلبتها منه فاطمة قبل أن يعقدا قرانهما ، دقيقة دقيقة ، وكان قد اجتاز أضخم عقبة وأشقها على نفسه ، وهى عرض قضيته على صاحبه شكرى ، الذى كان مقدراً لموقفه ، مدركا للحرج الذى يعيش فيه ، كثير العطف على فاطمة وماتحملته من آلام وتضحيات .

وكل الذى أشار به شكرى هو إرجاء الموضوع بعض الوقت . ولكن فوزى لم يكد يظفر بموافقة صاحبه ، حتى لم يعد يستطيع الصبر بعد ذلك يوماً واحداً . وأسرع يتفق مع المأذون ، وأعد بعض أقربائه ليكونوا شهوداً . ولكن فاطمة فاجأته بهذا الطلب الغريب . . . وهو أن يعطيها مهلة لمدة ثمان وأربعين ساعة ، وأن لا يحاول الاتصال بها خلال هذه الفترة .

وراح فوزى يبرر لنفسه طلبها . إنها تريد أن تحس بأنها لا تتزوج بغتة ، تريد أن تتأكد من إصراره ، وأنه لا يتزوجها تحت تأثير انفعال وقتى .

وأجاب فاطمة إلى طلبها . وراح يعد الساعات ، والقلق يتزايد فى نفسه . وكل الذى كان يروعه فى هذه الفترة ويخشاه ، هو أن تكتشف مشروعه فتحبطه قبل أن يتم بأسلوب ما . ولكن وفاء ، وهو ما كان يحير فوزى ولا يستطيع له تفسيراً ، لم تعد تشير لفاطمة من قرب أو بعد ، ولم يعد يبدو عليها أنها تحس بما يوشك أن يتم بينه وبين فاطمة.

وكانت الثمانى والأربعون ساعة تنتهى عند الظهر . ولم تكدعقارب الساعة تشير إلى الثانية عشرة ، حتى أمسك بالتليفون وأدار قرصه طلباً لعيادة فاطمة . ورد عليه الممرض :

— أنا مرسى يا أستاذ فوزى ـ الدكتورة فاطمة غير موجودة وقد اتصلت بى منذ ساعتين وطلبت منى أن أغلق العيادة فى الساعة الثانية كالعادة ، وأن أسلم المفتاح للسيدة الوالدة .

ولـكنها لم تقل لى السبب يا أستاذ فوزى ... لماذا لن تفتح العيادة اليوم بعد الظهر ، ماذا نقول للمرضى ، أتعرف أنت يا أستاذ فوزى ؟

وابتسم فوزى وقال :

— طبعاً أعرف .

— خير إن شاء الله .

— كل خير يا مرسى.

— وهل أرسل مفاتيح العيادة كما قالت للبيت ؟

— أفعل ما طلبته منك .

— الحق يا أستاذ فوزى إننى لست مطمئناً ، وكلامها معى كان يدل على أن هناك أمراً تخفيه عنى ... فقد سألتها ، ومتى أعود لأخذ المفاتيح ... فقالت لى إن والدتها ستقول لى على التعليمات .

وأحس فوزى بتبدل فجائى فى مشاعره ، فقد استولى عليه قلق مفاجىء وقال لمرسى :

— إبق عندك وسأتصل أنا بك بعد قليل .

وأسرع فوزى يتصل ببيت فاطمة ، فإذا به يفاجأ بصوت والدتها وهى تبكى فى التليفون .

— ألو ... ألو

— مين ؟

— أنا فوزى (يا تيزة)

وفوجىء بأم فاطمة تجهش بالبكاء فى عنف :

— الله يسامحك يا أستاذ فوزى ... الله يسامحك يا أستاذ فوزى .

وامتقع وجه فوزى ، وحار فى تعليل سبب بكاء المرأة ، أتكون غير موافقة على زواجه من فاطمة ... وسألها فى لهفة :

— ماذا حدث ... قولى بالله ماذا حدث .

— فاطمة سافرت يا أستاذ فوزى . . . فاطمة سـافرت وتركتنى وحيدة .

— سافرت ؟! إلى أين ؟

— وهل أنت لا تعرف أين سافرت ، أيمكن أن تـكون سافرت إلا بأمرك وإرادتك .

— أقسم بالله العظيم ، إننى لا أعرف ... قولى أرجوك أين ذهبت ؟

— سافرت إلى العريش . تقول لى إنها تطوعت فى حرب فلسطين .

وكاد فوزى يصعق لهذا النبأ ، ولـكنه تماسك بقوة الاندفاع فسألها :

— متى حدث ذلك وكيف ؟

— اليوم من ساعتين فقط ، جاءت حنيفة هانم رئيسة جمعية الهلال الأحمر وأخذتها معها ، ورفضت أن تسمع توسلاتى ، أن ترحم وحدتى وشـيخوختى . ولقد أردت أن أتصل بك فقد زعمت أنك لا تعرف . فحالت بينى وبين الاتصال بك . وقد تركت خطاباً لك .

ولم يكد فوزى يسمع كلمة خطاب ، حتى كان كغريق يتعلق بقشـة ، وقال لأم فاطمة ... أنا قادم فوراً .

* * *

انخرطت أم فاطمة فى بكاء حار وهى تفتح الباب لفوزى وراحت تقول له :

— والله حرام عليك ، والله هذا حرام . إننى امرأة وحيدة وغلبانة . مات زوجى . وماتت ابنتى أزهار وإبنى حسن جواب فى البلاد ، ولم يكن قد بقى لى من الدنيا إلا ابنتى فاطمة فتبعث بها إلى فلسطين لتموت ... أهذا هو جزاء من يحبك يا أستاذ فوزى ... أهذا جزاء فاطمة التى وقفت إلى جوارك خمسة عشر عاماً من عمرها ؟ إن فاطمة كانت تحبك يا أستاذ فوزى ... إن قلب الأم لا يمكن أن يخدع ... كانت تحبك أنت ، ولـكنها تكتم حبها فى نفسها . . . أبدلاً من أن ترحم شـبابها ، تحكم عليها بالموت .

ولم يسمع فوزى كلمة واحدة من هذا الذى قالته أم فاطمة فقد كان لا يفتأ يقول لها :

— الخطاب ... أين الخطاب الذى تقولين إنها تركته لى .

وعادت الأم تحمل له خطابا ، فكاد فوزى يمزقه وهو ينزع غلافه من فرط انفعاله ولهفته ، وراحت عيناه تقفزان قفزاً فوق الكلمات والسطور .

حبيبى وسيدى وزعيمى

ستعرف من والدتى عندما يصلك هذا الخطاب أننى فى طريقى إلى العريش ، ومنها إلى جبهة القتال فى المجدل ، فقد تطوعت لأزاول عملى كطبيبة فى الصفوف الأولى للجيش ، وإنى لأرجو أن يحل ذلك إشكالنا مرة أخرى ولو إلى حين . لقد حاولت أنت من ناحيتك إبعاد هذه المشكلة مرتين الأولى عندما سافرت إلى أمريكا ، والثانية عندما تطوعت لإنقاذ فلسطين . وقد حان دورى الآن لأسهم فى تأجيل المشكلة . وهكذا قر قرارى على التطوع من أجل فلسطين كألوف الذين تطوعوا، والذين يحاربون . فإذا قدر على أن أستشهد فذلك الذى أريد وأختار، حيث ألحق بصاحبى وصاحبك خالد ، وأحل هذا الإشكال الذى سببته لك . أما إذا قدر لى أن أعود سالمة كما عدت أنت من قبل مرتين ، فأعدك أن ألبى طلبك وأنزل عند مشيئتك فى الزواج منى .

إننى لا أستطيع أن أتصور أن أكون مصدر إيلام لك ولمن تحب ،

ومذ تكاشفنا بحبنا ، وأنت تعانى من هذه الأزمة التى خلقتها لك ، أزمة حبك لوفاء وحرصك الشديد على عدم إيلامها ، وحبك لى فى ذات الوقت ، وحرصك على أن تكون علاقتى بك فى الإطار الشرعى الذى تواضع عليه المجتمع ونظمه الدين . ومن ناحيتى أنا فلم أكن أطمع أن تكون زوجاً لى ، ولقد رأيت كيف حاولت دائماً أن اتجه بعواطفى نحو من تحب ، يأساً من أن أكون زوجة لك . . كل الذى تمنيته طول حياتى هو أن تعلم . . أن تعلم أننى أحببتك دائماً وأحببت من أجلك فكرى ، وخالد ووفاء ، ومصر والعرب والإسلام وفلسطين ، لأنك أنت تحب ذلك كله .

وعندما اطمأنت نفسى إلى أنك أصبحت تعرف ، لم يكن لى من مطمع إلا أن أواصل حياتى إلى جوارك فى صمت ، ولكن اخلاصك واستقامتك جعلت فكرة الزواج تستولى عليك ولا أستطيع لها أو لعواطفك نحوى دفعاً .

وما كان لى أن أكون مصدر أذى لوفاء عاطفياً ، أو لك اجتماعياً ، فقد كنت أرى شدة تحرجك من أن تكون زوجاً لاثنتين .

فاستخرت الله وخارنى ، وشرح صدرى للسفر إلى فلسطين . وما عليك الآن أيها الحبيب إلا أن ترضى بمشيئة الله وأن تنتظر عودتى من فلسطين . .

ولم يستطع فوزى أن يمضى فى مطالعة الخطاب فأجهش فى البكاء وراح يقول مولولا :

— لماذا .. يافاطمة فعلت ذلك ، لماذا ياحبيبتى ؟ لماذا تذهبون كلكم

وتتركوننى .. لماذا تتصرفون بنبل وطهارة وتضحية ، وتتركوننى غارقاً فى الإثم والخطيئة والأنانية .

وأمسك بيد أم فاطمة التى كان بكاؤه قد أدهشها وقال لها :

— أقسم لك أننى كنت عازماً على الزواج منها اليوم .. لقد كان كل شىء معداً الآن فى هذه الساعة .. الشهود والمأذون فى انتظارنا لعقد زواجنا أمام الله والناس .

— ٤ —

أذاع ديوان جلالة الملك فى ١٩ نوفمبر سنة ١٩٤٨ : إن إرادة الله قد شاءت وهو أحكم الحاكمين ، أن تنفصم عرى رابطة مقدسة بين زوجين كريمين ، فوجه قلبي حضرة صاحب الجلالة الملك المعظم فاروق الأول وحضرة صاحبة الجلالة الملكة فريدة مع ما يشعران به من أسف ، إلى الرغبة فى الانفصال بالطلاق . وتحقيقاً لهذه الرغبة أصدر جـلالة الملك الإشهـاد الشرعى بذلك فى يوم الأربعـاء ١٦ من المحرم سنة ١٣٦٨ الموافق ١٧ نوفمبر سنة ١٩٤٨ ، والديوان إذ يعلن هذا ليرجو من الله جل وعلا أن يهيىء من فضله وكرمه لحضرة صاحب الجلالة مولانا المعظم ما تقر به عين البلاد وتسعد .

* * *

— ٥ —

انطلق البوليس الراكب بالدراجات البخارية يفسح الطريق أمام عربة النقراشى باشا رئيس الوزراء التى كان يتقدمها ويتبعها سيارتان مكتظتان بالحرس شاهرى السلاح . فمذ تعددت جرائم الاغتيال التى أقدمت عليها جماعة الدعوة المحمدية ، أصدر رئيس الحكومة قراراً بحل هذه الجماعة ومصادرة دورها وأموالها وإبطال جريدتها ، توتر الجو بين الحكومة وشباب هذه الدعوة ، الذى بدأ يكشف عن روح عدمية ، واستهانة بالحياة البشرية ، خاصة وقد أمدتهم معركة فلسطين بفرصة ذهبية لحشد السلاح والتمرن على استعماله بدعوى أنه من أجل فلسطين .

ولم يكد رئيس الحكومة يستقل سيارته وتنطلق به ، مبتدئاً بذلك رحلته من بيته فى مصر الجديدة إلى وزارة الداخلية ، حتى دق جرس التليفون فى المقهى المواجه لوزارة الداخلية ، وطلب المتحدث من عامل المقهى اليونانى أن يستدعى له على التليفون الضابط عبد المجيد . واتجه عامل المقهى نحو ضابط شاب كان يجلس فى المقهى وسأله عن اسمه فعلم أنه هو المقصود :

— ألو أنا عبد المجيد .

— الدنيا بخير .

وأعاد الملازم أول عبد المجيد سماعة التليفون إلى مكانها فى هدوء ، ولم يلبث أن غادر المقهى بعد أن نظر إلى ساعته ، وتحرك متجهاً صوب وزارة الداخلية . ولم يكد يقترب من نطاق الجند الواقف أمام الباب حتى رفعوا أيديهم له بالتحية العسكرية ، وأفسحوا له الطريق . وازداد الضابط تثاقلا

بعد اجتيــاز هذا النطاق وهو يقطع الفنــاء الخارجى حتى مبنى الوزارة الداخلى . ووصل فى هذه اللحظة حرس رئيس الوزراء المتقدم الذى يفسح له الطريق معلناً قرب وصول الرئيس . وأوقفت الحركة فى جميع الطرق المؤدية إلى وزارة الداخلية ، وساد الهرج والمرج كما أصبحت العادة داخل الوزارة فى انتظار مقدم الرئيس . وأسرع رئيس حرس الوزارات يصدر نداءاته لقوات الأمن المنتشرة فى أرجاء الوزارة ، ليقف كل عضو وقفة الاستعداد والانتباه الشديدين .

ووصلت سيارة رئيس الحـكومة أخيراً . ونفذت من الباب الخارجى فى اللحظة التى كان الملازم أول عبد المجيد يجتاز عتبة المبنى الداخلى للوزارة .

ووصلت سيارة الرئيس أمام البــاب الداخلى للوزارة فصــاح رئيس الحرس بصوته الجهورى نداء التحية العسكرية التقليدى :

— قره قول سلاح .

وأدى حرس الوزارة التحية العسكرية بأسلحتهم فى قوة وانسجــام وحماسة ، جعلت رئيس الحـكومة يبتسم ابتسامة الرضا . إنه رجل صارم ، يحب الحزم والنظام ، وتعجبه القوة العسكرية ومظاهرها . وشرع رئيس الحـكومة فى ارتقاء درجات السلم القليلة المؤدية إلى بهو الوزارة فى نشاط جم . إن لديه أعمالا جمة تنتظره ليفصل فيها ، أعمالا ومشاكل من الداخل والخارج . لقد بدأت تصل إلى أسماعه وهو الرجل النزيه ، روايات عن إتمام صفقــات مريبة من الأسلحة بيعت للجيش المصرى ، وذخائر فاسدة تنفجر فى مطلقيها ، واسم جلالة الملك يزج فيها . والإنجليز .. الإنجليز الذين تحداهم فى مجلس الأمن ، ووصفهم بالقرصنة والعدوان على الشعب

المصرى ، بدأوا يزرعون طريقه بالأشواك . ولكن الذى كان يهمه فى الدرجة الأولى هذا الصباح ، وما جعله يبكر فى حضوره إلى الوزارة ، هو هذا التقرير المزعج الذى قدم له بالأمس متحدثاً عن كمية الأسلحة والذخائر الضخمة ، التى لا تزال لدى جماعة الدعوة المحمدية ، والتى جمعوها تحت ستار تجهيز المتطوعين إلى فلسطين ، وهم يعدونها لإحداث انقلاب فى مصر بالقوة . وعلى الرغم من أنه ظل يعمل فكره طول الليل فى كيفية مواجهة هذه المشكلة ، فلم يتوصل إلى قرار حاسم فيما ينبغى أن يعمل وذلك على خلاف عادته .. ولكنه كان مصمما وهو يصعد درجات السلم ، أن يحسم الأمر هذا الصباح ويتخذ من الإجراءات ، ما يؤدى إلى التوصل إلى مخابىء هذه الأسلحة وجمعها .

وخطا خطوته الأولى نحو المصعد الكهربائى ، وقد كان الفناء الداخلى المبنى خالياً إلا من الحرس والضباط ، وقد أغلقت أبواب الغرف على من فى داخلها من الموظفين . ولمح رئيس الحكومة الضابط النحيل الذى تقدم نحوه ، وقبل أن يتبين ماذا يريد هذا الضابط ، إذ به يخرج من جيبه مسدساً يفرغ رصاصاته فى صدره . وسقط الرجل كصاحب له من قبل ، وهو يتضرج فى دمه ، دون أن ينطق بكلمة أو يحدث أى صوت ، ولم يلبث أن لفظ أنفاسه .

— ٦ —

ضحك الشيخ المهدى ضحكة مغتصبة ، وتلفت حوله للمرة المائة أو يزيد ، نحو هذه الحجرة الفسيحة المضيئة والمملوءة بالرياش والأثاث ، وإلى هذا المكتب الضخم الذى يجلس وراءه هذا الرجل العسكرى الطيب القلب

رغم صرامته الظاهرة ، والذى أشبه صاحبه القديم سامى البارودى حيث اشتهر بالسيف والقلم .

نظر إلى رئيس جمعية الشبان المسلمين ، وهو لا يكاد يصدق أنه أصبح يعيش فى كنف هذا الرجل ورعايته ، مذ حلت جماعته وأغلقت دورها ، واعتقل البارزون من أعضائها . وارتد بصره من الرئيس العسكرى إلى رفيقه الوحيد الذى يجلس بجانبه ، إنه زوج اخته المحامى . ويروع الشيخ المهدى تحول صاحبه وضعف جسده حتى ليكاد يتهاوى ، ويهز رأسه كما لو كان يريد أن ينفض عن نفسه كابوساً مخيفاً . . أهذا هو كل ما بقى له من حول وطول : رعاية هذا الرجل الكريم ، وحراسة هذا الرفيق الواهن .. إنه لا يمكن أن يكون فى يقظة .. إنه يحلم .. حلماً مخيفاً مروعاً .. لن يلبث أن يستيقظ منه .. ولكن وآسفاه إنه يعلم أن الأمر حق . . حقيقة الحياة والوجود ، فهو لا يحلم ، ولا يعانى كابوساً رهيباً . إنما هو يقظ .. يقظ يتجرع مرارة الحقيقة .

واستأنف ما كان فيه من حديث مع مضيفه الكريم :

— أرجوك يا باشا أن تسأل الأستاذ عبد النعيم ، ها هو أمامك ، ماذا أقول فى البيت لزوجتى وأمى وأولادى، إن ما يقع ويحدث هذه الأيام لا يمكن إلا أن يكون من عمل مجرمين فجرة .

والتفت صوب رفيقه عبد النعيم وقال له :

— عبد النعيم ، أرجوك أن تقول للباشا ، ماذا أقول .

ولم يزد عبد النعيم عن أن غمغم وهز رأسه مؤمناً ، بينما استرسل

الشيخ المهدى فى حديثه :

— لست أنكر أنى كنت غاضباً ، بل وحانقاً على النقراشى باشا عندما أصدر أمره بحل الجمعية ومصادرة أموالها ، ولكنى كنت متأ كداً أننا لن نلبث أن نجد حلا لهذه المشكلة بشىء من الصبر والتفاهم والإقناع . فجاء مصرعه مقوضاً لكل آمالى ، مجهزاً على كل أمل فى حل المشكلة .

وقال رئيس الجمعية :

— على كل حال إن مصرع النقراشى باشـــا بكل شناعته له مثيل وسوابق فى تاريخ بلادنا . . ولكن الشىء غير المفهوم يا شيخ مهدى ، أن يصل الأمر بهذا الشاب المنحرف أن يفكر فى نسف محكمة مصر على رأس من فيها ، من قضاة ومتقاضين ، نساء وأطفالا ورجالا أبرياء . . لست أتصور ، أى كارثة لم تعرفها بلادنا فى كل تاريخها لو لم يسلم الله ، وتكتشف أدوات النسف قبل انفجارها .

— أتتصور يا باشا أنه يمكن أن يكون لى يدٌ فى هذه الأعمال الجهنمية الإجرامية .

— معاذ الله يا شيخ مهدى إننا نعرفك كلنا رجل دين وتقى وسلام ووئام ، ولكن هؤلاء الأولاد المجرمين يعقدون القضية .

— وبماذا تشير على يا باشا . . أنا غريق يا باشـا . . لم أعد أعرف كيف أتصرف .. أشر على يا باشا .

— أنا متأ كد ، أنك لو أجبتهم إلى ما يطلبونه منك ، وهو تسـليم

محطة الإذاعة السرية التي تبث الإذاعات السرية ضد الحكومة ، ولو استطعت أن ترشدهم إلى مستودعات الأسلحة والذخيرة .

وقاطعه الشيخ المهدى ولم يدعه يتم جملته :

— كأنك لا تصدقنى يا باشا عندما أقسم لك أننى لا أعلم شيئاً عن هذه المحطة أو هذه المخابىء .

إن الذين يعرفون هذه الأشياء كلهم فى الاعتقال ، ولا سبيل للاتصال بهم أو التفاهم معهم . ومع ذلك فليسمحوا لى بالاتصال بهم فى المعتقل وأنا على استعداد أن أبذل جهدى لإقناع الجماعة أن يدلوا السلطات على هذه المكامن . ولكن يجب يا باشا أن نفعل شيئاً لنضع حداً للموقف الحالى الرهيب . إننى مذهول ، مقهور ، لا أعرف كيف وصلت الأمور إلى هذا الحد . كلما أتصور أنه منذ بضعة شهور فقط كانت حركتنا فى ذروة النجاح ومئات القلوب تخفق بحبها ، والأمة تعلق الآمال على جهادها ، وأقارن ذلك بما وصلنا إليه اليوم ، ونحن لانوصف إلا بالمجرمين ، ولا يتحدث عنا إلا بالقتلة ، وأنا أتلفت حولى فلا أرى إلا أنقاضاً ودماء ورماداً . . . أكاد أفقد صوابى أو أجن . أترانا أغضبنا الله ؟ الله يشهد أننا لم نخط حرفاً واحداً ، أو نتلفظ بكلمة أو نتحرك حركة ، إلا ونحن نهدف من ورائها إلى إعزاز دين الله وبعث مجد الإسلام ، فما الذى حدث .. ما الذى أخطأنا فيه .. قل لى يا باشا . . هل فعلنا ما يغضب الله ؟

وتنحنح الباشا وقال :

— لست أعرف إذا كان الوقت مناسباً لمثل هذه الأحاديث ، فأنت

ضيفي وجماعتك في محنة وليس باستطاعتي إلا أن أقف إلى جوارك دون بحث في شئون الماضي .

— عظم الله أجرك يا باشا وأطال في عمرك ، لقد أصبحت الخيط الباقي الذي يربطني بالأمل ، ويحفظ على إيماني ، ولكني أسألك وأناشدك الله أن تصارحني ، هل أخطأت في شيء ، هل لم تكن دعوتي خالصة لله ؟

— من ناحيتي أنا لا أشك في ذلك . ولكنك ما دمت تريد أن تتقصى أسباب هذه المحنة ، فهلا تذكر أن فوزي السيد منذ عام مضى ، هنا وفي نفس المكان ، حذرك من خطورة اعتبار أعضاء جماعة الدعوة المحمدية هم وحدهم المسلمون ، ومن عداهم ليسوا مسلمين . ولفت نظرك إلى بدء انحراف الشباب واستهانتهم بقتل مخالفيهم واعتبار ذلك جهاداً في سبيل الله .

ألا تذكر خلافه معك هنا أمامي عندما قتل بعض من جماعتك واحداً من جماعتهم في بلدة كوم النور ؟

— الحمد لله أن جاء ذكر هذا الحادث على لسانك ، أرجوك أن تشهد بما يرضي الله ، ماذا كان موقفي من فوزي السيد ، ألم أفعل كل ما في وسعي لأعتذر له ، لأهدئ من غضبه ، وأبدي أسفي واستنكاري لهذا الحادث .

— الحق أنك أدهشتني يومئذ بكثرة ملاطفتك له رغم أنه كان يرعد ويبرق ويثور ، وكان يكتب في ذلك الوقت مقالاته النارية ضد جماعتك ... وإنني لأعجب كيف لم يرده واحد من جماعتك ، أو ينسفوا بيته أو حزبه وهم بكل هذه القوة والقدرة والاستهتار .

— ذلك لأننى أنا الذى حميته يا باشا والله يشهد على ما أقول ، لقد كانوا يجيئون لى بمقالات فوزى السيد ، والتى تفيض بالهجوم والعدوان علينا ، مطالبين بضرورة الانتقام ، فكنت أنتهرهم وأزجرهم . . . بل لقد صفعت فى أحد الأيام شاباً منهم أقسم أمامى ليقتلن فوزى السيد ، وطلبت منه أن يكفر عن يمينه بالصوم . وأعلنت كل من يحيط بى أن من يتعرض لفوزى السيد سيكون محل لعنتى وغضبى ، وطلبت منهم جميعاً أن يدعوا موضوع فوزى السيد على عاتقى أنا . ولعلك تذكر أننى طلبت منك أن تتدخل وأن تجمعنا .

— ولكنك يا شيخ مهدى كنت بالفعل شديد الحرص على إرضاء فوزى السيد شخصياً ، دون أن تسعى لفهم وجهة نظره . إننى ما زلت أذكر قوله لك ، أن ليس بينه وبينك خلاف شخصى يزول بمجرد أن تقبل رأسه أو أن تعتذر إليه ، وإنما القضية هى كيف يجب أن تأخذ على عاتقك إقناع كل عضو فى حركتك ، إن قتل النفس هى كبرى الجرائم التى يمكن أن يرتكبها مسلم لأى سبب من الأسباب ، حتى لو كانت نفس غير مسلم .

وأن التلويح بما كان يجرى فى صدر الإسلام من قتال المشركين ، هو أمر رهن بوقته ، وليس يعلى من شأن الإسلام هذه الأيام إلا أن يكون قوة سلام وسط هذا العالم المضطرب .

إننى أذكر بوضوح ، أنه حذرك ، من أن الجماعة تسير فى طريق الدمار إذا لم تعدل عن هذا الأسلوب .

— وهل تتصور يا باشا أننى كنت غافلا عن هذا الخطر الذى يحذرنى

منه . . . هل كنت أحتمل ثورته وغضبته ، إلا لأننى كنت أشاطره الرأى . . . ولكن ماذا أفعل لقد كانت الأمور تتطور بسرعة ، وكان الزمام قد أفلت من يدى .

— هذا هو التعبير الذى استعمله فوزى يومئذ . . . لقد قال لك . . . حذار يا شيخ مهدى أن يفلت الزمام من يدك .

وأطرق الشيخ المهدى برأسه وراح يقول:

— لا حول ولا قوة إلا بالله . . . لا حول ولا قوة إلا بالله . إنا لله وإنا إليه راجعون . ليتنى سمعت النصيحة مبكراً . . ليتنى سمعت النصيحة مبكراً .

على أية حال يا باشا ، إن كل خطأ قابل للاصلاح . وأنا أرجوك أن تساعدنى على أن نبدأ صفحة جديدة . إن الاتصال بجلالة الملك بطريق مباشر هو فى رأيى الحل الوحيد الذى أصبح باقياً أمامنا ... ألا توجد لديك وسيلة يا باشا للاتصال بمولانا ، وإفهامه أننا جنوده الأوفياء ، وأنه لو أتاح لنا فرصة العمل من جديد ، فسنكون ركنه الركين .

— لقد سعيت إلى ذلك فعلا ، ولكن كل الذين ، اتصلت بهم فى هذا الموضوع ، قالوا لى إن الوقت غير مناسب ، وأن جلالة الملك قد اعتبر مصرع النقراشى طعنة موجهة إليه شخصياً . ولذلك فما عليك سوى الصبر يا شيخ مهدى . وأنا أعتقد أن تسليم محطة الإذاعة والإرشاد عن مخابىء الأسلحة من شأنه أن يخفف من التوتر .

— سأحاول ... سأحاول يا باشا ، لأضع حداً لهذه الحياة الغريبة التى

أصبحت أحياها . إن كل من يدخل بيتى يقبض عليه ، وكل من أزوره يقبض عليه . ولم يعد لى ملجأ إلا جمعية الشبان المسلمين . لقد فكرت فى أن أذهب إلى الريف ، وأن آوى إلى بعض المعارف ، ولكنى قدرت أنه سيقبض عليهم . وإن ما يدهشنى هو أن يقبضوا على كل من يلوذ بى ثم يتركونى أنا .. لماذا لم يعتقلونى .. لقد طلبت منهم أن يعتقلونى فرفضوا .

حتى التليفون قطعوا عنى الحرارة مع أنى سددت الاشتراك . وفى الروحة والجيئة تتبعنى سيارة مليئة بالعسكر المدججين بالسلاح .

وتدخل هنا الأستاذ عبد النعيم ، فقطع على الشيخ المهدى استرساله بقوله :

— لقد ذكرتنى يا فضيلة الأستاذ ، لقد لاحظت أن السيارة لم تقتف اليوم أثرنا ، ولم تتبعنا فى حضورنا إلى هنا .

وتوقف الشيخ المهدى مفكراً ثم أضاف :

— هذا صحيح والله يا عبد النعيم ، كيف لم أتنبه إلى هذا .

وتدخل رئيس الجمعية باهتمام :

— هل أنت متأكد أن سيارة البوليس كفت عن متابعتكم منذ الأمس ؟

— أنا متأكد من ذلك .

— فى هذه الحالة تكون هذه بادرة خير .

وقال الشيخ المهدى فى سخرية :

— الله أعلم بادرة خير أم شر .

— لا .. لا بل بادرة خير إن شاء الله .. هيا .. هيا يا شيخ مهدى تعال أوصلك إلى بيتك بسيارتى .

— شكراً يا باشا إنى معتاد على السهر ولا أستطيع النوم قبل منتصف الليل .. إتفضل سعادتك ، وسأعود إلى البيت كما هى عادتنا فى إحدى سيارات الأجرة .

— ٧ —

سهر الشيخ المهدى ما حلا له أن يسهر مع هذا النفر القليل الذى اعتاد أن يلتقى به فى الشبان المسلمين مدافعاً عن نواياه ، مؤكداً أنه رجل مسالم لا يسعى إلا لتحقيق الخير .

وذهب أحد المعارف فى ختام السهرة ليحضر سيارة أجرة تقله إلى بيته . وقيل للشيخ المهدى إن السيارة قد وصلت .. وأسرع كما هو دأبه ليستقل السيارة وصاحبه عبدالمنعم يهرول وراءه ، والشيخ المهدى يستحثه. ولم يكد الشيخ المهدى يستقر على مقعده فى السيارة ويطمئن إلى استقرار صاحبه إلى جواره ، ويهم بإلقاء تعليماته إلى السائق ، حتى انقض من الظلام ثلاثة رجال أخفوا وجوههم خلف شيلانهم الصوفية وراحوا يطلقون الرصاص داخل السيارة .. وصاح عبد النعيم :

— لقد أصبت يا فضيلة الأستاذ .

وكان الأستاذ فى شغل عنه فى هذه اللحظة بالإمساك بمقبض باب

السيارة المجاور له ، حيث كان مهاجم جديد يحاول فتحه من الخارج . ولكن بعض الرصاصات من الجانب الآخر أصابت الشيخ المهدى فضعفت مقاومته ، وتمكن المهاجم من فتح الباب ، وأفرغ رصاصاته الست فى جسده ، ثم أسرع لائذاً بالفرار لاحقاً بصاحبيه اللذين كانا قد أفرغا رصاصهما .. ولم يكد الجناة يفرون حتى هبط الشيخ المهدى رغم كونه مثخناً بالجراح ، وراح يعدو للامساك بواحد من الجناة .. ولم يلبث أن راح يصيح :

— إمسكوا المجرم . . إمسكوا القاتل .. لقد ضربنى بالرصاص .

ولكن المعتدين كانوا قد نجحوا وسط الذهول الذى أحدثته المفاجأة ، وصوت النيران الذى أرهب العدد القليل من موظفى الجمعية الذين كانوا يودعون الشيخ المهدى ، فى أن يستقلوا سيارة كانت مهيأة للسير بهم فانطلقت مختفية عن الأنظار . ولكن الشيخ المهدى استطاع أن يلتقط نمرة العربة ، فأسرع عائداً إلى السيارة والدم ينزف منه بغزارة ، وأملى نمرة السيارة على أحد موظفى الجمعية وأوصاه بحفظها .

ثم اتجه صوب السائق الذى كاد يموت من الرعب . . والذى كان قد ارتمى على أرض العربة مذ بدأ إطلاق الرصاص،وطلب منه أن يقودهم إلى جمعية الإسعاف القريبة من مكان الحادثة . وأجرى لهم رجال الإسعاف الإسعافات الأولية .. ولكن خطورة الإصابات كانت تحتاج إلى ما هو أكثر من الإسعافات الأولية ، فأشاروا عليهم بوجوب الذهاب إلى قصر العينى وراح الشيخ المهدى يطمئن صاحبه :

— سليمة . . سليمة إن شاء الله يا عبد النعيم، شد حيلك .

— المهم هو سلامتك أنت يافضيلة الأستاذ ، نموت كلنا وتسلم أنت .

— الله يبارك فيك يا عبد النعيم .. نا بخير .. بخير والحمد لله :

* * *

بدا التهلل على وجه الملك فاروق وهو يسمع فى تليفونه الخاص نبأ إطلاق الرصاص على الشيخ المهدى وقال لرئيس بوليس قصره الذى أبلغه النبأ :

— مات أو لم يمت بعد ؟

— ليس بعد يا مولاى .

— إذن عليك أن تبلغنى أخباره دقيقة بدقيقة .. أتسمع . . ؟ دقيقة بدقيقة .

— أتأذن لى يا مولاى .. هذا التليفون الآخر يدق ، لعله يحمل أنباء جديدة .

— استمع إليه وأنا معك .

وسمع الملك رئيس بوليس قصره يقول لمحدثه :

— الكشف المبدئى قرر أن حالته سيئة جداً ؟ نزف كثيراً جداً ؟

وماذا يفعلون فى قصر العين الآن ؟

حسن .. حسن وهو كذلك .. عليك أن تبقى على اتصال مستمر بى.

وأغلق رئيس بوليس القصر التليفون .. وقال لجلالة الملك .

— إنهم يبحثون له عن أطباء في قصر العيني لإسعافه وإجراء عملية سريعة لإيقاف النزيف ونقل الدم وإخراج الرصاصات .

— وهل وجدوا ؟

— يقول لي وصفي أن الساعة متأخرة ولا أطباء في قصر العيني سيحضرون من الخارج بعض الأطباء .

— تصرف إعمل اللازم .

— اطمئن يا مولاى .

ووضع الملك سماعة التليفون ، ولم يلبث أن أدار قرص التليفون .

— ألو .. ألو .. أنا فاروق يا شاهر .. ضربوا الشيخ المهدى .. أجل .. أجل ، لم يمت بعد .. أين نازك .

ألو .. نازك .. ضربوا الشيخ المهدى .. لا لم يمت بعد .. انتظرى التليفون الخاص يدق ..

— ألو .. ألو .. أيوه يا كامل ؟

— لم يجدوا أطباء .. لا يزال ينزف ، بعض أطباء الامتياز يعملون على نقل الدم إليه .

ومن جديد دق جرس التليفون في مكتب رئيس بوليس القصر الملكى ولم يحتج الرجل للاستئذان فقد قال له الملك .

— اتكلم .. اتكلم .

وإن هى إلا لحظات حتى كان الرجل يقول لجلالة الملك :

— البقية فى حياتكم يامولاى ..

— مات الرجل ؟

— أطال الله فى عمر جلالتكم .

— وهو كذلك وهو كذلك .. هل أنت متأكد .

— إن رئيس حرس الوزارات هو الذى كان يكلمنى الآن وهو الذى أبلغنى الخبر .

— وهو كذلك ، وهو كذلك ، انتهينا .. انتهينا .. الحمد لله .

— ألو .. ألو .. نازك .. هل نمت ؟ خلاص .. خلاص يا نازك الشيخ مات .. البقية فى حياتك .. ها ها .. ها .. ها .

الفصل الرابع

— ١ —

استبد الحنق والغيظ بالصاغ أركان حرب بهاء عبد القادر ضد هؤلاء الضباط العظام الذين يجلسون خلف مكاتبهم على بعد مئات الكيلو مترات من الميدان فى القاهرة . وهم منتفخو الأوداج مبرمو الشوارب ، حليقو الذقون ، تلتمع شاراتهم العسكرية وأزرار بزاتهم . يجلسون وراء مكاتبهم بعد أن يكونوا قد فرغوا من تناول إفطارهم الدسم . وقاموا متأخرين من النوم بعد إحدى سهراتهم الحمراء مع قائدهم الأعلى، ثم يصدرون مثل هذا الأمر الأبله الذى كان يطالعه :

— على الكتيبة السادسة أن تستولى على مستعمرة جوليس فى خلال ٢٤ ساعة ونخطر .

وهز بهاء عبد القادر رأسه فى مرارة وأسى . أى حرب هذه التى تدار من وراء المكاتب بواسطة أشخاص لا يعرفون شيئاً فى الحرب ، بل لا يعلمون على الأقل مجريات الأمور وحقائقها .

كيف يمكن للكتيبة السادسة أن تستولى على مستعمرة جوليس خلال أربع وعشرين ساعة ، وليس لدى الكتيبة أى فكرة عن هذه المستعمرة ، فضلا عن مئات التفاصيل الدقيقة ، التى يجب أن تعرف عن قوة العدو قبل شن أى هجوم عليه . ما عددالمدافعين عن المستعمرة ، أين مراكز القوة فيها ومواطن الضعف ، مدى فاعلية مدفعيتها . . . ما هى العقبات

والتحصينات التى تعترض سبيل المهاجمين . . إلى آخر هذه المعلومات التى يجب أن تتوفر لدى المهاجمين لأى موقع من مواقع العدو . أما أن يطلب من الكتيبة السادسة ، هكذا وبدون مقدمات ، وبعد هذا الركود الطويل فى العمليات الحربية ، أن تستولى على مستعمرة جوليس فى خلال أربع وعشرين ساعة ، فهذا هو الشىء الجديد الذى اخترعته القاهرة فى الفنون العسكرية . . القاهرة اللاهية . . الساهرة فى الكباريهات والمقاهى والسينمات .

وأحس بهاء عبد القادر بموجة من التوتر تغمره ، فراح ينفس عن نفسه بالدق على المائدة الخشبية الصغيرة التى كان يجلس وراءها .. ولم يلبث أن انقدح فى ذهنه خاطر جعله يضحك ضحكة مرة :

أيكون قصد هؤلاء القادة العظام أن يستولوا على مستعمرة جوليس على الورق كغيرها من المستعمرات التى سبق إعلان الاستيلاء عليها .

أتراهم يريدون أن تبعث الكتيبة لهم ببرقية أنه قد تم الاستيلاء على المستعمرة ، وقتل كذا ألف من اليهود ، كما حدث من قبل أكثر من مرة كذباً على الشعب ، ولتكون الأكذوبة وسيلة لتوزيع الرتب والنياشين والأوسمة ، على هؤلاء السادة من الضباط العظام ، والضابطات العظيمات اللواتى يقدن المعركة من القاهرة من خلال هذه الحفلات الداعرة التى تقام باسم فلسطين ، والتبرع لفلسطين وجرحى فلسطين .

ووثب بهاء واقفاً فى حنق :

— لا إنه لا بد أن يفعل شيئاً . إنه لن ينفذ هذا الأمر . سيضع حداً لهذا العبث .

ونجح بهاء عبد القادر فى إقناع قائد الكتيبة بضرورة الحصول على مزيد من المعلومات قبل الشروع فى هذا الهجوم من القيادة العامة ، أو على الأقل بإعطائهم فسحة من الوقت ليحصلوا على هذه البيانات والمعلومات عن مستعمرة جوليس بوسائلهم الخاصة .

وعندما ذهبا إلى مقر القيادة العامة كادا أن يصعقا ، عندما تكشف لهما مدى الاستخفاف الذى كان سيزج بالكتيبة فى مخاطرة غير مأمونة العواقب . لقد كانت الصور التى أخذت لمستعمرة جوليس من الجو تكشف عن شدة مناعتها . وعندما طالعوا التقارير الموجودة لدى القيادة ، عن ضخامة عدد المدافعين عن المستعمرة ، وعن قوة أسلحتها ومتانة دروعها ، وكيف أنها تحتوى على سراديب أرضية تصلها بسلسلة من المستعمرات التى تحيط بها ، تجعل نجدتها من أيسر الأمور ، وفرار المدافعين عنها إذا غلبت على أمرها من أيسر الأمور كذلك .

ولم يتمالك قائد الكتيبة السادسة على فرط تمسكه بالنظام العسكرى ، أن لا يعاتب السيد اللواء القائد للحملة :

— إذا كان هذا هو الوضع يا سيدى القائد ، فعلى أى أساس صدر لنا الأمر بالاستيلاء عليها فى خلال ٢٤ ساعة .

— أوامر القاهرة .

— ولكن تنفيذ هذا الأمر لا يعنى سوى الانتحار ، فهل هذا هو المطلوب .

ولم يستطع القائد العام تحت وقع نظرات بهاء عبد القادر الصارمة

النارية ، ألا أن يتصل لاسلكياً بوزارة الدفاع فى القاهرة ، رغم علمه بحساسيتها فى مناقشة أوامرها .

وراح يبصر القادة العظام فى القاهرة بحقائق الوقف فيما يتصل بمستعمرة جوليس .

وجاء الرد أخيراً من القاهرة بإرجاء الاستيلاء على المستعمرة حتى تتم الترتيبات والاستعدادات العسكرية اللازمة لذلك .

* * *

نظر البكباشى رئيس الكتيبة السادسة وهم فى طريق العودة إلى مقر الكتيبة ، إلى مرافقه وأركان حربه ، هذا العملاق الأسمر ، وراح يفكر فى شأنه ، إن الكتيبة السادسة مدينة لهذا الضابط الشاب بإنقاذها من مذبحة محققة . أتكون هذه هى ثمرة هذه الدراسات الجديدة فيما أطلقوا عليه اسم كلية أركان الحرب ؟

ويهز قائد الكتيبة رأسه فى شك ، إنها ليست مسألة تعاليم أو دروس . إن المسألة موهبة . . . إنه لا يمكن إلا أن يكون شاباً موهوباً ، سوف يكتب ذلك عنه فى تقريره السرى . وبينما كان قائد الكتيبة يجتر هذه الأفكار فى رأسه ، كان مرافقه العملاق الأسمر الموهوب يجتر أفكاراً من نوع آخر . . . كيف هبط سلم بيته يوم ١٦ مايو وهو يقفز من شدة الفرح ويردد بينه وبين نفسه ، إنها الحرب . . . الحرب أخيراً التى طالما تاق لها وتمناها لتكون ميداناً لإظهار فنه وقدرته ، ولتكون فرصة لتحقيق كل ما عاش يحلم به طول حياته وهو أن يجعل من جيش مصر القوة التى تحرر شعبها المضطهد المغلوب على أمره .

ألا ما أبعد الشقة بين آماله فى هذا اليوم التاريخى ، وبين ما يحس به الآن من خيبة أمل وأحزان وألم .

أيمكن أن ينسى أن فرحه بإعلان الحرب ، لم يدم أكثر من بضع ساعات ريثما وصل إلى العريش ليلحق بكتيبته وهو يتأجج بالحماسة والرغبة فى القتال والنصر ، فلا يكاد يصل إلى محطة العريش حتى لا يجد أحداً فى انتظاره وانتظار أمثاله من الضباط ليوجههم إلى فرقهم ، بل إنه لم يجد أحداً ليسأله عن مكان هـذه الـكتيبة . وبدلا من ذلك فقد وجد بعض الضباط يهيمون بحثاً عن الطعام ، فأشركهم فيما كان لا يزال لديه من طعام حمله معه من القاهرة .

وبدأت صور المهزلة أو بالأحرى المأساة التى عاناها فى فلسطين تتداعى فى ذاكرته ، والعربة الجيب تقطع طريقها فى صمت وحذر نحو مقر الـكتيبة السادسة .

البلاغات الـكاذبة — الانتصارات المزعومة — المعلومات المضطربة المشوشة — قلة الذخائر — الأسلحة الفاسدة — حفلات القاهرة الصاخبة — تدخل مجلس الأمن — فرض الهدنة — انهيال الإمدادات على إسرائيل — مقتل برنادوت كبير المشرفين على الهدنة .

وزفر بهاء زفرة حرى ، وقد وصلت به الذكريات إلى هذا المدى .

وسمع فجأة صوت طلق نارى فى حلـكة الليل ، وتوقفت العربة الجيب تلقائياً ، فى نفس اللحظة التى أحس بهاء بشىء غريب فى صدره . وخطر له خاطر عابر ، أيمكن أن يكون قد أصيب ؟ أتكون رصاصة قد أصابته وهو

لا يحس الآن من أمرها شيئاً ؟ إن كثيرين ممن أصيبوا قد حدثوه بمثل ذلك وأن المصاب لا يحس شيئاً .

وقطع على بهاء خواطره الشاردة ، صوت رفيقه القائد يقول فى ارتباك :

— ما هذا الشىء الذى سال على يدى .. أتكون قد جرحت يا بهاء .. أم أن هذا الدم منى أنا .

وكان ذلك كافياً ليدرك بهاء ، أنه هو الذى أصيب وأن الدم بدأ يتفجر من صدره ويلوث سترته العسكرية بالدماء .

وهتف القائد بالسائق :

— ما هى أقرب مستشفى ميدان .

— إنها المجدل يا سيدى .

— إذن أسرع بنا إليها ... أسرع .

وبينما كان القائد يطمئنه ويشجعه والسيارة تنطلق بهما نحو المستشفى لإسعافه ، لم يستطع بهاء أن يقاوم خواطره :

— أتكون هذه هى النهاية ؟ أكان كل هذا الذى يدور فى نفسه منذ صباه ، من خطط وآمال هو مجرد أوهام وأحلام ؟ هل قدر له أن ينضم إلى موكب الشهداء الذين سقطوا فى الطريق ، ولا يزال الطريق بغير نهاية ؟

— ٢ —

أفاق بهاء عبد القادر فى الصباح بعد زوال أثر المخدر الذى أعطى له ، ليجد الدكتور عرفان الذى قام بعملية إسعافه يطمئنه بأن جرحه لم يكن خطيراً بالصورة التى بدا عليها لأول وهلة ، فهو لم يحدث بسبب رصاصة ، بل بغلاف الرصاصة .

وقدم الطبيب غلاف رصاصة ملوث بالدم وقال له وسط دهشة بهاء :

— إن الرصاصة قد أطلقت عليك فيما يبدو من مسافة قريبة جداً ، بحيث ارتطم غلاف الرصاصة بالسيارة وهى مسرعة فزاد ذلك فى قوتها ، وتغير اتجاه الغلاف فاندفع نحو صدرك بقوة فأحدث هذا الجرح الكبير .

وأعادت هذه الكلمات إلى بهاء كل تنبهه ووعيه ، وبدأ يحس بالنشاط يسرى فى أوصاله .. وإحساسه بالقدرة على التحكم فى كل عضلاته وأطرافه ، فهم جالساً وقال للطبيب المعالج .

— هل معنى ذلك أننى أستطيع أن ألحق بكتيبتى على الفور ؟

— طبعاً ولكن قائد الكتيبة أوصانا أن نهيىء لك أطول مدة ممكنة من الراحة .

— إن راحتى أن أكون على رأس كتيبتى .

— على أية حال لا مناص لك من تمضية هذا اليوم فى ضيافتنا لنطمئن على سير الأمور ، وأن حرارتك لن ترتفع .

واستسلم بهاء عبد القادر على مضض .

* * *

جلس الصاغ عبد القادر فى ميس الضباط الناقهين فى المساء يستمتع بهذا الكوب من الشاى الساخن الذى قدم إليه وقطع البسكويت ، ولكن استمتاعه فى الحقيقة لم يكن بسبب هذا الشاى الساخن بقدر ما كان لتتبعه هذا الحوار الشائق الذى كان يدور أمامه بين هـذه الدكتورة التى طالما سمع عنها وسمع عن شجاعتها وتفانيها ، وكيف تخف دائماً إلى نجدة المصابين فى أحرج الأماكن والأوقات ، وبين زميلها الدكتور عرفان الذى أشرف على علاجه .

وكان عرفان يعلن سخطه على تورط مصر فى هذه المغامرة التى لم تعد عليها بغير الخسران فى المال والرجال والسمعة .. أى عار أن لا تقدر مصر ومعها خمس دول عربية أخرى على حفنة من اليهود ..

واشتد انفعال الدكتور عرفان وهو يقول لفاطمة :

— أراضية أنت عن الهزائم التى منينا بها ، لقد قال لى بعض الضباط الذين عالجتهم ، أن فرض الهدنة جاء بمثابة إنقاذ لنا ، فلولا ذلك لانكشفنا .

وردت عليه فاطمة فى حماسة ، وقد جعل النقاش الحار وجنتيها تتوهجان بالحمرة وعينيها تلمعان :

— إننى أعرف هذا الذى تقول به ، بل وأعرف أكثر منه ، لقد هيأت لى فرصة تطوعى أن ألمس بيدى مدى الفساد الذى تردت فيه البلاد ، والعفن الذى دب إلى الرؤوس الكبيرة فى بلادنا .

ولقد أحسست بهول المأساة التى نعانيها بمجرد مباشرتى العمل فى اليوم الأول ، لطالما حدثتك عن هؤلاء الجرحى والمشوهين من أبنائنا الضباط

والجنود الذين أصيبوا لا بقنابل الأعداء أو رصاصهم ، ولكن نتيجة ذخيرتنا الفاسدة وانطلاق الرصاص والقنابل فى مطلقيها .

إن كل إنسان قد أصبح يعرف الآن أن دخول الجيش فى فلسطين لم يسبقه أى إعداد ، وأن الأمر قد صدر به للقوة المرابطة فى العريش من جلالة الملك بدون استشارة حكومته ، التى سارعت بالموافقة على هذا القرار . ولذلك فقد تكبدنا الكثير من الخسائر لجهلنا بقوة المستعمرات اليهودية ومدى تحصيناتها . ولكن كارثتنا الكبرى جاءت من الملك عبد الله ملك الأردن وخيانته وتآمره مع الصهيونيين ..

وصاح عرفان فى انتصار :

— الحمد الله .. لقد سلمت أخيراً .. فيم أذن كانت مناقشتك ؟

— لا لم أسلم .. إننى أقول لك ذلك كله لتعرف أننى لست جاهلة بسير الأمور . ومع ذلك فأنا ما زلت شديدة التفاؤل بمستقبلنا ، وأن بلادنا قد استفادت من هذه التجربة الجديدة والمحنة ، وأنها ستكون أشد قوة وعزماً بعدها مما كانت قبلها . إننا نسير فى الطريق .. حقاً إننا نتعثر .. ولكننا نسير .

لأول مرة فى حياة بلادنا بعد الاحتلال يقف رئيس حكومة مصرية فى مجلس الأمن ليقول للانجليز إنهم قراصنة معتدون ، ويصرخ فى وجههم على ملأ من الدنيا كلها .. أخرجوا من بلادنا أيها القراصنة .. ثم يبقى بعد ذلك على كرسى الوزارة .

— أو لم يقتل ؟

وأسرعت فاطمة تقول :

— هذه مسألة أخرى .. إنكم تعرفون لماذا قتل .

ومضت فى حديثها الأول :

— ولأول مرة يتحرك جيش باسم مصر ليحارب من أجل الكيان الفلسطينى والعربى بإرادة مصر وشعب مصر ، لا بطلب من الانجليز أو توجيه منهم. وبعد أن كان جيشنا لا عمل له إلا الاحتفالات والاستعراضات التى تجرى الخزينة ، قد تحول لأول مرة إلى قوة محاربة تتمرس بمشقات القتال .

وأنا أقول لكم إن ذلك كله لا يمكن إلا أن يكون بشيراً بقرب انبثاق قوة جديدة من شعبنا .

إنى أسلم أننا منينا حتى الآن بالهزيمة ، ولكن حياة الشعوب تصوغها الهزائم بأكثر مما تصوغها الانتصارات ، الهزيمة تحفزنا لمزيد من العمل والجهاد والكفاح ، أما النصر فيبطر ويحجب النقائص والعيوب والمفاسد .

لا يا أصدقائى وزملائى ، إنى لست متشائمة ، بل أنا جد متفائلة .. إنى أحس بفرح غريب ، إنى قوية الإيمان أن الظلمات التى غشيتنا فى طريقها إلى الزوال .. وأن الشمس توشك أن تشرق علينا من خلال الظلام والغيوم .

ولم يتمالك بهاء نفسه من أن يصفق ، فى الوقت الذى كان الذهول لكلمات فاطمة قد ران على جميع الحاضرين ..

والتفتت فاطمة ، والتقت عينـاها بعينى بهاء عبد القـادر وابتسمت له شاكرة محيية ، وقبل أن يقول لهـا شيئاً أو تضيف شيئاً جديداً فوجىء الجميع بانفجار قنبلة هزت أركان المستشفى ..

وتعالت صيحات فى الخارج .

وكانت فاطمة أول من تنبه لما حدث ، فأسرعت تعدو نحو الخارج ، بعد أن اختطفت فى طريقها حقيبة الإسعاف التى كانت تبقيها دائماً فى دهليز المستشفى لتأخذها كلما خفت لإسعاف أحد .

— إنها طائرة إسرائيلية .

— قذفت إحدى سيارات الهلال الأحمر .

— يظهر أن بالسيارة بعض الجرحى .

— لقد خفت لنجدتهم الدكتورة فاطمة .

— فاطمة .. دائماً الدكتورة فاطمة .

ودوى انفجار آخر أعنف من الانفجار السابق وأكثر قرباً ، وهرع الصاغ بهاء عبد القادر إلى خارج المستشفى وقد استبد به الغضب :

— ما الذى يجرى .. ماذا يحدث هنا ؟

وسمع صوت طائرة تبتعد .

— ألا من طائرة تردع المعتدين ؟

وساد المكان فجأة صمت رهيب ، وأحس كما لو كان الهواء قد توقف ،

بينما كان قلبه يخفق والكآبة تغمر نفسه . وسمع صوت أقدام تعدو فى الظلام وهى تهتف :

— الدكتور عرفان ... أين الدكتور عرفان ؟

ولم يلبث أن برز من الظلام جنديان من رجال الهلال الأحمر يحملان محفة ، وهما يحثان الخطى .

ووجد بهاء نفسه مشدوداً بقوة إلى الجسد المحمول فوق المحفة .. وهرع خلف الرجلين وهو فزع من أن يسأل عن الشخص الجريح .

وجاء الدكتور عرفان يهرع بمجرد دخول المحفة إلى المستشفى ، وكان الدم قد هرب من وجهه واتسعت حدقتا عينيه وهو يتمتم :

— مستحيل ... مستحيل لا يمكن ن تصابي يا فاطمة .. لا يمكن أن ينالك سوء . وأطرق بهاء برأسه وأغمض عينيه ، إنه لم يفاجأ بهذا الاسم لقد كان كيانه كله يحس بهذه النكبة .

وفتحت فاطمة عينيها ووقع نظرها أول ما وقع على بهاء عبد القادر ، وتقلصت شفتاها عن بسمة فاترة :

— لا تبتئسوا من أجلى ، إننى لاحقة بالأحبة . . خالد وصحبه ، قولوا لفوزى السيد أن لا يجزع .. نحن على الطريق .

وحاول عرفان الذى كان يقف مصعوقاً أن يفعل شيئاً ، ولكن كل شيء كان قد انتهى .

وهطلت دمعة ساخنة من عينى بهاء عبد القادر .

ولكن لا .. إنه لن يبكى .. ليست فاطمة أول الشهداء ولن تكون آخرهم .. ماذا يجدى البكاء .. شيء واحد هو الذى يجدى .. وقد انتوى أن يقوم به .. يجب أن يكون على رأس كتيبته .. لا توجد لديه دقيقة يضيعها .

ومسح دموعه بكم معطفه .. وبعد دقائق كان يذرع الطريق فى إحدى عربات الجيب التى جاءت لحمله إلى مقر كتيبته .

— ٣ —

وقف فوزى مذهولا جامداً يحدق فى بناء الكعبة دون أن يلفظ ببنت شفة ، أو يتحرك أدنى حركة . لم تكن هذه أول مرة يحج فيها ، ولكنه على خلاف عادته لم يندفع نحوها بمجرد وقوع بصره عليها مهللا ومكبراً .

أواثق هو أنه لا ينافق نفسه والناس ، إذ يجىء إلى الحج هذه المرة التماساً للسلوى والنسيان وتثبيت إيمانه ؟ أثمة حقيقة فى كل هذه المظاهر؟ أحقاً هناك إله عادل رحمن رحيم ، يدير الكون ويتقرب إليه بالمجىء إلى هذا المكان والدوران حول الكعبة وتقبيل الحجر الأسود ؟ أواثق هو أن ذلك كله ليس بقية من وثنية عربية قديمة ؟ وتجحظ عيناه ويشتد قلقه وتزداد قدماه تسمراً ، وقلبه بروداً ، وعقله تمرداً .

لماذا ماتت فاطمة ، لماذا أنطفأت حياتها ولما تتذوق السعادة يوما واحداً فى حياتها مع شدة إيمانها ، وفرط استقامتها ، وجهادها فى سبيل الله والحق.

ما الذى استفادته فلسطين من استشهادها واستشهاد المئات من أمثالها .. لقد ضاعت فلسطين . . ضاعت وشرد أهلها ، واحتلها اليهود . . اليهود أعداء الله والإنسانية ، الذين أصدروا البيانات يفخرون بما بقروا من بطون الحبالى ، وما ذبحوا من أطفال فى دير ياسين ، ومع ذلك فقد انتصروا .. انتصرت الفئة القليلة المستضعفة ،على الفئة الكثيرة من العرب. بضع عشرات من ألوف المقاتلين اليهود ، هزموا ستة جيوش عربية .. لماذا نصر الله اليهود وخذل العرب .. أهم الفئة المؤمنة .. والعرب هم الفئة الباغية ؟ لماذا .. لماذا ماتت فاطمة .. لماذا ضاعت فلسطين وشرد أهلها .

وتزداد قدما فوزى تشبثاً بالأرض ، وقلبه تحجراً ، وأطرافه برودة ، وعقله تمرداً .

وأمواج من الحجاج التى هرعت من كل فج عميق ، لا تكاد أبصارها تقع على الكعبة حتى تندفع نحوها ، محاولة أن تجرف فى طريقها فوزى ، ولكنه ظل صامداً فى مكانه لا يتزحزح .. إنه لن يتقدم ، لن يقرب الكعبة ، لقد كان سفهاً منه أن تصور أنه سيجد هنا السلوان .. وأنه سيعود إلى صوابه ، وستشفى جراحه. لقد تفجرت الجروح كأسوأ ما يكون التفجر ، وثار عقله كأعنف ما تكون الثورة .

إنه يجب أن يعود القهقرى .. إنه لن ينافق الله .. إذا كان الله موجوداً فهو يعلم خبيئة نفسه ، إن إيمانه عاد يتزعزع من جديد ، كما حدث له عقب مصرع خالد ، ولقد استطاعت فاطمة أن ترد له صوابه . . وها هى فاطمة قد لاقت مصرعها بدورها .. فمن الذى سيرده الآن إلى الصواب .

واختفى منظر الحرم المكى من نظره ، هذا البناء الرهيب المكسو بالسواد الذى طالما خلب لبه ، هذه الدوائر من المصابيح المتلئلئة ليلا ونهاراً اختفت. الجبال المحيطة بمكة غشاها الضباب .. لم يعد يرى شيئاً ، إلا ماضيه. عشرون سنة فيما أسماه دنيا الجهاد ، ما أكثر ما كتب وسود من صحائف المجلات إنها لتبلغ عشرات الآلاف عداً ، أما الكلمات التى كتبها أو تلفظ بها ، فهى تعد بالملايين ، ما أكثر ما سجن ، ما أكثر ما حوكم ، ما أكثر ما ضرب ، ما أكثر ما ذرع البلاد فى الدنيا شرقاً وغرباً ، ما أكثر ما شهد مصرع الشهداء من حوله ومن أحبائه . . فأى شىء قد تغير من حوله وأى شىء تبدل . ما هى الدنيا ، أهى شىء أكثر من ليل يعقبه

نهار ، وشتاء يعقبه صيف ، ورفع وخفض ومد وجزر وهدم وبناء . . ؟ ما الذى يتغير من حوله سوى الصور والأشباح ، دول تقوم وأخرى تسقط ، إمبراطوريات تتألف ، وأخرى تنحل ، طغاة يحكمون ، وطغاة يموتون ، والناس .. جموع الناس تشقى أبداً وتكدح أبداً وتداس بالأقدام أبداً .

أناس يخيل للناظرين أنهم غارقون فى السعادة ، وهم فى حضيض التعاسة والألم ، والكل يموتون . . الشقى والسعيد ، الظالم والمظلوم ، القاتل والمقتول ، القديس والمجرم ، الحاكم والمحكوم ، القمم تتحول إلى هوات سحيقة ، والهوات تنقلب إلى قمم .

ما هذه الحياة ، ما هى أسرارها ، ما هى غاياتها ، أهى تسير لهدف ، أفى سيرها حكمة ؟ لماذا جاء .. لماذا هو هنا الآن ، لماذا تمتلىء نفسه شعوراً بالإثم والغثيان والقلق ؟ لماذا يتصور أنه قتل فاطمة ودنسها قبل موتها ، وأنه جاء ليتوب ويستغفر .

ولكن من الذى قتل فاطمة ، ومن قبلها من الذى قتل خالد وقتل أزهار وقتل فؤاد ؟

بل من الذى قتل النقراشى والشيخ المهدى ، أهم هؤلاء البشر الذين ألقوا قنبلة أو صوبوا رصاصة أو طعنوا بخنجر ، أم خنقوا بحبل ، أم أن ذلك كله قد تم لتحقيق إرادة قوة عليا ، قوة خفية هى التى تحيي وتميت وتسوق البشر كل البشر ، وتهيمن على كل حركة يتحركونها ، وكل كلمة ينطقون بها ، لتحقيق أمر معين وغاية محددة ، ولكن لماذا ؟ لماذا كان ذلك كله ؟ أى نفع من ورائه .. ومن الذى سينتفع ؟

ما دام الله .. ما دامت هذه القوة الخالقة هي الـكمال المطلق المستغنى بنفسه عن كل شيء . . فما معنى الخلق . . ما معنى الوجود ؟ لماذا وجد ، لماذا يحيا الناس ويموتون ؟ لماذا يتألمون ويشقون ؟

لماذا نطحن هكذا ، لحساب من يتم الطحين ، وما الذى يفيـده الطحان ..

ويوشك رأس فوزى أن ينفجر ، ولا يعود قادراً على الوقوف .. فيجلس على الأرض ، أو بالأحرى يتهاوى ساقطاً نحو الأرض .

— أستاذ فوزى .. يا أستاذ فوزى .

ويرتجف بدن فوزى تحت وطأة هذا الصوت . . ويحس بوجدانه يعود إليه . . إن هذا الصوت ليس بغريب عليه ، إنه يعرف صاحبه . . ولـكن من هو .. ماذا يهم .. لماذا يكد رأسه الموجوع .. رأسه الذى يوشك أن ينفجر .

— أهكذا تتركنى فى يد المطوف ، وأنا الذى جئت أحيج معك لتكون أنت مطوفى ومرشدى ورائدى .

ونظر فوزى بعينين فارغتين من كل وعى إلى وجـه محدثه .. إنه يعرف هذا الوجه الذى يفيض بالبهاء ، لقد أراحه أن سمع صوته وأن رأى صورته .. إنه يرى فيه حبل النجاة الذى جاء لإنقاذه من الهوة التى يجد نفسه فيها على أبواب الـكعبة .. ولـكن من هو .. من هو .. ما الذى حل به وأصابه ؟

— لماذا تجلس هكذا .. قلبى يحدثنى أنك لم تطف بعد ؟ فإذا كان الأمر

كذلك . فما أسعدنى أن أطوف معك .. أطوف إلى جوارك .

وهتف فوزى :

— شكرى !!

آه لقد تذكر الآن ، لقد عاوده الوعى ، إنه صاحبه وحبيبه شكرى . إنه رفيقه فى هذه الرحلة بل إنه منظمها ومقترحها ، ليساعده على اجتياز الأزمة التى ألمت به بعد وفاة فاطمة .

إن كل شىء يبدو الآن بوضوح فى رأسه ، إنه الآن فى مكة وقد جاءها حاجاً ، وقد دخل من باب السلام كما تقضى المناسك ليبدأ طواف القدوم ، ثم غشيته الغواشى فجمد فى مكانه ولم يستطع أن يتحرك .

— أستاذ فوزى .. مالك لا ترد على ؟

— آه نعم .. نعم .. لم أطف بعد .. هيا بنا لنطوف .

اللهم إنك أنت السلام ومنك السلام فأحينا ربنا بالسلام . اللهم زد هذا البيت تشريفاً وتعظيما ومهابة وأمناً . باسم الله .. الله أكبر .

* * *

وغرق فوزى من جديد ، وهو يطوف حول الكعبة طواف القدوم ، فى تأملاته وخواطره ، وانفصل من جديد عن صاحبه الذى كان يعيد الطواف إلى جواره :

— لا بد أن يكون الله الآن غاضباً على ، وأنا ألحد فى بيته ، وأنا أتشكك فى حكمته . ولكن أصحيح أن باستطاعة أى إنسان أن يغضب

الله ؟! إن الله لا يمكن أن يغضب أبداً بهذا المعنى الذى نفهمه من كلمة الغضب إن هى إلا كلمة .. كلمة فحسب من صنعنا نحن البشر . إن الغضب هو من صفاتنا نحن ، هو من خصائصنا نحن البشر الضعفاء . فنحن نغضب لأننا نؤذى ، لأننا نهدد ، أما هو .. أما أنت .. أنت يا رب الكون القوى القادر العزيز المتعال .. يا من لا يصل هذا الكون كله بإزاء عظموتك إلى جناح بعوضة ، أيمكنك أن تغضب ؟ وتغضب على من ؟ على الناس الذين هم من صنعك وخلقتك ؟ هذه الأفكار التى تراودنى الآن ، هذا العقل الذى يناوشنى من الذى صنعه على هذه الصورة ، من الذى جهزه بهذه القدرة على التفكير ، على الشك ، أليس هو أنت صانع ذلك كله .

ويقطع على فوزى تأمله من حين لآخر ضجيج الحجاج من حوله وهم يكبرون ويتزاحمون لتقبيل الحجر الأسود ، فلا يتمالك نفسه من الهتاف كما يهتفون مشيراً للحجر الأسود :

— الله أكبر .

ولا يكاد يجتاز الحجر الأسود مبتدئاً الطوفة التالية، لكى يغرق من جديد فى تأملاته :

— ما هى طرقك وغايتك ، ما هى حكمتك ، لماذا لا نستطيع أن نستشفها ، لماذا سقطت فلسطين بأيدى اليهود .. ودعنى الآن من فلسطين لماذا ماتت فاطمة ، لماذا حلت بينى وبين زواجها ، ولماذا قبل ذلك دفعتنى إلى حبها .. لماذا لم تمتنى أو تمتها قبل ذلك .. ألكى أظل طول عمرى أحس بالقهر والمرارة ، لأحس بأنى دنست هذا الملاك الطاهر ؟ والآن ما هو سبيلى للتطهر وهدوء النفس .. كيف أحصل عليهما كيف أحصل عليهما ؟

يقيناً إن هذا الطواف .. هذا الدوران حول البنـاء لا يحدث فى نفسى أى رد فعل .. فهل من أمل .. هل من رجاء ؟!

وتعلق فوزى بباب الـكعبـة كما لم يفعل ذلك من قبل فى أى من حجاته السابقة . وكان يسخر ممن يفعلون ذلك . ولصق وجهه بأحجار الـكعبة ، وأحس بها باردة ، وأنعشه هذا الإحساس فقد كان وجهه ملتهباً . وامتلأ شعوراً بالذنب والذل والحقارة والمرض .. إنه مريض .. مريض فهل من شفاء .. هل من توبة .

ومن الطواف حول الـكعبة إلى السعى بين الصفا والمروة . وإذ كان صاحبه شكرى أصبح منهكا ، فقد اكتفى بسعيه الأول مع المطوف .. تاركا فوزى يسعى بمفرده .. وحيداً عن جموع الحجاج الذين يسعون خلف مطوفهم .

ما أقذر المسعى !! إن روث البهائم بل وغير البهائم تقع عليها العين هنا وهناك .. وقد كان فوزى يسعى كما هى عادته حافى القدمين ، ولـكنه لم يعد يتقزز ، لم يعد يحس بشىء .

كم يتمنى لو أسعفته دموعه التى طالما تحدرت من عينيه لأتفه الانفعالات . ما باله الآن لا يبكى .. إنه يريد أن يبكى .. أو لم يكن يخجل من نفسـه لإفراطه فى البكاء كلما تأثر .. فلماذا لا يبكى .. لماذا لا يبكى ؟ .. آه لو أنه استطاع أن يبكى .

وانتهى فوزى من سعيه بين الصفا والمروة ، وصعوده على هذا المرتفع حيناً وذاك المرتفع حيناً آخر ، وهو لا يحس بغير الخواء .. الخواء فى كل شىء . إلا عند ما يحوطه شكرى بحبه وحنانه .

— ٤ —

وجاء أخيراً يوم الحج الأكبر .. يوم الوقوف على عرفات. إن هذه الحشود من الحجاج ليست جديدة ، لقد شهدها من قبل أكثر من مرة ، وطالما عجب لهذا السر الرهيب الذى جاء بكل هذه المئات من الألوف من أنحاء العالمين ، على متن السفن والطائرات ، وفوق السيارات . وكانوا بالأمس يجيئون على الخيل والحمير والإبل والأقدام . . بل إن عشرات الألوف لا يزالون يجيئون سيراً على الأقدام قاطعين ألوف الأميال..ليقفوا هنا .. هنا تحت هذه الشمس المحرقة ، وسط الجبال المجدبة التماساً لرضوان الله .

أمراء وملوك ، زعماء وقادة ، أغنياء وفقراء ، علماء وجهلة ، مشهورون ومغمورون ، أبرار وأشرار ، كلهم يقفون .. يقفون فى زى واحد . هذه القطعة من القماش تستر عوراتهم ، وقطعة أخرى لحماية أكتافهم وأجسادهم من جحيم هذه الشمس . . وقد زالت الفوارق ، وقد اختلط الحابل والنابل . . ولم يبق سوى بشر . . بشر يتوسلون إلى هذه القوة الخفية أن تغفر لهم ، وأن ترضى عنهم وتعينهم على قضاء حوائجهم .

أيمكن أن يكون ذلك كله وهما وخداعاً . . أليس لكل هذه الملايين الذين جاؤا ويجيئون إلى هذا الموقف العظيم وسط الجبال المقفرة عقول .. أهم كلهم على ضلالة .. أهم كلهم فى غفلة .. أهم كلهم مخدوعون ؟

ولم يتمالك فوزى من أن يصرخ :

— يا رب .. يا إلهى، يا من تسمعنى الآن وتعرف ما يدور فى نفسى ،

يا من تتوسل إليك هذه الملايين ، لا تحجب نورك عنى ، بدد الظلمات من نفسى ، أطرد الوساوس والهواجس من قلبى . . نوراً يا رب .. نوراً يا رب .. غفرانك يا رب .

ولم يحس فوزى بغير الخواء يتردد فى جوانب نفسه ، والحر اللافح يشوى جسده ، والدقائق والساعات .. ساعات اليوم الكبير تمضى متثاقلة . ويرى فوزى جموع الحجاج وهى تسير خلف المطوفين كأنها القطعان ، تردد ما تلقن من أدعية ترديد الببغاوات .

ودار الفلك ، ومالت الشمس نحو الغروب ، واقترب قرصها من الأفق . عما قليل تغرب الشمس ، وينتهى اليوم الكبير ، يوم الحج ، ولا يبقى أمام الحجاج إلا أن ينفروا .. ينفروا نحو المزدلفة ، نحو المشعر الحرام ، ليقضوا ليلتهم هناك . ويستأنفوا السير بعد ذلك إلى منى ، فمكة ، وتنتهى مناسك الحج .. ويعود كل حاج إلى بلده وقد روى وارتوى . ارتوى من التعبد والنسك ، وامتلأ قلبه إحساساً بالطهارة وغفران الذنب ، أما هو .. أما فوزى فوا أسفاه ، سيعود كما جاء بهذا الخواء .. والضياع .

وأحس فوزى بشىء بارد لطيف يصطدم بجبهته إذا هو محدق نحو السماء ، وصرخ هاتفاً :

— ما هذا ؟

ولم يجد من يرد سؤاله ، ولكن الجسم البارد اللطيف اصطدم بجبهته مرة ثانية ، ولم يخطئه هذه المرة . . إنها قطرة ماء . ونظر فوزى حوله بحثاً عن مصدر الماء .. من الذى يرش ماء .. من أين جاءت هذه القطرة من الماء ، وامتدت أصابعه بحركة لا شعورية تتحسس عينيه أيكون قد بكى

أخيراً ، ولـكن القطرات راحت تتوالى واحدةعلى وجنته وأخرى على يده ، وأخرى .. وأخرى .. وأخرى. لم يبق الآن لديه شك .. إن السماء تمطر ولـكن كيف ؟! أممكن هذا ؟ أمتصور هذا ، والسماء بـكل هذا الصفاء ، وفى الصيف ، ونظر فوزىإلى قرص الشمس الأحمرالملتهب الذى كان ينحدر بسرعة نحو المغيب .. كيف ينزل المطر ؟ !

ولـكنه كان مطراً.

وكل من حوله كان يردد بشتى لغات العالم :

— مطر .. مطر

وجاء شكرى يهرع إلى فوزى وقد استضاء وجهه بالفرح والنور:

— مطر .. مطر يا أستاذ فوزى ، إنها رحمة الله بعباده ، يقولون إن معنى ذلك أن الله قد استجاب . . قد غفر الذنوب كلها . . قد شمل البشر برحمته .

ووجد فوزى نفسه يجهش بالبكاء لغير سبب،وتيارات تتدفق إلى داخل نفسه ، ويحس كما لو كان النور قد أشرق فى نفسه ، فيعانق شكرى ويقول وهو يشهق بالبكاء :

— شكرى .. شكرى يا أعز الأحباب ، لم أعد أحس بالضياع ، لم أعد أتخبط فى الظلام .. لست أعرف ماذا حدث .. ولـكننى أصبحت أبصر طريقى . إن فاطمة فى الجنة مع خالد ، مع القديسين والشهداء ، أما أنا فأرجو أن يـكون قد غفر لى .

— ومن أجل ذلك جئت بك ، الحمد لله .. الحمد لله .

الفصل الخامس

— ١ —

وقف الملك فاروق كتلة عملاقة من الشحم واللحم يكاد يحس الناظر إليه أنه لولا الثوب الذى يلبسه لانفرط عقد هذه الكتلة ، وراح ينظر من وراء منظاره الأسود إلى رئيس حكومته الجديد زعيم الأغلبية الذى ظل يحاربه خمس سنوات كاملة ، لم يدع فيها وسيلة مشروعة أو غير مشروعة للقضاء عليه وتدميره ، حتى بلغ به الأمر إلى أن أوعز إلى من ينسف داره ، ومع ذلك فلا تكاد تعطى للشعب فرصة انتخابات حرة ، حتى يرفعه إلى كرسى الوزارة . وها هو ذا يقف أمامه مزهواً بانتصاره ، والابتسامة البلهاء تترقرق على شفتيه . وعيناه الزائغتان تلمعان . وقطع رئيس الحكومة على فاروق هواجسه وخواطره وقال بصوته الحاد :

— خيراً إن شاء الله يا مولاى ... أنا رهن إشارتكم ، إنه لتشريف كبير أن تتفضلوا باستدعائى .

— ومن أين يجىء الخير يا رفعة الباشا .

وامتقع وجه رئيس الحكومة ، وإن ظلت الابتسامة الساذجة على شفتيه ، وازدادت عيناه الزائغتان زوغاناً :

— لا قدر الله ولا كان ، أن يحدث ما يكدر خاطر جلالتكم . أولم تتصاف يا مولاى ومنحتنى علامة الرضا ، وسمحت لى أن أقبل يدك لنعفى على آثار

الماضى، فما الذى جد ... ما الذى حدث ؟ إنا لم نشرع فى العمل بعد حتى يقع منا أو من أحد الوزراء ما يكدر خاطر مولاى .

— المسألة يا باشا هى مسألة التهاون مع فوزى السيد ، الذى حول جماعته إلى حزب اشتراكى . أنا لا أتصور يا رفعة البـــاشا ، كيف يسمح فى بلد نظامها ملكى بجماعة تنادى بإلغاء الرتب والألقاب ، حتى يصبح كل الناس سواء ... الأمير كالعربجى . وتحارب الملكية الزراعية ويدعى إلى تحديدها بخمسين فداناً ، وتأميم مصادر الإنتاج . وأنا أعلم أنهم شيوعيون مستترون خلف كلمة الاشتراكية، وليس أدل على ذلك من تغييرهم شعارهم القديم من الله والوطن والملك ، فجعلوه «الله والشعب» معنى ذلك يا باشا أنهم خلعونى ، لا يعترفون بوجودى ... إننى لا أكاد أصدق .. أفى حلم أنا أم فى يقظة .. إلى أى طريق تسوقنا حكومتك ... إلى الشيوعية أم إلى الفوضى .

— يا مولاى لقد تكلمنا فى هذا الموضوع من قبل ، لقد جئنا إلى الحكم والحزب الاشتراكى موجود بالفعل ، وهو ليس إلا مجرد لافتة .. لا وجود للحزب الاشتراكى ، لقد سقط فوزى السيد فى الانتخابات ... ولم ينجح أى أحد من جماعته ، الأمة كلها تقف صفاً واحداً خلف قيادتى .

— كيف تقول إنه لم ينجح من حزبه أحد ، وشكرى ... أولم ينجح شكرى تحت راية الاشتراكية ونشرت الصحف كلهـا أنه أصبح للحزب الاشتراكى نائب فى البرلمان .

— هذه مسألة لا أحاسب عليها أنا يا مولاى .. جلالتكم تعلمون أننى لم أكن أنا الذى أجريت الانتخابات .. نحن لم نأت إلى الحكم إلا بعد تمام الانتخابات وحصولنا على الأغلبية التى تقرب من الإجماع .

— ماعلينا .. ماعلينا . وماهى حكاية وزيرك شمس الدين عندما يقول فى مجلس النواب رداً على إعلان شكرى لاشتراكيته ، إنه لن يكون النائب الاشتراكى الوحيد ، فإن المائتين وعشرين نائباً من حزب الأغلبية كلهم اشتراكيون .

وافتر ثغر رئيس الحكومة ، ولم يلبث أن ضحك مقهقهاً ، على أنه تذكر فجأة أنه فى حضرة المليك ، فكف عن قهقهته وإن ازدادت أسارير وجهه انفراجاً :

— عظيم .. عظيم .. يظهر أن جلالة مولانا يتابع مناقشات مجلس النواب باهتمام ، إن هذا شرف عظيم لمجلس النواب ، اسمح لى يا مولاى أن أنقل هذه التحية لنواب الأمة .

— يا رفعة الباشا أنت لم ترد على سؤالى كيف يكون نواب حزب الأغلبية اشتراكيين .. هل تحولت مصر إلى دولة شيوعية وأنا لا أعرف .. قل لى يا باشا .. هل تنوون إعلان الجمهورية ؟

— معاذ الله يا مولاى .. معاذ الله يا مولاى ، هذه دسيسة طالما رمى بها حزبنا . مع أننا أخلص أبناء الأمة للعرش .

— إذن فسر لى معنى قول شمس الدين أن جميع نواب المجلس اشتراكيون .

وعاد رئيس الحكومة إلى ابتسامته العريضة .

— يا مولاى هذه إحدى صيغ الخطابة والمناورات البرلمانية ، إن هذا

هو من صميم عملنا وصناعتنا التى تمرسنا بها طول السنين ... لقد سألت أنا نفسى شمس الدين عن هـذه الكلمة وعاتبته عليها فرد على رداً مقنعاً اقتنعت به ... لقد أراد بهذه العبارة أن يفوت على شكرى فرصة التألق واللمعان فى المجلس باعتباره نائباً تقدمياً اشتراكياً ، فقال له إن المجلس كله لا يقل تقدمية عنه... إن المجلس كله اشتراكى .

إن هذا نوع من المناورات السياسية التى تقوم على فكرة أخذ الكرة من الخصم ، جلالتكم شباب تعرفون لعب الكرة وقواعدها ... إن عبارة شمس الدين قد أريد بها أخذ الكرة من الخصم .

وعاد رئيس الحكومة يقهقه فى غير تحفظ هذه المرة بينما مضى يقول :

— إن قيادة الجماهير ، والأساليب البرلمانية ، هو فننا الذى لا يحذقه غيرنا ، لقد شابت رؤوسنا يا مولاى فى المناورات البرلمانية .

— وهل تعتبر يا باشا أن التباهى بالاشتراكية ، هو مجرد مناورة . إننا لانلعب كرة يا باشا ، ليست هذه مباراة بين الأهلى والزمالك ، إنك تلعب بالنار وليس بالكرة . البلد توشك أن تنقلب إلى فوضى ، والحركات الهدامة ، والتيارات الخبيثة ، أصبحت تغمرها من كل مكان . ولم نكد نخلص من الدعوة المحمدية حتى جاءت حكومتك تنشر الشيوعية .

— معاذ الله يا مولاى . . معاذ الله . إننى لست مسئولا عن أعمال الحكومات السابقة ، لقد كانت هى التى أوصلت البلاد إلى حالة الفوضى التى يتحدث عنها مولاى .. ولكن مذ عادت الأمور إلى نصابها ، والحقوق إلى أهلها ، وجاءت حكومة الشعب إلى الحكم ، فيجب أن يطمئن بال مولاى .. سوف يصبح كل شىء على ما يرام .

ودار فاروق حول مكتبه ، وفتح أحد أدراجه وأخرج منه مظروفاً ، وقال فى عصبية وحنق :

— وهل من المناورات والخطط أن تسمح للمجرمين بالتطاول على العرش ؟

واكفهر وجه رئيس الحكومة وأسرع يقول :

— لا عاش يا مولاى من يتطاول على العرش . . إننا نفديه بالمهج والأرواح .

وأخرج الملك مجموعة من المقالات من داخل المظروف ولوح بها لرئيس حكومته :

— وما رأيك فى هذا ؟

— أى شىء هذا يا مولاى ؟

— ألا تعرفها . . . ؟ الاشتراكية . . . مجلة سى فوزى كما أصبحوا يسمونها .

— يا مولاى إن مقامكم العالى ، أسمى من أن يضيع وقته فى مطالعة مثل هذه الوريقات الحقيرة . لقد اغتبطت بمتابعتكم لمناقشات مجلس النواب نعم . . أما مطالعة مثل هذه الوريقات الصفراء . . فلا .

— وهل قرأت ما ينشر فى هذه الوريقات الصفراء ؟

— أنا يا مولاى لا يمكن أن أضيع وقتى فى مطالعة عبث أطفال وصبية .

وضرب الملك بقبضة يده على مكتبه فى شدة وحنق وصاح فى وجه رئيس حكومته :

— هذا الذى تسميه عبث أطفال ، هو طعن فىّ وتهجم على مقامى وعيب فى ذاتى ، يكتب ويطبع وينشر على رؤوس الأشهاد .

— محال يا مولاى أن تسمح حكومة الشعب لكائن من كان أن يطعن فى جلالتكم ، إن ذاتكم مصونة لا تمس . إن محكمة النقض قد استقرت فى أحكامها على أن التعرض الذات الملكية عن قرب أو بعد تصريحاً أو تلميحاً ، بطريق مباشر او غير مباشر هو عيب فى الذات المصونة يستوجب العقاب .

— اسمع يا رفعة الباشا ، لقد اتفقنا على أن نفتح صفحة جديدة فى العلاقات ، ولقد سلمتك زمام الحكم ، وكنت أتصور أنك لن تصدع رأسى بمباحثك القانونية والدستورية التى طالما عكرت الجو بيننا ، وأنك ستبادر للعمل كلما طلبت منك ذلك .

— وأنا رهن الإشارة ، أنا لا يمكن إلا أن أفى بعهودى . . إن الله سبحانه وتعالى يقول « وأوفوا بالعهد إن العهد كان مسئولا » .

— إذن اسمع يا سيدى هذا المقال :

لا بد من إيقاف محمد حيدر عن منصبه ومحاكمته .

وتوقف الملك عن المطالعة ونظر إلى رئيس الحكومة شذراً وقال :

ومن هو حيدر من فضلك ، أليس هو كبير الياوران ؟ أليس هو وزير الدفاع ، ما معنى الهجوم على كبير الياوران ، معناه هجوم صريح علىّ . .

هل تتصور يا رئيس الحكومة أنه يتهمنى أننى كنت أتاجر فى الأسلحة ، وأننى مسئول عن فساد هذه الأسلحة ، ومسئول عن نكبة فلسطين . . أنا مسئول عن نكبة فلسطين ؟

— معاذ الله يامولاى ، كبرت كلة تخرج من أفواههم إن يقولون إلا كذباً . أرجو يامولاى أن تسلمنى هذه المجلات ، وسوف أحيلها على الفور إلى النيابة لاتخاذ اللازم بشأنها . إن أحكام محكمة النقض صريحة ، أن العيب فى الذات الملكية يتحقق بالتصريح أو بالتلميح ، بطريق مباشر أو غير مباشر عن قرب أو . . .

وصرخ الملك مقاطعاً إياه :

— كفى .. كفى . لاتصدع رأسى بذكر النيابة ومحكمة النقض ، أنا أريد إجراءات حاسمة أريد إغلاق هذه الجريدة ، وكل جريدة تحمل اسم الإشتراكية . وأريد حل هذا الحزب الإشتراكى ، ومحاكمة كل أعضائه بما فيهم هذا النائب شكرى .

وابتسم رئيس الحكومة فى أناة وصبر ، ثم ظهر الجد على وجهه ، وراح يقول فى تمهل وهو يضغط على مخارج الحروف :

— المسألة يامولاى أن حكومة الشعب لايمكن أن تحكم إلا من خلال القانون ، لابد من عرض الأمر على النيابة ، واتخاذ إجراءات القمع من خلال القانون ، وأنا أعد جلالتكم أنكم ستسمعون كل مايطيب خاطركم .

— لن يطيب لى خاطر إلا بشنقهم .. شنق فوزى السيد هذا ، وكل جماعته . . إسمع أترى الشنق كثيراً على كاتب هذا المقال . .

« حيدر ، كريم ثابت ، بوللى ، النقيب وأمثالهم يجب تطهير أداة الحكم من هذه العصابة » .

أتسمع ياباشا ،حاشيتى عصابة وأنا رئيس العصابة ، ثم تقول لى النيابة ومحكمة النقض ، ماهو حكم القانون فيمن يصف الملك بأنه رئيس عصابة ؟

واكفهر وجه رئيس الحكومة ، ومد يده ليأخذ من جلالة الملك المظروف :

— أرجوك يامولاى أن تعطينى هذا المظروف لإجراء اللازم فوراً .

— ليس قبل أن تقرأ هذه المقالة أمامى .

— سوف أقرأها يامولاى بعد عودتى إلى المكتب .

— بل أمامى هنا ، حتى لا يكون لك عذر بعد ذلك ، وتعرف إلى أى مدى وصل الاعتداء على والتهجم على عرشى . . إقرأ هذه العبارات المؤشر تحتها بالأحمر .

وراح رئيس الحكومة يطالع بصوت عال منغم :

— لقد ألف حسنين رئيس الديوان الراحل جماعة تسمى نفسها حزب الملك ، وهم من طراز غريب ، أحسن من فيهم شبان أحداث لم يتمرسوابعد بتجارب الحياة . وسوادهم الأعظم أفاقون مغامرون من العاملين فى الظلام . وبدأنا نرى مجموعة غريبة تنطوى أحياناً على أسماء بعض الراقصات والمغنيات ، وبدأنا نرى أعلام المجون واللهو والقمار بصفة خاصة ممن يترددون على نادى السيارات ، قد أصبحوا ينتمون لهذا الحزب الملكى

ولعله من الأوفق والأصح أن نطلق عليه اسم العصابة .

وتوقف رئيس الحكومة عن متابعة القراءة وقد استشاط غضباً :

— هذا غير معقول ، كيف حدث هذا ، هذه قلة أدب وحياء ، أنا لا يمكن أن أسمح بشيء من ذلك على الإطلاق .

إطمئن يامولاى ، سأعالج الموضوع ، سأضرب بيد من حديد . هذا عيب فى الذات الملكية بطريق مباشر ، إن حكم محكمة النقض صريح .

— استمر ياباشا فى مطالعة المقال .

— مولاى . .

— قلت لك استمر . . إننى آمرك أن تستمر ، لأننى سأعرف بعد ذلك ماذا سأفعل .

— بدأت هذه العصابة تجعل من مصر كلها مسرحاً لآثامها وجرائمها الخلقية والأدبية ، وبدأت تزدهر وتفرخ وتنمو ، وبدأت النجوم والكواكب تلمع من أمثال كريم ثابت وبوللى وأندراوس وحيدر والنقيب .

واختنق صوت رئيس الحكومة ولم يستطع أن يمضى فى المطالعة .

مستحيل . . مستحيل ، لا أكاد أصدق عينى . لست أعرف كيف سكت وزير الداخلية على ذلك . إن هذا العدد كان يجب أن يصادر ويقدم كاتبه ورئيس التحرير إلى المحاكمة فوراً . . إن حكم محكمة النقض صريح . .

ونزع الملك عدد المجلة من يد رئيس الحكومة فى غضب وصاح فى وجهه :

— ألا تكف عن ترديد حكاية محكمة النقض هذه .

— عفواً يامولاى ولكنى أريد أن أثبت حكم القانون ، ولست أعرف ما الذى أسكت وزير الداخلية ، وهذا عيب صريح ، ومهمة وزير الداخلية فى الدرجة الأولى متابعة الصحف ومحاسبتها عند الانحراف .

— لا تحدثنى عن وزير الداخلية ، إن حسابه عندى عسير ، ولقد دعوته ليمثل فى حضرتى غداً ، ولكن المسألة الآن هى موقفك أنت . إسمع . .إسمع يا سيدى :

« إن الملك الذى رفض أن يتستر على أمه . . »

— عفواً يا مولاى ما هذه العبارة ؟

— الملك الذى رفض أن يتستر على أمه ...

— أعوذ بالله .. هذا تعبير غير كريم .

— أهذا هو كل ما تصفه به .. إننى لن أرضى بغير شنق فوزى السيد ..إسمع العبارة غير الكريمة كما تسميها:

« إن الملك الذى رفض أن يتستر على أمه وأخته ، فأصدر أمراً بتجريد أمه وشقيقته ، أمه التى ولدته ، تجريدها من لقب الإمارة والملك ، وأوقع الحجر عليها ، وتبرأ من أعمالها الشائنة ، فكيف يدور بخلد الوزارة أنه يمكن أن يحمى أمثال كريم ثابت وبوللى وحيدر ويتستر عليهم » .

وانفجر الملك فى ثورة عارمة :

— أهكذا يتطاول على العرش فى عهدك ، ويمرغ فى التراب؟

— الحق يا مولاى إننى مذهول ، إنك مذ فاجأتنى بهذه الوقائع وأنا مصدوم ، كيف كتب هذا الكلام ، كيف طبع وسمح بنشره ؟ !

— وليس هذا من فضلك إلا مقالا من عشرات المقالات وكلها بهذا الأسلوب .. أتوافقنى الآن على أن الشنق هو أبسط عقوبة .

— أترك الأمر لحكومتك يا مولاى ، دع حكومة الشعب تعالج الموضوع فى حزم ، أعاهدك إننى سأضرب بيد من حديد ، سوف تسمع قبل انقضاء النهار خبر القبض على فوزى السيد والزج به فى السجن ، تمهيداً لمحاكمته محاكمة قاسية .

— لست أكتفى بمجرد القبض ، يجب أن يضرب ، يجب أن يجلد ، يجب أن يشنق .. وأريد أن أسمع غداً من وزير الداخلية تقريراً كاملا عن الإجراءات التى اتخذتموها ، وإلا فإننى أنذرك .. إننى سأتصرف .. لن أتعاون مع الحكومة ، الحكومة التى تتهاون فى كرامتى وتجعل عرشى مضغة فى الأفواه .

— مولاى ، إن حكومة الشعب التى اختارها الشعب ، والمتمتعة بثقة البرلمان وعطف جلالتكم ، سوف تقوم بواجبها ، وهى ساهرة على عرشكم ، تفديه بالأرواح والمهج .

كان وجه رئيس الحكومة عند ما خرج من حضرة الملك متجهماً مكفهراً ، وقد اختفت هذه الابتسامة العريضة التى كان يعمل جاهداً على

إبقائها على وجهه طوال المقابلة . وكان غضبه وحنقه يتزايدان كلما ابتعد عن الحجرة الملكية واقترب من الخروج من القصر .

ولم يكد يدلف إلى سيارته الكاديلاك السوداء الفاخرة ، حتى قال للسائق فى انبهار وغضب :

— إذهب بى إلى المنزل .

وتدخل مرافق الرئيس وياوره :

— عفواً يا رفعة الرئيس ، ولكن معالى الوزراء فى انتظار رفعتكم فى مجلس الوزراء ، إن اليوم هو موعد اجتماع المجلس ، وقد اتصلوا بى عدة مرات تليفونياً ، ورفعتكم فى حضرة مولانا ، يسألون عن الأخبار .

وقال الرئيس فى غضب :

— عند ما أقول إلى المنزل ، فانا أعنى ما أقول .

هيا يا أسطى.

ونزل رفعة الرئيس أمام باب منزله فى جاردن سيتى ، بمجرد أن فتح له باب السيارة ، وسار متبختراً ، نافش الصدر مرفوع الرأس كما هى عادته وخف من كانوا فى البيت ، يلثمون يده ويلتمسون منه البركات ، ولكن رفعة الرئيس كان مهموماً ومشغول الخاطر ، فقال لهم فى اقتضاب :

— بارك الله فيكم .

ثم طلب من سكرتيره فى عنف أن يحضر له شمس الدين على التليفون فوراً .

وتوتر الجو فى بيت الرئيس ، وتوقع المراقبون شراً .

واتصل شمس الدين برفعة الرئيس ، وكانت نغمة القلق بادية فى صوته :

— لماذا لم تشرفونا فى المجلس يا رفعة الرئيس ، نحن جميعاً فى الانتظار .. خيراً .

— ومن أين يجىء الخير يا سى شمس الدين ؟

وامتقع وجه شمس الدين وهو يسمع هذا الرد وارتجف السيجار فى فمه واختفت الابتسامة من وجهه ، وكانت هذه الحركة البسيطة كافية لامتلاء قلب الوزراء الذين يراقبون أدق حركاته ، ذعراً ، وسأل شمس الدين فى لهفة :

— هل حدث شىء يا باشا ؟

— كل شىء كان يمكن أن يحدث ، كل شىء .. يا سى شمس الدين أتفضل تعالى حالا وأحضر معك ملف جريدة الاشتراكية ، بتاعة هذا الجدع الذى يسمى فوزى السيد .

وتنفس شمس الدين الصعداء بمجرد سماعه هذا الطلب وعادت الابتسامة على وجهه وبالتالى على وجوه باقى الوزراء .

— سأحضر حالا ، والملف جاهز والحمد لله وكنت سأعرضه اليوم على المجلس عقب انتهائنا من جدول الأعمال .

— حمد الله على السلامة .. اتأخرت كثيراً جداً يا سى شمس الدين

فى هذا العرض ، كيف يقع ذلك كله فى البلد وأنا لا أعلم به مع أنى رئيس الوزراء المسئول .. هل جعلتنى طرطوراً يا شمس أم ماذا ؟

— أستغفر الله يا باشا ، أنت زعيمنا وزعيم الأمة وسيدنا وسيد الناس كلها .

— كنت أظن ذلك ، ولكنك جعلت منى طرطوراً

— يا رفعة الباشا عمل معروف .. لندع هذا الكلام حتى أجىء .

— لقد جعلتنى فى نصف ملابسى أمام مولانا الملك ، إنك لا تتصور فى أى حالة كان من الهياج .

— أنا قادم .

* * *

لم تكد عيناً رئيس الحكومة تقعان على وجه وزير الداخلية والمالية وسكرتير حزبه ، وتلميذه المدلل حتى انفجر فى وجهه فى ثورة عاتية :

— ما هذا يا شمس الدين . . أهذا جزاء ثقتى بك ، أهذا جزاء تفويضى إليك شئون الدولة ، لقد ثبت لى أننى كنت مخطئاً ، فللقدرة الإنسانية حدود ، وقد زادت أعباؤك فلم تعد تحسن التصرف . لقد أوشك الملك اليوم أن يقيل الوزارة .

— من هذا الذى يقيل الوزارة ، كان ذلك فيما مضى أما الآن يا باشا ففاروق فى قبضة يدنا ، إن عرشه أصبح رهيناً ببقاء وزارتنا فى الحكم .

واتسعت حدقتا رئيس الحكومة دهشة وذهولا لهذا التصريح الخطير وانعقد لسانه ، بينما كان شمس الدين يعيد تكرار العبارة التى أذهلت الرئيس الذى لم يلبث أن استعاد سيطرته وقاطع صاحبه :

— ما هذا التخريف الذى تتشدق به ، أو لم يقلنا من قبل أكثر من مرة .. أو لم يبقنا خارج الحكم خمس سنوات كاملة عانينا فيها الأمرين .. لا .. لا يا شمس .. أنت لا تعجبنى اليوم .. دعنى أقولها بصراحة .. أنت لا تعجبنى اليوم .

— يا باشا أنت تعرف أننى عملت وسأظل أعمل على توثيق علاقتنا بالقصر وتحسين صلاتنا به ، ولكن من ناحية أخرى يجب أن يعرف فاروق أن مصيره أصبح مرتبطاً بوجودنا إلى جواره لحمايته .

إننى لا أحب أن أعكر مزاج رفعتك وأشغلك بالحديث عن التيارات والمؤامرات ، والتكتلات التى تجرى فى الجيش وخارجه وفى كل مكان . إننى ساهر يا باشا وأرجوك أن تطمئن إلى أنك قد وضعت ثقتك فى محلها ولن أفرط أبداً فى هذه الثقة .

— والله يا سى شمس الدين أسمع كلامك أصدقك أشوف أمورك أستعجب . إذا كان الأمر كذلك ، فكيف سكت عن فوزى السيد ليكتب هذا الذى كتب فى الاشتراكية ضد الملك كيف لم تصادر الجريدة ، كيف لم تغلقها ، كيف لم تقبض عليه وهو يسب الملك علناً .. إنك تعرف ياشمس حكم محكمة النقض ، إن التعرض للذات الملكية عن قرب أو بعد ، بالتصريح أو التلميح ، بطريق مباشر أو غير مباشر ، يعتبر عيباً فى الذات .. والسب

هنا مباشر بالتصريح ، أنا لا يمكن أن أسمح فى ظل حكومتى بهذا الإجرام ، وأريد أن تفسر لى كيف حدث هذا وغفلت عنه .. إنه تقصير .. تقصير معيب . وابتسم شمس الدين وأخرج ملفاً من حقيبته وكشف عن أعداد جريدة الاشتراكية ، وقد جرى القلم الأحمر خلف كل سطر من سطورها ، وقال للرئيس :

— إليك .. أنظر ياباشا .

— ما هذا ؟

— الاشتراكية .. وهذه الخطوط الحمراء إشارة إلى ما فى الكتابة من مسئولية جنائية .

— لقد أصبحت المصيبة أعظم ، معنى ذلك أنك علمت بما كتب فى الاشتراكية ولم تفعل شيئاً بل ولم تتكرم بإخطارى .

— هل أكون مستحقاً لمنصبى كسكرتير للحزب ، فضلا عن أن أكون وزيراً للداخلية ، إذا لم أطالع كل حرف يطبع وينشر فى البلاد ، بل وأطالع ما بين السطور ، وما وراء السطور عن طريق المباحث والمرشدين ، إننى مسئول عن أمن البلاد يا باشا وسلامتها .

إن فوزى السيد قد انتابته لوثة من الجنون فيما يبدو ، فهو لا يفتأ يصرح علناً ويكرر فى المناسبات وغير المناسبات ، أنه قرر أن يهدم فاروق أو أن يموت فى سبيل ذلك .. لقد بعثت إليه بوسيط من عندى ليخطب وده ، فكان رده عليه إن مصر لم تعد تتسع له ولفاروق ، ولا بد أن يموت واحد منهما .

وقهقه رئيس الحكومة :

— طول عمرى أقول إن فوزى السيد هذا مجنون .. عسى أن ندخله مستشفى المجاذيب قريباً .. لمن قال هذا الكلام ؟

— لرئيس البوليس المخصوص فى وزارة الداخلية .

— غير معقول يا شمس .. أن يقول فوزى السيد هذا التصريح الخطير لرئيس البوليس .. احذر يا شمس من تقارير البوليس الكاذبة .. أهذا معقول ؟

— وهذا ما قاله فوزى السيد بالضبط لرئيس البوليس ، قال له إن أحداً لن يصدقك يوم أن تنقل عنى أننى كنت أسب فاروق بهذه الألفاظ الفاحشة أمامك .. ولكن البوليس نقلها لى مع ذلك . والتقارير مجمعة على أنه يتفوه دائماً بهذه العبارات .

وعاد الرئيس لاحتداده :

— فكيف سكت إذن عن ذلك كله يا شمس ؟ كيف لم تفعل شيئاً ، كيف لم تتحرك ؟

— لأننى لم أرد أن أكون أداة فى يد فوزى السيد ... إن فوزى السيد يريد منا أن نصادر جريدته ، يريد منا أن نوجه له تهمة العيب فى الذات الملكية .. إن فوزى فى أشد حالات اليأس ، إنه يريد الشهرة بأى ثمن ، يريد أن ينتحر فإن هذا الذى يكتبه ويتفوه به هو مظهر الرغبة فى الانتحار ، ولن أحقق له بغيته .

ــ ولكن يا شمس ليست هذه سياسة ... إننا الحكومة ووراءنا ملك ، وعلينا واجبات ... وما يفعله فوزى السيد لا يمكن السكوت عليه أبداً .

ــ اسمع يا باشا هذا التقرير عن المجلة الاشتراكية :

هذه الجريدة هى جريدة البعث لسان حال حزب البعث، الذى غير اسمه أكثر من مرة حتى انتهى إلى الحزب الاشتراكى . وقد تقدم لإدارة المطبوعات لتغيير اسم الجريدة من البعث إلى الاشتراكية فرفضت الوزارة، ولذلك فهو يكتب اسم الجريدة القديم بخط صغير ، ثم يعلن أنها لسان حال الاشتراكية كاتباً كلمة الإشتراكية بالبنط الكبير واللون الأحمر فتبدو وكأنها اسم الجريدة . ويمكن أن يعتبر ذلك تحايلا على تغيير اسم الجريدة ويصدر أمر بتعطيلها .

وكان مجموع ما يطبع من الجريدة فى الأشهر الثلاثة الماضية لا يزيد عن ألفى نسخة لايباع منها سوى ربعها فقط ، أى ٥٠٠ نسخة يقوم الأعضاء بتوزيعها بأنفسهم لأن متعهدى الصحف لا يوزعونها .

ــ ما هذا الذى تقول خمسمائة نسخة فقط .. إحذر يا شمس . . أنا لى تجارب .. لا تثق بكل ما يقوله لك رجال البوليس . . إسألنى أنا . . كم أخذت منهم مقالب .

ــ أنا مطمئن إلى تقاريرى . إنها تجيئنى من أكثر من مصدر وهى كلها متطابقة .

والتقرير يقترح الإجراءات التالية — إما إلغاء رخصة الجريدة — أو اعتقال أعضاء الحزب وهم يوزعونها — أو الضغط على صاحب المطبعة العالمية التي يطبع المجلة لـكي يتوقف عن الطبع .

— عظيم . . عظيم جداً ، لقد وقعت بلسانك . . قل لى الآن لماذا لم تنفذ أياً من هذه الإجراءات ، لتوفر على المهانة التي تعرضت لها اليوم . . ليتك كنت معى لتراه .

— إن فاروق لا يصل إلى مواطىء نعليك .

— يا شمس الدين . . يا شمس الدين .

— أنا أعنى ما أقول .

— على كل حال دعنا من ذلك ، لماذا لم تنفذ هذه الاقتراحات .

— لأنها كلها غير قانونية .

— الله يفتح عليك . . أنا معك . . أنا معك . . يجب أن نحكم من خلال القانون وبالقانون ، نحن أكثر من يعانى من الحكم غير القانونى . . ومع ذلك ففى حالة فوزى السيد ، القانون معنا . . إن حكم محكمة النقض صريح . . والمقالات فظيعة . . فظيعة .

— هذا صحيح ومع ذلك فالمجلة التي تنشر فيها هذه المقالات ميتة ، وكل حركة من ناحيتنـا سوف تلقى الضوء من جديد على المجلة وتعيد النشاط والحيوية إلى حركة فوزى السيد الذى اعتبرها ميتة .

— أفهم من هذا أنك لن تفعل شيئاً ؟ أنت تلعب بالنار ياشمس الدين

أنت تلعب بالنار ، إن فاروق كان فى حالة هياج وجنون ، ولقد تصورت أنه سيصدر أمراً بإقالتى فى أى لحظة .

— أرجوك أن تنزع هذه الفكرة من رأسك ، إن لى عيونى حتى فى قصر الملك وأخباره عندى أولا بأول .. وأنا مطمئن كل الاطمئنان .

بينى وبينك يا باشا ، لقد سكت عن مقالات فوزى السيد ، وعن حركات الحزب الاشتراكى ، حتى أحرق فوزى السيد وجماعته من ناحية كحركة سياسية ، وحتى أشعر فاروق من ناحية أخرى ، بالتيارات الخطرة التى أصبحت تغمر البلاد ضده هو شخصياً ، فلا يجد له حامياً غيرنا ، والنظام البرلمانى .

— هذا لعب بالنار ياشمس الدين .. إن أخشى ما أخشاه أن يفلت من يدك الزمام .

على كل حال اسمع أوامرى ، يجب أن تبلغ النيابة . واطلب من وزير العدل أن يوعز للنيابة باعتقاله .. يجب أن نفعل شيئاً قبل أن تقابل فاروق غداً ، لقد طلب منى أن تقدم له تقريراً كاملا عما اتخذت من إجراءات .

— اطمئن من ناحية فاروق ، إننى أعرف كيف أروضه وأرضيه .. انظر .. انظر يارفعة الباشا إلى هذه المجلات الأجنبية التى صادرناها ومنعنا دخولها إلى مصر ، وهذه الصور التى صادرناها كذلك .

وألقى رئيس الحكومة نظرة عابرة فى بادىء الأمر على المجلات

والصور ، ولكنها سرعان ما استرعت انتباهه فأقبل عليها فى شراهة واهتمام :

— ولكن هذه صور فاروق ..

— طبعاً .

— عجباً ولكنها صور خطيرة .. إنها صور فاضحة .. أو اثق أنت يا شمس الدين أن هذه المجلات لم تتسرب إلى الجمهور .

— لقد صادرناها كلها .

— ولكن كيف استطاع المصورون أخذ هذه الصور ؟

— إن الصحفيين الأجانب أصبحوا شياطين ، إنهم يعرفون كل شىء ويصلون إلى كل شىء .

— هذا طيش شباب ، طول عمرى أقول عن فاروق إنه شاب طائش ، على كل حال ربنا يعقله ويهديه .. خلاص .. خلاص يا شمس الدين .. اتصرف .. أنا تركت لك علاج هذا الموضوع .. أما أنا فلا بد من أن أغير ملابسى وآخذ حمام .. عرقنى الله لا يكسبه فاروق بن نازلى .

— ٣ —

راح المصور الصحفى يلح على رئيس مكتب الآداب :

— أرجوك أن تسمح لى بمصاحبة الفرقة التى ستهاجم شوارع مصر الجديدة .

— ولكن يامصرف إن العادة لم تجر بذلك ؛ أن يصحب البوليس معه مصوراً صحفياً وهو يمارس واجباته . ونحن كبوليس آداب عملنا دقيق ويجب أن يحاط بالسرية .

— أتعهد لك أن أطمس وجوه من ستقبضون عليهم فلا تعرف شخصياتهم . إن النشر سيساعدكم على القضاء على هذا الوباء الذى يجتاح شوارع مصر الجديدة بالليل . لقد جاءتنا فى الجريدة مئات الشكاوى من سكان مصر الجديدة . وهذا سبب إيفاد الجريدة لى لمقابلتك .

واقتنع مدير مكتب حماية الآداب فى خاتمة المطاف ... وأذن للصحفى المصور أن يصحب إحدى حملات بوليس لاعتقال البغايا اللواتى يمارسن عملهن فى السيارات الخاصة .

واتجهت الحملة فى الساعة المحددة من الليل،طبقاً للخطة المرسومة صوب الطريق المؤدى إلى مطار فاروق . ولكن سيارة البوليس لم تصادف شيئاً غير عادى ، كما لو كان المستهترون قد أحسوا بغريزتهم بالخطر الذى يهددهم هذه الليلة .

وقال الضابط رئيس الحملة فى خيبة أمل :

— عجباً أين الزبائن ؛ مالنا لا نجد أحداً ؟

وقال أحد رجال القوة ضاحكا :

— ربما كان للبرد هذه الليلة أثر .

وقهقه الضابط ضاحكا :

— بالعكس يا عبيط ... كان ذلك أدعى ليكثر الصيد . وكان أكثر الجميع شعوراً بخيبة الأمل هو المصور الصحفى .

— معنى هذا أننا سنعود صفر اليدين .

— وماذا تريد منى أن أفعل ياسى مصرف ؛ وجهك فقرى يقطع الخميرة من البيت . على كل حال تستطيع أن تتحدث عن نجاح مكتب الآداب فى القضاء نهائياً على الرذيلة ، فتطهرت شوارع مصر الجديدة نهائياً .

وضحك الجميع على هذه النكتة اللطيفة ، بينما كان الضابط يقول لسائق السيارة .

— إذهب بنا يا حسنين على طريق السويس .

وأدار السائق محرك السيارة وانطلقت صوب طريق السويس ، وعندما سارت السيارة فى الطريق ، ظهرت فجأة تحت أنوار السيارة الكاشفة ، سيارة تقف على جانب الطريق على بعد كبير .

وغمغم الضابط وقال :

— يا مسهل .. عسى أن تغمز السنارة .

واستعد المصور الصحفى بآلة التصوير ، بينما كانت سيارة البوليس تقترب

من السيارة الواقفة وقد سلطت مصابيحها الكاشفة عليها ، فظهر فيها رأس رجل يقبل إمرأة شقراء ، لم يكد النور يقع عليهما من زجاج السيارة الخلفى ، حتى فزعا وافترقا عن بعضهما بسرعة ، وأمسك الضابط بيد مرافقه الصحفى وقال :

— أبشر يا عم لقد وقعنا على الصيد المطلوب .

ونزل الضابط من السيارة منقضاً ، ولمع ضوء المغنسيوم حيث أخذ المصور أولى صوره ، بينما كانت تنطلق من داخل السيارة صرخة مدوية :

— ماذا تفعل يا كلب ؟

— إخرص نحن البوليس .

— أنت كلب وسوف أقتلك ، أطفىء هذا النور .

وهبط من داخل السيارة هيكل إنسانى ضخم بدا فى ظلال الليل والأضواء الكاشفة كما لو كان حيواناً خرافياً ، بشعر رأسه المنكوش ، وشعر صدره الغزير الذى كان يبرز من خلال قميصه المفتوح ، وكان يحمل فى إحدى يديه مسدساً ضخماً ، وصعق الضابط عندما تعرف على شخصيته :

— مولانا ؟

— أجل مولاك يا كلب وسيدك .. لا بد من قتلك .

وكانت إحدى السيارات الملكية قد وصلت على إثر وصول سيارة البوليس ، وحاول من فيها أن يتفادوا وقوع هذه الكارثة ، ولكن الحوادث مرت بسرعة لم تدع لهم مجالا للتدخل إلا بعد وقوع المحظور .

وهبط من السيارة حشد من رجال الحاشية بعضهم بالملابس العسكرية والبعض الآخر بالملابس المدنية ، وقد أنقذ ظهورهم الضابط من القتل ، فقد توقف فاروق عن إطلاق مسدسه ، ولكنه بدلا من ذلك انقض على آلة التصوير وانتزعها من يد المصور الذى كان يقف مصعوقاً من هول المفاجأة . وراح الملك يضرب المصور بآلة التصوير على رأسه وجسده ، ويضرب بها الضابط حتى تحطمت الآلة فى يده ، وكان من الممكن أن يظل الملك فى هياجه لولا أن تدخل رجال الحرس بناء على إشارة من بوللى فأحاطا بالرجلين وبقية رجال الحملة من البوليس ، وأبعدوهم عن متناول جلالة الملك .

وهمس بوللى فى أذن مولاه :

— أرجو أن تدع لى يا مولاى تسوية هذا الموضوع ، لا تلوث يدك بدمهما .

— لا بد من قتلهما .. يجب أن يقتلوا .. كيف تجرأوا .. من الذى أرسلهم .. أين الحرس .. أين كامل ؟

وتقدم كامل بك رئيس الحرس وهو يرتجف :

— عفواً يا مولاى ، لقد وقفنا بعيداً حسب أوامر جلالتكم ، ولكن الحوادث تطورت بأسرع مما تصورنا .

وعاد جلالة الملك إلى داخل السيارة ، وراح يعتذر بالفرنسية للسيدة الشقراء التى كانت مشغولة مذ وقع الحادث بارتداء ما خلعته من ملابسها الداخلية ، وإعادة تنظيم شعرها .

* * *

لم يصدق المصور الصحفى أنه نجا بجلده بعد التحقيق الذى أجرى معه ومع ضابط بوليس الآداب ، واتضاح حسن نيتهما . وقد كتب المصور الصحفى وتعهد وأقسم أن لا يبوح بحرف واحد مما حدث وإلا عرض نفسه الانتقام . ولكن المصور لم يكن يتصور أن الأمر يمكن أن ينتهى بهذه السهولة ، ولم ير فى الإفراج عنه إلا خطة لقتله كما قتل الشيخ المهدى من قبل ، وكما يقتل عشرات من حين لآخر لأقل من هذا السبب .

وهداه عقله المضطرب أن لاسبيل لحمايته ، والانتقام له على الأقل إذا قتل ، من أن يفضى لفوزى السيد بحقيقة ما جرى ، وأن يطلب منه عدم الإشارة إلى الحادث فى جريدته إلا إذا أصيب بسوء .

وقصد المصور الصحفى البيت الأخضر والجريدة الاشتراكية التى بدأت مصر تنتبه إليها باعتبارها المكان الذى يشن منه أكبر حملة على ملك البلاد لم يسبق لها مثيل .

— ٤ —

نظر مسيو عجلان أحد اللاعبين إلى زميله المواجه له فى اللعب نظرة ذات معنى ، فأعلن انسحابه من اللعب متنازلا عن العشرة آلاف جنيه التى كان قد وضعها على المائدة . وتلاه مسيو عجلان فأعلن انسحابه بدوره وانسحب لاعب ثالث ، ولم يبق على مائدة القمار بنادى السيارات سوى فاروق وعبد العال باشا . وأشرق وجه فاروق بالفرح ، وتجلت فى عينيه إمارات الجشع ، وتطلع صوب عبد العال باشا لينسحب بدوره ، لكى يسحب الخمسين ألف جنيه الموضوعة على مائدة اللعب .

وكان جو الحجرة غائماً لما تجمع فيه من دخان السجاير والسجار وأنفاس القوم طوال أربع ساعات أمضوها فى اللعب ابتداء من منتصف الليل .

وكانت الأنوار الساطعة المنصبة على مائدة اللعب ، والتى توهجت مع الصباح المبكر ، تزيد فى إرهاف الأعصاب ، وتوتر المشاعر .

وساد سكون رهيب وفاروق يتطلع فى وجه عبد العال باشا ليعلن انسحابه . ولكن شفتى عبد العال باشا انفرجتا عن بسمة رضا ونشوة ؛ ولم يلبث أن تنحنح وأعلن فى زهو أنه كاسب .

— فول روا

وبهت اللاعبون الثلاثة فقد كان معنى ذلك أن عبدالعال باشاقد كسب فقد كانوا يعلمون من تجاربهم أن ورق فاروق دون ذلك بكثير .

وتساءل كل منهم بينه وبين نفسه .. ماذا يتصور عبد العال باشا .. هل سيغلب فاروق ..

أتراه قد جن ؟

ولكن فاورق قطع عليهم سلسلة خواطرهم ، إذ انبعثت منه قهقهة عالية وقال فى حسم :

— تخسر يا باشا وأنا أكسب.

وظهرت مخايل الشك على وجه عبد العال باشا ، وقال بطريقة تلقائية :

— لماذا يا مولاى ؟

— لأن عندى فول آس .

ومضى عبد العال باشا فى تلقائيته ناسياً تقاليد من يلعبون مع جلالة الملك كل ليلة فى نادى السيارات .

— تسمح يا مولاى تكشف ورقك .

ووقف الملك فى هياج وغضب :

— ما هذا .. هل جننت؟ .. أتجرؤ على تكذيبى

وامتقع وجه عبد العال باشا وقال فى لهفة :

— معاذ الله يا مولاى ، لم أقصد أبداً .. ولكنها حرارة اللعب وأصوله .

— أتريد أن تعلمنى أصول اللعب يا كلب .. بوللى .. بوللى .. أين بوللى .. أين كريم ثابت ؟

ودخل كريم ثابت مستشار الملك ومن خلفه بوللى.

— بوللى.. كريم .. الرجل الكلب هذا يجب أن يخرج من النادى فوراً ، ويحظر عليه دخوله مرة ثانية . وإذا كان حريصاً على حياته ، فقولوا له أن لا تقع عيناى عليه مرة ثانية .

وحاول عبد العال باشا أن يقول شيئاً على سبيل الاستعطاف ، ولكن كريم باشا همس فى أذنه مما جعله لا يتم عبارته ، ويخرج مع الرجلين فى تخاذل ، فى الوقت الذى كان جلالة الملك يعيد فيه خلط الأوراق من جديد وهو يقول فى غضب وحنق :

— فلاح .. جلف.. حيوان.. كلب . طول عمرى أقول عنه إنه فلاح جلف ليس أهلا لمجالسة الملوك .

وراح مسيو عجلان يحاول تلطيف الجو وتهدئة جلالة الملك ، واعتذر عن عبد العال باشا أنه نسى نفسه وفقد شعوره ، ورجا جلالة الملك أن ينسى هذا الحادث المكدر .

تساءل الملك :

— كم الساعة ؟

— الرابعة يا صاحب الجلالة .

— إننى ما زلت فى أوج نشاطى .. ما رأيكم أن نلعب ساعة أخرى .

— تحت أمر صاحب الجلالة .

— ولكن هل لا يزال لديكم نقود ؟

أموالنا كلها تحت تصرف جلالتكم . . دفتر الشيكات موجود .

— وهو كذلك ، بكم نبدأ . . خمسة آلاف جنيه ؟

— أمرك يامولاى خمسة آلاف جنيه .

— قل لى يامسيو عجلان هل حصلت على عطاء التوريد الذى حدثتنى عنه ؟

— لا يزال شمس الدين باشا متشدداً .

— شمس الدين . . شمس الدين . . خير لشمس الدين هذا ، أن لا يضايقنى أكثر مما أنا متضايق منه . . يا كريم

— مولاى .

— تقابل اليوم صاحبك شمس الدين ؛ ولا تريني وجهك إلا بعد أن تبلغني أن موضوع مسيو عجلان قد تم .

— أمرك يامولاى .

* * *

عاد فاروق الى قصر عابدين قبيل شروق الشمس بعد ليلته الموفقة فى نادى السيارات والتى خرج منها بسبعين ألفاً من جنيهات رعاياه المخلصين جداً ، عجلان وشركاه ، والذين اعتادوا أن يلعبوا معه وأن يخسروا كلما كان لهم طلب عند الحكومة . وقبل أن يلج حجرة نومه قال له بوللى وهو يبتسم فى رضا :

— سأحدث جلالتكم بعد استيقاظكم من النوم عن آنسة عرفنا بها نجيب بك الجواهرجى .

وتوقف فاروق عن دخول مخدعه وقال لبوللى :

— آنسة . . أى آنسة ؛ ما الذى قاله عنها نجيب . . ومتى ؟

— عند ما كان جلالتكم فى النادى .

— ولماذا لم تقولوا لى ؟

— لم نشأ أن نزعج جلالتكم وآثرنا الانتظار حتى نتحقق من صحة ما قاله لنا .

— ماذا قال ؟

— قال إنه عثر على أجمل فتاة مصرية رآها فى حياته وأنها تصلح لجلالة الملك لولا . .

— لولا ماذا . . قل . . تكلم . . ماذا قال ؟

— قال إنها مخطوبة لأحد المحامين الشبان ؛ وقد ذهب إليه معها ليشترى لها خاتم الخطوبة فبهره حسنها ؛ ففكر على الفور فى جلالتكم .

— برافو . . برافو عفارم ؛ ذكرنى يابوللى لكى أنعم على نجيب بك برتبة الباشوية ، احضر لى نجيب على التليفون .

— الساعة الآن يامولاى الخامسة صباحاً ؛ وجلالتكم فى حاجة إلى أخذ قسط من الراحة.

— نفذ ما أقوله لك . . هيا اطلب نجيب على التليفون ؛ لابد أن أسمع منه القصة بحذافيرها قبل أن أنام .

— ٥ —

لم يستطع نجيب بك الجواهرجى أن يستمهل الأستاذ هشام وخطيبته يوماً واحداً لكى يسلمهما خاتم الزواج الذى اشترياه ، إلا بصعوبة شديدة وبعد أن أوهمهما أنه يجب إعادة تنظيف الخاتم . وعبثاً حاول الأستاذ هشام أن يقنعه بحاجته إلى الخاتم فوراً ، بعد أن وزعت رقاع الدعوة وتحدد للزواج موعد بعد ثلاثة أيام فقط .

ولكن نجيب بك تمسك بحقه فى المحافظة على سمعته وشهرة محلة وأنه يريد أن يقدم خدمة للعروس ومفاجأة سوف تسر لها .

وانصرف الأستاذ هشام وخطيبته وهى تكاد تجن من الفرح بما أحاطها به نجيب بك من إعجاب وترحاب وما يبذله من عناية لجعل خاتم زواجها تحفة لم يسبق لها مثيل .

ولم يكادا يبرحان المحل ، حتى أسرع نجيب بك يصعد درجات السلم الصغير الذى يؤدى إلى مكتبه فى الدور الثانى من المحل ، ولم تكد عيناه تقعان على جلالة الملك فاروق الذى كان جالساً فى الدور العلوى . . حتى وجده متهلل الوجه وأسرع يقول له :

— عفارم . . عفارم يا نجيب بك . . انا متشكر . . لقد ساعدتنى على اختيار شريكة حياتى وملكة مصر ، اتصل فوراً بوالد نورا ألا تقول إنك تعرفه ؟

— أجل أعرفه يامولاى . .

— إذن هيا . . اتصل به تليفونياً ، قل له أن يوقف كل شيء ، يجب أن يفسخ الخطوبة ، فسوف أتزوجها أنا فاروق ملك مصر والسودان .

وظهر الحرج على وجه نجيب بك، ونظر إلى بوللى الذى تدخل قائلا:

— إذا سمح مولاى ، فانه من الخير أن يتفضل جلالته ليزف الخبر بنفسه إلى والد نورا حتى لا تكون لديه فرصة للاعتذار .

— اعتذار . . أى اعتذار ! اعتذار عن أى شيء . . عن السعد عن الشرف . . عن الملك . . إننى أنا فاروق سأتزوجها . . سأجعلها ملكة مصر . هى الفتاة المغمورة .. التى كانت ستتزوج محامياً . . سأجعلها ملكة . . ملكة على مصر كلها .

وقال نجيب بك . إن أخشى ما أخشاه يا مولاى أن يموتوا من الفرحة ولكن المسألة هى ضيق الوقت . . لقد وزعت رقاع الدعوة على المدعوين وحدد لعقد العقد . والزفاف يوم الخميس القادم أى بعد يومين . . ولذلك فلو تفضلتم جلالتكم واستدعيتم صادق بك والد العروس فان ذلك يكون خيراً .

— وهو كذلك . . وهو كذلك ما دمتم ترون ذلك . اتصل به يا بوللى . . احضره لى من تحت الأرض ، ارسلوا له إحدى عربات السراى ، سأكون مستعداً لاستقباله بعد ساعة . . أمامك ساعة واحدة لتحضره لى .

الشروق

الفصل الأول

— ١ —

الثورة . . . الثورة . . الثورة .

كانت هذه الكلمات الحمراء على رأس جريدة الاشتراكية ، تكاد تخرج عيون الوزراء ، الذين احتشدوا فى قاعة مجلس الوزراء ، من محاجرها دهشة وذهولا ، أن تصدر جريدة تدعو للثورة بكل هذا السفور والتحدى للقانون والنظام والدولة ، كأنه لم يعد هناك حكومة ولا قضاء ولا بوليس أو محاكم وسجون ومشانق .

وكان الوزراء قد دعوا لاجتماع مفاجىء عقب صدور هذا العدد ، للبحث فيما يجب عمله . على أن ما كان يفزع الوزراء ويزيد فى هياجهم وحنقهم على الجريدة ، ليس هو هذه الكلمات النارية ، والمقال الذى كتب تحتها .. بقدر ما كان مجموعة من الصور ، نشرت فى وسط المجلة على صفحتين ، وقد كتب فوقها بالخط العريض « **رعاياك يامولاى** » وكانت الصور نماذج لهؤلاء الرعايا : أشخاص فى ذروة البؤس والشقاء ، بعضهم يبحث فى صناديق الزبالة عن لقيمات يتقوت بها ؛ وآخر يعرض دمه للبيع ؛ وثالث يتسول ؛ ورابع يجمع أعقاب السجاير وهكذا . .

وقد كتب فى أسفل الصور . . هذا هو المصير الذى ينتظرك أيها المواطن فى ظل الرأسمالية .

واشتد الهياج بالوزراء ، وصاح وزير الأشغال :

— إما أن نحكم ونثبت أننا حكومة ودولة أو نذهب إلى بيوتنا .

وقال وزير آخر :

— لا أصدق . . لا أتصور أيمكن أن يحدث هـذا ؛ كيف يطبع وأين يطبع ؟

— إنه يطبع فى دار الأخبار حيناً ، وفى الأهرام حيناً آخر .

— ولـكن هذا غير معقول . . لم أعد أفهم شيئاً . . هذا بلد عجيب يحار فيه الإنسان .

ويتدخل وزير الأشغال قائلا :

— اعطونى حرية التصرف ليوم واحد وأنا أشنق لـكم فوزى السيد وجماعته .

— على كل حال يجب أن تصدر اليوم وحالا قرارات بإلغاء الحزب الاشتراكى ، ومصادرة ممتلكاته وجريدته ، والقبض على كل أعضائه .

— بأى تهمة ؟

— بتهمة التحريض السافر على الثورة . بتهمة التآمر على قلب نظام الحـكم ونشر الشيوعية ، يجب أن نفعل شيئاً . . لا يمكن السكوت على ذلك إن جلالة الملك يكون معذوراً لو أقال الوزارة .

ودخل فى هذه اللحظة وزير الخارجية الذى كان منذ ساعتين فى اجتماع مع رئيس الوزراء بالبيت .

وتساءل الوزراء فى لهفة :

— وأين الرئيس ، وأين شمس الدين باشا ؟

— قادمان فى الطريق .

— علام استقر عزم الرئيس .. يجب أن نبطش بهذه الجماعة المخربة

— لقد استقر عزم الرئيس على رأى .

— ما هو ؟

— اتفقنا على أن يتولى الرئيس بنفسه إبلاغه لكم .

— وماذا فعل شمس الدين باشا ؟

أصدر أمره بمصادرة الجريدة ، واعتقلت النيابة فوزى السيد ورئيس التحرير .

وهاج الوزراء . وصاح أحدهم :

— لقد سئمنا من حكاية القبض يعقبه الإفراج ، والمصادرة يعقبها ازدياد انتشار المجلة . وقال وزير الأشغال :

— ألم تلغ المجلة قبل ذلك ؟ ماالذى حدث أعادها مجلس الدولة متحدياً الحكومة والملك ، فعادت أكثر قوة وانتشاراً ؟ وعندما طلب شكرى رخصة مجلة جديدة فرفضت وزارة الداخلية، تحدى مجلس الدولة الحكومة وصرح لشكرى بإصدار الجريدة فأصبح للحزب مجلتان بدلا من مجلة واحدة وبعد أن كانت المجلة توزع بضع مئات منذ عام واحد ، أصبح توزيعها يقاس بعشرات الألوف .

وقال أحد الوزراء :

— ستون ألفاً .

— بل ثمانون ألفاً .

— أراهن أنها لا تقل عن مائة ألف ، انظروا ، إن لدى كل وزير منا نسخة ، ولو خرجتم لوجدتم لدى كل موظف من الموظفين نسخة ، إن توزيعها لا يمكن أن يقل عن مائة ألف .

وهتف وزير الأشغال من جديد .

— إما أن نحكم أو نذهب ، إما أننا حكومة الشعب ، أو انفسح الطريق للغلمان والمجرمين من أمثال فوزى السيد ليخربوا البلد .

وقال وزير الخارجية ملطفاً الجو :

— مهلا يا باشا .

— هذا هو ماستنتهى إليه الأمور إذا ظللنا نتحدث عن القانون ورعاية القانون ، والدستور وحقوق الإنسان . إن نجاح الاشتراكية الساحق قد جعل عشرات من المجلات تتشجع وتنسج على منوالها إنها لم تعد بمفردها ، لقد قدموا إلى منذ أيام ، مجلة اسمها الملايين ، وأخرى يصدرها الشيوعيون باسم الجماهير . وذلك بالإضافة إلى مجلة أبو الخير الجمهور المصرى ، ومجلة اللواء الجديد وروزاليوسف والدعوة . حتى صحف حزبنا بدأت تندفع وراء هذا التيار لتستجلب رضاء القراء .

أنسيتم عند ما أردنا إصدار قانون لتقييد الصحافة ماذا حدث ، لقد

كانت صحف الحزب بالذات هى التى هيجت النواب وجعلتهم يرفضون إصدار المشروع ويتنافسون فى إظهار التبرؤ منه .

أنا أكبركم سناً ، خذوا بنصيحتى وتجربتى ، إما أن نحكم أو أن نذهب إلى بيوتنا . أنا غير مستعد أن أهزأ على آخر الزمان ، أنا لست سياسياً أنا مهندس ، لا أعرف سوى منطق الأرقام والمعادلات ، إما أن نحكم وإما أن نذهب .

وصفق لفيف من الوزراء ، وانبرى أحد المصفقين يقول :

— عثمان باشا محق كل الحق ، تصوروا أن الحزب الاشتراكى يعقد اجتماعاً لإلغاء المعاهدة فتشهده ألوف الجماهير .

— عشرون ألفاً .

— بل خمسون ألفاً يا افندم ، إن صحفنا هى التى قدرت الحاضرين بعشرين ألفاً ولكن تقارير البوليس السياسى قدرت المحتشدين بخمسين ألفاً .

— كيف صرح وزير الداخلية بهذا الاجتماع ؟

ومن جديد تدخل وزير الخارجية لتهدئة الجو .

— هذا هو جوهر القضية فى الحقيقة ، لقد استخدم وزير الداخلية وسائل القمع والشدة ضد الجريدة وضد فوزى السيد ، فماذا كانت النتيجة ؟ هذه الحصيلة التى تفزعون منها ، أصبحت الجريدة توزع بعشرات الآلاف واجتماعات الحزب يحضرها عشرات الألوف ، ويجب أن نفهم من ذلك ،

أن المسألة ليست مسألة فوزى السيد أو الحزب الاشتراكى ، وإنما هى مسألة الشعب الذى أصبح فى حالة غليان ، ولا مناص من البحث عن حل يعالج القضية من أساسها .

— وهل توصلتم إلى حل ، ما هو ؟

— لقد اتفقنا أن يكون الرئيس هو الذى يبلغكم الخبر بنفسه .

وسمعت فى هذه اللحظة صفارات التنبيه بمقدم رئيس الحكومة ، ولم يلبث الرئيس أن دخل مكفهر الوجه منتفخ الأوداج نافش الصدر ؛ وفى أثره شمس الدين مفتر الثغر يسير فى تثاقل والسيجار يتراقص بين شفتيه .

وابتسم رئيس الوزراء فى سخرية وقال وهو يأخذ مقعده على رأس المائدة .

— أرى أنكم أصبحتم جميعاً من قراء الاشتراكية . على كل حال لقد أصدرت النيابة العمومية مراً باعتقال فوزى السيد ومصادرة العدد .

وهتف الوزراء كل بأسلوبه

— هذا لا يكفى .

— لابد من عمل رادع .

— هذه ثورة .

— حياتنا فى خطر .

ودعا الرئيس أعضاء المجلس للسكوت .

— إننى فى منتهى اليقظة ، أنا لست ساكتاً ، أنا أعرف كل شىء .. المسألة لم تعد مسألة فوزى السيد أو الحزب الاشتراكى ، إنها مسألة المعارضة كلها ، السعديين والدستوريين والحزب الوطنى والمستقلين ، الجميع ألفوا حلفاً غير مقدس للكيد للحكومة ، ولكننا توصلنا والحمد لله للاجراء الوحيد السليم الذى سيمكننا من قطع ألسنة الجميع .

وتصايح الوزراء :

— ما هو .. ما هو يا رفعة الباشا ؟

— إنه لن يكون مفاجأة لكم بطبيعة الحال .. ومع ذلك فأرجو أن تنتظروا حتى أعود من مقابلة جلالة الملك ليكون هو أول من يسمعه ويوافق عليه ، أما إذا لم يوافق فسيكون لنا شأن آخر .. إننى زعيم هذه الأمة ولا يمكن أبداً أن أتخلى عن مسئوليتى قبل هذا الشعب .

ووقف الرئيس ، قاطعاً بذلك سيل الاستفهامات التى راحت تنهال عليه من كل جانب وأسرع يغادر الحجرة فى الطريق إلى القصر الملكى .. وهو يقول للوزراء ولمن حوله :

— عندكم شمس الدين .. عندكم صلاح .. أما أنا فجلالة الملك أولا .

— ٢ —

لم يمد الملك يده لمصافحة رئيس الحكومة ، بحجة أنه مزكوم . وكان قد كلف كبير الأمناء أن يخبر رئيس الحكومة بذلك . وكان وجه الملك محتقناً مكفهراً ، والنظارة السوداء تضفى عليه قتاماً . ولم يكد رئيس الحكومة

ينحني أمامه انحناءة الولاء والتحية ، حتى انفرجت شفتا الملك عن ابتسامة سخرية وازدراء معاً .

فأسرع رئيس الحكومة يقول :

— جلالتك طبعاً غضبان ، ونحن كلنا غاضبون معك ، مجلس الوزراء ومجلس النواب والشعب كله غاضب لغضب مولانا .

— لست أريد أن أسمع خطباً ، لقد سئمت سماع الخطب أريد أفعالا . أريد تصرفات . . ماذا فعلتم بفوزى السيد ، والحزب الاشتراكى كله .

— قبضت عليه النيابة يامولاى وصودرت الجريدة . .

— كفى ، لاأريد أن أسمع المزيد.. قبضت عليه النيابة ، ومتى سيفرج عنه القضاء ، غداً أو بعد غد أو فى الأسبوع القادم ؟

— مولاى المسألة . .

— هذه مؤامرة ، حكاية القبض هذه لم تعد تخدعنى ، لم تعد تنطلى على . إن فوزى السيد أصبح متهماً الآن بخمس قضايا بالعيب فى الذات الملكية ، ومع ذلك فلم يحاكم على أى منها حتى الآن وهى تؤجل وتؤجل ، وبعضها قد انقضى عليها عام كامل ، إن لدى مذكرة وافية عن هذا الموضوع .

إن هناك عشرة كتاب متهمين بالعيب فى الذات الملكية : فتحى ، مرعى ، أبو الخير ، التكية ، حلمى ، الريادى ، زخارى ، وهؤلاء جميعاً بخلاف فوزى السيد وهم جميعاً مطلقو السراح ، يكتبون ، ويكتبون قل لى يا باشا ، أهى مؤامرة علىّ ، هل القضاء يتآمر على ؟

— معاذ الله يامولاى ، القضاء والحكومة والشعب كلهم رعايا مولاى المخلصون .

— هذا كلام ياباشا ، كلام ، أما الأعمال فغير ذلك . مجلس الدولة يتدخل فى قضية القطن ويوقف الإجراءات فيها ، لينال منى، وأعاد جريدة الاشتراكية التى تهاجمنى بالليل والنهار لينال منى ، وأنت تحمى مجلس الدولة .

لماذا لم تلغ مجلس الدولة كما طلبت منك ؟

— مولاى إن إلغاء مجلس الدولة يحدث رجة كبرى فى البلاد وجلالتكم تعرفون موقف المعارضة ، سوف تستغل مثل هذا الإجراء وتؤلب الشعب على حكومته .

ولكنى جئت اليوم يا مولاى ، لأستصدر منك القرار الذى سيجعل جلالتكم معبود الجماهير ، ويقطع ألسنة المتخرصين ويجعل الشعب صفاً واحداً خلف حكومته .

وتساءل الملك فى سخرية وتثاقل وازدراء :

— وما هو هذ الحل السحرى من فضلك ؟

— هو أن ننفذ ما تعهدنا به فى خطاب العرش .

— ماذا تعنى ، أى شىء تعهدتم به ، لقد تعهدتم بالكثير ، بالكثير جداً ياباشا ؟

— إن جلالتكم تعلمون من غير شك ، أن خادمكم الماثل أمامكم كان

له شرف التوقيع على معاهدة الصداقة والتحالف بين مصر وإنجلترا فى مستهل عهدكم السعيد عام ١٩٣٦ ، وخادمكم الماثل أمامكم اليوم يقترح على جلالتكم ، أن تمكنوا حكومة الشعب عام ١٩٥١ وفى ظل حكمكم السعيد الجديد إن شاء الله من إلغاء هذه المعاهدة .

وندت من فم الملك صيحة خافتة ، ووثب منتقلا من مكانه فى وسط الحجرة ، مبتعداً عن رئيس الحكومة لائذاً بمكتبه ، وظل يحدق فى رئيس الحكومة دون أن يتفوه بشىء ، بينما اقترب رئيس الحكومة من مكتب جلالة الملك وراح يقول فى حماسة وقد ازدادت البسمة على شفتيه انفراجاً وعمقاً ، وعيناه لمعاناً .

— هذا هو الحل يامولاى الذى توصلت إليه حكومة الشعب المتمتعة بثقة البرلمان وتأييد جلالتكم ، ولا حل غيره . والضعيف الماثل أمامكم هو الذى وقع المعاهدة ، والضعيف الماثل أمامكم هو الذى سيلغيها ، وسوف تلتهب مصر كلها بالحماسة والوطنية ، وستقف صفاً واحداً كالبنيان المرصوص خلف حكومة الشعب المتمتعة بثقة جلالتكم .

وهكذا نرد كيد المتآمرين إلى نحورهم ، ونعيد المارضين إلى جحورهم ويهتف الشعب باسمكم ليطيل الله فى عمركم .

— الشعب ، الشعب ، مالك تكثر اليوم من كلمة الشعب ، وأنا ، ألم تفكر فى ، ألم تفكر فيما قد يحل بعرشى ؟

— عرشك يا مولاى أصله ثابت وفرعه فى السماء ، عرشك نفديه بالمهج والأرواح .

— وعند ما أحاط الإنجليز بدباباتهم هذا القصر ، عند ما قرروا أن يعزلونى إذا لم أعهد إليك بتشكيل الوزارة ، أين كان الشعب ، ماذا فعل الشعب ؟

— أولم نتفق يا مولاى على أن نسدل ستاراً على الماضى ولا ننكأ الجروح ، هذا تاريخ مضى وانقضى ، بحلوه ومره ، وما كان يحدث ما حدث ، لو لم تكن حكومة الشعب مبعدة عن الحكم يومئذ . أما اليوم وحكومة الشعب تقف إلى جوار جلالتك ، فذاتكم مصونة لا تمس وعرشكم فى المهج والأرواح .

لقد درسنا الأمر من جميع نواحيه ، إننا بمجرد إلغاء المعاهدة يتحتم على الإنجليز الجلاء عن مصر ، فقد كان سندهم الوحيد فى مجلس الأمن للبقاء فى مصر هو وجود هذه المعاهدة ، فاذا زالت المعاهدة انتفى الأساس لوجودهم .

وجلس الملك على مقعده وقال فى تهكم :

— ولكن المعاهدات يا باشا لا تلغى من جانب واحد .

— هذا حق السيادة يا مولاى ، سيادة الدولة لا يحدها أى حد ، ونحن دولة مستقلة ذات سيادة ، إننا عضو فى هيئة الأمم ، ومتى كان فى أى معاهدة مساس باستقلالنا فمن حقنا إلغاؤها .

وزادت ابتسامة رئيس الحكومة اتساعاً :

— لقد درست الأمر من جميع نواحيه ، والمهم فى ذلك كله يا مولاى ، هو أثر هذه الخطوة الجريئة فى القضاء على الروح الخبيثة التى بدأت

تستشرى فى البلاد ، واجتراء المعارضة على جلالتكم ، وعلى حكومة الشعب . لقد فكرنا فى كل شىء ، إن الاضطهادات والمصادرات والقبض والاعتقالات ، انتهت بنا إلى ما تشكو منه جلالتك ونشكو منه كلنا . وليس سوى هذه الخطوة ، ما يصحح الأوضاع ويرد الأمور إلى نصابها ، ويعيد إلينا زمام المبادرة .

ونهض الملك فى عزم مباغت ، ودار حول المكتب واقترب من رئيس حكومته :

— اسمع يا باشا ، أنت لا تلعب الورق ؟

— معاذ الله يا مولاى ، معاذ الله .

— وهو كذلك يا سيدنا ، أنا ألعب الورق ، أنا ملك اللعب ، لم يغلبنى أحد فى اللعب أبداً ، وأنت الآن تلعب ، إنك تقامر على عرشى . تريد أن تكسب كل شىء ، فإذا كان ثمة خسارة فلن تعود عليك . وأنا سألعب معك على المكشوف . لقد فهمت لعبتك إذا أنا رفضت الآن اقتراحك بالغاء المعاهدة ، كما أحس أن واجبى يأمرنى بذلك فسوف تخرج من هنا وتملأ الدنيا ضجيجاً لتؤلب الشعب على ، وأنك أردت إلغاء المعاهدة وفاروق رفض .

— عفواً يا مولاى ، عفواً إننى أحتج على جلالتكم أن تتصورونى رجلا دساساً أو يعمل فى الظلام ، إن عيبى إذا كان لى عيب أننى أعمل دائماً فى النور ، وعلى رؤوس الأشهاد لقد تركت مجلس الوزراء الآن وهو لايعرف القرار الذى قررته ، وذلك أمانة منى لجلالتكم وأن تكونوا أول من يبدى رأيه فيه .

— أتريد أن تقول إنك لم تعرض الفكرة على أحد قبلي .

— طبعاً لقد تداولت فيها مع شمس الدين ، ووزير الخارجية وأوصيتهما بالكتمان .

وضحك الملك ضحكته المدوية :

— لقد نجحت في إضحاكي يا رفعة الباشا . . كتمان ، وهل أصبح لنا سر .. إنني أراهنك أن الخبر الآن على كل الأفواه ، إن مصر كلها تعرف أنك تقابلني لتعرض على إلغاء المعاهدة . . إنها لعبة وأنا أعرفها . ولكني قلت لك ، لم يغلبني أحد في لعب القمار ، إنني سوف أدهشك ، وهذا هو سر النجاح في اللعب . . لقد جئتني وأنت تتصور أنني لن أوافق .. سوف أدهشك ، سأرد عليك لعبتك ، أنت تلعب بالنار والنار تحرق اللاعب بها .. إذهب واحضر مراسيم الإلغاء ، سوف أوقعها لك .. إنك لن تغلبني .

— ٣ —

كان الجو عاصفاً في كلوب محمد علي ، وقد أحاطت عشرات من دهاقنة الإقطاعيين والرأسماليين وشخصيات المجتمع بكريم باشا ثابت مستشار الملك والذي أوفده إليهم بناء على طلبهم ليهدئ من روعهم ، ويطلعهم على حقيقة الموقف . وكان الغضب والذعر يستولى على الجميع ، فانهالوا على كريم باشا بالاحتجاجات والاعتراضات ، وراحوا يتكلمون في آن واحد وتختلط عباراتهم ببعضها :

— هذا جنون ، كيف سمح الملك بالموافقة على هذا الجنون .

— لقد أسلمتم البلد للفوضويين والشيوعيين .

— لم تعد هناك حكومة ، سوف تخرب البلاد .

— فوزى السيد يعد جيشاً على رؤوس الأشهاد ، ويهدد بالموت والقتل كل من يعترض سبيله .

— كيف سمحت الحكومة لفوزى السيد بعقد هذه الاجتماعات فى طنطا والمنصورة والزقازيق والاسكندرية .

— هل تعرف يا اكسلانس ، أن لا أقل من خمسين ألفاً كانوا محتشدين فى ميدان المحطة بالاسكندرية ، لقد شهدت الاجتماع ، وكان الميكروفون ينقل إلى صراخ الجماهير ..

الموت للاقطاعيين .. الموت للرأسماليين .. لقد تصورت نفسى فى بلد أصبح شيوعياً .

— يا أفندم ، إن ذلك مكتوب ومسجل على صفحات المجلة الاشتراكية اتفضل هذا هو اسمى فى المجلة الاشتراكية باعتبارى خائناً أتجر مع الإنجليز .

— هذا تحريض سافر على الثورة وتحريض على القتل .

وارتفع صوت أحد دهاقنة السياسة من الوزراء السابقين :

— يا جماعة .. يا جماعة من فضلكم ، أهذه طريقة للحديث دعونى أستعرض الموقف فى هدوء .

المسألة يا كريم باشا أصبحت أخطر من فوزى السيد أو الحزب الإشتراكى أو المجلة الإشتراكية ، إن أخشى مانخشاه أن يتحول الشباب بالفعل إلى الشيوعية ، تصوروا ياجماعة أن ابنى أنا ولم يجاوز من العمر سبعة عشر عاماً ، كان يحدثنى بحماسة عن الشيوعية ، وكان يصفنى بأننى رأسمالى ، ويقول لى إن الرأسمالية يجب أن تزول . أما العمال فأنتم أدرى بما صاروا إليه . ولعل أخطر من ذلك كله هذه الفرق المسلحة التى تكونت فى كل مكان بحجة محاربة الإنجليز ، هل تتصورون يا سادة أنهم أوقفوا عربتى أنا شخصياً وأنا فى طريقى إلى العزبة ، ولم يسمحوا لى بالمرور إلا بعد أن فتشوها .

وزأر الحاضرون فى احتجاج وسخط ، وعادوا من جديد يتحدثون فى نفس واحد :

— لماذا لاتقول لنا بصراحة ياباشا أن نصفى أعمالنا ونترك مصر إذا كنتم قد قررتم تحويل البلد إلى شيوعية .

— إنكم تلعبون بالنار ، الكلمة اليوم أصبحت للعمال ، ألم ينسحب خمسون ألف عامل من القاعدة البريطانية ، وزحفوا جميعاً إلى القاهرة هذه هى بذرة البروليتاريا يا إكسلانس . . لقد قالها فوزى السيد . . الثورة آتية لاريب فيها ، وهذه هى الثورة .

وحاول كريم باشا الذى كان يبتسم طوال الوقت إبتسامة صفراء ، أن يوقف هذا السيل المتدفق من الاحتجاجات والاعتراضات . . ولكن عبثاً حاول أن يشير بيده طالباً منهم الاستماع إليه ، فقرر أخيراً أن يلازم الصمت حتى تهدأ هذه العاصفة .

— لقد أصبحوا يطالبون بمنع تصدير القطن إلى إنجلترا .

— لقد توقف عمال الشحن بالفعل بالإكسلانس بالأمس عن شحن السفن بالقطن .

— الله أكبر . . خربت مصر . من أين ستأكل الناس إذا كنا لانبيع القطن .

— إن ما يكاد يذهب بعقلى هو كيف يسمح مولانا بذلك كله . إن هذه الحركة موجهة ضده . . ضده مباشرة .

— لماذا لا تتكلم يا كريم باشا .. لماذا لاترد . . لماذا لاتقول شيئاً ؟

واكتشف الحاضرون أخيراً ، أنهم كانوا يتكلمون فى غير توقف ولا يدعون للرجل فرصة الكلام ، أو حتى سماع مايقولون فتوقفوا جميعاً فجأة عن الكلام ، ونظر بعضهم إلى بعض فى خجل وران صمت عميق على جو الحجرة الذى كان صاخباً منذ لحظة .

وتنحنح كريم باشا وقال :

— الحمد لله . أخيراً . هل انتهيتم ؟ هل قلتم كل ما عندكم ؟ لو أنكم صبرتم على ، واستمعتم لما جئت أحمله إليكم من مولانا ، لوفرتم على أنفسكم الكثير من الضيق .

إن جلالة مولانا يقدر كل التقدير ما أنتم فيه من قلق لما أصبح يجرى فى البلاد بعد إلغاء المعاهدة . ولا أكتمكم أنه لايقل قلقاً عن أى واحد منكم . ولم يتلفظ أى منكم بعبارة ، ليست صدى لما يجيش فى صدر جلالته .

ولا أفشى لكم سراً ، إذا قلت لكم إن جلالة الملك ساهر يراقب الموقف بالليل والنهار ، ويسجل الأحداث ويتابعها ويحللها ، ليتدخل فى الوقت المناسب ، ويحسم الأمور .

وانخفض صوت كريم باشا تلقائياً ، فأرهفت الأسماع نحوه أكثر وأكثر :

— لا أظنه قد غاب عنكم ، أن جلالة مولانا لم يكن باستطاعته عدم الموافقة على إلغاء المعاهدة ، وإلا لمكن الحكومة من أن تحرجه أمام الشعب . ولكن حكمة جلالة الملك اقتضت أن يفوت على الحكومة قصدها ، وأن يكشفها أمام الشعب والرأى العام ، لأنه كان متأكداً من أنها لن تلبث أن تعلن إفلاسها عندما تصطدم بالواقع . فلم يكن للحكومة أى خطة مرسومة عما يتبع بعد إلغاء المعاهدة .

ولكن . . . وقد طلب منى مولاى أن أكون صريحاً معكم . إن المفاجأة التى لم تكن فى حسبان أحد ، لا الملك ولا الحكومة نفسها ، أن الحكومة لا تكاد تعلن إلغاء المعاهدة ، حتى يتولى الشعب بنفسه على الفور ، تحويل هذا الإلغاء من حبر على ورق إلى حقيقة مادية ، فاذا بالفدائيين يخوضون المعارك بالفعل فى بور سعيد والاسماعيلية والسويس . ثم جاءت هذه الطامة الكبرى ، بانسحاب الألوف من العمال فى القاعدة الإنجليزية ، وبدأت الاصطدامات والمعارك الدامية .

وأستطيع أن أؤكد لكم أن الحكومة قد أخذت بهذا الذى حدث ، ولم تستطع إلا أن تجارى التيار الشعبى حتى لا يفلت من يدها الزمام ، ولكنها كانت مترددة متباطئة وغير مستعدة ، فكانت هذه الفوضى التى ترونها .

وعندما وصل كريم باشا إلى هذا الحد من حديثه . . انفجرت من جديد موجة الاستنكارات والاحتجاجات ، وعاد الكل يتكلمون فى آن واحد :

— وما الذى ينتظره جلالة الملك بعد أن اعترفت بأن الأمور أصبحت فوضى ؟

— كيف رضى مولانا ، أن يجعل وزير الداخلية منا سخرية أمام العالم ، وهو يأمر بوليس مدينة السويس بأن يقاوم الدبابات الإنجليزية والمدافع والطائرات ، ليحول بينهم وبين تدمير كفر عبده .

أسمع أحد بهذا العبث . . بوليس يقف فى وجه الجيش البريطانى .

— اسمعوا يا جماعة ، فى رأيى أنه لم يعد هناك حل للموقف إلا أن يعود الإنجليز لاحتلال القاهرة والإسكندرية ووضع حد لهذا العبث .

— عسى أن يفعلوا ذلك قبل فوات الأوان ، ونحن لا نزال على قيد الحياة .

— ما الذى قاله لكم السفير البريطانى عندما اجتمعتم به فى نادى الجزيرة بالأمس .

واكتشفت الجماعة من جديد أنهم يتكلمون فى آن واحد ، فعادوا إلى الصمت ليسمحوا لكريم باشا أن يتم كلامه .

وقال كريم باشا فى سخرية :

— إذا كان هذا هو الأسلوب الذى ستواجهون به ما نحن فيه من

موقف عصيب فقل على البلد السلام . ماهذا يا سادة ألا تدعوننى أتم حديثى بدون مقاطعة ؟

ولم يحر الجميع جواباً ، فاستأنف كريم باشا حديثه :

— لو أنكم تركتمونى أتحدث لأرحت بالكم . إننى قبل أن أجىء إليكم ، مررت بناء على تكليف من مولانا بأخينا شمس الدين ، وسألته كيف سمح للحزب الاشتراكى أن يقيم هـذه الاجتماعات الحاشدة فى مصر والإسكندرية والزقازيق وطنطا وغيرها ، فأجابنى أنه قد تصور بعد أن أعلن الحزب الاشتراكى تأييده للحكومة والوقوف فى صفها بعد إلغاء المعاهدة ، فسوف يكون أكثر اعتدالا ، وقد وجه فوزى السيد بالفعل خطبه النارية ضد الإنجليز ، ولكن الجماهير الشعبية كانت تدفعه إلى التحدث عن الأغنياء والإقطاعيين والرأسماليين ، ولذلك فقد أصدر وزير الداخلية أمره بمنع اجتماعات الحزب الاشتراكى .

— والكتائب .. والأسلحة ؟

— أما بخصوص الكتائب والأسلحة ، فقد أعدت الحكومة بياناً يذاع الليلة ، تحظر فيه على الأحزاب والجماعات تدريب المتطوعين ، أو إحراز السلاح ، أو جمع تبرعات لهذا الغرض . وستقوم الحكومة بنفسها بهذه العمليات تحت إشرافها ، وقد تم بالفعل الاستيلاء بالأمس على معسكر تدريب الحزب الاشتراكى فى العباسية ، وعلى ما كان فيه من أسلحة . وصدرت التعليمات المشددة للبوليس ، أن يقبض على أى متطوع فى غير مدن القتال يحمل السلاح .

وصاح كبير تجار القطن :

— وموضوع القطن وإضراب العمال عن شحن السفن بالقطن ؟

وأسرع كريم باشا يقول فى ثقة وتأكيد وحزم :

— أما هذا الموضوع فأرجو أن تعتبروه منتهياً ، لقد كان جلالة الملك حفظه الله فى هذه الناحية حاسماً ، ووجه إنذاراً إلى الحكومة أن تنهى هذا الإضراب واعتقال المحرضين عليه ، والضرب بشدة على كل من يتحدث فى هذا الموضوع . ولو اتصلت بمكتبك الآن فى الإسكندرية لعلمت أن شحن السفن بالقطن قد استؤنف ، فأنا لم أغادر مكتب الوزير إلا بعد أن تأكدت من ذلك .

وأسرع كبير تجار القطن إلى التليفون يتصل بمكتبه فى الإسكندرية بينما تدخل الباشا أحد أقطاب نادى الجزيرة ، والذى كان له شرف التحدث مع السفير البريطانى فى اليوم السابق ، فقال فى هدوء وتثاقل :

— المسألة يا كريم باشا ، إن هذه كلها حلول مؤقتة ومسكنات لا تقدم ولا تؤخر ، بالنسبة لحقيقة المشكلة التى أصبحت البلاد غارقة فيها . إن الأمور لو استمرت على هذا المنوال أسبوعا آخر أو أسبوعين ، فإن البلاد ستخرب حتما . لقد اصبحت الحكومة الحاضرة متورطة حتى الأذقان ولن يكون بقدرتها حتى لو أرادت أن تتراجع فيما اتخذته أو تعتزم اتخاذه من إجراءات . لقد سحبت سفيرنا من لندن تمهيداً لقطع العلاقات مع الإنجليز . وماذا بعد قطع العلاقات إلا ازدياد الفتنة واستشراء الفوضى . إن الكثير منا أصبحوا يفكرون جدياً فى ضرورة عودة الإنجليز لاحتلال القاهرة ، لضمان سلامتنا وأمننا ، وهذا بدوره حل غير مرغوب فيه ، والانجليز أنفسهم يتحاشونه ويتفادونه ، فلم يبق من حل لتهدئة الموقف إلا أن تقال الوزارة ، وتؤلف

وزارة جديدة ، يقوم برنامجها على التصالح مع الإنجليز . وقد قال لى السفير البريطانى بالأمس ، إن الانجليز على استعداد للتفاوض فى موضوع الجلاء بمجرد هدوء الحال .

وتلفت الجميع صوب كريم باشا ليروا وقع هذا الاقتراح الذى أدلى به قطب نادى الجزيرة ، الذى كان مجتمعاً فى اليوم السابق بالسفير البريطانى .

— أنا لست فى حل من أن أذيع لكم الأسرار ، ولكن يجب أن تطمئنوا إلى أن مولانا كما قلت لكم ساهر على البلاد ومصالحها ، وهو يرقب الموقف بدقة .. ومن الأمور التى كلفنى بابلاغكم إياها بالرغم من أنها لم تذع بعد ، أنه وقع اليوم أمراً ملكياً بتعيين حافظ باشا عفيفى رئيساً للديوان .

وانطلقت لأول مرة فى نادى محمد على ، عاصفة من التصفيق ، كالو كان قد تحول إلى ناد للطلاب أو العمال ، فليس من سمات الطبقة الأرستقراطية أن تصفق ، ولكن وقع هذا الخبر عليهم قد هز مشاعرهم ، فنسوا أنفسهم وراحوا يصفقون .

وكأنما حلا هذا التصفيق لكريم باشا ، فلم تكد تهدأ حرارة التصفيق حتى ألقى قنبلته الثانية :

— كما أصدر قراراً آخر بتعيين عبدالفتاح باشا عمرو سفيرنا فى لندن مستشاراً خاصاً له .

وارتفعت حرارة التصفيق من جديد ، وانهالت التعليقات المرحة المتفائلة هذه المرة .

— هذه ضربة معلم .

— سوف تهدىء هذه التعيينات بال الإنجليز ، إذ تـكشف لهم عن اتجاه مولانا .

— ضربة معلم .. أشهد أنها ضربة معلم .

ولـكن قطب نادى الجزيرة ، تدخل من جديد وهو لا يخفى ضيقه وتململه :

— إن الموقف أخطر من أن يتسع لهذه المناورات ، ولا بد من العمل السريع ، إن هذه الوزارة يجب أن تقال فوراً .

وظهر الغضب لأول مرة على وجه كريم باشا :

— يا باشا إن الأمور لا تعالج بهذا الأسلوب ، عندما أقول لك إن جلالة مولانا ساهر على مصالح البلاد ، فلا ينبغى أن يكون لك بعد ذلك قول . إنه وحده الذى يزن الأمور ويقدر الموقف ، ويتصرف بالحـكمة اللازمة فى الوقت المناسب . ويجب أن تترك هذه المسائل لحـكمة جلالته .

ووافق الجميع على أن حكمة جلالة الملك تعلو كل حكمة ، وما دام جلالته ساهراً على مصالح البلاد ، فهم يدعون له بالنجاح والتوفيق ، وهم معه قلباً واحداً على كل من يعارضه أو يعاديه . وراحوا يتبارون فى تحميل كريم باشا عميق ولائهم للسدة الملـكية .. ثم أسرعوا بعد ذلك إلى التليفونات يذيعون أنباء تعيين حافظ باشا وعمرو باشا .. بينما أسرع آخرون فاستقلوا سياراتهم للاتصال بصاحبى السعادة شخصياً .

— ٤ —

كان فوزى السيد قد نقل مركز نشاطه بمجرد إعلان إلغاء المعاهدة وبدء حركة المقاومة الشعبية ضد الإنجليز ، إلى مدينة الزقازيق ليكون قريباً من خط النار فى التل الكبير ، وليشرف على أعمال الفدائيين من أعضاء الحزب .

واستضافه رئيس شعبة الحزب بالشرقية ، وأحاطه بالحفاوة والرعاية ، ولكن ذلك كان يضايق فوزى السيد .

وكان فوزى السيد مهموماً مشغول البال عند ما قال له صاحبه الدكتور :

— لقد أعد طعام الإفطار .

وابتسم فوزى فى مرارة ، ونظر إلى صاحبه وقال فى مرارة :

— أنا أعرف أنه معد ، وأعرف أنك أعددته كالعادة فاخراً ، غاصاً بكل المشهيات .

وضحك الدكتور وقال :

— أظن أننا يجب أن نأكل.

— طبعاً يجب أن نأكل ، ولكن هل أكل الشهداء الذين ماتوا بالأمس والذين ستشيع جنازاتهم اليوم ؟

— إنها الحرب ، ويجب أن يكون لكل حرب ضحايا .

— أواثقون نحن أولا أننا نحارب، أخشى أن نكون عابثين وأننا نغرر بهؤلاء الشبان . إن الحرب إعداد وتسلح وخطط ، فأى خطط وضعناها وأى إعداد اتخذناه ، وأى أسلحة نستعملها ، أولم يمت الشباب الجامعى بالأمس كما لو كانوا ذبابا ؟

— إنك تعرف جماعة الدعوة المحمدية ، وهذا الافتتان الذى يغرسه قادتها فى نفوس الشباب الذين ينضوون تحت لوائها ، من حب الموت ، حتى لقد اتخذوه شعاراً لهم . إنهم يقبلون على الموت كما لو كانوا يزفون إلى عرائسهم . أى جنون أن ينقضوا على الأسلاك الشائكة المكهربة بدون حذر أو احتياط ، فتصعقهم الكهرباء ، ويحصدهم الرصاص . ومع ذلك إن موت من يموت لا يذهب سدى ، إن المعركة تزداد كل يوم تأججاً وضراوة . إن الزقازيق كلها ستحتفل بجنازة هؤلاء الشهداء ، وستقدم المزيد من الفدائيين . من الذى كان يظن أن شعبنا سيستبسل كل هذا الاستبسال ويحول فى بضعة أسابيع أمنع قلعة للانجليز فى الشرق التى تصدعت عليها جحافل الألمان ، إلى سجن للانجليز وجحيم وسعير ، لا يعودون فيه آمنين على أنفسهم أو أرواحهم . ويصبح كل همهم أن يستجلبوا فى كل يوم جنوداً وقوات جديدة ليدافعوا عن أنفسهم .

— إن الشعب هو الذى حول الموقف إلى هذه الصورة التى تصفها ، وهو يقاطع الإنجليز ولا يتعاون معهم ، وعشرات الألوف من العمال تترك العمل فى القاعدة ، ولكن ذلك كله أصبح مهدداً بموقف الحكومة المتخاذل المتردد بين المد والجزر ، فهى تنقض فى يوم ما أبرمته فى اليوم السابق .

وإن قلبى يحدثنى أن الملك يعد العدة بالتآمر مع الإنجليز لضرب

الشعب والحكومة معاً. ألا ترى موقفه العجيب فى إبعاده الجيش عن هذا الصراع ، كما لو كان هذا الذى يقع يجرى فى بلد . . .

وقطع القول على فوزى هدير عربة جب تقترب من البيت . وقفز فوزى من فرط الانفعال ، فقد كان أشد ما يتوق إليه هو سماع هذا الهدير ، وكلما مرت الدقائق دون أن يسمعه ، يمتلىء بالغم والحزن واليأس .

وسرعان ما تحقق رجاؤه ، فقد ارتفعت أصوات الفدائيين من ركاب الجيب وهم يصرخون :

— الله أكبر ... الله أكبر .

وما حدث بعد ذلك كان أشبه بزوبعة أو عاصفة ، فقد هبط من العربة الجيب قبل أن تتوقف تماماً عشرة من الفدائيين ، اندفعوا إلى داخل البيت حيث كان يقيم فوزى ، الذى لم تكد عيناه تقعان عليهم ، حتى راح يعانقهم فى فرح ونشوة ، بينما كان بعضهم لا يزال يهتف مكبراً .

— كلكم بخير ؟ عدتم سالمين .

— كلنا .

— لا أحد أصيب ، لا أحد جرح .

— لا أحد . . لا أحد . . ولكن ليس هذا هو المهم . . لقد قتلنا دورية انجليزية بأكملها وأحضرنا لك أوراق ضابطها وسلاحه .

ولم يعن فوزى بسماع هذا الشق الأخير من حديث الشباب ، فقد كان غارقاً فى موجة طاغية من الفرح والشكر لله ، لعودتهم سالمين .

ما أمر اللوعة التى أحس بها طول الليل بعد أن انطلقوا للقيام باحدى عملياتهم الليلية فى معسكرات التل الكبير . ما أعظم الجزع والفزع الذى انتابه ، من أن يموت واحد منهم ، أو يصاب بتشويه أو يفقد ذراعاً أو عيناً أو ساقاً .. لقد كان يحس بفداحة مسئوليته . كانت الكثرة الغالبة من الآباء والأمهات لهؤلاء المتطوعين ، يعتبرونه هو الذى خطف أولادهم ، وهو يزج بهم إلى حتفهم ، وكان هذا هو الذى دفع فوزى إلى نقل إقامته من القاهرة إلى الزقازيق والذى جعله يرتاد مناطق الصراع بنفسه قبل القيام بأى عملية حتى يشارك زملاءه مخاطرها ...

ولوح طولان فارس الفدائيين بمسدس ضخم فى يده وهو يقول فى فرح:

— هذا مسدسه .

— مسدس من ؟

وصاح الجميع :

— الضابط الذى قتلناه .

وقدم له عبد العزيز بطاقة شخصية للضابط ، وراح كل يقدم لفوزى بعضاً من مخلفات الضابط .

— وهذه قبعته .

— وهذه ساعة يده .

— وهذه حافظة نقوده .

— وهذا مشط كان يمشط به رأسه .

— وهذه مفكرته .

وصرخ الدكتور محمود فى الجماعة ، وطلب من رئيسهم عبد العزيز ، أن يقدم تقريراً شفوياً عما حدث . وقص عبد العزيز القصة :

— لقد ذهبوا حسب الخطة الموضوعة ، إلى المكان المحدد على مشارف معسكر التل الكبير ، وكمنوا فى المزارع طول الليل حتى إذا طلع الفجر شاهدوا دورية من أربعة جنود تمشى فى بساطة واسترخاء وعلى رأسهم ضابط ، ففتحت الجماعة عليها نيران مدفعهم الرشاش فأخذوا الدورية على غرة فسقطوا جميعاً على الأرض .

وكان طولان أول من تقدم ليستطلع الموقف ، فوجد الضابط قد فارق الحياة ، فشرع يجرده من عهدته وحاجاته الشخصية ، ولحق به باقى الجماعة ، ليجردوا بقية العساكر ، ولكن قوة إنجليزية سمعت صوت إطلاق النار ، فأسرعت تقترب من مكان الحادث ، فانسحبت الجماعة على الفور .

ولم يتمالك فوزى وهو يسمع القصة وكيف عادوا سالمين من أن يهتف :

— الله أكبر . . الله أكبر . . فتح ونصر .

وانقض الفدائيون على مائدة الطعام التى كانت مجهزة له ولصاحبه ، بغير استئذان ، فغمغم فوزى فى سرور وسعادة :

— أجل كلوا .. كلوا هنيئاً مريئاً .. فأنتم الأحق بالطعام ، والأحق بالقيادة والزعامة .

— ٥ —

عاد فوزى منهوكا بعد سيره فى جنازة الشهداء الحاشدة وتطوافه ، عقب مواراة جثمان الشهداء ، فى أنحـــاء الزقازيق يعرض على الجماهير أسلاب الضابط الإنجليزى ، قبعته ، ومسدسه ، فتجأر الجماهير بالتكبير والتهليل ، وتنسى أحزانها لمصرع من صرع من الشهداء .لقد كانوا يرون أن موت إنجليزى واحد ، يفت فى عضد الإمبراطورية كلها ، لأنه الدليل على أن الشعب المصرى لم يعد يخشاهم ، لايخشى أساطيلهم ، أو مدافعهم أو دباباتهم ، فيهاجمهم وينقض عليهم ، وكلما زادوه بطشاً وتنكيلا زادهم تربصاً ومقتاً وقتلا .

إن موت إنجليزى .. وموت ضابط بصفة خاصة ، كان يصور مدى التحول الذى صارت إليه القاعدة .. القاعدة التى تصور الإنجليز أنها محور إمبراطوريتهم .

وارتمى فوزى على الفراش ليأخذ قسطاً من الراحة بعد سهره طول الليل ، وما عاناه من توتر فى انتظار ما تسفر عنه هذه المغامرة ، والانفعال الذى ألم به بعد ذلك ، ارتمى على الفراش ، ولـكنه راح يقلب فى مفكرة الضابط الصريع .لقد اكتفى عند ما تسلمها بمطالعة اسم الضابط ورتبته — وليم جونس ، بدرجة ملازم أول . أما الآن فهو يريد أن يتصفح المفكرة ورقة ورقة وأن يقف على أسرار الرجل الراحل وحديث نفسه .

وفوجىء فوزى بأوراق المفكرة كلها بيضاء لا تحوى شيئاً ، وسرعان ما تنبه إلى أنهم كانوا فى مطلع العام الجديد ، يناير من عام ١٩٥٢ .

ولـكن بعض كلمات فى بعض الصفحات استوقفته وهو يعيد تقليب الصفحات .

— عيد ميلاد أمى .

وحدق فوزى فى تاريخ ميلاد أم الضابط الصريع .. إنه ٨ مارس

وخفق قلب فوزى وامتقع وجهه .

— ٨ مارس !!

إنه اليوم نفسه الذى ولد فيه . لقد ولدت فيه أم هـــذا الإنجليزى الصريع . وأى شىء فى ذلك لقد ولد فى هذا اليوم مئات الألوف فى أنحاء الأرض .

وراح فوزى بعد هذا الاكتشاف الجديد يقلب صفحات المفكرة فى عناية فوجد عبارة أخرى فى يوم ١٦ مايو .

— عيد زواجى باليزابيث .

وخفق قلب فوزى من جديد وغمرته موجة من الـكآبة .

— عيد زواجه .. لقد كان متزوجاً !

وفى الخامس من أكتوبر :

— عيد ميلاد ابننا الحبيب إدوارد .

وأحس فوزى بقلبه ينعصر والدموع تطفر فجأة من عينيه وأغلق المفكرة ، وأغمض عينيه واستسلم لأفكاره الحزينة :

إنه لم يغب عنه فى يوم من الأيام ، أن الإنجليز بشر كباقى البشر ، لهم أسر وأمهات وأولاد .. بل لقد سجل هذا المعنى فى خطابه الذى بعث به إلى أرسكين رئيس القوات البريطانية ، وحمله إليه فدائى حمل علماً أبيض . لقد ناشده فى هـذا الخطاب ، أن يحقنوا دماءهم ويعودوا إلى أسرهم ، بدلا من مواجهة الكراهية والحقد والموت الذى أصبح يحوطهم فى أرض مصر . أجل لم يغب عنه أن الإنجليز بشر ، وأن لهم عواطف وقلوباً ومشاعر ، بل إنه وقد زار انجلترا أكثر من مرة وعاش بين ظهرانى الإنجليز ، فطالما أعجب بهم وبأخلاقهم وشمائلهم وأدبهم . ومع ذلك فإن هذه العبارات البسيطة قد هزت نفسـه فى عنف كما لم يهتز من قبل :

— عيد ميلاد أمى .

— عيد زواجى باليزابث .

— عيد ميلاد ابننا الحبيب إدوارد .

وأدرك فوزى لماذا خط وليم جونس هذه التواريخ دون تاريخ ميلاده هو .. لقد سجلها لـكى يكتب لأمه أو زوجه أو يبرق لهما بهذه المناسبات الثلاث ، أما الآن فوا أسفاه . . كل الذى ستتسلمه أمه الآن وزوجه ، أنه مات .. مات فى بلاد بعيدة ولن يرجع إليهما أبداً .

وأحس فوزى إزاء الموت بزوال الفوارق بين بنى البشر ، لم يعد وليم جونس عضواً فى إمبراطورية عاتية ، لم يعد جندياً فى جيش مغتصب ،

لقد أصبح مجرد الإنسان .. إنسان كأى إنسان آخر له أم تبكى عليه وزوجة تحبه ، وإبن سيصبح يتيما .

وأحس فوزى بضيق فى تنفسه ، فأسرع إلى النافذة يفتحها ، وأنعشه الهواء ، وقلل من حرارة جبهته الملتهبة :

— لماذا .. لماذا يا رب يتقاتل بنو البشر ، لماذا يقتل الإنسان أخاه الإنسان ، لماذا يستعلى بعضهم على بعض ، ويستغل بعضهم بعضاً ، فيزرعون القلوب بالحقد والكراهية والرغبة فى القتل .

ماذا عليهم لو تحابوا ، لو تعاونوا . هل التعاون بين البشر مستحيل؟ أبداً .. إنه لا يمكن أن يكون مستحيلا وهو ناموس الحياة الأول . إن التعاون لا التنابذ هو أساس المجتمع الإنسانى ، وإذن فالحب لا يمكن إلا أن يكون أقوى من الكراهية والبغض ، لأنه بغير حب لا تقوم حياة .

لا .. لا إنه لن يكون قاتلا أبداً .. بل لن يسهم فى التحريض على قتل إنسان ، إذا كان ولا بد فى كل معركة من يدفع عن النفس وعن الجماعة بالقتل ، فليقتل غيره أما هو فليس باستطاعته أن يسيغ القتل .. ليس باستطاعته أن يحرض عليه .

وعاد بذاكرته إلى معركة فلسطين ، عند ما ألقى بسلاحه ، وفضل فى المرات التى دخلها بعد ذلك خلال المعركة ، عند ما توجه إلى القدس ، ودخل غزة من الجنوب ، أن يكون هو الضحية من أن يقتل يهودياً .

ويصرخ فكر فوزى :

— ولكنها معركة مصر ، المعركة التى عاش طول عمره يدعو لها ويبشر بها ، أيجبن الآن عن مواصلتها !

— لتمض المعركة فى طريقها ، نحو القدر لها ، أما هو فيجب أن يكون أميناً مع نفسه ، إنه ليس من رجال الحرب ، ليس من رجال القتل .. إنه صاحب فكرة ومبدأ ، إنه داعية حق وسلام ، سلاحه هو وجدانه وعقيدته ، وهو على استعداد أن يموت فى سبيل هذه العقيدة ولكنه ليس على استعداد أن يقتل .

إنه يجب أن يعود إلى القاهرة حالا . يجب أن يعلن لأخوانه أنه غير صالح للاستمرار فى هذه المهمة ، مهمة قيادة الفدائيين ، فضلا عن أنه فقد إيمانه بسلامة المعركة .

بدأ يحس بما يدبر فى الخفاء لطعن الشعب ، إنه يجب أن يعلن ذلك . يجب أن يحذر الشعب مما سيحل به من كوارث نتيجة الخيانة والتآمر ، الذى أصبح يشم رائحتهما فى الهواء . يجب أن يغسل يديه ويبرىء نفسه من هذه الفوضى على رؤوس الأشهاد . وعليه أن يعتزل بعد ذلك الحياة العامة بعد أن أثبتت الحوادث والتجربة أنه لا يصلح لها .. وإلا فأى قائد هذا أو زعيم ، الذى يكاد يموت هلعاً من فكرة أن يصاب أحد رجاله بسوء ، والذى تدمع عيناه لموت إنجليزى .. والذى تهزه كلمات ثلاث كما لم يهتز طول حياته .

— عيد ميلاد أمى .

— عيد ميلاد زواجى باليزابث .

— عيد ميلاد إبننا الحبيب إدوارد .

الفصل الثانى

— ١ —

— ألو .. ألو معالى الوزير . هنا الإسماعيلية .

— نعم يارائف أنا شمس الدين .

— هل أتصل بكم على بك حلمى وكيل المحافظة ؟

— أجل وحدثنى عن تحركات مريبة للانجليز حول مبنى المحافظة .

— نفس الحركات تحدث الآن حولنا فى الشكنات ، إنهم يعدون لحصارنا . إننى أرى الآن من مكتبى وأنا أخاطب معـــاليك الدبابات والمصفحات الانجليزية تتخذ مواقع حولنا . اليوزباشى مصطفى رفعت يطلب منى أن نوجه إنذاراً للانجليز بالابتعاد وإلا أطلقنا عليهم النار .

— حذار يارائف .. حذار أن تبدأوهم بأى عمل استفزازى يتخذونه ذريعة للاعتداء عليكم . إن سياستنا أن نلزمهم الحجة ، وأنهم البادئون بالعدوان .

أسمعت بيانى فى مجلس النواب عن عدد قتلى الانجليز وجرائمهم ؟

رائف .. رائف .. ألو .. رائف .

— عفواً يا معالى الباشا كان اليوزباشى مصطفى رفعت يبلغنى أن الانجليز قد احتلوا الطريق الوحيد الباقى خلف الشكنات ومعنى هذا أنهم

أحكموا حصارنا .. وهو يقول لى إن الانجليز تدبر أمراً خطيراً .. ماذا نفعل يا باشا .. كيف نتصرف .

— الثبات .. عليكم بالثبات يا رائف حتى النهاية . أنا متصور أن الانجليز يحاولون إرهابنا ، يقومون بمظاهرة عسكرية حول مبنى المحافظة وثكنات البوليس للضغط علينا ، ولكن أنا معتمد على وطنيتكم وعلى شهامتكم ، وأنكم ستقومون بالواجب وتشرفوننى ، وتشرفوا بوليس مصر .. كم عدد القوة عندكم يا رائف ؟

— القوة التى قمنا بها من مصر يا باشا ، ٨٠٠ عسكرى حولى الآن فى الثكنات ، وباقى الألف فى دار المحافظة .

— أعتقد أن هذه قوة كافية .

— يا باشا المسألة لم تعد مسألة بنادق ، إنها مسألة دبابات ومصفحات . وأنا أرى أن تبادروا بتوجيه إنذار من عندكم وتوجهه من عندنا ، أنه إذا اعتدى علينا ، فسوف يتدخل الجيش المصرى .. ويجب أن تتحرك بطارية مدفعية .. ثقيلة لتكون بجوارنا .

— يارائف أنا قلت لك قبل سفرك إلى الإسماعيلية إن موضوع الجيش هذا ليس فى يدنا ، إن جلالة الملك وهو قائده الأعلى يرى أن يبقى بعيداً عن المعركة فى هذه المرحلة .. إننا نعمل وفق خطة موضوعة ، أن نعمل الآن من خلال البوليس باعتباره المسئول عن حفظ الأمن والنظام فى منطقة القنال ، ولهذا أرسلناك بهذه القوة .

— إذن يا أفندم ، لا أقل من أن تزودنا ببعض المدافع الرشاشة

والمضادة للدبابات والقنابل اليدوية ، إن الانجليز إذا هجموا علينا الآن فسوف نفنى عن بكرة أبينا ، أو نقع فى الأسر .

— ما هذا يارائف ؟ يبدو لى أن أعصابك متوترة ، وأنا أؤكد لك أن الانجليز لن يفعلوا شيئاً إنهم يقومون باحدى مناوراتهم للضغط والإرهاب ، ولكننى واثق من رجولتكم . أما حكاية تزويدكم بالمدافع الرشاشة أو القنابل ، فإن هذا سيزود الانجليز ضدنا بحجة أننا بدأنا عليهم الحرب وهذا هو ما يريدونه . هل سمعت فى حياتك عن بوليس يسلح بمدافع رشاشة وقنابل يدوية ومدافع مضادة للدبابات ..

لا يا رائف .. إننا نعمل فى حدود القانون والنظام .. وأرجوك أن تطمئن ، إن الحكومة ساهرة عليكم ، وهى معكم ، الشعب كله معكم .. كرامة مصر فى أعناقكم .

وأنا أرجوك أن تتصل بى أولا بأول لتحيطنى بكل التطورات .

— أخشى أن أزعج معاليكم .

— لا تقل هذا يارائف ، سوف أظل ساهراً إلى جوار التليفون طول الليل لأسمع أنباءك .

— ربنا يطول عمرك يا معالى الباشا .

* * *

— ألو .. أنا حلمى . عفواً يا باشا لإزعاجك فى هذه الساعة المبكرة .

— أبداً . . أبداً أنا لم أنم طوال الليل .. خير إن شاء الله .

— اليوم يا أفندم فى الساعة الخامسة والنصف أى منذ ربع ساعة فقط توجه ضابطان بريطانيان إلى منزل ضابط الاتصال البكباشى شريف .

— الله يخرب بيتهم الساعة الخامسة صباحاً .. ماذا يريدون لعنة الله عليهم .

— طلب منه التوجه لمقابلة إكسهام قائد القوات البريطانية فى بورسعيد ، وعندما ذهب إليه سلمه إنذاراً بوجوب جلاء كل قوات البوليس عن دار المحافظة والثكنات وتسليم أسلحتهم ومبارحة منطقة القنال كلها فى خلال ساعة واحدة من الآن .

— لكن هذا ليس من حقه ، أو لم يحتج عليه شريف .. ؟ إن هذا مخالف لاتفاق أرسكين مع غزالى ، إن صيانة الأمن فى منطقة القنال ، هى من أخص خصائصنا ، نحن دولة ذات سيادة على أرضها ، ومنطقة القنال جزء من مصر .

— يا أفندم لقد رفضنا الإنذار ، والحق أن اللواء أحمد رائف كان فى منتهى الشجاعة ، وقال لهم : إننا نتلقى أوامرنا من وزير داخليتنا وحكومتنا لا من القائد الانجليزى ، الذى يجب أن يتلقى منه هو الأوامر لأنه مسئول عن حمايته ، وطلب منه أن يبتعد بدباباته ومصفحاته عن دار المحافظة وثكنات البوليس .

ورقصت السيجار على فم شمس الدين باشا وهو يهتف :

— برافو .. برافوا يا حلمى أنا أشكركم باسم الحكومة والشعب على هذا الموقف الرائع ، وسوف أنوه به الليلة فى البرلمان .

حلمى .. حلمى .. ما هذه الغاغة والزياط .

— إنه تبليغ جديد جاء فى هذه اللحظة ، إن مهلة الساعة قد انقضت وإذا لم نسلم أسلحتنا فوراً ، فسوف يشرعون فى دك المحافظة على رؤوسنا . لمعلوميتكم يا باشا إن القوة البريطانية التى تحاصرنا تزيد عن سبعة آلاف جندى ، مزودين بالمدفعية الثقيلة ومدافع الهاون والدبابات .

ورفع الرجل صوته فقد بدأ أزيز الطائرات يزحم الجو .

— يا حلمى أنا بصفتى وزير الداخلية ، لا أستطيع أن أتخلى عن مسئوليتى وأوافق على أن تسلموا أسلحتكم للانجليز .. وعلى كل حال فسوف أتصل برفعة الباشا .. إنه لا يزال نائماً بطبيعة الحال ، ولا يجب إزعاجه فى مثل هذه الساعة المبكرة ، ولكنى لا استطيع التصرف قبل أن أتصل به .

* *

— ألو .. ألو .. لست أسمع صوتك يا رائف أرفع صوتك ، ما هذا الدوى والانفجارات .

— لقد نفذ الانجليز إنذارهم يا معالى الباشا ، والقنابل تتهاوى حول المحافظة على سبيل الإنذار ، ولكن الروح عالية جداً بين أفراد القوة يا أفندم . اليوزباشى رفعت يقول بأعلى صوته إن الانجليز لن يتسلموا منا إلا جثثنا .

— ماذا تقول . . إننى لا أسمع شيئاً .

— انجدنا بالجيش يا معالى الوزير . . لو تحرك الجيش فسيكف الانجليز ، إنهم يخافون ولكن لايستحون .

— لست أستطيع سماع صوتك .. ماذا تقول .. زعق .

— الجيش .. الجيش .

— لعنة الله على الانجليز ، يظهر أنهم لم يكونوا يهوشون هذه المرة .. رائف . . يا رائف . . ألو .

— . . .

— يا حسنين .. يا حسنين لماذا انقطعت المكالمة ؟

الخط مقطوع يا أفندم . لا أحد يجيب

— جرب الاتصال اللاسلكى . .

— لا أحد يجيب يا صاحب المعالى .

— ٣ —

لم يجد فوزى جريدة الأهرام صباح يوم السبت ٢٦ يناير فى مكانها الذى اعتاده كلما فتح عينيه صباحاً ، وهتف منادياً زوجته فى عصبية :

— وفاء .. وفاء .. أين الأهرام ؟

كنت متأكدة أن حديثك عن الاعتزال والاعتكاف ، شىء لا تقدر عليه ، أولم نتفق على أن تكف عن قراءة الصحف لفترة من الزمن .

— ولكن يا وفاء .. أحداث أمس .. أحداث الإسماعيلية شيء رهيب .. لابد أن أقف على تفاصيلها ، لابد أن أعرف ماذا حدث ؟

— لقد كنت متأكدة من ذلك . إنك قطعة من الحياة العامة والحياة العامة نبضك والدم المتدفق في شرايينك ، ولذلك فقد أحضرت لك ، لا الأهرام فقط ، بل كل الصحف .

الأهرام والأخبار والمصرى .

ولمعت عينا فوزى بالفرح وهو يخطف الصحف من يد وفاء وهو يقول لها :

— أنت ملاك يا وفاء ، أنت ملاك . ماذا كنت أصنع بدونك ؟

ولكن ابتسامة الغبطة التى شاعت فى وجهه ، اختفت على الفور واحتقن وجهه واربد وهو يطالع العناوين الحمراء المخيفة :

المدافع البريطانية تهدم مبنى المحافظة فوق رؤوس المدافعين . الضباط والجنود يرفضون الاستسلام — استمرت المقاومة حتى آخر طلقة — أسر ٩٠٠ ضابط وجندى — استشهاد خمسين شهيداً وجرح ثمانين جندياً وضابطاً — اللواء أحمد رائف ، واليوزباشى مصطفى رفعت من بين المأسورين . القائد البريطانى يحنى رأسه لرجال البوليس ويعلن أنهم دافعوا بشرف واستسلموا بشرف ، فحق عليه احترامهم جميعاً ضباطاً وجنوداً .

ووثب فوزى جالساً فى الفراش ، وقد تملكه الهياج والثورة ، لقد سمع هذه الأنباء بالأمس فى الراديو ، ولكنها كانت موجزة وكان ضعيفاً

منهوكا ، وكانت قداختلطت الأمور فى رأسه مذ دعا إلى مؤتمره الصحفى ودرجة حرارته أربعون ، وحذر وأنذر من الكوارث التى توشك أن تتردى فيها البلاد ، وأعلن انسحابه من الحياة العامة ، وظل طول الليل بعدها يهذى على ماتقول له وفاء.. أما الآن ، وقداستيقظ صافى الذهن ، وقدهبطت حرارته بعض الشيء ، فقد استوعب الأخبار . . استوعبها بكل عمقها ودلالتها ، وهى تعكس مأساة مصر فى هذه الفترة من حياتها ، شعب ثائر فائر يفيض بكل صنوف البطولات ، وعلى استعداد لبذل أقسى التضحيات ، ولكن الحكومة التى تقوده وتوجهه عاجزة ، حائرة ضعيفة مترددة .

ودق جرس التليفون ، ووجد فوزى فى رنينه متنفساً لغضبه وحنقه ، فمد يده إلى التليفون ليجيب عليه ، واعترضت وفاء :

— إنك مريض يا فوزى ، أو لم نتفق أن لا صحف .. لا رد على التليفون .. دعنى أرد أنا .

— أرجوك يا وفاء .. دعينى .. إننى أختنق وفى الكلام تنفيس عما فى صدرى .

وحملت وفاء التليفون إليه .

— أجل أنا .

— أنا وصفى ، كيف صحتك يا أستاذ .

— الحمد لله يا وصفى ، أحسن والحمد لله .. ماذا وراءك ؟

— لقد شاهدت ثلاث (لوريات) محتشدة برجال البوليس (بلوك

النظام) وهم يهتفون ليسقط الإنجليز ، الموت للانجليز ، نريد السلاح ، نريد السلاح .

— وأين كانوا يتوجهون ؟

— كانوا يجوبون شوارع القاهرة فى مظاهرة صاخبة مسلحة .

— ولكن هذه ثورة يا وصفى .

— إنها كذلك من غير شك ، ولابد أن سيكون اليوم عصيباً جداً ، حدثنى أحد موظفى مطار فاروق أنهم أضربوا عن تزويد الطائرات بالبنزين ، وعن خدمة الطائرات والركاب . إن الجو مكفهر ومتوتر .. هل سنراك اليوم فى البيت الأخضر .

— يا وصفى ، أنا مريض ، وفضلا عن ذلك فقد أصبحتم تعرفون موقفى ، لقد نفضت يدى من هذه الأمور ولا شأن لى بما حدث أو سوف يحدث .

— ألا تحب أن أوافيك بالأخبار ، إننى أحمل آلة التصوير ، وسوف أسجل صوراً لكل ما يحدث .

— بل أرجوك أن تزودنى بكل جديد .

ولم يكد فوزى يضع سماعة التليفون ويشرع فى ابتلاع بعض حبات الدواء الذى جاءت به إليه وفاء مع فنجان من الشاى ، حتى دق التليفون ثانية ، إنه زميل جهاده إسماعيل ، ثم راحت التليفونات تتوالى وهى تحمل له شتى الأنباء المثيرة .

— المظاهرات الصاخبة من كل نوع تكتسح أحياء القاهرة وشوارعها .

— انضم عساكر بلوك النظام المتظاهرون إلى طلبة الجامعة ، مؤلفين أكبر مظاهرات شهدتها البلاد وهى تهتف نريد السلاح ، نريد السلاح . إلى القنال . . إلى القنال — الموت للانجليز .

— ضباط أحرار من الجيش والبوليس يقودون المظاهرات ويتولون الهتاف .

— العمال أضربوا عن العمل فى المصانع ويطالبون بالذهاب إلى الجبهة .

— الموظفون فى دوائر الحكومة ممتنعون عن العمل .

— الشعب يطالب بتدخل الجيش لمحاربة الإنجليز .

— هتافات عدائية ضد الملك الفاسق وولى العهد .

— عبد الفتاح باشا وزير الشئون والدفاع يخطب فى الجماهير المحتشدة حول مجلس الوزراء ، ويعلن نزول الوزراء إلى الشارع للكفاح مع الشعب .

وزادت هذه الأخبار من حرارة فوزى فطلب من زوجته أن تحمل التليفون بعيداً عنه فقد عاودته الحمى ، ولم يعد قادراً على متابعة الأحداث .

وأخفى فوزى رأسه تحت الغطاء بعدأن أصابت بدنه قشعريرة الحمى ، فراح يرتجف فى عنف .. أتكون الواقعة قد وقعت فى النهاية . . أتكون

هذه بداية الثورة لاقتلاع الفسادوالظلم والاحتلال ، والإقطاع والملكية ، ويرتجف فوزى أكثر وأكثر ، ما له ولهذا ، إنه مريض ، إنه يرتجف من الحمى .. ويهتف بزوجته :

— وفاء .. وفاء .. يداى باردتان وقدماى . . إننى أرتجف أين القربة الساخنة ؟

وتجىء وفاء لزوجها بقربة ساخنة يدفىء بها قدميه .. ولكنها لا تكاد ترى وجهه حتى تقول :

— ولكنك تتفصد عرقاً .. ما هذا العرق .

— ٣ —

— ألو

— صباح الخير يا شمس الدين .

— صباح الخير يا رفعة الباشا .

— لماذا لم تحضر لتفطر معى ، إن الساعة أشرفت على الحادية عشرة ليست هذه عادتك يا شمس .

— عفواً يا باشا ، ولكن الدنيا ملخبطة بعض الشىء .

— صحيح .. صحيح ، لقد قالوا لى شيئاً عن مظاهرات يشترك فيها البوليس ، ما هى الحكاية يا شمس ، لقد قالت لى زوجتى ، إن الدنيا مقلوبة .. هل حدث شىء خطير يا شمس ، أيكون هذا هو سبب عدم حضورك لتناول الإفطار ؟ ولكن يا شمس طالما قلت لك ونبهت عليك ، إننى رئيس الحكومة المسئول،ويجب أن أعلم كل شىء أولا بأول ، قل لى ماذا حدث .

ـــ لم يحدث شيء غير متوقع يا باشا ، كنا نقدر أنه بعد حوادث الأمس المؤسفة ، لابدأن ستقع بعض المظاهرات ، ولـكني مسيطر على الحالة . وقد وزعت ضباط القسم المخصوص ، وضباط القسم السياسى على أنحاء القاهرة ، وهم يراقبون الموقف بدقة ، ويبلغونني سير الحوادث .

وقبل لحظات كان اللواء ابراهيم علام يحدثني، وقد طمأنني أن كل شيء يجري تحت المراقبة والسيطرة الكاملة لرجال البوليس . كل الذى يشغلني الآن،أنه كان من الأحكم لو استمعنا لتحذير وكيل الوزارة ، ونفذنا اقتراحه وهو تأجيل افتتاح الجامعة .

ـــ الدكتور طه يا شمس أخذ هذا الموضوع على مسئوليته ، وقد أذاع نداءاً في الراديو .. لقد سمعته بنفسي .. كان نداءاً مؤثراً .. ماذا ياشمس ، أو لم يستجب طلاب الجامعة لنداء الوزير .. ؟

ـــ لا .. طبعاً ، ولـكن المسـألة ، أن رجال البوليس وجدوا أكبر مشجع على تمردهم من طلاب الجامعة ، ولو لم يكن الطلبة محتشدين فى الجامعة .. لما قويت المظاهرات بهذه الصورة .

ـــ آه لقد ذكرتنى ، ما هى حكاية مظاهرة البوليس هذه .. لم أسمع طول عمرى ببوليس يتظاهر أهو تمرد يا شمس .. أم ثورة ؟ لماذا لم تبلغني بهذا الحادث بمجرد وقوعه .. لماذا لم توقظني من النوم لأجابه الموقف .. إنني رئيس الحـكومة يا شمس ، حقاً لقد نمت فى ساعة متأخرة بالأمس على خلاف عادتى ، بعـد سهرتنا فى مجلس الوزراء .. ولـكن الموقف يتطلب منا ، أن نضحى براحتنا .. قل لى ياشمس ماذا حدث .. لماذا تمرد البوليس .

— ما هـذه الكلمة يا باشا .. كيف يتمرد البوليس وأنا وزير الداخلية . إن رجال البوليس يقومون بعملهم على الوجه الأكمل ، وقد أبلغونى أنهم مسيطرون على الحالة ، وهم يوافوننى بتقاريرهم من دقيقة لأخرى بالتليفون .

— ولـكن حذار .. حذار يا شمس من ضرب الشعب بالرصاص . إن الشعب يجب كما اتفقنا بالأمس أن يعبر عن عواطفه .. ألم تعط البوليس الأوامر المشددة .

— طبعاً يا باشا .. وعلى كل حال فلم يقع حتى الآن أى احتكاك بين البوليس والشعب .. إن المظاهرات كلها سلمية .. تطالب بالسلاح .

— عال .. عال ، المهم أن تكون مسـيطراً على الموقف .. ألست مسيطراً عليه ؟

— طبعاً .. طبعاً يا باشا ، فقط ..

— فقط ماذا يا شمس ؟ لماذا توقفت ، قل ، تكلم ، يجب أن تقول لى كل شىء ، أنا رئيس الحـكومة المسئول .

— أخونا عبد الفتاح باشـا عفا الله عنه . خطب فى المظاهرات التى احتشدت حول مجلس الوزراء وبارك هتاف الجماهير بحمل السـلاح والذهاب إلى القنال ، وأعلن أن وزراء حكومة الشعب ورئيس حكومة الشعب هم فى طليعة المجاهدين ، وأن مكانهم قد أصبح الآن فى الشارع وفى القنال ، وأنهم سيحملون السلاح دفاعاً عن الوطن .

— ما هذا الهذيان يا شمس ، طول عمرى أقول ، إن صاحبك عبدالفتاح

هذا خفيف ، وأنا لم أدخله الوزارة إلا بناء على إلحاحك . هل جن ؟ !
كيف ينزل الوزراء إلى الشارع ، كيف يذهبون إلى القنال ، كيف
يحملون السلاح ، ومن الذى يقود المعركة ، من الذى يدير البلاد ،
القادة دائماً خلف الصفوف ليستطيعوا أن يديروا المعركة فى هدوء .
ومعركتنا مع الانجليز سياسية وليست حربية ، سوف أعنفه ، سوف
أخرجه من الوزارة .

— ومع ذلك يا رفعة الباشا قد تكون الخيرة فيما اختار الله ، إن
الإنجليز يجب أن يحسوا برد فعل عنيف على فعلتهم الشنعاء بالأمس .

— هل اتصلت بصلاح ، هل بعث باحتجاجه إلى هيئة الأمم ، إننى
عنيد يا شمس كما تعرفنى ، سوف أقطع العلاقات مع انجلترا ، إن الإنجليز
لن يرهبوننى ، لقد تمرست على معاركهم ، أنا الذى وقعت معهم المعاهدة
وأنا الذى ألغيت المعاهدة ، لن أتراجع أبداً ، أنا عنيد يا شمس ، أنت
تعرفنى .

وقبل أن يرد شمس الدين ، دخل أحد الخدم فشغله عن الرد على رئيس
الحكومة .

ماذا يا شمس .. من الذى يحدثك ، من الذى يقطع مكالمتك معى ،
ألا يعرفون أنك تخاطبنى ؟

— عفواً يا باشا إنه حكمدار البوليس يلح فى طلب مقابلتى .

— وهو كذلك ، وهو كذلك ، أدعك الآن لتباشر مهامك ، شد

حيلك ، الله يكون فى عونك سنتقابل فى حفلة مولانا على الغداء ، وستقدم لى تقريراً عما حدث .

— والله يا رفعة الباشا ، أخشى ألا أتمكن من شهود هـذه الحفلة وسط هذا الجو المكهرب .

— ماذا تقول يا شمس ، هل جننت ؟ وزير الداخلية لا يحضر حفلة عيد ميلاد ابن الملك ، أتريد أن يغضب عليك الملك ، لقد دعا كل ضباط الجيش ، وكبار ضباط البوليس ، والنواب والشيوخ وأعيان البلاد ، فكيف تتصور أن يغيب وزير الداخلية عن هذه الحفلة .. سلامة عقلك يا شمس ، إنها حفلة ميلاد ولى العهد .

— ولكن الظروف الدقيقة يا باشا تجعلنى لا أستطيع مبارحة مكتبى فى وزارة الداخلية اليوم . إننى يجب أن أرقب الموقف بدقة وأظل على اتصال مستمر برجالى .. تصور يا رفعة الباشا ، إن الظروف شاءت أن نحدد اليوم موعداً لتوثيق عقد شراء عمارة شارع ثروت باشا التى حدثتك عنها .. فطلبت من مدير الشهر أن ينتقل إلى مكتبى فى وزارة الداخلية وذلك لأظل متابعاً سير الحوادث .

— عفارم .. عفارم يا شمس ، هل انتهت هذه الصفقة أخيراً .

— أخيراً يا باشا .

— لقد قلت لى إنك راض عن هذه الصفقة .. أنا مسرور من أجلك يا شمس ، ومتى سيجىء إليك مدير الشهر العقارى .

— الساعة الواحدة والنصف .

— لماذا لا تجتهد إذن أن تحضر إلى حفلة مولانا بعد ذلك ، ولو نصف ساعة .. نصف ساعة يا شمس ، إنك يجب أن تثبت حضورك فى حفلة مولانا .. وعلى كل حال فباستطاعتك أن تظل على صلة بسير الحوادث من القصر .

— أفضل يا رفعة الرئيس أن أبقى بمكتبى . حتى لا يفلت الزمام .

— برافو عليك . . هـذا هو المهم يا شمس، أن لا يفلت الزمام .. إن شاء الله لا يفلت الزمام .. اسمع يجب أن تبلغنى أولا بأول كل ما يحدث .. أنا رئيس الحـكومة وزعيم الأمة .

— طبعاً .. طبعاً يا باشا .

— تستطيع الآن أن تنظر ماذا يريد منك الحـكمدار ، لن أعطلك عن مزاولة عملك .. سلام عليكم

— ٣ —

كانت الجموع المحتشدة فى ميدان عابدين أمام القصر الملـكى لا تفتأ تهز السموات والأرض بزئيرها .

— نريد السلاح ، نريد السلاح .

— الموت للانجليز ، الموت للانجليز .

— إلى القنال .. إلى القنال .

— أين الجيش يا مولاى ؟

— فليحيا جلالة الملك مع الشعب ، يحيا ولى العهد

وكان هذا الهتاف الأخير هو الذى يهدىء بعض الشىء من غضب جلالة الملك ، ويعيد إليه ثقته بنفسه ، فيعود من جديد يصخب ويلعن من يحيط به من الحاشية :

— قلت لكم أريد أن أعرف من هو صاحب الاقتراح السخيف ، من الذى اجترأ على التلفظ به ؟

ويطرق أفراد الحاشية برؤوسهم ، وينظر بعضهم لبعض خفية ، دون أن يحيروا جواباً ، ويمضى الملك فى عربدته :

— الاحتفال بمولد ابنى ولى العهد يؤجل ؟ لماذا ، من المجنون الذى تقدم بهذا الاقتراح ؟ ولماذا يؤجل الاحتفال ، ألأن بعض الغوغاء والرعاع يهتفون فى الشوارع نريد السلاح ، نريد السلاح وهم أجبن الجبناء ، ولو كان فى البلد حكومة لما حدث هذا الذى حدث .

ولكن هل وصلت الفوضى إلى حد التفكير فى إلغاء حفلة ولى العهد .

وقال بوللى فى صوت خافت :

— معاذ الله يا مولاى أن يقول قائل تلغى .. وإنما تؤجل .

وصرخ الملك بأعلى صوته :

— إخرص أنت ، تؤجل يعنى تلغى . ألم تتم كل الترتيبات .. أو لم

توجه الدعوات ، إن بعض المدعوين فى طريقهم الآن إلى هنا ، ضباط الجيش وضباط البوليس كلهم قد ارتدوا ملابس التشريفة للحضور إلى هنا .

وتدخل كبير الأمناء قائلا :

— اتصل بى وزير الداخلية الآن ، وقد طلب منى أن أرجو من جلالتكم إعفاء حكمدار العاصمة وكبار ضباط البوليس من شهود الحفلة بسبب الحالة الحاضرة .

وعاد الملك يرعد من جديد ويزمجر :

— الحالة الحاضرة .. الحالة الحاضرة ، هل أنا المسئول عن الحالة الحاضرة ، هل أنا الذى أوصلت البلاد إلى هذه الفوضى ، يجب أن يتحملوا مسئولية لعبهم بالنار . لقد قلت لهذا المعتوه عندما جاء يطلب منى الموافقة على إلغاء المعاهدة ، إنه يلعب بالنار ، إنه يقامر ، ولن يغلبنى أنا ملك المقامرين . فليشرب الآن ، ليشرب ما صنعته يداه . إما أن يكونوا قادرين على حفظ الأمن والنظام ، وإلا فسوف أطردهم ، أما الحفلة فيجب أن تقام حسب الترتيبات الموضوعة لها ، بوللى .

— مولاى .

— أليس كل شىء جاهزاً ومستعداً ؟

— كل شىء .

— الأطعمة ، الديوك الرومى ، الحمام المشوى ، الفراخ المحشوة ؟

— كل شىء تمام يا مولاى .

— وهل نبهت على الطباخ . لم تعجبنى الفراخ المحشوة آخر مرة .

— جلالتك ستكون راضياً إن شاء الله .

— إننى أعرف ضباط الجيش والبوليس ، إنهم يحبون الأكل ، ويجب أن نطعمهم ما لم يطعموه طول حياتهم .. إن هذه حفلة إبنى ، حفلة ولى العهد .. والموسيقى .. الموسيقى هل حضرت كل الفرق التى اتفقنا عليها ؟

— فرقتا الحرس تعزفان منذ الصباح ، ووصلت فرقتان من موسيقى الجيش وستصل ثالثة عند الظهر .

— والرقص والاسكتشات والنمر ، سامية جمال وتحية كاريوكا حضرتا ؟

وقال بوللى :

— عفواً يا مولاى ، ولكن بعد إذن جلالتك ، لقد ألغينا الرقص والنمر بناء على توجيه جلالتكم أن نلغى الرقص والنمر الفكاهية ، بمناسبة حادث الإسماعيلية ومراعاة للظروف .

— أنا قلت ذلك .. ؟ على كل حال .. لا بأس لا بأس من مراعاة الظروف .. الله يخرب بيت الإنجليز ، ألم يجدوا إلا اليوم السابق على حفلة ميلاد ولى عهدى لكى يقوموا بهذا العمل السخيف ؟ والتفت صوب أندراوس باشا وقال له :

— ماذا فعلت ؟

— لقد اعتذر لى صديقى ، وأكد أن السفارة لا تقر هذه الأعمال

العنيفة التى تحرج جلالتك ، وأنهم أرسلوا إلى لندن يحتجون ، ويحيطونهم علماً أن العسكريين الإنجليز يعقدون الأمور ويغلون يد جلالتكم عن الحركة . وبهذه المناسبة يا مولاى ، إن الإنجليز ممنونون جداً لموقفك الحازم من إبعاد الجيش عن هذه المهزلة .

— ولكنهم يحرجوننى يا أندراوس ..

وهمس الملك لرجله ..

كنت أريد أن أقيل الوزارة ، ولكن هذا الحادث الجديد غل يدى ..

وتصاعدت أصوات جديدة من الميدان مرعدة مبرقة :

— نريد السلاح ، نريد السلاح .

— الموت للأنجليز .. — الموت للخونة .

وانفجر الملك فى موجة جديدة من الغضب :

— لم تعد أعصابى تحتمل هذه الهتافات فى يوم عيد ميلاد ابنى .. أين وزير الداخلية . . أين هذا الفلاح أيظن أنه عمدة فى بلدهم . . اتصلوا به . . إذا لم يفرق هذه الجماهير ويبعدها عن قصرى فسوف أطرده . . هيا ابحثوا لى عن وزير الداخلية .. أو رئيس الحكومة .. حالا .. حالا .

واندفع رجال الحاشية كل فى اتجاه للعمل على تنفيذ أمر جلالة الملك ، أما هو فقد لمح فى هذه اللحظة نازك عونى وصيفة الملكة وهى تحاول أن تتسلل عن بعد حتى لا يراها . .

فاستشاط غضباً ، وأسرع يعدو نحوها ، حتى إذا أدركها أمسك بذراعها فى عنف وقال لها :

ــ أين كنت بالأمس ، لماذا لم أرك بالأمس ؟

وابتسمت نازك ابتسامة أودعتها كل سحرها وفتنتها وأنوثتها وقالت تحذر الملك :

ــ العيون علينا يا مولاى ، طالما قلت لك عند ما نكون لوحدينا فافعل بى ما تشاء ، أما أمام الحاشية فلا أقل من اتقاء الظواهر .

وقال الملك وهو يغض من صوته تلقائياً :

ــ أنت يا بنت الكلب ستعلميني الأدب ، أجيبى على سؤالى . . أين كنت بالأمس ؟

ــ كنت متوعكة فى المنزل مع زوجى :

ــ كاذبة .. أنت كاذبة ، لقد خانك ذكاؤك هذه المرة ، عونى كان معى عند ما طلبتك فى التليفون فلم يجب عليه أحد . . أنا سأقتلك فى يوم قريب .. نازك أنت تحكمين على نفسك بالإعدام .

ومن جديد جاءت صيحات من الخارج :

ــ نريد السلاح .. نريد السلاح .

ــ الموت للانجليز .. الموت للخونة .

وقالت نازك وهى لا تزال تصطنع ابتسامتها الفاتنة :

ـــ ألا ترى يا مولاى ، أن الوقت غير مناسب للتحدث فى هـذه الموضوعات ؟ إن الشعب هائج جداً فى الخارج والدنيا مقلوبة .

ـــ قلت لك ألف مرة لا تتحدثى أنت عن الشـعب ، ولا تحشرى نفسك فيما لا يعنيك ، إنه شعبى وأنا ملكه ، إن هذا الشعب الذى تتصورينه هائجاً ، تفرقه بسهولة بضع عصى فإذا تلـكأ فى الانصراف ، فإن رصاصة أطلقها الآن فى الهواء تجعلهم يختفون وتبتلعهم الأرض . إنهم شعبى وأنا أعرفهم ، وليس لك أن تتدخلى فى هذه الأمور . . إن ما أريده منك الآن أن تجيبي على سؤالى وإلا فسوف ألجأ إلى إجراء تعرفينه ، سوف أقتل لك هذا الصرصار القذر .

ـــ المسألة يا مولاى ، أن جلالة الملـكة بدأت تشنع علىّ ، وتقول إن ليس كل الطير ما يؤكل لحمـه ، إنها ليست فريدة إنها أم ولى العهد ، وما دمت يا مولاى قد رأيت أن تفتح هذا الموضوع فى هذه الساعة . . فأرجو أن تأذنوا لى أن أقدم استقالتى . . لم يعد لى مقام فى هذا القصر .

وانفجر فاروق فى موجة عاتية من الضحك الذى كان يرعب سامعيه :

ـــ هكذا . . هكذا . . استقالة من هنا ، وطلاق من زوجك لترتمى فى أحضان عشيقك ، يا دنيئة يا منحطة . . أتتصورين أنى غافل عنك ، لقد ذهبت مع هذا الصرصار بالأمس إلى أوبرج الفيوم ، إننى أعرف ماذا سأفعل ، سوف أقتل لك هذه الحشرة .

ـــ ويكون هذا فراق مابينى وبينك ، سوف أنتحر .

وزأر الملك واحتقن وجهه ، وهم بأن يلطم نازك على وجهها لولا أنه لأمر ما تمالك نفسه وراح يقول :

— ولـكن هذا مستحيل .. هذا أمر غير معقول .. إنك تتحدينى كما لم يجرؤ إنسان على تحدىّ .

وغيرت نازك من أسلوبها :

— قل يا فاروق إنك لم تعد تحب نازكتك ، بعد أن أصبحت مشغوفاً بزوجتك وولى عهدك .. لم تعد تحبنى .

— لا تكونى مجنونة .. وهل لو لم أكن أحبك كنت أحتمـل ما تجرعيننى إياه ؟

— وجلالة الملـكة .. ؟

— هذه مسألة أخرى .. مالك والحديث فى هـذا .. هل أراك الليلة ؟ ..

— أنا جاريتك يا فاروق .

— فى ركن حلوان ؟

— أما أنا فسأكون فى انتظارك ، فعسى أن لا تنسى نفســك فى اللعب .

وارتفع الضجيج فى الخارج ، وسرت موجة من الهرج والمرج داخل القصر بعد أن بدأ المدعوون يتوافدون على القصر .. ولم يعد باستطاعة الملك أن يواصل حديثه مع نازك .. خاصة وقد اقترب منه بوللى ..

وعنفه الملك فى عصبية :

— ماذا تريد ؟

— رئيس الحرس ..

— ماذا يريد رئيس الحرس ، هل قامت الثورة .. ماذا أصابكم اليوم ، ما لكم فقدتم رؤوسكم ، ماذا يريد الزفت رئيس الحرس ؟

— يقول إن ضباط الجيش العظام الذى بدأوا يتوافدون على القصر يسمعون كلاماً قارصاً وإهانات تنهال عليهم من الجمهور المحتشد أمام القصر ، وهم يطلبون حماية مولاى لكرامتهم .

وكاد الملك أن يصعق :

— ضيوفى أنا .. ضيوف الملك فى حفلة عيد ميلاد ولى العهد يهانون ؟!

وانفجر فى ثورة عارمة :

أحضروا .. وزير الداخلية .. إلى برئيس الحكومة ، لست أعرف ما الذى سأفعله بهما .

وتعالت الصيحات من الخارج ترج القصر رجاً .

— الموت للخونة .. الموت للانجليز .

— نريد السلاح .. نريد السلاح .

* * *

— ٥ —

تزايد غضب الجماهير المحتشدة فى ساحة عابدين بمرور الوقت ، تحت تأثير مظاهر الأفراح ، وتعدد الفرق الموسيقية التى كانت تعزف فى أرجاء الميدان وداخل القصر .

وكان مرأى عربات الجيش الكبيرة والصغيرة ، وهى تفد إلى الميدان محملة بالضباط ، يضاعف فى هياج الجماهير ، وكان مرأى الضباط العظام وهم يختالون فى ملابس التشريفة الكبرى ، أشبه بقطعة القماش الحمراء التى يمسك بها مصارع الثيران ليهيج بها الثور كلما فتر حماسه

وبدأ صفير الاستهجان يتعالى من الجماهير كلما أقبلت إحدى سيارات الجيش ، ومن الصفير إلى القذف بعبارات التهكم .

— يحيا شهداء البوليس .

— ألا تخجلون من أنفسكم ؟

— أهذا هو كل ما تفلحون فيه ؟

ولكن أنشودة الجماهير الغالية التى كانوا لا يملون من تكرارها :

— الموت للخونة ، الموت للانجليز .

— نريد السلاح ... نريد السلاح .

— إلى القتال ... إلى القتال .

ولم يعد الميدان الكبير يتسع لمزيد من الجماهير عند الظهر وأشبه بالبحيرة عندما تعلو فيها المياه ، فتنساب منها على الجوانب مؤلفة أنهاراً .

لقد انسابت الجموع الغزيرة وتدفقت من الميدان إلى وسط القاهرة ، لتزأر بهتافاتها أمام الأجانب ووكالات الأنباء والقنصليات الأجنبية . ولم يلبث قلب القاهرة أن تحول إلى كتلة متراصة من الكيان البشرى ، طلاباً وعمالا ورجال بوليس وضباط جيش أحراراً .

وبدأت الأرض تهتز تحت الأقدام ، والجو يبدو كما لو كان قد تصدع تحت وقع الأنفاس الحارة التى كانت تزفرها هذه المئات من الآلوف من أفراد الشعب الغاضبين .

ووقعت عينان من بين الآلوف من الأعين ، على منظر آذى نفسها ، أحد كبار الضباط يكرع الخمر بملابسه الرسمية فى شرفة كازينو أوبرا على قارعة الطريق .

وصاح صاحب هاتين العينين موجهاً الحديث إلى هذا الضابط الكبير :

— أولم يكفكم الجبن والتقاعس عن الجهاد ، فجئت تحتسى الخمر على رؤوس الأشهاد ؟

ورد الضابط الكبير فى حنق وغضب :

— اخرس يا كلب يا قليل الحياء ، أنا حر أفعل ما أشاء .

ويندفع الكلب قليل الحياء ، نحو هذا الضابط الذى يغص صدره وكتفاه بالشارات العسكرية ، ولم تعرف الجموع ماذا حدث ، إلا أن موائد كازينو أوبرا كانت تتطاير محطمة فى الفضاء ..

وإن هى إلا لحظات حتى كانت ألسنة النيران ترتفع فى جدران

الكازينو الخشبية والورقية والزجاجية ، يزيد فى تأججها واشتعالها زجاجات الكحول والزخارف الورقية والخشبية وأستار المسرح .

وجن جنون الجماهير المحتشدة من الفرح ، وألسنة اللهب الحمراء ترتفع وتلتهم كل شىء فى ضراوة ، والدخان الأسود ينعقد فى سماء الميدان لقد خرجت النيران من صدورهم ، لتحرق ما كان يؤذيهم طوال هذه الأسابيع الأخيرة منذ بدأت معركة القنال ، حيث يتساقط الشهداء فى الاسماعيلية والسويس وبورسعيد والتل الكبير ، وهذه الكباريهات غاصة بروادها من المتعطلين الضائعين .

وانطلق أصحاب المحال المجاورة يستغيثون بمركز الإطفاء الرئيسى الذى لا يبعد سوى بضعة أمتار عن الكازينو ، وتثاقل ضباط الإطفاء والجنود ، وراحوا يتهامسون ، إنهم جزء من البوليس الذى اعتدى عليه بالأمس ، إنهم جزء من الشعب المجروح ، وهم بشر من لحم ودم ، ولهم عواطف ومشاعر ، واليوم يوم غضب وإعراب عن هذا الغضب ، فما لهم لا يغضبون بدورهم ، ما لهم لا يعبرون عن الغضب ، بالتثاقل والتراخى ، والخطر فى متناول أيديهم وعلى بعد خطوات منهم ، والذى يحرق هو كازينو أوبرا فى نهاية الأمر .

وجاء رجال المطافىء بعد لأى ، وراحوا يمدون خراطيمهم فى تثاقل، واندفعت المياه كما هو شأنها فى قوة وعنف تحارب النيران .

وهتف هاتف :

— مزقوا الخراطيم .. مزقوا الخراطيم .

واندفعت الجموع تمزق خراطيم المياه .

ووقف رجال البوليس يشهدون الذى يجرى دون أن يحركوا ساكناً ، ولم يغضب رجال المطافىء من تمزق خراطيمهم . وتوقف اندفاع الماء نحو النيران وسال فى الميدان ، مؤلفاً بركة من الماء . وضجت الجماهير بشعور الزهو والانتصار .

— الموت للخونة

— يحيا الشعب مع البوليس

— يحيا الشعب مع رجال المطافىء

✡ ✡ ✡

— إلى سينما ريفولى — إلى الدار الإنجليزية .

وكأنما تحولت الجماهير إلى آلة أتوماتيكية ، يستطيع أى إنسان أن يضغط على زر لكى يدفعها إلى الحركة وتنفيذ المطلوب .

فبعد دقائق كانت سينما ريفولى ، أطلالا وخرائب ووقف اللواء ابراهيم علام رئيس البوليس السياسى يرقب ما يجرى دون أن يحرك أصبعاً لحماية السينما أو إنقاذها .

وانتشرت الحرائق فى شارع سليمان باشا .

— الأمريكيين

— سينما مترو

— سينما ميامى

ويصرخ أصحاب هذه السينمات والمحال :

— وأين البوليس .. أين الحكومة ؟

وينجون بجلودهم ، خوفاً من الشعب الهائج الغاضب .

* * *

— ألو .. ألو

— أنا شمس الدين وزير الداخلية ، أريد مخاطبة وزير الدفاع فوراً .

— ولكن هذا غير ممكن ، إنه يجلس إلى جوار الملك على مائدة الغداء .

— ولكن هذا ضرورى .. ضرورى جداً

— سنحاول

* * *

— ألو .. ألو .. نعم يا باشا ... أنا حيدر

— يا باشا ، لم يعد هناك مناص من تدخل الجيش ، إن رجال البوليس يتقاعسون ، إنهم لا ينفذون الأوامر ، والزمام يوشك أن يفلت .

— هذه مسألة متروكة لجلالة الملك ، أنت تعرف أننا لا نريد أن نزج بالجيش فى هذه الأمور .

— ولكن الموقف خطير .. خطير جداً يا باشا .

— يا باشا المسألة ليست بالسهولة التى تتصورها ، إن فى الجيش

تيارات خبيثة .. ماذا يكون الحال لو انضم الجيش بدوره للشعب .

— ما العمل إذن ، إن البوليس يقف موقفاً سلبياً ، لا يطلق النار رغم صدور الأوامر إليه بذلك .

— على كل حال جلالة الملك كما تعرف مشغول الآن بعيد مولد ولى العهد ، ولست أعرف إذا كان من المناسب أن أحدثه فى هذه الأمور .. على كل حال أرجو أن أتحين فرصة .

— أرجوك يا باشا .. أرجوك .

— وهو كذلك .. وهو كذلك .. سأحاول .

* * *

تبدد المرض من جسد فوزى تحت وطأة النار التى بدأت تشتعل فى القاهرة ، وأدرك بحدسه ما سوف يتطور إليه الموقف إذا لم يبذل جهد صادق لإنقاذ البلاد . وأمسك بسماعه التليفون ليخاطب صاحبه السياسى الكبير ماهر باشا :

— مصر فى خطر يا باشا ، يجب أن تبذل جهداً لإنقاذها .

— تقصد المظاهرات الصاخبة التى تملأ البلد ؟

— لم تعد مظاهرات .. لقد بدأت الحرائق تشتعل فى الكاباريهات والسينمات ، ويقولون لى إن شارع سليمان باشا تحول إلى جذوة نار .

— هذا غير معقول..يستحيل ما تقول..أين البوليس..وأين الحكومة

— البوليس فى حالة إضراب ، والحكومة والملك مشغول كما تعرف بالاحتفالات .

— هذه هى النتيجة الطبيعية لسياسة الطيش .

— المسألة هى أنك يجب أن تبذل جهداً لإنقاذ البلد .. أنت الرجل الوحيد الذى ينقذ الموقف .. يجب أن تقال الوزارة فوراً ، ويعلن عن تأليف وزارة جديدة برآستك وأن يكلف الجيش بحفظ الأمن والنظام .

— ولكن من أنى لى أن أتصل الآن بالملك .. إنه مشغول فى حفلة ابنه .. تصور يا أستاذ فوزى أننى لم أدع لهذه الحفلة .. أنا الذى جعلته ملكا .. أنا الذى ربيته لا أدعى لحفلة ولى عهده .

— لا بد من إهدار كل هذه الاعتبارات الآن .. المسألة مسألة إنقاذ للقاهرة من حريق شامل مدمر .

— يا سلام .. إلى هذا الحد ترى الأمر خطيراً .

— وأكثر من ذلك .

— سأعمل جهدى للاتصال بحافظ باشا رئيس الديوان .

* * *

— يا حاج سالم ، يا أسطى على .

— الدنيا مقلوبة يا طنطاوى ..

— ونحن ماذا ننتظر ، الشعب هائج غاضب .. والبوليس لا يحرك ساكناً ولا يتداخل ولا يقبض على أحد .

— هذا صحيح .

— هذه فرصتنا فى أن ننزل حكم الله فى الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر ، يجب أن نقود الجماهير لحرق الحانات فى منطقتنا .

— فكرة عظيمة .. ولكن العملية يجب أن تكون عامة شاملة ولا تقتصر على حينا فقط حتى لا ننكشف .

— اطمئن لقد سبقنا الإخوان فى الأحياء الأخرى ..

— إذن ما الذى ننتظر .. هيا بنا .. هيا بنا ..

الله أكبر ولله الحمد .

٭ ٭ ٭

— إنها الثورة التى عملنا من أجلها يا رفاق ، الجماهير فى ذروة السخط وقد تملكتها روح التدمير ، ويجب أن نوجهها لحرق المنشآت الكبرى والمؤسسات الرأسمالية .. شبرد،شيكوريل ، شملا .. كل شارع فؤاد وقلب القاهرة .

— لقد أثبتت الكرات والخرق المغموسة فى البنزين أنها شديدة الفاعلية فى الحرق .. إن العمال فى محطات البنزين يزودوننا .. إنه يوم العمال .. تحيا دكتاتورية العمال ، وتسقط الرأسمالية .

٭ ٭ ٭

— يا أستاذ عبد العزيز .. يا أستاذ دسوقى .

— ماذ تريد ؟

— إلى أين أنت ذاهب ، ما هذا العبوس ، لقد انتصرنا .. انتصرنا .. الله أكبر ويحيا الشعب.

— أتسمى ما يجرى الآن انتصاراً ؟

— لقد تركتهم يحرقون الآن بنك باركليز .. أتعرف ماذا يعنى بنك باركليز .. إنه وكر استعمار انجلترا الاقتصادى .

— إنى أكثركم ثورة وتمرداً كما تعرف .. وأنا أعرفكم بفوزى السيد .. إن قلبه سوف يتمزق عند ما يسمع عن حرق الإنجليز فى التيرف كلوب .. إن جسدى يرتجف .

— لولا معرفتى بك لرميتك بالجبن .. أنسيت ماذا يفعل الإنجليز بنا .. أتريد أن يقتلوا رجالنا وأبطالنا وندعهم يسرحون ويمرحون ، لقد تكلم الشعب .. الموت للانجليز .. الموت للخونة .

* * *

مدت وفاء يدها بسماعة التليفون لفوزى وقالت :

— إنه ماهر باشا يريد أن يحادثك .

— أهلا يا باشا.

— لم أستطع الاتصال بحافظ باشا .. إنهم لا يزالون مشغولين فى الحفلة .. ما هى آخر الأخبار لديك ؟

— يقولون لى إن قلب القاهرة سيتحول كله إلى إطلال وخرائب ورماد ، إذا لم تحدث معجزة .

— وما هو رأيك .. ؟

— لست أعرف . . ولكنه اقتراحى الأول الذى قلته لك .. يجب أن تقال الوزارة ، وأن تؤلف وزارة جديدة ، فيحدث هذا التغيير أثره فى تهدئة غضب الجماهير .

— سأحاول أن أتصل بأحد من الحاشية . شكراً يا أستاذ فوزى .

وقال فوزى لوفاء بعد أن أعاد السماعة مكانها .. إن قلبى أصبح يشعر بالخوف والوحشة ، أحس أننى أصبحت فى خطر .. إن وجودى فى البيت لن يحمينى من شىء .. يجب أن أهرب من هنا .

— ألا تنتظر شكرى حتى يجىء من شربين .. لا بد أنه سيتصل الآن من دقيقة لأخرى .. لقد كلمناه فى الساعة الثانية عشرة وقال إنه سيحضر على الفور ، والساعة الآن الثالثة ، لا بد أنه سيصل .

— لا أعرف .. لا أعرف ، أصبحت أحس أننى فى خطر .. يجب أن أرحل من هنا .، سأذهب إلى بيت أخيك الدكتور سامح .. إذا جاء شكرى فليأت إلى هناك .. ولكن يجب أن أخرج من هنا .. يجب أن أخرج من هنا .

* * *

— يا ولد يا دنجل ماذا ننتظر ؟

— تحت أمرك يا معلمى .

— يا ولد إذا لم نغتن اليوم ، فلا نلوم إلا أنفسنا . . الحرائق فى كل مكان ، والبوليس لا يقبض على أحد . . يجب أن نسطو على محل باروخ الجواهرجى ، ثم نحرقه .

— باروخ فقط يا معلمى . . وليتو ؟ وشمعون .

— هيا بنا ، لا نضيع وقتاً . . أين العدة . . الأزميل والأجنة .

— كل شىء جاهز ومعد يامعلمى .

— توكلنا على الله . .

— إسمع يا ولد يا دنجل ، المهم هو أن نهتف إذا رآنا أحد . . الموت للانجليز . . الموت للخونة . . أين السلاح . . أين السلاح .

— طبعاً . . طبعاً يا معلمى ، وهل كان لى عمل طول النهار ، إلا ترديد ذلك .

الفصل الثالث

— ١ —

فزع شكرى من هول المنظر الذى تراءى له فجأة وهو يقترب من مشارف القاهرة . وأوقف سيارته ، مستحيل أن يصدق ما يرى .. لا بد أنه فى كابوس ، وليس ما يشهده حقاً . لقد كان يرى شيئاً أشبه بما اعتاد أن يراه فى روايات السينما ، وهى تحاكى حريق روما أو لندن أو سان فرانسسكو .

أسيقدر للقاهرة أن تلقى هذا المصير ؟

لقد كانوا يتوقون دائماً ، إلى وثبة شعبية ، إلى غضبة جماهيرية،ولكن لم يطف لهم فى خيال أن يكون ترجمة ذلك هو أن ينقض الشعب على مؤسساته ، وعاصمة بلاده فيشرع فى حرقها .

ولكن أليس هذا هو ما حذر منه فوزى وأنذر منذ ثمان وأربعين ساعة فقط ، ألم يصدر قراره بالانسحاب من الحياة العامة لأنه كان يتوقع كارثة .. ما أصدق إحساس فوزى وما أرهفه ، إنه ليحس بالحوادث قبل وقوعها ، يحسها فى عظامه ودمه ووجدانه .. ما أكثر ما قدم الدليل على ذلك من قبل .. أو لم يحذر الدكتور ماهر وهو ذاهب لإعلان الحرب وأنه سيفاجأ فى البرلمان بما لم يكن فى حسبانه ، فإذا به يصرع ، وكان هذا المقال بالذات ، سبباً للقبض على فوزى واتهامه بالاشتراك فى مصرعه ..

وانخلع قلب شكرى ، واشتد نبضه . . ما الذى يمنع أن يتكرر ذلك . . فيتخذوا من تحذير فوزى وإنذاره ، سبيلا لاتهامه . . ؟

أسوف يصدق أحد ، أنهم ليسوا مسئولين عن هذا الذى وقع . . أسيصدق أحد . . أنه غادر فوزى بالأمس وهو راقد فى فراشه ، ليذهب إلى شربين ، وها هو ذا يعود ليرى هذا الحدث المروع . .

وأسرع شكرى إلى عجلة القيادة ليستأنف السير نحو بيت فوزى . . أجل ما أشد لهفته الآن ، أن يجتمع بفوزى ، أن يطمئن عليه . . أن يتدبرا هذا الموقف الخطير . وضغط على نافث البنزين ، يستحث عربته للانطلاق فى سرعة ولهفة ، ولم تطاوعه السيارة إلا بعد لأى وضيق وكدر ، ومعاودته تسييرها مرة ثانية وثالثة ، كما لو كانت أحاسيس سيدها قد انتقلت إلى آلاتها فأصيبت بالتشنج . . ولكنها لم تلبث أن استجابت فى النهاية وتحركت .

وبدأ الدخان الذى يتكاثف يملأ معاطسه ، والضيق يضغط على رئتيه ، ومظاهر الفزع التى بدأت تتزايد كلما أوغل فى الاقتراب من قلب القاهرة . .

هرج ، ومرج ، جماعات وشراذم وأفراد ، تجرى وتعدو بغير ضابط أو رابط . . عربات ، ودواب وأشخاص ، يحملون أمتعة وأثاثات ، وخليطاً من المهمات والحاجات . .

ويسائل شكرى نفسه ، عن تفسير هذا الذى يرى . . أهى هجرة جماعية . . أم أنها منهوبات وغنائم . . ويمتلىء صدر شكرى غماً . .

— إنها منهوبات من غير شك .

وتزايدت السيارات المحملة بهذه المنهوبات .. ولكن نوعاً آخر من السيارات، بدأ يزاحم الطريق مخلفاً القاهرة .. إنهم أجانب .. باشوات وأعيان ، ينجون بجلودهم فيما يبدو ..

— لا ليست هذه القاهرة التى تركتها بالأمس ، ليست هى العروس الحلوة المشرقة أبداً .. بل ولا القاهرة الغاضبة المتوترة . . إنها قاهرة مجنونة ، فقدت رشدها ، انفرط عقدها .. تحاول أن تقتل نفسها .

حتى إذا أصبح على مشارف القاهرة فى ميدان المحطة ، تجمعت فى عينيه المأساة بكل أبعادها . . وهج النيران هنا وهناك ، يضىء السماء .. ويتراقص عند الأفق . أما الميدان وشارع إبراهيم الذى كان مظلماً معتماً مهجوراً ، فقد زحمته الأدخنة الكثيفة . . وكان يزيد فى قتامه رؤية أشباح تنسل من الظلام ، وهى تعدو هنا وهناك .. وسمع همسا يتردد :

— الجيش نزل .. الجيش نزل .

وندت عنه صرخة خافتة وعيناه تقعان على فندق شبرد .. حيث لم ير سوى خرائب وأطلال ، تلتهمها بقية من ألسنة النيران التى كانت لا تزال تتوهج .

— قف .. مكانك . السير محظور من هنا .

وتحول ليسير فى شارع آخر ، وقد بدأت عجلات السيارة تدور فى برك من المياه .. مياه الإطفاء .. ومواسير المياه التى تفجرت .



ووجد شرذمة تعدو وهى تحمل فى أيديها وعلى رؤوسها صناديق .
وسمع من يقول:

— نظفنا الحى من الخمارات .

— أسكت .. أسكت أنت مجنون. نحن لم نر شيئاً ، ولم نفعل شيئاً .

وتوقف شكرى ؛ وقد رأى رجل بوليس يلوح بمصباح أحمر :

— لا سير من هنا .. الطريق مسدود .

نيران ؛ ودخان ؛ ورماد ؛ وخرائب .. وماء وطين .

وأغمض عينيه من جديد وارتجف بدنه .. ولكنه يجب أن يقابل فوزى بأى ثمن.. لقد كانت هذه الفكرة هى التى أبقته متنبهاً لا يفقد صوابه من هذا الذى يصدمه .. أيمكن أن يحدث ذلك فى يوم واحد .. إن الحرب العالمية التى استمرت خمس سنوات لم تفعل بالقاهرة شيئاً من ذلك .

— ماذا حدث .. ماذا جرى ؟

وسمع من خلفه دوى جنازير الدبابات والمصفحات .. آه .. إنه الجيش .. الجيش أخيراً .. وسمع تصفيقاً ، إن الناس تصفق للجيش وضباطه .. لقد أعاد مرآه إلى النفوس شيئاً من الطمأنينة والثقة التى كان الروع قد ذهب بها .

وحيل بين شكرى وبين التقدم .. وكان عليه أن يدور دورة جديدة .. قبل أن يصل إلى فوزى .. قبل أن يقابل صاحبه ..

— ٣ —

صرخ فاروق فى وجه رئيس ديوانه :

— ألم يصل هذا الأحمق بعد ؟

— إنه فى الطريق يا مولاى ، سيصل فى خلال دقائق .

— وهل جاء معه بمرسوم إعلان الأحكام العرفية لأوقعه .

— طبعاً .. طبعاً يا مولاى . لقد عارض بعض الوزراء فى إعلان الأحكام العرفية ...

وصرخ الملك :

— ماذا تقول ؟ عارض ؟ ألا يزال هناك من يعارض .. ألم أقل إن هؤلاء المجرمين يجب أن يقبض عليهم فوراً .

ألم تعد مرسوم الإقالة كما أمرتك ؟

— مرسوم الإقالة جاهز ومعد للتوقيع يا مولاى ، ولكن ألم تروا جلالتكم بعظيم حكمتكم أن ترجئوا إقالة الوزارة ، حتى تعلن الأحكام العرفية أولا .

— هذا صحيح ، لقد اقتضت حكمتى ذلك ، ولكنك تقول لى إن بعض الوزراء يعارضون .. لم أعد أحتمل كلة معارضة .

— ما لنا ولهذا يا مولاى الآن ، المهم أن مجلس الوزراء قد قرر إعلان الأحكام العرفية .

— كلاب .. كلاب .. إنهم كلاب يا حافظ باشـــا ، لولا إخلاص الحرس الملـكى لاجترأوا على حرق قصرى .. كنت أعلم منذ أمد طويل أنه لم تعد فى مصر حكومة ، وأن البلاد توشك أن تغرق فى الفوضى .

اسمع يا حافظ باشا ، لا بد من تقـديم وزير الداخلية شمس الدين للمحاكمة ، ورئيس الحـكومة إذا لزم الأمر .

أما فوزى وشكرى ، فلا بد أن أسمع نبأ مصرعهما الليلة ، لن يهدأ لى بال إلا إذا قتلا . لقد قيل لى إن قوة من الجيش ستقبض عليهما وتقتلهما .

— مولاى .. مولاى أرجو أن تهدأ ، إن صحتك الغالية هى التى بقيت لنا .. إنها صخرة الأمان .

— أهدأ . . كيف تطالبنى يا حافظ باشـا بالهدوء ؟ وعاصمة ملـكى أوشكت أن تدمر .. لو لم أوافق على نزول الجيش، ما الذى كان يبقى من القاهرة .

— أطال الله فى عمر جلالتكم ، لطالما قلت وكررت ، إن من نعم الله على مصر ، أن وهبها فى هذه الفترة من حياتها ملـكا شاباً قوياً حازماً ، وإذا سمح مولاى ، لرجل عجوز مثلى حنكته التجارب أن يبدى رأيه فيما حدث . .

— قل . . تكلم يا باشا . . لماذا اخترتك رئيســاً للديوان . . أليس لـكى أنتفع بتجاربك .

وابتسم رئيس الديوان الشيخ وقال :

— الحق إننى الآن وقد تمت السيطرة على الموقف ، لم أعد متشائماً بالصورة التى كنت عليها ، عند ما تصورنا فى لحظة أن الزمام قد أفلت من أيدينا نهائياً . إننى لأسائل نفسى الآن ، وقد هدأت الأحوال .. أكان من الممكن أن تعلن الأحكام العرفية ونبسطها على البلاد ، أكان من الممكن أن نقيل الوزارة ، وأن نمهد لعودة العلاقات الطبيعية مع انجلترا ، دون أن يرتفع صوت بالاعتراض ، إلا فى ظل هذا الذى حدث ؟ الحق يا مولاى إنه صدق من قال « رب ضارة نافعة » .

وهدأت ثائرة الملك ، وكف عن الهياج وذرع الحجرة بالطول والعرض .. وتوقف أمام رئيس ديوانه ..

— أهذا رأيك ؟

— ولست أشك لحظة أنه رأى مولاى كذلك .

وانفرجت أسارير فاروق وقال لرئيس ديوانه :

— لقد صارحتك منذ تعيينك بأن هذه رغبتى فعلا ..

— وها هى توشك أن تحقق فى ظل أكمل الظروف المواتية ، ولست أعرف إذا كنت صادق الحس أم لا ؟

— بالنسبة لأى شىء يا حافظ ؟

— للحكمة والدراية التى عالج بها مولاى الموقف ..

— من أى ناحية ؟

— وتردد رئيس الديوان ..

— لست أعرف إذا كان من حقى ... ؟ !

— بل قل .. قل كل ما فى نفسك .. إننى فى حاجة فى هذه الساعة لأن أسمع كل شىء .

— لا أكتمك يا مولاى أن أول ما خطر بذهنى عند ما سمعت أنباء ما حدث بالأمس فى الإسماعيلية ، أن أقترح على جلالتكم تأجيل حفلة اليوم وأعترف لمولاى بأننى لم أفهم فى بادىء الأمر إصرار جلالتكم على قيام الحفلة فى موعدها ، وتشديدكم على ضرورة شهود كل المدعوين لها من رجال الجيش وقادة البوليس . أما الآن ، وبعد أن تطورت الحوادث بهذه الصورة ونحن على وشك إعلان الأحكام العرفية ، وإقالة الوزارة ، وإعادة التصالح مع الإنجليز . . .

لست أعرف .. لست أدرى .. إن خطة جلالتكم بدأت تتجلى لى بكل روعتها ..

وقهقه فاروق فى صوت مرعد ، وضرب بيده الغليظة على صدر رئيس الديوان الشيخ ، فتماسك الرجل بصعوبة ، بينما كان الملك يقول :

— لا تبالغ .. لا تبالغ يا حافظ باشا .. أنا لا أحب الإطراء .

— مولاى ..

— لا أخفى عليك أننى لم أكن أرى بأساً فى وقوع بعض الاضطرابات التى يمكن أن أستند إليها لطرد الحكومة . ولكن أنسيت الفزع الذى ألمّ بنا ، كان من الممكن أن نحرق كلنا يا حافظ .

— ومن هنا يا مولاى تتجلى دقة التوقيت الذى أمرتم فيه بنزول الجيش واحتلال البلد .

— الحالة هدأت تماماً يا باشا .. أصبحنا مسيطرين على المدينة ، وقد أطفئت جميع الحرائق الكبيرة ، والبوليس يزاول عمله كالمعتاد . . وبدأ يقبض على المجرمين .

— كل هذا قد تم بفضل دراية مولاى وحكمته ، لقد قام الجيش بواجبه فى خدمة مولاى .

— يا باشا هذا جيشى ، جيش آبائى وأجدادى . . جدى محمد على هو الذى أنشأ هذا الجيش ..

إننى أعرف ضباطه فرداً فرداً . . إنهم رجالى وأنا أعرف كيف أسوسهم وأجعلهم مخلصين لى .. أرأيت كيف كانوا جميعاً يقبلون يدى .

— لقد وقعت فريسة الإشاعات ، والإرجاف بأن فى الجيش تيارات وحركات خفية ، وضباطاً أحراراً .

— أعترف أننى أعرف كل شىء .. إنهم حفنة ، حفنة تعد على الأصابع وسوف أفرغ لهم بعد طرد هذه الوزارة . سوف أقبض عليهم جميعاً وأطردهم من الجيش . إننى ساهر .

واستأذن أحد الأمناء للمثول فى الحضرة الملكية ، ثم أعلن وصول رئيس الحكومة ، فطلب منه الملك أن يأمره بالانتظار .

وقال الملك لرئيس ديوانه :

— لم أعد أطيق رؤية وجه هذا الرجل ، يخيل إلى أن عينى لو وقعتا

عليه ، فلست أعرف ماذا سأفعل . .

— مولاى ، لقد عودتنا بحكمتك السامية ، أن تنفذ الخطط بإحكام. يجب أن تقابله حتى يعلن الأحكام العرفية ، ويعتقل الاشتراكيين، ويوجه إليهم الاتهام فى بيانه الذى سيذيعه الليلة .

— وهو كذلك .. وهو كذلك ، ولكننى لن أستطيع رؤيته . استلم أنت منه المراسيم وأحضرها لأوقعها .

— ولكنه قد يصر على مقابلة جلالتكم بنفسه ، لن يكون هناك أى مبرر للحيلولة دون ذلك .

— أنا أقول لك . قل له إننى مريض .. مزكوم ، وإننى أخشى عليه من العدوى .. إنه يرتعب من العدوى .

* * *

لم تكد عينا رئيس الحكومة تقعان على رئيس الديوان حتى هرع نحوه يخاطبه فى انفعال شديد :

— أرأيت ماذا فعل المجرمون .. ؟ ! قل لى ، طمئنى .. كيف مزاج مولاى . على كل حال ، سوف أبلغه الآن ماذا فعلت حكومة الشعب وما سوف تعمل ، سوف تضرب بيد من حديد وبطش . لا رحمة ولا شفقة بعد اليوم ، سنقتص من كل المجرمين .. سيبيت كل الاشتراكيين الليلة فى السجن بمجرد إعلان الأحكام العرفية .

— لا أخفى عليك يا رفعة الباشا ، إن جلالة مولانا فى شدة الحزن

والأسف لهذا الذى حدث ، خاصة وأنه يحدث فى عيد مولد ولى العهد .

— كلنا هذا الرجل يا باشا .. كلنا هذا الرجل . ولكنى سأقر عين جلالته ، سوف نبطش ونسحق ، سوف نقتص من المجرمين بلا رحمة ولا شفقة .. « ولكم فى القصاص حياة يا أولى الألباب » لقد أوسعت لهم حكومة الشعب صدرها أملا فى أن يرعووا ويعودوا إلى الجادة .. أما بعد هذه الأعمال الإجرامية، فلم يبق إلا القصاص .. كتاب الله صريح ياحافظ باشا

« ولكم فى القصاص حياة يا أولى الألباب »

إن حكومة الشعب سوف تقتص من المجرمين . أياً كانوا .. وأياً كانت مراكزهم . والتحقيق سيكشف عن كل شىء .. سوف أطمئن مولاى .

— هل أحضرت مراسيم إعلان الأحكام العرفية ؟

— كلها جاهزة ومعدة للتوقيع ، وكذلك مرسوم تعيينى حاكماً عسكرياً حتى أباشر سلطاتى على الفور وأصدر أوامر القبض والاعتقال ، وتأليف المحاكم العسكرية .

— أتسمح لى بالاطلاع عليها ؟

— طبعاً .. طبعاً .. ولكنك تدرك من غير شك .. حروجة الموقف .. أريد أن أعود إلى رئاسة الوزراء فوراً لأتخذ إجراءاتى .

وقال رئيس الديوان ، وهو يتسلم المراسيم :

— سوف أحضرها لك موقعة من جلالة الملك فوراً .

— ماذا ؟ ألن أتشرف بعرضها على جلالته .. لقد كنت أنا الذى طلبت هذه المقابلة ، وقد تفضل جلالته فأذن على الفور بالمقابلة السنية ، وقد جئت لا لتوقيع المراسيم فحسب ، ولكن لأطمئن على جلالة الملك ، وأطمئنه على أن حكومة الشعب قد قبضت على ناصية الأمور وأنها ستضرب بيد من حديد .

— ليس هناك ما يسعد جلالة الملك كما تعرف أكثر من أن يلقاك فى أى وقت تشاء . أنت رئيس الحكومة وصاحب هذا الحق . ولكن المسألة أن جلالته فيما يبدو ، قد أصيب فجأة كما لو كان ذلك من التأثر ، بزكام حاد وقد قال لى إنه حرصاً على صحة رفعتكم وحتى لا تنتقل إليكم العدوى ... أما إذا شئت أن أبلغه رغبة جلالتكم فى مقابلته .

— لا .. لا هذه لفتة ملكية كريمة أعتز بها .. أن يقدر حكم السن الخاص بى ، وأن يشفق على من العدوى .. هذه لفتة .. لفتة سامية .. كريمة أعتز بها .. سوف أبلغها لإخوانى أعضاء الوزارة .. إنها تحية موجهة إليهم جميعاً . ولكن أرجو أن تحمل إلى جلالته دعائى له بالشفاء العاجل السريع .. إن صحته هى أغلى شىء فى الدولة .

ولم يغب رئيس الديوان إلا دقيقة واحدة . عاد على أثرها يحمل الوثائق ممهورة بتوقيع جلالة الملك ، وقال لرئيس الحكومة :

— جلالة الملك يبلغك تحياته وشكره السامى على عواطفك النبيلة . ويقول لك ، إنه سيلازم الراديو منذ الآن فى انتظار بيانك ، وسوف يسمعه

بأذنه الكريمة . ويشدد فى ضرورة الضرب بشدة على أيدى الاشتراكيين.

— خلاص . خلاص . قل لجلالتـه . إنه لن يكون فى مصر اشتراكيون بعد اليوم . . لن تسمح حكومة الشعب بترديد هذه الكلمة . . « اشتراكية » .

— ٣ —

تعانق فوزى وشكرى بمجرد وصوله إلى بيت الدكتور سامح ، وراح شكرى يقص عليهما المناظر المروعة التى وقعت عليها عيناه ، وكيف أن قلب القاهرة قد أصبح يبـدو كما لو كان قد تعرض لغارة من غارات الحرب الكاسحة . عند ما تقذف ألف طائرة متفجراتها وقنابلها الحارقة .

ولم تلبث أن جاءت الأخبار من بيت فوزى ، تنصح بوجوب الخروج من القاهرة ، فقد دهمت قوة من الشرطة العسكرية التابعة للجيش ، بيت فوزى للقبض عليه ، وكانوا فى حالة من التوتر والغضب تنذر بالشر .

ويقول الدكتور سامح لفوزى وشكرى :

— لا مقام لكما فى القاهرة ، يجب أن تغادراها حالا .

ويرد فوزى فى وجوم :

— طبعاً . . طبعاً ، ولكن لا بد من الاتصال أولا ، بصـاحب الأخبار ، لقد كان ممن اتصلوا بى أكثر من مرة طوال اليوم . . إنه

وماهر باشا ، وعشرات غيرهم على رأس من يشهدون لى بأنى كنت طريح الفراش .

وكاد قلب فوزى يتوقف وصاحب الأخبار يقول له :

— إن جميع الرسميين يؤكدون أن الاشتراكيين هم المسئولون عن حرق القاهرة .

— ولكن ..

— ويعتبرونك أنت شخصياً المسئول الأول عن هذا العمل . وقد شاهدك عشرات ومئات من الشهود ، وأنت تطوف القاهرة بسيارة ستروين تحرض الجماهير على الحرق والنهب والقتل .

— ليس هذا وقت المزاح يا مصطفى .

— أقسم بالله أننى لا أمزح. هذا ما يردده الكل ، فى دوائر الحكومة وفى القصر .

— وأنت .. أنت ماذا قلت لهم ؟ ألم تقل إنك كنت على اتصال مستمر بى فى البيت ، وإننى حذرتك . وحذرت ماهر باشا ، وحلاد باشا منذ ساعة مبكرة ، عن مغبة ما سوف يحدث ، إذا لم يبادروا بعلاج الموقف علاجاً حاسما ؟

— يا فوزى من الذى يقرأ الآن ، ومن يسمع ، الدنيا مقلوبة .. والمشاعر مصدومة .. إن القاهرة أوشكت أن تحترق كلها .

ورد فوزى سماعة التليفون إلى مكانها ، وحدق إلى شكرى وسامح

وقال لهما :

ــ أتعرفون ماذا سمعت الآن ؟ إن الحكومة تقول إننى المسئول عن حريق القاهرة وأننى كنت أطوف بسيارة ستروين سوداء وأحرض الجماهير على الحرق والنهب والقتل .

ولم يزد صاحباه على فتح أعينهما فى ذهول ودهشة ، وظلا مشدوهين يتطلعان إلى فوزى وإلى بعضهما . وكان الراديو هو الذى أعادهم إلى الانتباه واليقظة حيث راح يذيع نبأ إعلان الأحكام العرفية ، وتعيين رئيس الحكومة حاكماً عسكرياً — وصدور الأمر بمنع التجول ابتداء من الساعة السادسة .

ونظر شكرى إلى ساعته وقال :

ــ هذا معناه أننا يجب أن ننجو بأنفسنا حالا إذا أردنا أن نبارح القاهرة .

* * *

وراحت السيارة تدور وتدور بفوزى وشكرى فى الطرق الجانبية لتفادى المرور فى الشوارع الهامة ووسط القاهرة ، حيث كانت كردونات الجيش ودباباته ومصفحاته تحتل أمكنتها استعداداً لتطبيق قرار منع التجول بعد قليل .

بينما كانت قوات البوليس ودورياته ، تقبض وتعتقل وتفتش كل من تشتبه به من رائح وغاد .

ولم يتمكن فوزى بذلك من رؤية ما حل بالقاهرة . . فضلا عن أنه

كان مستغرقاً بكل حواسه فى استماع بيان رئيس الحكومة ، والذى كانت كل كلمة فيه نصلا حاداً فى قلب فوزى . فقد كان يدرك أنه وإخوانه هم المقصودون بكل حرف فى هذا الجزء من البيان بعد سماع هذا الذى سمع :

« ولكن دعاة الفتنة فى البلاد وفريقاً ممن فسدت ضمائرهم لم يتورعوا عن استغلال هذا الظرف فأثاروا الفتنة وأشاعوها وعرضوا مدينة القاهرة للفوضى والدمار والحريق والنهب والسلب ، محاولين بذلك قلب نظام الحكم فى البلاد ، وفقاً لخطة مدبرة ومطمعين للعدو فى أن يتخذ من ذلك ذريعة إلى التدخل فى شئون الوطن .

وأغلق فوزى الراديو ، وقال :

— لا أريد أن أسمع ، لم أعد أحتمل . .

وراحت السيارة بعد أن غادرت القاهرة فى أمان ، تطوف متنقلة بين عشرات من المدن والقرى التى يمكن أن يلجأوا إليها ، فلا يكادون يقصدون مكاناً حتى يدركوا أن البوليس قد سبقهم إليه ، أو أنه فى الطريق إليه .

ووصلوا فى خاتمة المطاف ، إلى شربين ، وراحوا يقتربون من عزبة شكرى فى حذر .. ولولا ذلك لوقعوا فى يد قوات البوليس التى كانت تحتل البيت وتحاصر الطرق المؤدية إليه .

وانتهى بهم المطاف قبيل الصباح إلى الإسكندرية ، وقصدوا أحد المساكن المغلقة لأنها لا تستخدم إلا فى الصيف .

ولم يكد شكرى وفوزى يغلقان الباب وراءهما ، حتى استلقيا بملابسهما فى نوم أقرب ما يكون إلى الغيبوبة . . غيبوبة الظلام والضياع ، والمرارة والإحساس بالقهر .

* * *

— الله أكبر .. الله أكبر

— ماذا جرى يا شكرى

— معجزة .. معجزة .. آية .. أقيلت الوزارة ، وماهرباشا هو الذى يؤلف الوزارة الجديدة .

— غير معقول ؟ !

— ها هى الصحف .. إليك .

وغمغم فوزى :

— الحمد لك يا رب .. يا مخلصى من كل ضيق ، يا من تنجينى من كل كرب .

لوكان فى مصركلها إنسان واحد يشهد ببراءتى عن حوادث حريق القاهرة ، فهو ماهر باشا . لقد كان هو من حادثنى فى البيت وحادثته ، هو الوحيد الذى تصورت أنه ينقذ الموقف لو ألف الوزارة .

ونظر فوزى إلى صاحبه شكرى .

— ما الذى يبقينا الآن هنا .. فلنعد إلى القاهرة ، يجب أن نهنىء ماهر باشا بتقلده الوزارة .

* * *

وصدم فوزى ، صدمة مروعة .. وهو يرى القاهرة تغلى بالغضب عليه وعلى الاشتراكيين ، وكيف يتحدثون عن رقم الشيكات التى أعطيت له من إحدى السفارات .

وصاح فوزى :

— ليكن إننى أقبل التحدى ، سوف أسلم نفسى للنيابة .

— ولكن ذلك يعنى الذبح .

— وما قيمة الحياة مع هذا الاتهام ، إننى لن أمكن خصومى بالنيل منى بفرارى ، سوف أواجههم جميعاً .. سوف أتحداهم . ليقتلونى إذا شاءوا ، ولكنى سأتحداهم ، سأهاجمهم ، سأعصف بهم .

— ألا تنتظر حتى نتصل برئيس الحكومة ونتحسس مشاعره ؟

— لن أتصل بأحد .. لن أكلم أحداً .. سأسلم نفسى .. الآن .. حالا .

وأمسك فوزى بسماعة التليفون واتصل بالنائب العام .

— ٤ —

ارتمى فوزى على السرير الذى أعـد له فى إحدى زنزانات سجن الأجانب ، وراح يسائل نفسه وهو لا يزال غارقاً فى هذه الدوامة ، التى ألقى نفسه فيها بمجرد أن توجه إلى مكتب النائب العام ليسلم نفسه إليه .

أحقاً انتهى أشق جزء من محنته ، وانتهى إلى بر الأمان فلن يصرع برصاص البوليس .. ؟ لقد مرت عليه لحظات وضباط البوليس يحيطون به شاهرى السلاح ، وهو يتصور أن أياً منهم قد يصرعه برصاصة ، ويزعم أنه قد حاول الهرب .

لقد انتهت هذه المحنة،وها هو فى خاتمة المطاف حى بين هذه الجدران الأربعة .

إن باستطاعته الآن أن يفكر فى هدوء ، أن يستعرض ما مر به من أحداث متلاطمة ، أشبه الأشياء بفلم سينمائى من فيلم المغامرات ، حيث تحبس الأنفاس ، وتخفق القلوب .

ويغمض عينيه .. ما أمر الذكرى . رئيس النيابة الذى شرع فى التحقيق معه يطلب منه ، أن يعرضه عرضاً قانونياً على الشهود الذين قالوا إنهم رأوه وهو يحرض على الحرق والقتل ، ليتعرفوا عليه . وعاوده الفزع من هذا الاقتراح كما أصابه ساعتئذ حيث صرخ فى وجه رئيس النيابة :

— هل أنت مجنون ؟! كيف تفكر فى عرض للتعرف على .. أيوجد فى هذا البلد من لا يعرفنى أو على الأقل رأى صـورتى . إن الجريدة الاشتراكية وزعت فى الآونة الأخيرة مائة ألف صـورة لى ، لا يزال

أكثرها ملصقاً على الجدران فى مختلف الشوارع ، ولا توجد جريدة أو مجلة لم تنشر صورتى ، ورجال البوليس يحملون صورى ، فكيف تتصور ، أن يكون للتعرف على أى قيمة من الناحية القانونية ؟

ويتنهد فوزى فى ارتياح .. ما أكرم رئيس النيابة ، لقد احتمل ثورته ، لقد قدر ظروفه ، ورد عليه فى هدوء وابتسام :

— إن ما تقوله لم يغب عن بالى ، ولذلك فلن يكون للتعرف عليك كما تقول أى قيمة من الناحية القانونية ، ولـكن عليك ان تقدر كم يكون الدليل قاطعاً فى براءتك إذا لم يتعرف عليك الشاهد ؟

— محال .. إننى أرفض . هذه عملية إذلال .. أنا لا أسمح بحال أن أهان أو تمس كرامتى .. أنا لست مجرماً ، لن أقف كما يقف المجرمون .

ويستعيد فوزى ذكرى انصياعه لرئيس النيابة فى خاتمة المطاف . لجىء بعدد من موظفى النيابة وأوقف فوزى وسطهم ، ودعى الشاهد الإيطالى، الذى قرر فى التحقيق أن فوزى السيد رئيس الحزب الاشتراكى كان يستقل سيارة سوداء ، ويحرض الجماهير على القتل والحرق ، وأنه شاهده وهو يفعل ذلك بعينى رأسه .

ولم يكن لدى فوزى ، أى ذرة من الشك ، أن نتيجة التعرف مقررة وأن الرجل الإيطالى سيتعرف عليه للوهلة الأولى ، كما علمه البوليس وطلب منه .

وأعد نفسه لتحمل الصدمة .. صدمة أن يمسك الرجل بتلابيبه أو يشير إليه . .

ودخل الإيطالى ، وتصفح الوجوه ، واحداً إثر الآخر ، ولم يمسك بتلابيب فوزى أو يشير إليه ، وتجاوزه إلى من بجواره . ولم يصدق فوزى إلا أنها مناورة .. إنها حبكة مسرحيـة ، ولن يلبث الرجل أن يتظاهر بالاستذكار ويعود إليه. ولـكن الرجل أمسك بتلابيب أحد موظفى النيابة وقال هذا هو فوزى السيد الذى رأيته يحرق .

ويسأله رئيس النيابة :

— هل أنت متأكد ؟

— متأكد جداً .

— لا يوجد لديك أدنى شك ؟

— لقد رأيته بعينى رأسى .

وسجل رئيس النيابة ذلك كله فى محضر التحقيق ، وأن الشـاهد الإيطالى لم يتعرف على فوزى ، وأمسك بأحد موظفى النيابة ، ثم رأى أن يزيد الأمر تأكيداً ، فأشار إلى فوزى السيد ، وسأل الإيطالى :

— أليس هذا هو فوزى السيد الذى رأيته ؟

— لا يا سعادة البك ، فوزى السيد الذى رأيته هو من أشرت إليه.

وتقلب فوزى على فراشه. إنه لا يكاد يصدق هذا الذى حدث . أهو فى حلم ، ألم ير الرجل صورته فى إحدى المجلات ؟ ما الذى جعله يذكر اسمه إذن ؟ والبوليس .. البوليس .. ألم يطلعوه على إحدى صوره .. أو

ألم يحاولوا أثناء العرض أن يشيروا إليه من طرف خفى .. كيف حدث هذا .. كيف حدث هذا .

ويهتف فوزى من جديد ، كما لم ينفك يهتف :

— إن الله يدافع عن الذين آمنوا .

آه ، إنه يتمثل رئيس النيابة ، كيف بدا عليه الشعور بالنصر عقب هذه النتيجة . . إن كلماته لا تزال ترن فى أذنيه :

— أرأيت ؟ لقد تمت عملية التعرف لمصلحتك ؟ لقد سقطت أقوال هذا الشاهد ، فعسى ذلك أن يحملك على إطاعتى .. إن هناك شاهداً آخر نوبياً يقول إنه رآك ، فدعنا نكرر العملية ، عملية التعرف .

ويتذكر فوزى فى خجل ثورته للمرة الثانية على رئيس النيابة .

— لا .. لا مرة واحدة تكفى . لن أعرض نفسى من جديد لهـذه المهانة . لن أعامل معاملة المجرمين . وعلى كل فليس فى كل مرة تسلم الجرة لقد كان الشاهد السابق أجنبياً ، أما أن يكون الشاهد نوبياً فمستحيل أن لا يعرفنى لقد رشحت نفسى فى دائرة النوبيين الانتخابية ، إننى صـديق النوبيين ، ليس فيهم نوبى واحد لا يعرفنى .

ورفض فوزى الإصغاء إلى رجاء رئيس النيابة .. حتى النتيجة السابقة الرائعة لم يـكن لها عليه تأثير هذه المرة . . إنه يرفض المبدأ ، إنه ليس مجرماً . ويستعيد فوزى شريط الحوادث إنه يستمتع بها الآن ، بعد أن أصبحت تاريخاً ماضياً . . أجل يجب أن يستعيدها ، أن يتأمل كل لحظة فيها . . ما أشد غباء هذا الشاهد وإصراره على أقواله .

— لقد رأى فوزى السيد . إنه يعرفه منذ أيام الإنتخابات ،فقدكان يراه.

— وكان فوزى السيد يركب سيارة سوداء .

— وكان يحمل فى يده علماً ، يشير به إلى المتظاهرين فيندفعون حيث أشار ، ويحرقون المحل .

ويسأله رئيس النيابة :

— إذن أنت تؤكد أنك تعرف فوزى السيد شخصياً ؟

— طبعاً

— هل هو موجود معنا الآن فى هذه الحجرة ؟

ويتلفت الرجل النوبى فى أرجاء الغرفة ، وتصافح عيناه عينى فوزى الذى كان جالساً إلى جوار رئيس النيابة . . ثم يهز رأسه ويقول فى ثقة وتأكيد :

— إنه ليس هنا .

— حاول أن تتصفح وجوه الموجودين للتأكد .

— وهل يوجد غيرى وغير سعادتك وسكرتير النيابة وهذا البك الجالس إلى جوارك .

— أليس هذا البك هو فوزى السيد ؟

ويبتسم الرجل فى ذكاء . . أجل يبتسم فى ذكاء .. إن فوزى يرى ابتسامته الآن بوضوح ، إن مخايل الذكاء تفوح منها ويقول :

— ياأفندم ، أتظن أنك ستغرر بى بهذا الأسلوب .. أين هذا البك من فوزى السيد ؟

— هل أنت متأكد أن هذا البك ليس هو الذى رأيته يحرض على الحريق ، ويشير للمتظاهرين على المحال التى يحرقونها ؟

— متأكد جداً .. هذه شهادة سيحاسبنى الله عليها يوم القيامة .

— فما رأيك أن هذا هو بالفعل فوزى السيد ؟

ويرتج على الرجل ويتلعثم ..

— الناس كانت تقول هذا هو فوزى السيد .

ولكن من كانوا يقولون عنه فوزى السيد ، ليس هو هذا الجالس الآن أمامك ؟

— ربى وكيلى .. هذه ذمة . إنه ليس هو ، الفارق بينهما كبير جداً .
ويزداد إنفعال فوزى ، فيعود للتقلب على السرير

— أحقاً ، حدث ذلك كله .. هل انهار الإتهام ضده بهذه السهولة ، هل حبط كيد البوليس . . صدق الله العظيم . . صدق الله العظيم

إن الله يدافع عن الذين آمنوا

ولم يلبث فوزى أن غرق فى سبات عميق ، لفرط ماعانى من محنة أنجاه الله منها .

— ٥ —

استقبل رئيس الديوان الملكى ، طهطاوى بك رئيس المحكمة العسكرية الكبرى ، بترحاب فى مكتبه بقصر عابدين . ومضى بغير مقدمات إلى الموضوع الذى استدعاه من أجله :

— مارأيك فى جرائم حريق القاهرة التى تنظر فيها الآن ؟

— لابد أن معاليك قد اطلعت على رأيى فى حيثيات الأحكام التى أصدرتها ، لقد حكمت بالأشغال الشاقة المؤبدة ، على كل من ثبت اشتراكه فى هذه الجرائم .. إننى لم أجد أى سبب يدفعنى للرأفة ، ولو كان القانون يسمح لى بأكثر من السجن المؤبد لحكمت به .

— طبعاً .. طبعاً لقد تتبعنا هذه الأحكام ، وطالعنا الحيثيات ، وقد ارتحنا لهذه الأحكام الرادعة ، ولكنى لا أخفى عليك أن ما يهم جلالة الملك فى الدرجة الأولى هو الرؤوس المدبرة وليس هؤلاء الأذناب من الرعاع الذين فعلوا تحت تأثير التحريض .

— عفواً يا معالى الباشا ، ولكنى لم أخف رأيى فى موضوع المحرضين لقد سجلت فى أول حكم أصدرته ، أن المجرمين الحقيقيين ، هم هذه الفئة من المحرضين الذين راحوا يتظاهرون بالوطنية والغيرة على مصالح الشعب والوطنية منهم براء . المجرمون الحقيقيون هم هؤلاء الذين ما فتئوا يحرضون الشعب بالمقالات فى صحفهم الإجرامية .

— ياطهطاوى بك ، أنا أهنئك على حسن إدراكك للموقف ، سوف أحمل إلى جلالة مولانا ، كريم مشاعرك ، وعظيم ولائك .

— يا افندم نحن رعايا جلالة الملك المفدى وخدامه ، ما عليه إلا أن يأمر وعلينا الطاعة .

— استغفر الله يا طهطاوى بك ، إن مكانتك ومركزك محفوظان . إن مثلك لايؤمر . إن جلالة مولانا أحرص الناس على استقلال القضاء . وأرجوك ألا تتصور أننا نريد أن نؤثر فى ضميرك ووجدانك ، وإذا كنت قد دعوتك اليوم ، فلكى أبلغك رضاء مولانا السامى عن أحكامك ، ولكى أتعرف بكم شخصياً .

— يا افندم هذا شرف كبير لى .

— وما رأيك يا طهطاوى بك فى الاشتراكيين ؟

— الاشتراكيون هم الذين حرقوا البلد .

لقد كنت أطالع هذه الجريدة الملعونة « الاشتراكية » وكنت أعجب كيف يسمح لمثل هذه الجريدة بالظهور ، ولكن هكذا شاءت إرادة مولانا ، وحرصه على القانون والدستور .

إنك لا تتصور يا معالى الباشا مقدار ضيقى بهذه الأحكام الثلاثة التى صدرت على فوزى السيد فى الشهر الماضى ، كعقاب له على تهجمه على جلالة مولانا .. ستة أشهر فى كل قضية أهذا معقول ؟ ولمن وضعت إذن أقصى العقوبة إذا لم تكن لفوزى السيد ؟

— على كل حال أنت الذى ستنظر قضية فوزى السيد الخاصة بالتحريض على حرق القاهرة .

— أنا فى الخدمة ، إذا حولت على دائرتى فسوف أنظرها طبعاً .. ولكنى لا أعرف إذا كان التحقيق قد انتهى منها ، أو لم ينته بعد .. إن الصحف تقول إنه لم ينته بعد .

— الواقع أن التحقيق قد طال واستطال ، فإن الشهود الذين جاء بهم البوليس فى أول التحقيق لم يتعرفوا على فوزى السيد .

— يا سلام ؟!

— تصور يا طهطاوى بك . على كل حال لقد انتزع التحقيق من يد رئيس النيابة الأول ، وعهد به إلى رئيس نيابة الصحابة الذى طالما حقق مع فوزى السيد ، وقد تقدم شهود جدد ، يقررون أنهم شاهدوا فوزى السيد وهو يحرق ويحرض على القتل .

— هناك نقطة قانونية ينبغى أن أنبه إليها يا معالى الباشا ، ولست أظنها ستغيب عن فطنة النائب العام ومع ذلك فلا بد من لفت النظر إليها .

— ما هى ؟

— إن عقوبة التحريض على الحريق الذى يؤدى القتل هى الإعدام ، ولقد مات فى خلال هذه الحوادث عشرات من الإنجليز فى نادى التيرف كلوب ، وبنك باركليز . فعسى أن لا تغفل النيابة وضع مواد الإعدام بالنسبة لفوزى فى قرار الاتهام ، لأن المحكمة مقيدة بقرار الاتهام فإذا لم يتضمن طلب توقيع الإعدام ، فلن تستطيع المحكمة أن تصدر حكماً بالإعدام .

ـــ أشكرك على تنبيهى إلى هذه النقطة . ويظهر يا طهطاوى بك ، أننى سأهنئك قريباً برتبة الباشوية .

ـــ واكفهر وجه طهطاوى بك ، وتصنع البشاشة :

ـــ ربنا يحفظ مولانا ، أسيكون ذلك بمناسبة إحالتى على المعاش قريباً !

ووثب رئيس الديوان واقفاً :

ـــ ماذا تقول ؟

ـــ أنا يا افندم سأحال على المعاش فى ١٥ يونيو من هذا العام ، أى بعد شهرين من الآن .

ـــ والقضية .. قضية فوزى السيد ، من الذى ينظرها غيرك . هذا مستحيل . أين سنجد قاضياً مستنيراً عادلا مثلك .

ـــ ولكن يا معالى الباشا ، ما دامت القضية لم يكمل تحقيقها حتى الآن ، ولم تحول إلى المحكمة ونحن فى إبريل ..

ـــ لا .. لا لا بد من عمل شىء .

ـــ إن قانون استقلال القضاء فى هذه النقطة ...

ـــ لا تحدثنى الآن عن القانون . إن مصلحة الدولة العليا فوق كل قانون ، وعلى كل حال ، يجب أن يعدل هذا القانون .. يجب أن نفعل شيئاً ..

أنت الذى يجب أن ينظر القضية ، وأرجوك .. أرجوك يا طهطاوى بك ، أن تكون متأكداً ، إننا حريصون كل الحرص على عدم التدخل

فى القضاء . إذا كنا نريدك أنت لتحكم فى قضية فوزى السيد ، لأننا مطمئنون إلى ضميرك وعدالتك ونزاهتك .

— أنا خادم مولاى .

— ٦ —

عجب فوزى لبقاء باب زنزانته مغلقاً ولم يفتح عليه رغم تقدم النهار . ونظر إلى أشعة الشمس التى كانت تنفذ من كوة الزنزانة ، إنها لا تشرق فى جو الزنزانة إلا قبيل الساعة العاشرة ، ولم يحدث أن ظل الباب مغلقاً عليه حتى هذه الساعة .

وتلفت حوله فى شىء من القلق ، أيقرع الباب ليستدعى السجان ؟ ولكن لا ، إنه لم يفعل ذلك أبداً ، ولن يفعله ، وماذا عليه ، فلينتظر .

وسمع أخيراً صوت المفتاح الحديدى ، وهو يصطدم بقفل الباب إذ يدخل فيه بقوة .. أخيراً .

ولكن دهشة فوزى زادت ، عند مافتح السجان الباب ، فلم يهش كعادته ، واكتفى بأن يغمغم بتحية الصباح . ولكن ما زاد فى عجب فوزى ، أن وجد أحد جيرانه من السجناء يدخل عليه ، دون أن يعترض عليه الحارس كما تقضى التعليمات ، بل إن الحارس تركهما منفردين وانصرف .

وابتسم الزائر ابتسامة لم يغب عن حس فوزى ، مقدار ما كان فيها من اغتصاب وافتعال .

— ولكن كيف سمح لك الحارس بالدخول .. إن هذا ممنوع كما تعرف وقد تعرضه لمسئولية .

— أحرام أن نصبح عليك ؟

وأحس فوزى أن وراء الأكمة ما وراءها ، فقال لصاحبه :

— إن هناك شيئاً ما ، تريد أن تقوله لى فهيا .. أرجوك قل وعجل .

— يا أستاذ فوزى أنت رجل مؤمن ، وقد عشت طول عمرك مجاهداً محتسباً ، وسوف ينصرك الله إن شاء الله ، وتخرج من هذه المحنة منتصراً ..

— ولكن ..

— أنا أريح بالك ، لقد جئت لكى أطلب منك أن لا تقيم وزناً لما سوف تطالعه فى الصحف .

ولأول مرة تنبه فوزى ، أن الصحف التى اعتادوا أن يحضروها له كل صباح لم تصل إليه اليوم ، ولمعت الحقيقة فى رأسه فجأة .

أنشروا قرار الاتهام ؟

— أجل .

— وأى شىء فى ذلك ، لقد كان هذا أمراً متوقعاً على كل حال . المسألة هى أننى فى دهشة من أن ينشر فى الصحف ، قبل أن يبلغ إلى أولا .

— لقد فكرت إدارة السجن أن تحجب عنك الصحف هذا الصباح ،

إنك تعلم كم يعزونك ولا يحبون إزعاجك . ولكنى أقنعت الأمور ، أنك رجل كفاح وبطل .

وقهقه فوزى ضاحكا وقد اتضحت أمامه صورة الموقف كاملة .

— ومن أجل هذا تأخروا فى فتح الباب ، ثم سمحوا لك بزيارتى لتهيئنى لمطالعة القرار . ولكن ما الذى يزعجهم إلى هـذه الدرجة ، أطلبت النيابة إعدامى ؟

— هذيان .. كلام فارغ .

وجاءت الصحف تحمل فى صدرها كلها بالخط الأحمر العريض :

— النيابة تطلب إعدام فوزى السيد .

إعدام .. إعدام أخيراً يقترن الإعدام باسمه .

وابتسم فوزى فى مرارة . إنه لا يفاجأ بفكرة الإعدام ، بل لقد أحسها وهو يشهد هذا الانقلاب الذى طرأ فجأة على التحقيق بعد أن ظل راكداً طوال أربعة أشهر . كم كان ساذجاً ، وهو يتصور أن العاصفة قد انتهت بالنسبة إليه بصدور هذه الأحكام فى قضايا العيب فى الذات الملكية كم كان أبله ،وهو يتصور هذا التوقف عن التحقيق معه ، معناه اقتناع النيابة أخيراً ببراءته . ويروح يطالع روايات تولستوى فى نهم وشراهة وسعادة .

وفجأة . يتغير ذلك كله . تحقيق بالليل والنهار ، شهود جدد يزعمون أنهم رأوه وهو يحرق بنفسه، يحرق التيرف كاوب وبنك باركليز ، حيث احترق عشرات من الإنجليز .

لم يغب عنه أنهم يريدون رقبته أخيراً ... يريدون إعدامه ، وها هو قرار الاتهام يجيء أخيراً ، وهاهى الصحف تكتب خبر إعدامه كما لو كان حقيقة قد تمت بالفعل .

ويغلق فوزى باب الزنزانة على نفسه ... إنه يريد أن يكون وحيداً ، يريد أن يخلو إلى نفسه .

— إعدام .

سوف يسبقه قرار من القاضى باحالة الأوراق إلى المفتى ، يا لها من كلمة بغيضة ... أسيقدر عليه أن يسمع هذه الكلمة القبيحة ... إحالة الأوراق إلى المفتى .

وعملية الشنق بعد ذلك ، كم يمقت هذه العملية وكل ملابساتها ، ومقدماتها والإجراءات التى تسبقها وتعاصرها ... آه من هذه الإجراءات أنها هى التى يستسخفها ويقشعر بدنه من تصورها .

ويعود بخياله إلى آخر عملية شنق فى السجن ، سجن الاستئناف الذى نقل إليه بعد الأحكام فى قضايا العيب .

لقد فتحت أبواب السجن فى يوم التنفيذ فى ساعة مبكرة على خلاف العادة ... إن زنزانته فوق باب السجن مباشرة ، ولقد تتبع بسمعه كل شيء .

يفتح الباب ليدخل عشماوى الجلاد ، وبقية رجال التنفيذ ومفتشو السجون ، ورجال الصحافة . إن كل من فى السجن يعرف أن سيكون فى

ذاك اليوم تنفيذ الاعدام ، إلا هذا المنكود الذى سيشنق ، إنه هو وحده الذى لا يعرف .

لقد حادثه فوزى بالفعل فوجده لا يحس بما يدبر له ، لقد كان يأكل بشراهة كما اعتاد أن يأكل، وعندما تكلم معه فوزى هش له وبش، ودعى له أن لا يريه الله مكروهاً وأن ينجيه من كل ضيق .

لقد ذهل فوزى من هذه الغفلة . إنها رحمة ... من الله حتى لا يطول عذابه . حتى الزيارة ... الزيارة التقليدية لكل أقاربه فى اليوم السابق على التنفيذ ، لم تلفت نظره إلى دنو أجله ، ذلك أنه كأى إنسان حى ، يتعلق بالأمل ، لا يحب الموت ، يتصور أن ستقع معجزة تحول بينه وبين الموت .. كل إنسان حى يحب أن يخدع نفسه فى موضوع الموت ... وأنه للآخرين وليس له .

ويهز فوزى رأسه بعنف . إنه لن يكون من هذا الطراز ، لن يخدع نفسه ، لن يعللها بالآمال ، سيعرف بالضبط متى يعدمونه ، وهذا الذى نشر اليوم فى الصحف هو أول خطواته نحو غرفة الإعدام .

ولكنه لن يسمح لهم بعد صدور الحكم أن يلبسوه بدلة حمراء كتلك التى يلبسونها للمحكوم عليهم . سيقاوم ، ولن يسمح لهم أن يجعلوه يسير حافى القدمين وهو فى طريقه إلى المشنقة ، إن الحفاء ذل ومهانة .. لن يسمح به . إن أحداً لم يجرؤ على كثرة ما سجن فى أحلك الظروف أن يضع القيود الحديدية فى يده ، أو يلبسونه ملابس السجن ، وسيكون ذلك موقفه حتى بعد صدور حكم الإعدام . لن يلبس الملابس الحمراء الكريهة لن يسير حافى القدمين .

ولكن ماذا سيكون موقفه عندما يتسلمه عشماوى أخيراً لينفذ فيه حكم الإعدام ، عندما يدفعه بعنف نحو حجرة التنفيذ ، وهو يحتضنه فى عنف ليمكن زميله الآخر من تكبيل يديه خلف ظهره بهذه السيور الجلدية ... كم هى قبيحة هذه السيور الجلدية ...

وهذا الكيس الأسود الذى يضعونه على رأس المحكوم عليه ليحجبوا عنه الرؤية ، رؤية الحبل وهو يوضع حول أعناقهم ، والإشارة تعطى لإزهاق أرواحهم ، عندما تفغر الأرض فاها تحت أقدام المنكود ، فيهوى فى الهاوية التى لا قرار لها حيث لا يعود أبداً .

ويرتجف بدن فوزى إذ يستعيد ذكرى رجة السجن عندما هوى المحكوم عليه فى الجب ، ما أعجب أسرار الحياة ، أهذه الحركة الصغيرة ترج أركان السجن الوطيد الأركان ، المبنى من الفولاذ والأحجار . ولكن هذه الحركة الصغيرة ، هى ازهاق حياة إنسان ، إنها انتزاع السر الإلهى من الجسد الفانى ، إنها لحظة انطلاق قوة أقوى من السجن ، أقوى من الأرض كلها والشمس والقمر ، إنها سر الحياة ، سر الوجود .

وعاد فوزى من جديد يتأمل هذه الحروف الحمراء ، وغرغرة الموت تتلجلج فى حلقه .

النيابة تطالب بإعدام فوزى السيد ، ولكن لماذا كتبوها بأحرف حمراء ؟ ولماذا سوف يلبسونه بدلة حمراء ... ولماذا كان لون الدم أحمر ..

النيابة تطالب بإعدام فوزى السيد .. ..

— ٧ —

دهشت ناظرة مدرسة أطفال الروضة ، وإحدى المدرسات تدخل عليها حاملة وردة حمراء .

— وردة حمراء ، ما الخبر يا عنايات ، من أين جئت بهذه الوردة الحمراء الجميلة ، ما هى المناسبة !

— صباح الخير ياست الناظرة . من تظنين أعطتنى هذه الوردة الحمراء ؟ إنها شريفة ، بنتنا الصغيرة شريفة .

— ابنة الأستاذ فوزى السيد .

— إنها هى ، تصورى ؟ !

— حرام عليكى يا عنايات لقد مزقت قلبى ، وما هى المناسبة .

— قالت لى إنها فرحة جداً لأنها زارت أباها بالأمس فى السجن وعانقها وقبلها . ولذلك فقد أهدتنى الوردة .

وطفرت الدموع من عينى الناظرة :

— والله يا عنايات . . لقد بت أنا وزوجى بالأمس طول الليل فى نكد بعد أن طالعنا قرار الاتهام الخاص بفوزى السيد . وأكد لى زوجى أن الملك مصمم على أن يعدمه ويتخلص منه .

— إلهى ربنا يخلصنا منه هو . كلما نظرت إلى شريفة ووجهها الملائكى وبراءتها ، لا أتمالك نفسى من السؤال ، أيرضى الله عن حرمان هذا الملاك الطاهر من أبيه بهذه الصورة المفزعة .

— إنهم خمسة يا عنايات ، خمسة . لقد وضعت وفاء هانم مولوداً جديداً مثل القمر . وقد زرتها لأهنئها بالمولود الجديد . واحسرتا عليها ، واحسرتى على الطفل الصغير الذى يجىء إلى الدنيـــا فى الوقت الذى يدبرون المـكائد للخلاص من والده .

— لماذا أنت متشائمة هكذا . إن والدتى تقول إن الله سينجيه من أيديهم . تصورى يا أبله إن ماما تدعو له كل يوم بعد صلاة الفجر ، أن يفك الله كربه ، مع أنها لا تعرفه .

— هـذا عجيب والله يا عنايات . إن خالتى تقول إنها تفعل نفس الشىء . فهى تدعو الله أن ينجيه فى أعقاب كل صلاة .

— المسألة أن الظلم يثير النفوس (يا أبله) .

أريد أن أحضر لك شريفة

— إن قلبى لا يحتمل رؤيتها .

— والنبى (يا أبله) قدمى لها قطعة من الحلوى ، واسمعى منها حكاية زيارتها لأبيها .

وعادت عنايات المدرسة بمدرسة الروضة ، وهى تمسـك بيد شريفة ذات الخمس سنوات ، ترف كما لو كانت فراشة أو زنبقة ، مشرقة الوجه متوردة الخدين ، يسيل شعرها على جبهتها ، وقد ارتسمت على وجهها بسمة عريضة .

— صباح الخير يا شريفة .. ماما الناظرة زعلانة منك يا شريفة .

— أنا عملت أيه يا مامى ؟

— أحضرت لعنايات وردة حمراء ، ولم تحضرى لمامى الناظرة .

— غداً .. غداً .. أحضر لك واحدة .

— وكيف حال أبيك ؟

— حلو جداً ، يا مامى الناظرة ، قبلته وقبلنى ، وحضنّى ، وأجلسنى على ركبته وأعطانى علبةشيكولاتة كبيرة ، قد كده .

— وهل أكلتها كلها بمفردك ؟

— لا كلنا سوا .. سوا .. أنا وأخواتى .

— والنونو ؟

— النونو ، لا يأكل ، يرضع فقط .

— وكيف حال أبيك يا شريفة ؟

— بابا حلو جداً . لماذا يحبسونه يا ماما الناظرة ، بابا لم يفعل شيئاً . إنه طيب جداً وكلما سألت ماما متى سيجىء بابا ليسكن معنا ، تقول إن شاء الله .

وأوشكت الدموع أن تطفر من عينى الناظرة فتشاغلت بفتح أحد الأدراج ، وأخرجت منه قطعة من الشيكولاتة قدمتها لشريفة وهى تسألها لتغير الموضوع :

— وهل أنت مستعدة لحفلة المدرسة ، هل أتقنت كل الرقصات التى علمتها لك أبله عنايات ؟

— أتحبين أن أرقصها الآن أمامك ؟

وانهمرت الدموع من عينى الناظرة .. بينما كانت عنايات تسحب شريفة لتخرجها من الحجرة وهى تقول لها :

— عند الظهر .. عند الظهر يا حبيبتى ، سأعزف لك على البيانو ، وأنت ترقصين .

* * *

الفصل السادس

— ١ —

وقف فوزى لأول مرة فى حياته فى قفص محكمة الجنايات حيث جرت العادة بإجلاس المجرمين. وتقديراً منه لخطورة التهمة الموجهة إليه وهى حرق القاهرة ، التى لا يعصمه منها مركزه كرئيس حزب ، ولا مهنته كمحام ، ولذلك فلم يعارض فى هذا الوضع .

وتلفت فوزى حوله ووجهه يفيض بالبشاشة والغبطة ، إنه يعرف أنهم يكيدون له ، إنه يائس من العدالة .. قد تكون هذه المحاكمة هى آخر حظ له من الحياة ، والظهور أمام الناس . وإذن فليظهر بكل قوته ، بكل إيمانه ، بكل رضائه عما تجرى به المقادير .

كانت القاعة مكتظة كما لم يحدث فى أى يوم فى تاريخها، حتى لقد تصور فوزى فى لحظة ، أن الجدران توشك أن تتداعى من فرط الزحام ، على الرغم من جهود البوليس فى تقليل عدد الحاضرين بقدر الاستطاعة ، ولكن جمهور الحاضرين كان ممن لا يستطاع منعهم .

محامون حضروا للدفاع . صحفيون ومراسلو وكالات الأنباء ، أعضاء من النيابة غير المترافعين جاءوا ليشهدوا مجريات أعظم قضية عرفتها البلاد ، قضاة كبار ، زوار من البلاد العربية . وكانت القاعة تجيش وتئز بالأصوات لفرط الزحام ، فلم يكن باستطاعة رئيس المحكمة على فرط صرامته أن يخفت هذا الضباب المتكاثف من الأصوات .

وكان يقف أمام المحكمة عشرون محامياً جاءوا للدفاع عنه ، وقد ملأوا صفين من مقاعد المحكمة .

وكان ذلك يثلج صدره ، ويكشف له عن أن الأمور ليست بالسواد والحلكة التي يتصورها الكثيرون .

لقد أحس فوزى مذ خرج من باب السجن ، حتى وصل إلى مكانه في قفص الاتهام ، أن قلب مصر كلها يخفق معه . كل من قابله في الطريق ، كان يبتسم له مشجعاً ، والبعض يلوح بيده مثبتاً ومؤيداً . إن بعض موظفي المحكمة أنفسهم قد خفوا لعناقه غير آبهين لما يمكن أن يحدث لهم .

ولقد كان فوزى يذرف الدموع لأقل من هذه المظاهر ، أما اليوم فلم تنحدر الدموع من عينيه ، خوفاً من أن يسيء البعض معناها . إنه يجب أن يبدو عملاقاً جباراً ، إزاء قوى الشر التي تعمل على موته . سوف يقاومها ، بل سوف يقهرها وينتصر . أجل سينتصر عليها حتى لو رفع إلى المشنقة .

وعندما وثب فوزى إلى داخل قفص الاتهام ، أحس كما لو كان يعتلي منبر الخطابة الذي اعتاد أن يحرك منه الجماهير ، سوف يحرك الشعب من هذا المكان ضد ظالميه ، سوف يفضحهم ، سوف يكشف عنهم النقاب إنه لن يكون لقمة سائغة أبداً .

وكان فوزى قد أعد لرئيس المحكمة ما لم يسمعه قاض من متهم في كل تاريخ القضاء . كان معتزماً أن يتحداه ، وأن يقذفه في وجهه بأنه جلاد . وأنه قد حكم عليه مقدماً . كان فوزى قد جاء يحمل معه هذه المجلات التي نشرت حديثاً لرئيس المحكمة ، يبدى فيه أسفه أن القانون لا يحوى عقوبة

فوق الإعدام ، ليحكم بها على المحرضين الآثمين .

وانتظر فوزى حتى يفرغ المحامون الذين حضروا للدفاع عنه ، من إثبات أسمائهم ، وكان على رأسهم الأستاذ نافع ، ذلك المحامى الكبير الذى طالما وصفه فوزى بالأسد الرئبال ، ولم يره فوزى فى أى قضية من قبل على استعداد أن يفتك بالقضاة والنيابة والحكام كما كان فى هذه اللحظة .

ورفع فوزى يده طالباً الكلمة ، وفوجىء فوزى برئيس المحكمة يبش فى وجهه ويقول :

— نعم يا أستاذ فوزى .

— إن لى طلبات .

— إن المحامين يتكلمون عنك .

— أنا صاحب الحق الأول فى الدفاع عن نفسى ، ولن أسمح لأحد أن يتكلم عنى ، قبل أن أتكلم أنا وأقول كل ما عندى . وإن لى طلبات أصر على أن تجاب أولا ، قبل أن أوافق على شهود هذه المحاكمة ، فإذا لم تجب ، فلن أرضى عن المحاكمة . ولن أحضر جلسات القضية .

وران على القاعة سكون رهيب عقب هذه الكلمات ، فقد كان فوزى يوجه إنذاراً ، ويتحدث بلغة غريبة عن المحاكم . ولكن كل من فى القاعة حتى فوزى نفسه ، فوجىء برئيس المحكمة يقول :

— اتفضل قل طلباتك وسوف تفحصها المحكمة ، وكل ما كان منها قانونياً فلا بد أن تجيبك إليه المحكمة .

— إليك الطلب الأول، لقد لاحظت أن صفحات القضية التى جاوزت الألوف ، منسوخة كلها على الآلة الكاتبة على خلاف المعتاد فى سائر القضايا. وقد قيل لى إنها نسخت فى وزارة الداخلية، بواسطة موظفين حشدوا للقيام بهذا النسخ فى أقصر مدة ممكنة ليمكن نظر القضية اليوم .

وأنا أقول ، ان القانون قد حدد موظفين مخصوصين فى المحاكم لنسخ هذه القضايا ، وقد أقسموا اليمين أن يؤدوا هذه العملية بكل صدق وأمانة ودقة. ولذلك فانى أطلب أن يعاد نسخ القضية بالطريق الشرعى القانونى .

وأسرع رئيس المحكمة يقول :

— يعاد نسخ القضية بمعرفة قلم النسخ .

وامتلأ فوزى إحساساً بنشوة الانتصار . إنه يكسب جولته الأولى . إنه أقوى من الحكومة ، أقوى من المحكمة ، ولن يستطيعوا الآن نظر القضية إلا بعد شهور وشهور .

* * *

لم يؤجل رئيس المحكمة القضية إلا لخمسة أيام فقط ، وقد هال فوزى أن يرى ملفات القضية المنسوخة بمعرفة موظفى المحكمة قد بدأت تنهال عليه أولا بأول بعد مرور أربع وعشرين ساعة فقط .

وقص عليه مأمور السجن ، كيف أنهم حشدوا كل موظفى المحاكم فى القطر المصرى المختصين بعملية النسخ ، وراحوا يعملون طوال الأربع والعشرين ساعة ليفرغوا من نسخ القضية فى الأيام الخمسة كيلا يعطلوا سيرها .

وأحس فوزى بضخامة القوى التى تعمل ضده. وبدأ يستريب فى استجابة طهطاوى بك رئيس المحكمة إلى طلبه المفاجىء . إنه يريد أن يستدرجه

إلى الاطمئنان للمحكمة و إلى تصور أن كل شىء سيجرى ويتم بطريقة شرعية ، حتى يكون قرار تحويل أوراقه إلى المفتى شرعياً أمام الرأى العام والتاريخ .

واستوقف فوزى كذلك الطريقة التى تم بها نشر الصحف كل كلمة قالها . نشرت تفصيلات ما جرى فى الجلسة بالصور . لكن أيمكن أن يستمر النشر بهذا الأسلوب ؟ هل سينشرون هجومه العنيف على الملك ... إن الرقابة مفروضة على الصحف . لن يسمحوا له أن يثير الرأى العام ضدهم .. ليس هذا النشر الذى تم فى اليوم الأول إلا إمعاناً فى الخديعة والتضليل،لإيهام الرأى العام بأن العدالة تسير فى مجراها. ووجد فوزى نفسه وقد انقلب من النقيض إلى النقيض ، من التحمس لشهود المحاكمة ، إلى الاشمئزاز من فكرة الاشتراك فيها. لا، إنه لن يكون ألعوبة فى يد أعدائه ، ولن يكون ممثلا فى هذه المسرحية التى ستنتهى حتما بإعدامه . إذا كان ولا بد أن يموت ، فلن يموت بأسلوبهم ، بطريقتهم ، بواسطة حبل مشنقتهم . ليمت وهو يحتج عليهم ، وهو يرفض سلطانهم ، يرفض الاعتراف بقضائهم ، بمحاكمهم ، سوف يضرب عن الطعام ، من أجل الحق ، من أجل العدل . من أجل الثورة ضد الطغاة والمستبدين .

* * *

قال الدكتور سامح لفوزى المسجى على أحد أسرة مستشفى السجن :

— لا يا أستاذ فوزى أنا لست من رأيك فى هذا الإضراب إنه لن يؤدى إلى شىء ، إلا أن تمكنهم من نفسك أكثر ، وأكثر . إن طلب

رد المحكمة الذى تقدمت به ، قد رفضه طهطاوى وقرر المضى فى نظر الدعوى .

— ليس من حقه ان يفصل فى طلب رد موجه إليه . إنه لا يمكن أن يكون حكماً وخصماً فى آن واحد .

— لقد ادعى إنه محكمة عسكرية لا يخضع لأحكام تحقيق الجنايات .

— إن هذا يزيد فى تشبثى بموقفى ، إنها ليست محاكمة إنها مؤامرة .

— ولكن التقارير الطبية تقول انك تذوى . وقد فقدت من وزنك خمسة عشر كيلو . وانك إذا واصلت الإضراب بضعة أيام أخرى ، فلن يكونوا مسئولين عن حياتك .

— ليكن ، لقد أصبحت تواقاً للموت ، ما جدوى هذه الحياة التى أحياها ، ما الذى لقيته منها سوى الجحود والكنود ، والإعدام الذى يراد لى فى خاتمة المطاف .

إن الله شاهد على ، إننى ما أردت من كل سعى سعيته ، من كل كلمة نطقت بها ، أو كتبتها ، إلا خير الناس جميعاً ، الحاكمين قبل المحكومين الأغنياء قبل الفقراء ، الإنجليز قبل المصريين ، الأعداء قبل الأصدقاء ، ذلك أن قلبى ملىء بالحب ، ملىء برغبة الخير .. وها أنت ذا ترى ما صرت إليه ، فأى حياة تلك التى أتشبث بها .

— الحق أننى لم أعد أعرف ماذا أقول لك ، أو كيف أتصرف .

وتساءل فوزى :

— وماذا عن موضوع إحالة طهطاوى إلى المعاش ، ألن تنتهى مدة

خدمته بعد أسبوعين ، فهل سيقدر على الفراغ من نظر القضية ، التي لم يبدأ سماع الشهود فيها بعد ، ويسمع النيابة والدفاع ، ثم يصدر الحكم خلال هذه المدة ؟

— إن غيابك عن شهود المحاكمة ، وانسحاب الدفاع من القضية ، سيمكن المحكمة من طي القضية طياً . وعلى كل حال ، فقد تقرر أن ينعقد مجلس الوزراء في الإسكندرية بعد الغد ، لكي يوافق على تعديل قانون استقلال القضاء ، بإطالة سن الإحالة على المعاش إلى سن الخامسة والستين بدلا من الستين . كما سيزيدون في مرتبات المستشارين مائة وخمسين جنيهاً كل عام .

وابتسم فوزي في مرارة وقال :

— وتقول لي بعد ذلك أن أذهب إلى المحكمة ، وكل شيء يدبر لإهلاكي .

— وماذا تريدني أن أقول ، وأنا أراك تذوي أمامي ، والأطباء يتحدثون عن الخطر الذي أصبح يحيق بك من استمرار الإضراب . إنهم يقولون في تقاريرهم ، إن خلايا الكبد قد أصبحت تتكاثر في البول ، مما يدل على أنه يتحلل .

ولم يتمالك سامح نفسه فأجهش في البكاء ، وربت فوزي على يد سامح وقد اغرورقت عيناه بالدموع كذلك :

— ما أسعدني بهذا الحب الذي تحيطونني به . إنني أحس بنفسي قوياً ، كلما غمرت بهذا الحب من إخواني ، وإذا قدر لي أن أموت ، فثق

أنى أموت قرير العين ، إنى فزت بأغلى ما يمكن أن يتملكه الإنسان وهو الحب .

— أما من هذه الناحية ، فلست أعرف كيف أصف لك الجو فى الخارج ، لقد تحولت عواطف الشعب بصورة عجيبة لا يمكن تعليلها . الذين يعرفونك والذين لا يعرفونك ، الذين خاصموك فى أى يوم من الأيام ، كلهم قد أصبحوا يعطفون عليك . لا يكاد الناس يعرفون أنى أمت إليك بصلة ، حتى يكلفونى أن أحمل إليك تحياتهم ، دعاءهم ، صلواتهم . أناس من كل طراز ولون ... شيوخ ، صبيان ، أمهات وعجائز ، وكثيراً ما تساءلت :

أيضيع ذلك كله عند الله . . أيذهب هباء ؟

— لاشىء يذهب هباء ، ومن أدراك أنى يوم أن أموت وسط هذا الحب والعطف ، لا أتحول إلى قوة مؤثرة بعد موتى أكثر مما كنت فى حياتى .

— ٢ —

هتف الهلالى باشا رئيس الحكومة فى وجه وزير العدل بمجرد دخوله إلى قاعة مجلس الوزراء فى بولكلى :

— ما هذا يا كامل باشا ، كيف توقعنى فى هذا الحرج ؟

— معاذ الله أى حرج يا دولة الباشا .

— موضوع هذا القانون . قانون استقلال القضاء . لقد أفهمتنى أن القضاة جميعاً مرحبون بتعديل قانون استقلال القضاء ..

— هكذا أكد لى رئيس القضاة ووزير العدل .

— إذن فما معنى هذه البرقيات التى تسلمتها احتجاجاً واعتراضاً على هذا القانون ؟

اسمع هذه البرقية :

قضاة محكمة مصر . يرون أن الظروف التى يتم فى ظلها تعديل قانون استقلال القضاء . تفسح المجال للتقول على سمعة القضاء . نلتمس أرجاء إصداره .

واسمع أيضاً :

قضاة محكمة الاسكندرية . يرجون أن يظل القضاء المصرى فى منأى عن الشبهات : باسم كرامة القضاء المصرى نطلب عدم الإسراع بإصدار قانون استقلال القضاء . وتدخل وزير العدل :

— لقد تسلمت صوراً من هذه البرقيات ولكنها لا تعدو أن تكون مرسلة من بعض أفراد لا يؤبه لهم ، به وإلا فكيف ينكر القضاة قانوناً يزيد فى مرتباتهم ، ويطيل أجل خدمتهم خمس سنوات . كيف يكون هذا ماساً بالقضاء ؟

— وماذا تقول فى هذه البرقية :

القضاة المجتمعون الليلة بناديهم . يستنكرون المناورات التى تتم للعبث بقدسية العدالة . ويرفضون تعديل قانون استقلال القضاء فى هذه الآونة بالذات .

وتدخل بعض الوزراء . هاتفاً بالفرنسية :

— هذا كثير .. كثير جداً . كيف يسمح القضاء لأنفسهم أن يتكلموا بهذا الأسلوب . كما لو كانوا طلبة ، أو نقابة عمال ؟

— الحق ن هذا لا يليق صدوره من القضاة . ويجب أن يصدر القانون .

إنها ثورة يا مونشير ..

— لا تلق بالك يادولة الرئيس ، إن من يطالع هذه البرقيات يتصور أننا سنغلق المحاكم . ومن أدرانا أن هـــذه البرقيات لا تكون مزيفة ، ومدسوسة على القضاة ؟

وأجاب رئيس الوزراء فى غضب :

— إسمعوا من فضلكم ، المسألة أخطر من أن تعالج بهذه الخفة ، لقد اتصلت فعلا برؤساء المحاكم قبل حضورى إلى هذه الجلسة ، وفهمت منهم أن هذه البرقيات مرسلة منهم بالفعل . وأنا لم أفكر فى تعديل قانون استقلال القضاء ، إلا عندما تصورت أن هذه هى رغبة القضاة أنفسهم .

وقال وزير العدل مدافعاً عن نفسه :

— هذا هو ما أكده لى كل من تحدثت معه فى هذا الموضوع .

وقال رئيس الوزراء فى حزم :

— على كل حال ، ياكامل باشا ، ليس الهلالى الذى عاش طول عمره رجل قانون هو الذى يقبل أن يتهم بأنه يعبث بالقانون . إننى رجل قانون قبل أن أكون رجل وزارة ، وعندما أخرج من الوزارة ، فإننى محام يطالب دائماً صيانة القانون وتطبيقه.

وتدخل وزير الداخلية لإنقاذ الموقف :

— المسألة يا دولة الرئيس ....

— أرجوك يا مرتضى باشا ، إننى أعرف ماذا تريد أن تقول .

إن هذا القانون يجب أن يؤجل .

— ولـكن مولانا مهتم جداً ..

وقاطعه رئيس الحـكومة فى حدة :

— لا تزج بمولانا فى هذه القضية ، نحن كلنا خدام الملك ، وهو يحكم من خلالنا وبواسطتنا ونحن نعرف الصالح ، وأنا رئيس الحـكومة المسئول وما دمت كذلك فلن يصدر هذا القانون .

وأحس وزير الداخلية وغيره من الوزراء ، أن رئيس الحـكومة يعنى ما يقول ، فآثروا الصمت . بينما التفت رئيس الحـكومة نحو وزير العدل وقال له :

— وهذا الرجل طهطاوى الذى كان السبب فى إثارة كل هذه الزوبعة حول القانون ، ما هو موعد إحالته إلى المعاش .

— ٨ يونيو ، أى بعد أسبوع من الآن .

— وهو كذلك ، يجب أن يحال على المعاش فى الموعد المقرر . وأرجو أن ترسل له غداً خطاباً بانهاء مدة خدمته وشكره على ما أداه من خدمات ، هذا هو الإجراء الوحيد الذى يهدىء ثائرة القضاة ، وينهى هذه الزوبعة .

* * *

— ألو ... ألو — حرم الأستاذ فوزى .

— نعم أنا هى .

— ألف مبروك ياهانم .

— خيراً إن شاء الله .

— طهطاوى أحيل إلى المعاش .

— حقاً ... الله يبشرك بالخير ، ولـكن كيف عرفت ؟

— ستطالعين الخبر غداً فى الصحف .

— ما اسم حضرتك ، لأظل أشكرك طول عمرى لهذه البشارة .

— اسمى ليس مهماً ، أنا صديق رأيت أن تـكونى أول من يعرف الخبر . لقد كان الرجل مصمما على إعدام زوجك فالحمد لله الذى أزاح هذه الغمة .

* * *

— تذاكر ... تذاكر .

— هل سمعتم الأخبار ، الصحف تقول إن طهطاوى بك رئيس المحـكمة العسكرية العليا قد أحيل على المعاش .

وارتج ركاب الأتوبيس بالفرح والتهليل :

— فى ستين داهية .

— الله يجحمه .

— الحمد لله .

— أعوذ بالله ... لقد كان جلاداً .

— سفاح يا أستاذ .

— هذا نصر من الله ، للمسكين المظلوم فوزى السيد .

— يا أستاذ ، ربنا مع الحق دائماً .

— ٦ —

لم يكد رئيس المحكمة العسكرية العليا الجديد الذى حل محل طهطاوى بك ، يفرغ من مطالعة الخطاب الذى بعث به إليه فوزى السيد يوم استئناف المحاكمة ، حتى صاح فى غضب :

— كيف يخاطبنى بهذا الأسلوب ... لابد أن هذا الفوزى السيد مجنون ، إننى لم أسمع ولم يصادفنى فى كل حياتى القضائية شىء كهذا .

وافترت ثغور باقى أعضاء المحكمة من قضاة وعسكريين لسماع هذا التصريح من رئيسهم الجديد ، وسألوه فى لهفة :

— ماذا فعل يا حسن بك ؟

اتفضلوا ... اتفضلوا اقرأوا ، هل سمعتم من قبل عن متهم يضع شروطاً لحضور محاكمته ؟

وتناول عضو اليسار الخطاب المشار إليه من يد رئيس المحكمة وراح

يتلوه بصوت مرتفع :

سيدى رئيس المحكمة العسكرية العليا .

تحية واحتراماً وبعد، فلعلك وقد حددت هذا اليوم لاستئناف نظر قضية التحريض على حرق مدينة القاهرة، فلا بد أنك اطلعت على أوراق القضية ولابد أنك بحسك القضائى وتجربتك قد أدركت من مجرد الاطلاع عليها ، كيف أنها قضية قد لفقت تلفيقاً للنيل منى ، بحيث أثبت الشهود والأدلة القاطعة أننى كنت طريح الفراش فى هذا اليوم ، بل لقد نشرت الصحف خبر مرضى ، فقد اعتبر ذلك كله خديعة منى ورغبة فى التمويه . أما وجودى فى البيت ، فذلك لكى يكون بقدرتى إدارة العمليات الواسعة النطاق والإشراف عليها .

وفى الوقت الذى اعترفت فيه النيابة أنى كنت فى البيت أدير العمليات فقد وجهت إلى تهمة أننى كنت أطوف بالقاهرة فى سيارة لأحرض الجماهير على الإحراق .

وجىء بشهود فى أوائل التحقيق يقررون أنهم رأونى أحرق ، فلما عرضت عليهم لم يتعرفوا على .

وبعد أربعة أشهر من بدء التحقيق جىء بشهود جدد يقررون أنهم رأونى أحرق .

وعلى الرغم من أن القضاء قد حاكم مئات المتهمين بالحرق والنهب والسلب ، فلم يثبت خلال التحقيق أو إبان المحاكمة ، أن فيهم عضواً واحداً من أعضاء الحزب الاشتراكى . بل ليس فيهم من يعرف القراءة والكتابة

حتى يقال إنه طالع الجريدة الاشتراكية ، ومع ذلك فأنا متهم بأننى المحرض الفعلى لكل واحد من هؤلاء .

وحتى بعد أن حكم على أغلبهم بالأشغال الشاقة المؤبدة وسيقوا إلى السجون ، بدأت معهم المحاولات من جديد لحملهم على القول بأنهم كانوا على صلة من أى نوع كان بى . فأصر الجميع على إنكارهم بعد الحكم والسجن كإنكارهم قبلهما . ولست أزيدك علماً بالإجراءات الشاذة التى اتبعت معى منذ بدأت المحاكمة حتى الآن ... وإذا كان الله قد شاء أن ينحى الرئيس السابق للمحكمة ، فإن باقى أعضاء المحكمة الأربعة لا يزالون كما هم ، وهم الذين سايروا طهطاوى بك فى كل أحكامه وكل قراراته التى اعترض عليها .

ومع ذلك فان حادث إقصاء طهطاوى بك ، قد أدخل إلى نفسى شعاعاً من الأمل . ولذلك فقد عدلت عن إضرابى عن الطعام ، ووافقت على أن أحضر المحاكمة ولكن بشرطين :

— الأول أن لا أجاس فى قفص الاتهام ، الذى يجعلنى أشعر كما لو كنت حيواناً فى قفص ... ولما كنت أعتبر نفسى بريئاً ، وأنا محام فيجب أن يسمح لى بالجلوس فى مقاعد المحامين .

— أما شرطى الثانى فهو أن تضم كل الأوراق التى طالبت بضمها للقضية ، وعلى رأسها كل القضايا الخاصة بحريق القاهرة التى حكم فيها والتى لم يحكم بعد ، باعتبارها جزءاً من قضيتى ما دمت أنا المحرض للفاعلين فيها .

فاذا تفضل الرئيس باجابتى لهذين الطلبين ، فسوف أحضر المحاكمة وأدافع عن نفسى وأتقدم بطلباتى الأخرى ... أما إذا لم يوافق على هذين

الطلبين ، فانى شديد الأسف أن أعلنه أننى لن أحضر المحاكمة ، وإذا حضرت فلن أتعاون مع المحكمة .

وتفضلوا بقبول فائق الاحترام ؟

فوزى السيد المحامى

ورئيس الحزب الاشتراكى

وابتسم عضو اليسار فى مرارة بعد أن فرغ من تلاوة الخطاب وقال للرئيس :

— أصدقتنا الآن فيما تماه لك ، من أن فوزى السيد إنسان شاذ وعنيد وخطر . لقد بذلنا المستحيل لإرضائه فى حدود القانون ، وحاولنا إقناعه بكافة الطرق أننا قضاة لا هم لنا إلا تحقيق العدالة ، وأننا سنحقق دفاعه كاملا .. ولكنه أبى إلا هذا التحدى .. كأن المطلوب منا أن نحكم ببراءته قبل أن ننظر القضية .

وهتف رئيس المحكمة فى غضب :

— ولكن هذا جنون ، إن فوزى السيد متهم كأى متهم ، إن القضاء لا يعرف خياراً ولا فاقوساً ، إن معنى إجابتى لطلبه الجلوس فى مقعد المحامين أننى اقتنعت ببراءته ، وهذا لن يكون .. إننى لن أدلله أو أحابيه .. يجب أن يعرف أنه متهم ، والمتهمون يجلسون فى قفص الاتهام .. له علينا أن نحقق دفاعه ، وأن نجيب طلباته القانونية .. أما غير ذلك فلن يكون ..

يا حاجب .. يا حاجب

— أفندم سعادة الباشا.

ـــ من الذى أحضر هذا الخطاب ؟

ـــ رئيس الحرس المرافق لفوزى السيد

ـــ وأين فوزى السيد هذا ؟

ـــ إنه فى حجرة رئيس النيابة

ـــ استدع رئيس الحرس

* * *

ـــ نهارك سعيد يا حضرة القومندان .

نهارك سعيد مبارك يا افندم .

ـــ ما هى حكاية فوزى السيد وهذا الخطاب .

ـــ عند ما توجهنا إليه فى السجن لإحضاره اليوم ، قال لى إنه لا مانع عنده من حضور الجلسة شريطة أن أوصل لسعادتك هذا الخطاب ، وأن يجاب إلى طلبه فيه أن لا يجلس فى قفص الاتهام .

ـــ ولكنه مجنون .. مخبول .. وإنى أرفض إجابته إلى طلبه ، وآمرك أن تدخله إلى قفص الاتهام .

ـــ سأنفذ أمر المحكمة فوراً . ولكن سعادة الرئيس لا بد أن يعلم فوزى السيد عنيد ، وهو سيقاوم عملية إدخاله إلى القفص أمام الجمهور ، فهل أستخدم معه القوة ولا أبالى ؟

ـــ طبعاً .. طبعاً .

وهنا تدخل عضو اليسار .

ـــ المسألة هى أننا يجب أن نتدبر ما بعد ذلك . إن فوزى السيد فيما

يبدو فى حالة يأس ، ولذلك فقد يهيننا فى الجلسة العلنية ، وهو لن يتورع عن إهانتنا ، فماذا سيكون الموقف ؟

وقال رئيس الحرس :

— لا أستبعد عليه عمل ذلك ، بل لقد أشار بالفعل إلى أن هـذا سيكون موقفه إذا لم يجب إلى طلبه .

وصاح رئيس المحـكمة فى غضب :

— ولـكن هذا غير معقول .. هذا مستحيل ، محكمة عسكرية عليا لا تعرف كيف تحاكم متهماً . والله يا إخوانى إن الله شاهد على،إننى عند ما كلفت بنظر هذه القضية أشهدت الله على نفسى أن أجرى فيها العـدل والقانون بما يرضى الله وضميرى كقاض . ولـكن فوزى السـيد بهذه الأعمال والأقوال ، يحرج مركزى .. إننى لا أستطيع كرئيس محكمة أن أسمح له أن يتحكم فينا وأن يملى علينا شروطه .

وقال أحد أعضاء المحـكمة العسكريين :

— لقد أصدرت المحـكمة قرارها من قبل بنظر الدعوة ، سواء كان حاضراً أو غائباً ، ومن رأيى أن نمضى فى قرارنا ولا ضرورة لوجوده .

وقال رئيس المحـكمة :

— فعلا .. فعلا . إسمع يا حضرة القومندان ، قل لفوزى السيد ، إن الأمر متروك له ، إذا شاء أن يحضر الجلسـة فى حدود القانون والأمن والنظام ، ليدافع عن نفسه فيها ونعمت . أما إذا أبى إلا المشاكسة ، فأرجعه

إلى السجن ، وسوف تمضى فى محاكمته فى غيابه ولا يلومن إلا نفسه .

* * *

ومضت المحاكمة فى سبيلها فى غياب المتهم الأول . وتضجر ضمير القاضى رئيس المحكمة من هذا الوضع الشاذ ، فرأى أن يجدد السعى لإقناع فوزى السيد بحضور المحاكمة . وقيل له إن فوزى السيد يستمع لنصح صهره الدكتور سامح ، فأرسل إليه يستدعيه لمقابلته .

وهش رئيس المحكمة العسكرية العليا للدكتور سامح أستاذ الاقتصاد ، وراح يصافحه فى حرارة ، ثم رجا منه أن يجلس إلى جواره ، وطلب له فنجاناً من القهوة ، ثم أقبل عليه محدثاً :

— لقد حدثنى الجميع يا دكتور سامح عن علمك وفضلك وأخلاقك العالية ، وفوق ذلك حسن وزنك للأمور بميزان دقيق ، ولذلك رأيت أن أبذل آخر جهد لإرضاء ضميرى ، فاتصلت بك لتقابلنى .

— هذا شرف كبير أعتز به ، وأنا تحت أمرك .

— أيرضيك هذا الموقف الذى يقفه زوج أختك الأستاذ فوزى من المحكمة ؟

— والله يا سيدى الرئيس ، هذه مسألة لا أستطيع أنا ، أو أى إنسان آخر أن يحكم فيها على تصرف الأستاذ فوزى . فنحن نفكر بعقول صافية هادئة ، أما الأستاذ فوزى فهو متهم بأخطر تهمة لحقت بمصرى من قبل أو من بعد . وقد اختار هذا الطريق ليدافع به عن نفسه .

— وهل ترى أن هذا هو طريق الدفاع عن النفس ، أن يهين المحكمة ، ويقاطع الجلسات ، ويضرب عن الطعام .

— عن نفسى أنا فلست أقره على هذا المسلك ، وفى رأيى أنه يجب أن يحضر ويدافع عن نفسه ، ويواجه الشهود والأدلة .

— اتفقنا. ما دام هذا رأيك ، فلماذا لاتقنعه به ، إن الكل يؤكدون لى ، إنه يحبك جداً ولا يرد لك طلباً .

— وأنا من ناحيتى أحبه وأعزه ، وقد حاولت معه فازداد عزماً وتصميما .

— ولـكنه يضر بنفسه بهذا الموقف يا دكتور سامح .

— لست أعرف بالضبط ، إن الحوادث تدل حتى الآن ، على أنه قد استفاد منه . لقد أحيل طهطاوى بك على المعاش ، بعد أن كان متشبثاً بنظر القضية .

واكفهر وجه رئيس المحـكمة وقال :

— دعنا من موضوع طهطاوى بك ، أنا لست طهطاوى . أنا رجل يخاف الله ، ويحرص طول عمره على إرضاء ضميره . لقد اشتغلت على ما قيل لى يا دكتور سامح فى النيابة ، أى أنك من أسرة القضاء ، فهل طاف فى ذهنك يوماً من الأيام ، أن يحاول رئيس محكمة أن يقنع متهماً للحضور أمام المحـكمة . . إن اتصالى بك هو عمل شاذ ، وحديثى معك الآن أكثر شذوذاً ، ومع ذلك ، فقد أقدمت على ذلك لـكى أريح ضميرى لـكى ألقاك وتلقانى ، وتنقل للأستاذ فوزى أننا لا نريد سوى تحقيق العدالة ، وأنه يعز على نفسى أن أمضى فى نظر القضية خلال أربع جلسات فى غيابه .. إننى أريد منه أن يحضر .. أن يناقش الشهود .. وسأفسح له

صدرى ، وسأحقق كل دفاعه ، وسأنظر فى كل طلباته القانونية .

— الحق إننى لا أعرف كيف أعبر لسعادتك عن تقديرى لهذه الروح الكريمة ، فإذا سمحت لى بإبداء ملاحظة ..

— طبعاً .. طبعاً .. أرجوك .. قل كل ما تشاء .

— لقد اختلفت سعادتك مع المحامين ، وأصدرت عليهم جميعاً حكما بالغرامة . .

— يا دكتور سامح .. يا دكتور سامح ، هذه فى نهاية الأمر محكمة. ماذا تريد منى ، لقد أحرجنى المحامون ، لقد تحدونى بهذا الانسحاب الجماعى ، الذى أرادوا به تعطيل سير القضية ، لا يمكن أن نعمل تحت ضغط ..

— أنا أفهم ذلك وأقدره طبعاً ، ولكن هذا التصرف من ناحية المحكمة ، جعل فوزى أكثر تصلباً وتشدداً .

— يا سيدى هذه مسألة هينة ، ما عليه إلا أن يشهد المحاكمة ، ويحضر معه المحامون ويطلبون إقالتهم من الغرامة فتستجيب المحكمة لطلبهم وترفعها .

إن حضور فوزى السيد ، سوف يخلق جواً ملائماً ، وسوف أحقق طلباته ، لن يجلس فى قفص الاتهام .. وسأضم الأوراق التى طلب ضمها .

— سأحمل له هذه الرسالة ، وأرجو أن أوفق فى نقل هذه الروح الكريمة إليه .

* * *

مضى الحوار بين فوزى السيد ، والدكتور سامح أكثر من ساعة دون أن يصل إلى نتيجة فقد كان يدور فى دائرة مفرغة :

— إن حضورك خير من غيابك ، إن المحكمة ماضية فى سبيلها ، والشهود يتقولون عليك ، وأنت الوحيد القادر على إلقامهم حجراً .

— إن هذا هو الدليل على النية المبيتة لى ، إنهم يريدون تمثيل مهزلة المحاكمة ، ويعز عليهم أن الممثل الأول غائب .

— إنه سيجيبك إلى كل طلباتك ، لن تجلس فى قفص الاتهام وسيضم الأوراق التى طلبتها .

— ولماذا لم يفعل ذلك منذ البداية ، ما الذى يجعله يتحول عن عزمه ؟ إنها الرغبة فى إكمال المسرحية . أنسيت أن طهطاوى نفسه أجابنى إلى طلب نسخ القضية .

— ولكنى مقتنع أن حسن بك الرئيس الجديد رجل طيب .

— قد يكون طيباً أو لا يكون ، هذه مسألة علمها عند الله . ولكنه فى نهاية الأمر ليس صاحب الكلمة الأولى والأخيرة فى المحكمة العسكرية . إنه واحد من خمسة ، والأربعة الآخرون هم شركاء طهطاوى بك فى كل أحكامه الوحشية . إنهم الذين أدانونى فى حيثيات الأحكام الصادرة قبل أن أمثل أمامهم . إنهم الذين نظروا بأنفسهم على خلاف القانون ، الرد الذى وجهته إليهم . إنهم الذين أصدروا قراراً بنظر الدعوى سواء كنت حاضراً أو غائباً . فما هو سر إصرارهم على حضورى ، إن القضية واضحة

أمامهم ، إن التلفيق والكذب والخداع ظاهر فى كل صفحة من صفحات القضية . إن باستطاعتهم إجراء العدل فى غيابى مثل ما فى حضورى . إن إصرارهم على ضرورة حضورى ، معناه أن القضية غامضة وأنهم فى حاجة للدفاع لتجلية غوامضها ، مع أن تلفيق القضية واضح كالشمس .

لقد ضاعت فرصته ... كان يمكن أن أحضر القضية لو حافظ على كرامتى منذ اللحظة التى طلبت منه فيها ذلك .

إن قرارى لا رجوع فيه ، لن أحاكم أمام محكمة عسكرية ، إذا كان ولا بد أن أظهر فى المحكمة ، فأنا على استعداد لذلك لو نظرت القضية أمام محكمة جنايات عادية .

— وصحتك ... حياتك يا أستاذ فوزى ، أتتصور أن جسمك ، الذى أرهقته بالإضراب المتواصل عن الطعام ، سيظل يحتمل هذا الذى تحمله إياه ؟ إن ما أصبحت أفزع منه الآن من هذه الإضرابات المتكررة عن الطعام ، ليس هو موتك بقدر ما قد يحدثه لك من عاهات ، كأن تصاب بمرض عضال فى القلب ، أو فى الكلى على ما يقول لى الأطباء .

— لم يعد الأطباء قادرين على أن يخوفونى بشىء . إن الأمر بالنسبة لى قد أصبح مسألة حياة أو موت ... إما أن أعيش بكرامة ، وإما أن أموت بيدى لا بأيديهم .

* * *

— ٦ —

دخل بوللى إلى الحجرة الساطعة الأنوار فى نادى السيارات ، وكان الدخان منعقداً فى سمائها ، وقد ران على الحاضرين فيهـا صمت عميق ، بحيث لم يكن يسمع سوى أنفاسهم ، وقد استغرقهم لعب البوكر ، واستولى التوتر على أعصابهم وعزلهم عن العالم ، إلا من التحديق فى هذه الأوراق التى بين أيديهم .

واقترب بوللى من مولاه على حذر ، وظل يرقب أسارير وجهه ، فلما أن بدرت بادرة تدل على لين ملامحه انحنى فى هدوء وخفة ، وأسر له فى أذنه بعض الـكلمات .

وصرخ الملك فى حدة :

— وهل هذا وقته يا بوللى ، ألا يستطيع الإنسان أن يخلو لنفسه لحظة ، دون أن تلاحقوه ، ماذا ، هل أعلنت الحرب ، هل احترقت القاهرة من جديد .

— إنه يقول إن الأمر هام جداً ، ولولا ذلك لما جرؤ على إزعاج جلالتـكم . .

— إذن فليأت إلى هنا . .

— إنه يلتمس مقابلتكم على انفراد .

والتفت بوللى صوب جماعة اللاعبين معتذراً بعينيه ، بينما كان الملك ينهض بجسمه الضخم فى تثاقل وهو يقول لرفقائه فى اللعب :

— إبقوا كما أنتم ... سأكمل الدور بعد عودتى ... سأدع أوراقى على المائدة ... حذار من أن تمدوا أيديكم إليها ... أنتم تعرفون ..

وغادر الملك حجرة اللعب متأففاً ، ومن خلفه بوللى . وفتح باب إحدى حجرات النادى ، وصاح معربداً بمجرد أن وقعت عيناه على الموجود بها :

— أفندم ، ياسى كريم ، ما هذا الشىء الخطير الذى لا يستطيع أن ينتظر ... أتعرف ماذا سأفعل بك إذا لم يكن مهماً ، سوف أصفعك على قفاك ..

وانخرط الملك فى قهقهة عنيفة . .

— أم تراك تتصور أنك وقد أصبحت وزيراً ، فلن أصفعك على قفاك ؟

— أنا خادمك يا مولاى كما تعرف .. المسألة أن رئيس الحكومة سرى باشا ، متمسك بأنه إذا لم تبد جلالتكم موافقتكم على تعيين رئيس نادى الضباط وزيراً للحربية ، كما اقترح عند تشكيل الوزارة ، فسوف يقدم استقالته غداً صباحاً .

وهاج الملك وماج :

— ماذا أصاب هذا الأحمق ، لا بد أنه قد جن ، لقد فقد عقله ، مثل الآخرين . أبدلا من أن يقبض على أعضاء مجلس إدارة الضباط جميعاً ، لاجترائهم على تحدى ، يريد منى أن أعين رئيسه وزيراً للدفاع .. حقاً لم يكن ينقص إلا هذا ... ما الذى حدث فى الدنيا ياسى كريم ...

وأنت .. أنت ما فائدة جدوى تعيينك وزيراً معه .. إذا كنت لا تستطيع صرفه عن هذا العبث ..

— لقد حاولت جهدى إقناعه ولكنه أصر إصراراً غريباً . إنه يقول ، إنه لا يستطيع احتمال مسئولية الاستمرار فى الوزارة إلا إذا قام بهذا الإجراء .. وذلك لتهدئة الجو فى الجيش .

— لم أعد أطيق حكاية جو الجيش هذه .. يجب أن ننتهى من هذه الحكاية إلى الأبد . سأتولى الموضوع بنفسى أنا القائد الأعلى للجيش ، سوف أصدر أمرى بالقبض على رؤوس الفتنة ومحا كمتهم .

— اذهب إلى رئيس الحكومة وقل له .. فى ستين داهية ، استقالته مقبولة ، أنا لا أسمح لرئيس حكومة أن يعارض مشيئتى . أنا سيد البلاد الأعلى .

— سيادتكم للبلاد يا مولاى ليست محل نزاع من أحد ، الكل رعايا جلالتكم وخدامكم ، ولكن إذا سمحت لى ..

— نعم يا سى كريم .. اتفضل اتفلسف .. قل .

— عفواً .. إذا كان مولاى . .

— أبداً .. أبداً .. اتفضل ، أسمعنى شيئاً من فلسفتك .

— المسألة أن استقالة الوزارة بهذه السرعة وهى لم تكد تستقر فى كراسى الحكم أكثر من أسبوعين قد يحدث رجة فى البلد .. ويظهر الحكم فى صورة من عدم الاستقرار .

— مرحى .. مرحى ، لقد ظهرت عليك أعراض الوزارة يا ابن ..

أى رجة .. وأى عدم استقرار .. هل أنا الذى طلبت منه أن يستقيل ، وهل تريد منى أن أجيبه إلى طلباته الجنونية ، فأعين الضابط ، الذى تحدانى به شرذمة من الضباط ، وزيراً للحربية .

— باذنك يا مولاى .. إن رئيس الحكومة يقول ، إن حالة التوتر فى الجيش قد بلغت الذروة .

— هراء .. من أدراه هو بالجيش وما يجرى فيه .. على كل حال ، سأضع حداً لكل هذا وإلى الأبد ، سأباشر الموضوع بنفسى فى الوزارة الجديدة .. ولا تخشى على نفسك ، سوف أدخلك الوزارة .

من من الوزراء السابقين ، موجود فى النادى الآن ؟

— لقد لمحت مرتضى باشا .

— هذا هو عين من أريده .

— أستكلفه يا مولاى بتأليف الوزارة ؟

— كريم .. ماذا حل بك ، لقد أتلفتك الوزارة فعلمتك سوء الأدب فوق ما كنت عليه . إذهب واستدع مرتضى باشا ولا تتدخل فيما لا يعنيك .

وبعد لحظات كان وزير الداخلية السابق مرتضى باشا فى حضرة جلالة الملك ، بينما انسحب كريم باشا من الحجرة .

— اسمع يا مرتضى ، سرى باشا سيستقيل الليلة وقد قبلت استقالته . أريد أن أعيد الهلالى إلى الوزارة ، على أن تكون أنت الذى تدير زمام الأمور فتنفذ أوامرى وتعليماتى .

— مولای ، أنا تحت أمرك .. ولكن الهلالى متعب ، وهو إذا ركب رأسه لا يمكن زحزحته .

— لا تعرفه كما أعرفه ، إذا قبل الوزارة فسيكون كالعجينة فى يدى، وعندما تكون أنت من يحمل له نبأ اختيارى إياه رئيساً للحكومة ، فسيعرف مكانك فى وزارته .

— أمرك يا مولاى .

— المهم هو أنه يجب أن تتعهد لى منذ الآن ، أن تصفى هذه الحفنة من الضباط الذين أحدثوا هذه الفتنة فى نادى الضباط .

— إننى أعرفهم واحداً واحداً .

— المهم هو أن تتصرف ، وتتصرف بسرعة ، وقضية الولد المجرم فوزى السيد ، لقد سئمت من سماع أنها لا تزال مستمرة .. يجب أن تنتهى بأى ثمن .. يجب أن تخلصنى من فوزى السيد .. مفهوم .

— مفهوم يا مولاى .

* * *

— ٧ —

لم يكن باستطاعة فوزى أن يتقلب على فراشه من فرط الإعياء والضنى لم يكن بقدرته إلا أن يظل مستلقياً على ظهره ، مفتوح العينين ، يحدق فى سماء الحجرة . ولم يكن يؤرقه إلا هذا الباب الحديدى ، ولن يسأل عليه أحد طول الليل ، ولن يحسوا به إذا مات أو اختنق .

وكانت أيام الإضراب تمضى عليه متتابعة ، أول وثانى وثالث ورابع وخامس وسادس وسابع .

كان قد قارب تمام أسبوعه الثالث هذه المرة ، ولم تزده طول المدة إلا تشبثاً بإضرابه وقوة للاصرار عليه . إن ما يسعده الآن ، هو سوء التقارير الطبية التى أصبحت تكتب عنه . إنه يحارب بتدهور صحته .. إنه يقاوم بالاقتراب من نهايته .. وقد سجل الأطباء هذا اليوم تكاثر (الأسيتون) فى بوله ، حتى لقد أصبحوا يشمون رائحته مع أنفاسه ، وتزايدت الخلايا الحية فى بوله كذلك ، دليلا على تحلل الكبد .. وانخفض الضغط كل الدلائل والعلامات تنبىء أنه يمعن فى الخطر .. الخطر على حياته .

ويخفق قلب فوزى فى الظلام ، ويحس بموجة كهربية خافتة تسرى فى أعصابه الواهنة .

— إنه لن يستسلم ؛ لن يحاكم أمام محكمة عسكرية

ويخيم السكون على السجن . إن كل من فى السجن قد نام ، إلا هو ،

وكيف يعرف النوم سبيله إلى جفنه ، وهو مكدود ، منهوك ، خائر القوى ، مقهور .

وتدوى ساعات القاهرة فى هدأة الليل هنا وهناك ..

— إنها منتصف الليل

— الواحدة صباحاً

— الثانية صباحاً

كل ساعة ستون دقيقة ، وكل دقيقة ستون ثانية ، يتتبعهما فوزى كلها مع أنفاسه المتصاعدة ويتأوه من حين لآخر ، منفساً عن نفسه :

— يا جوفى الذى يحترق

— يا كبدى التى تشوى

— أغثنى يا رب ، أعنى يا رب .

وينطلق صوت المؤذن أخيراً مؤذناً :

— الله أكبر .. الله أكبر .

وتهتز روح فوزى فى إشراق . هذا الصوت الحبيب ، هذا الاسم الكبير ، النسمة الحلوة وسط هذا القيظ ، إنه شعاع النور وسط هذه الحلكة .

وكما بدأ المؤذن ، يختم أذانه :

— الله أكبر .. الله أكبر ، لا إله إلا الله .

ويتساءل فوزى فى أعمق أعماق روحه ، أيمكن أن يتخلى عنه الله ، هل سيدعه فريسة بين يدى جلاديه. لقد عبد الله مذ كان طفلا . إنه لم يدع الصلاة أو الصوم مرة واحدة فى حياته ، أ كان ذلك كله بغير جدوى ؟ حتى لحظات الشك التى ساورته ، لقد انتصر عليها دائماً ، وتشبث بدنيا اليقين . ويفزع إلى الصلاة .. صلاة الفجر ، ولم تكن تكلفه كثيراً فإنما هى لمسة يلمس بها الحائط يتيمم بها ، ثم يروح يصلى وهو راقد ، يصلى بعينيه، ويرفع يديه من حين لآخر مكبراً .

ما أجمل أن يصلى هكذا ، أن يتوسل إلى الله وهو بهذا الضعف وهو بهذا الإنهاك . إنه مظلوم .. مظلوم . ويصلى بفكره ، ويركع ويسجد مشيراً بذراعيه .. ولم يلبث أن غفا .

هل نام بعد الصلاة ، أم قبل أن يتمها .

كل الذى يعرفه أنه تحول إلى كتلة من الإحساس المرهف ، ولم يعد يعرف إذا كان يحلم ، أم أنه فى يقظة ، أم أنه بين المنام واليقظة .

كل الذى يدريه ، أنه يعى ويحس ، وصوت يتردد فى نفسه :

— سوف تتبدل الأحوال.

— ما هو مربوط سيحل .

— والظلام سيتحول إلى نور .

ويسائل فوزى نفسه وهو بين المنام واليقظة :

أى شىء هذا الصوت .. أهو هاجس داخلى أم صوت يأتيه من الخارج ؟

— سوف تتبدل الأحوال .

— ما هو مربوط سيحل .

— الظلام سيتحول إلى نور .

ثم لا يعود يعى شيئاً .

ويطلع النهار .

ويدخل السجان يحي فوزى تحية الصباح ، فلا تكاد عيناه تقعان على فوزى حتى يهتف قائلا :

— باسم الله ما شاء الله ، وجهك مشرق بسام ، هل أكلت فى الليل أم سبقنى أحد بنقل الأخبار؟

— أى أخبار ؟

— الوزارة استقالت.

— الوزارة الجديدة ؟

— الخبر فى الصحف والجرائد ، وقد حملتها لك .

ويطالع فوزى النبأ بالخط الأحمر العريض ، ويستلفت نظره التاريخ

— ٢١ يوليو ١٩٥٢

أى أن الوزارة الثالثة التى تشكلت منذ حريق القاهرة لم تدم سوى ستة عشر يوماً .

ودخلت عليه زوجته ترافق أخاها سامحاً هذه المرة ، وكان ذلك تنفيذاً

لقرار رئيس المحكمة الأخيرة ، الذى رأى فى زيارة زوجته له يومياً ما يحفزه على العدول عن إضرابه الذى أوشك على إنهاء حياته .

وهتفت زوجته فى فرح وسرور :

— الحمد لله .. إن وجهك اليوم مشرق .

ويبادر سامح قائلا :

— هذا من أثر سقوط الوزارة طبعاً ،والآن لا مناص لك من الإقلاع عن الإضراب .

— ليس موضوع سقوط الوزارة هو الذى يدخل البهجة على نفسى هذا الصباح ، فقد تقلبت الوزارات ، بل وتبدل رئيس المحكمة ، والإجراءات بالنسبة لى هى الإجراءات . . والرغبة فى الكيد لى هى ذات الرغبة . وإنما الذى ينعشنى هو حلم حلمته . . أو بالأحرى لست أعرف إن كان حلماً ، أو أنه خاطر وهاجس، لقد خيل إلى ، أن شيئاً ما، كان يدور فى نفسى ويقول :

— سوف تتبدل الأمور .

— ماهومربوط سيحل .

— الظلام سيتحول إلى نور .

وانحدرت الدموع من عينى وفاء ، ولم تلبث أن أجهشت بالبكاء وتضرعت :

— والنبى يارب ... والنبى يارب ، حقق الآمال .

ويقول سامح :

— أتعرف ماهو أهم من خبر سقوط الوزارة ؟ الأزمة فى الجيش .

إنها هى التى أدت إلى سقوط الوزارة .

وراح سامح يقص على فوزى تفاصيل الأزمة فى الجيش ، وهى التى بدأت عندما رشح الملك ورجاله ، أعضاء مجلس إدارة نادى الضباط . ورشح الضباط الأحرار فى الجيش فريقاً ، وفاز مرشحو الضباط الأحرار بالإجماع وسقط مرشحو الملك . وعندما أراد الملك تعيين مندوب عن مصلحة الحدود فى مجلس الإدارة ، رفض الضباط كذلك .

وهاج الملك وماج ، وأصدر قراره بحل مجلس إدارة النادى ثم أغلق النادى . فقرر الضباط الأحرار الطعن فى قرار الإلغاء أمام مجلس الدولة ، وسيرفع لهم عصفور القضية .

وهل تعلم من الذى سيرفع القضية ؟ إنه أخونا ندا .

— ولكن ما دخل ندا فى هذا الموضوع .

— لقد اختير عضواً فى مجلس إدارة نادى الضباط عن قدماء المحاربين .

— إنه إنسان عظيم يا سامح ، لقد كانت شهادته أمام المحكمة مما أثلج صدرى ، وجعلنى درك أن الشهامة والوفاء والرجولة بخير .

— ولكن هل تعرف من الذى دفع رسم القضية التى اعتزم رفعها ندا ؟

— من .. أنت ؟

— لا ، ولكنه البكباشي بهاء عبدالقادر . لقد حدثني ندا عنه حديثاً طويلا . أتذكر المنشور الذى جاءك ذات يوم فنشرته فى الاشتراكية وعلقت عليه .

— كيف أنساه ، وقد جعلته النيابة أحد أدلة الاتهام ضدى ، وأننى أردت به تحريض الجيش على الثورة .

— لقد قال لى ندا ... إن هذا المنشور وأمثاله من كتابة الضباط الأحرار . وهو يتصور أن بهاء عبد القادر عضو بارز فيهم .

وعلى الرغم من هذه الأنباء المشجعة ، فلا وفاء ولا سامح ولا الأطباء استطاعوا ، أن يحملوا فوزى على الإقلاع عن إضرابه . ما جدوى تبدل الوزارات ، ووجود أزمة فى الجيش ، ما دامت قضيته هو تنظر بهذا الأسلوب الشاذ ، وتتألب قوى الشر عليه .

الفصل السابع

— ١ —

وجاءت الأنباء بتأليف الوزارة الجديدة ، فملأت فوزى يأساً ، وأغلقت كوة الأمل التى انفتحت له ، وازداد عزمه على المضى فى الإضراب.

فقد عاد إلى وزارة الداخليـة ، الرجل الذى كان يعمل إلى جوار الطهطاوى على إعدامه .

ولم يضيع الوزير الجديد الوقت . . فقد فوجىء فوزى بحشد من الأطباء يدخلون إلى حجرته فى المستشفى ومعهم الأجهزة والمعدات لتغذيته بالقوة ، وأهاج مرآهم فوزى ، فاستمد من اليأس قوة . . ونهض قاعداً فى الفراش ، وراح يصرخ فى وجوههم .

— حذار من أن يقترب منى أى واحد منكم ، إننى يائس مجنون ، إننى لم أدخل فى الغيبوبة بعد ، وإن لدى القدرة على أن أفقأ عين أى واحد منكم ، وسوف أقاوم ، وإذا لم يبق لدى إلا أن أكسر إبرة الحقنة فى جسدى فسوف أفعل ، وستكونون قتلتى . . إننى أشهد من فى قلبه ذرة من ضمير منكم ، أن يكون شاهداً على أنكم ستقتلوننى ، إذا حاولتم إكراهى على شىء .

وتوقف الأطباء . . ونظر بعضهم إلى بعض ، لقد كانوا يتعاطفون مع فوزى ، ولا يحبون إلا الخير له . . وأدرك كبيرهم الذى جاء من المصلحة لتنفيذ أمر الوزير أن الأطباء لن يساعدوه ، فقال لفوزى :

— ياأستاذ فوزى نحن لانريد إلا مصلحتك ، وحرام عليك أن تقتل نفسك هكذا . إنك رب أسرة ، ولك زوجة وأولاد ، فما الذى سيؤدى إليه انتحارك بهذا الأسلوب ، إلا أن تحقق رغبة أعدائك ، أليس الأفضل أن تدافع عن نفسك ، والله لايمكن إلا أن ينصر الحق ويظهر براءتك إذا كنت بريئاً .

— هذه مسائل أقدرها أنا .

— ولكن أين عقلك ، أين دينك وإيمانك ، ألا تعرف أن ماتفعله هو إنتحار ، وأن الانتحار كفر بالله .

وسخر فوزى من كبير الأطباء وقال له :

— تحدث أنت فى موضوع الطب ، واترك لى أنا موضوع الكفر والإيمان .

— لا . . لاياأستاذ فوزى ، كلنا مؤمنون ومسلمون والحمد لله ، وأنا أريد أن أسمع منك رأيك فى هذا الموضوع ، فقد قيل لى إنك مؤمن شديد الإيمان . . ولقد سألت كبير وعاظ مصلحة السجون ، فقال لى إن ما تفعله هو انتحار ، وهو ضد الدين وتحد لإرادة الله مانح الحياة ، ومحدث الموت . وأنا أقول لك كطبيب . . إن جسدك الآن يتغــذى على نفسه ، وقد بدأ يتغذى بمخزونات الــكبد ، ولن يبقى بعد ذلك إذا واصلت الإضراب سوى الموت . ومعنى هذا أنك تموت منتحراً .

— ليس هذا إنتحاراً

— أولا تحاول قتل نفسك بأسلوب بطىء ؟

— إن الذين سجنونى ، إن الذين اتهمونى ظلماً وعدواناً ، إن الذين يجرون محاكمة صورية لإعدامى ، هؤلاء هم الذين يقتلوننى ولست أنا .

— إنهم يقدمون لك الطعام وأنت ترفضه .

— كما يقدمون الغذاء والماء للماشية قبل ذبحها ، وأنا لن أكون كذلك .

— ألم يقل القرآن الكريم « ولا تلقوا بأيديكم الى التهلكة » .

— وقال أيضاً ، ولا تقولوا لمن يقتل فى سبيل الله أمواتاً بل أحياء عند ربهم يرزقون . وأنا أجاهد الآن وأقاوم ، أجاهد بالسلاح الوحيد الذى يخولنى القانون إياه ، وهو أن أضرب عن الطعام إحتجاجاً على الظلم ومحاولة لدفعه . . إننى أعرف نفسى . . إذا مت ، فلن أكون منتحراً ، ولكنى سأكون شهيد البغى والعدوان .

وينسحب الأطباء مخلين بينه وبين قدره المجهول ، وتغلق الأبواب ويعم السكون ، ويبدأ الليل الموحش ، والوحدة القاتلة مع الجوع والضعف وانحلال الجسد . وكان الجهد الذى بذله فوزى فى مواجهة الأطباء وتحديهم ، هو آخر ما بقى فى سراج حيويته ، وأحس بروحه تتهاوى فى ظلمات عميقة ، واختلطت فى نفسه الأمور .

— إن جوفه يحترق

— إن كبده يذوب

— إن بناءه يتداعى . . أنفاسه تختنق . ليت الموت يجىء ويخلصه .

ولكنه أصبح فى حالة بين الحياة والموت ، لايدرك من الحياة شيئاً . . ظلام . . فى ظلام ، وضيق ، ومعاناة وكبد .

ومع ذلك فقد ظل احساسه بالزمن . . يمثل بالنسبة له قرب انتهاء المشوار .

— منتصف الليل .

ربع ساعة .

نصف .

ثلاثة أرباع .

— الواحدة صباحاً .

—كان يميزصوت دقات الساعة بوضوح ، كانت تذكره ، أنه لا يزال حياً ، يقظاً ، لا يعرف النوم إلى عينيه سبيلا ، ولكن أى يقظة .. وأى حياة ..

— يا جوفى الذى يحترق .

— يا كبدى التى تذوب .

— إننى أتعذب يا رب .

— إلى متى .. إلى متى يا رب .. إنقذنى أو خذنى إليك فى رفق .. فى رفق يا رب خذنى إليك .

الثانية صباحاً .. هكذا تدق الساعة

الثالثة .. الرابعة .

— صلاة الفجر

ترى أصلاها فى خاطره.. هل استطاع حتى أن يشير بأصبعه إلى القيام والركوع والسجود .. لقد اختلط عليه كل شىء .. لم يعد يحس بشىء حتى بالألم أو الضيق .. إنه يريد أن ينام .. يريد أن ينام .

ولكنه فوجىء بمفتاح السجان الغليظ ينفذ فى قفل الزنزانة فى عنف ، وانفتح الباب فى رجة ودوى ، والسجان يصيح به :

— الجيش يا أستاذ فوزى .. الدنيا مقلوبة .

ولم يع فوزى شيئاً مما قاله السجان .. إنه متعب يريد أن ينام .. ليت السجان يدعه وشأنه .. سوف ينام أخيراً .. النوم راحة ونعيم .

وسمع فوزى بجلاء هذه المرة عبارة السجان :

— الجيش قام بحركة .

أجل إنه يعى هذه العبارة .. ومن قبل حدثه سامح عن وجود أزمة فى الجيش ، وأن الحكومة السابقة قد استقالت بسبب ذلك ، ولكنه لم يكن مستعداً بعد كل ذلك الذى مر من أحداث خلال السبعة شهور الماضية أن يتعلق بأمل كاذب . . إن ما يحرص عليه الآن . . بعد معاناته الطويلة .. هو أن ينام .. إنه يريد أن ينام . . لا يزال النوم فى عينيه . . إنه قادر على أن ينام .

فقال لصاحبه فى اقتضاب :

— وهو كذلك .. وهو كذلك ، لقد سمعت وفهمت ، الجيش قام بحركة .. والآن أرجوك أن تدعنى أنام .. لم يغمض جفنى طول الليل .. وأنا الآن فى حاجة إلى النوم .. ومرق إلى الحجرة أحد المسجونين المرضى كما لو كان صاروخاً وهو يصيح :

— مبروك يا أستاذ فوزى .. ألف مبروك ، البلد فى ثورة . جاءت الأوامر أن يلازم السجناء زنازينهم ، لن يخرج أحد اليوم إلى المحاكم .

ووثب فوزى جالساً ، وقد امتلأ جسده الواهى مرة ثانية بقوة عارمة :

— ماذا تقول ، ماذا حدث ؟

— الدنيا فى الخارج مقلوبة ، قام الجيش بحركة ، وحاصروا قصر عابدين. واستولوا على الإذاعة والشعب يكاد يجن من الفرح ، وهو يهتف للجيش فى كل مكان ويؤيده .

وقد أذاع رئيس مجلس ثوار الجيش بياناً فى الإذاعة .

— من الذى سمعه ؟

— الدنيا كلها .. نحن سمعناه فى الترانزستور ، إنهم يذيعون البيان باستمرار .

ولمعت عينا فوزى :

— أريد أن أسمعه بنفسى .

— ولكن حجرتك يرتادها الأطباء والضباط فى كل دقيقة

ــ لا تخف أنا المسئول .

وخرج المسجون لإحضار الترانزستور ، بينما جاءه السجان بصحف الصباح ، ولم يكن فيها شىء يشير إلى ما يحدث ، أو يلقى ضوءاً على ما حدث نفس الصــور الملقية إلى قلبه ، صورة الوزراء وهم يقفون صفاً واحداً بملابسهم الرسميــة بعد أداء اليمين أمام جلالة الملك حفظه الله . الوجوه البغيضة ، الابتسامات الصفراء ، التصريحات التى تقطر نفاقاً ورياء وسماً . سوف تعمل الوزارة بإرشادات جلالة الملك المعظم ، لتحقيق آمال الشعب ، وتحرير البلاد من الاستعمار ، والقضاء على الفساد .

كان الوزراء محل عطف جلالة الملك السامى ، وقد خرجوا من لدنه وألسنتهم تلهج بالثناء والدعاء له .

صور . .صور وأحاديث مع رئيس الحـكومة الجديد القديم ، عن برنامجه ، فيعلن أنه البرنامج الذى عرفته البلاد ، شدة فى الحق ، وتطهير للحكم ، وضرب على يد العابثين والمفسدين .

ويعود فوزى إلى شكه فى أن شيئاً قد حدث فى البلاد . . أفى الخارج حركة ومظاهرات ، وحصار لقصر عابدين واحتلال للاذاعة ، ولـكن كيف صدرت الصحف هكذا . كيف وزعت وكأن شيئاً لا يحدث ولن يحدث .

ويعن لفوزى خاطر ، ما الذى يحل به إذا فشلت هذه الحركة التى قام بها الجيش ، أولا يعقبها إجراءات عنيفة .. أو لا يتهمونه من أنه لم يدخر وسعاً فى تحريض الجيش على الثورة .. أو لا يقتلونه رمياً

بالرصاص على الفور .. هنا فى هذا الفراش بغير حاجة إلى إجراءات المحاكمة .

ويدخل صاحبه السجين ويخرج من تحت ملابسه جهاز الترانزستور ، ويقف على باب الحجرة لمراقبة القادمين من الضباط والأطباء .. بينما كان فوزى يسمع نص البيان الذى كان يذاع من جديد .

« أيها المواطنون

اجتازت مصر فترة عصيبة فى تاريخها الأخير من الرشوة والفساد وعدم استقرار الحكم ، وقد كان لكل هذه العوامل تأثير كبير على الجيش . وتسبب المرتشون والمغرضون فى هزيمتنا فى حرب فلسطين . وأما فترة ما بعد هذه الحرب فقد تضافرت فيها عوامل الفساد ، وتآمر الخونة على الجيش ، وتولى أمره إما جاهل أو فاسد ، حتى تصبح مصر بلا جيش يحميها . وعلى ذلك فقد قمنا بتطهير أنفسنا ، وتولى أمرنا فى داخل الجيش رجال نثق فى قدرتهم وفى خلقهم وفى وطنيتهم ، ولا بد أن مصر كلها ستتلقى هذا الخبر بالابتهاج والترحيب .

أما من رأينا اعتقالهم من رجال الجيش السابقين فهؤلاء لن ينالهم ضرر ، وسيطلق سراحهم فى الوقت المناسب . وإنى أؤكد للشعب المصرى أن الجيش اليوم كله أصبح يعمل لصالح الوطن فى ظل الدستور ، مجرداً من أى غاية . وانتهز هذه الفرصة فأطلب من الشعب ألا يسمح لأحد من الخونة بأن يلجأ إلى أعمال التخريب أو العنف ، لأن هذا ليس من صالح مصر ، وإن أى عمل من هذا القبيل سيقابل بشدة لم يسبق لها مثيل ، وسيلقى فاعله جزاء الخائن فى الحال ، وسيقوم الجيش بواجبه هذا

متعاوناً مع البوليس، وانى أطمئن اخواننا الأجانب على مصالحهم وأرواحهم وأعمالهم ، ويعتبر الجيش نفسه مسئولا عنهم والله ولى التوفيق» .

وهتف فوزى :

— الله أكبر .. الله أكبر .. فتح ونصر .

إنها ثورة .. ثورة عظمى ، ليست هذه حركة جيش ، إن هذه إرادة أمة . إن هذا البيان تلخيص لكل ما عاش من أجله طول حياته .

وصرخت كل خلية فى جسده ، لا طلباً للطعام ، فقد زال عنه فى لحظة الإحساس بالجوع ، أو الضعف أو الانهاك . . إنه حى .. قوى ، متعطش للأخبار .. إنه جائع . . إنه ظامىء ولكن للأخبار . . ما الذى يجرى الآن . . ماذا يحدث . . ما هو رد الفعل .

وجاءته الأخبار ، جاءته أخبار مفصلة يحملها أعز شخصين عليه فى الوجود فى هذه المرحلة من حياته ، زوجته وشقيقها الدكتور سامح .

وتعانق الجميع فى عاصفة من الفرح ، ولأول مرة هطلت الدموع من عينى فوزى ، من شدة الانفعال .

وسألت وفاء زوجها ؟

— ألم تدع الإضراب بعد ؟

— حتى أعرف المزيد من التفاصيل .. حتى أطمئن .

وقال سامح :

— إنه شىء يفوق أحلامنا ، إنه نجدة من الله العلى القدير .

ولم يستطع فوزى أن يرفض كوب اللبن الساخن الذى حملته إليه زوجته ، بينما كان سامح يقص عليه :

— لقد اتصل بى ندا ، إنهم الضباط الأحرار الذين حدثتك عنهم ، لقد قاموا بحركتهم التى أعدوا لها منذ أمد بعيد .

— ولـكن يجب أن يحترسوا ، إن الملك سوف يقاومهم بضراوة ، هذه الحـكومة الجديدة ..

— أى حكومة جديدة ، لقد سقطت وانتهى الأمر ، وعهد الملك إلى ماهر باشا بناء على طلب الجيش بتأليف حكومة جديدة .

وبعد كوب اللبن جىء لفوزى ، بحساء ساخن ، وأحاط به الأطباء والضباط والسجانون مهنئين . .

* * *

وراحت الأخبار تتوالى ، بعد أن زالت كل الحجب والقيود فى السجن .

— انتهى ماهر باشا من تأليف الوزارة .

— عين الملك زعيم الثورة قائداً عاماً للقوات المسلحة .

— طلب الجيش تنحية رجال الحاشية ، إندراوس وكريم وثابت وبوللى ومحمد حسن .

— استقال حافظ باشا رئيس الديوان .

— القبض على إبراهيم علام ، وضباط القسم السياسى .

وتتدفق الدموع من عينى فوزى مدراراً ، أهو يقظ . . أحقاً ما يرى ويسمع ويشهد ، أيمكن أن يحدث ذلك كله فى أربع وعشرين ساعة ، أهو يشهد يوم القيامة ، يوم البعث والحساب ، حيث يمسك بتلابيب الأشرار ويعلو صوت الأبرار والأخيار ؟

أهذا ممكن .. أهذا متصور .. أهو حى .. أهو فى يقظة ؟ وتتوالى الساعات .. ويستبد به القلق من جديد .. ماذا يفعل الملك الآن ؟ .. لابد أنه يدبر ، لابد أنه يتآمر .. لا بد أنه على اتصال دائم بالإنجليز ليسحقوا الثورة ..

مستحيل أن يسلم بهذه السهولة .. مستحيل أن يستخذى هكذا .

ويدور فوزى فى الحجرة كالأسد الحبيس المجروح ..

آه لو كان مطلق السراح الآن .. آه لو كان فى الخارج .. إن هؤلاء الأبطال الذين قاموا بالثورة ، يجب أن يحذروا .. إن الملك لن يدعهم ..

— ٢ —

— فاروق .. فاروق اصح يا فاروق .

— لقد قلت أن لا يوقظنى أحد قبل الظهر ، إننى متعب يانورا .. وأنا فى حاجة للراحة بعد ما تكبدته من عناء .

— ولكن الأمور لم تنته كما تظن يا فاروق ، إن الجيش يتدفق على الإسكندرية من القاهرة ، ولم ينقطع وصول وحداته وقطاعاته طول الليل.

ووثب الملك مذعوراً وجلس فى فراشه ، وراح يهرش فى رأسه ، وصدره ، ويقول لزوجته :

— ماذا .. ماذا تقولين ؟ .. الجيش .. ماذا يريد الجيش ، أولم أجبهم إلى كل مطالبهم ، أولم أعين رئيس الحكومة الذى طلبوه ، أولم أعين رئيسهم قائداً للجيش .. أولم أقبل استقالات رجال حاشيتى .. ماذا يريدون منى .

— إن بابا قد ضرب لى التليفون ، وكذلك ماما ، وكثيرون من المعارف والأحباب ، وهم يحذرون من تحركات الجيش ويقولون إن الجيش سيتقدم بمطالب جديدة .

وصرخ الملك :

مطالب جديدة .. نجوم الظهر أقرب إليهم ، إننى لن أجيب لهم مطلب بعد الآن .. يظهر أننى أخطأت فى التساهل معهم ، كان يجب أن أكون أكثر حزماً ، إن الجيش فى الإسكندرية موال لى ، وسوف أضرب به كل من تحدثه نفسه للوقوف فى وجه إرادتى .. إننى الملك .. سيد البلاد ، وأنا أعرف هؤلاء الضباط الذين قاموا بالحركة .. إنهم حفنة ، وسوف أقبض عليهم وسأعرف كيف أجعلهم يدفعون ثمن إزعاجى هكذا .

— يا فاروق يا حبيبى ، لقد حان الوقت لتفتح عينيك وتواجه الواقع إن بعض من حدثنى هو من رجالك المخلصين ، وقد قال لى إن قوات الجيش فى الإسكندرية قد انحازت إلى قوات مصر بمجرد وصولها .

أنا خائفة يا فاروق .. أنا خائفة ، يجب أن نغادر هذا القصر .. إنه

مقطوع عن الدنيا وأنا خائفة .

— عندك حق يا نورا . . إن بقاءنا فى قصر المنتزه ، لم يعد ملائماً . . يجب أن نذهب إلى قصر رأس التين ، هناك حرس ، وهم أقوى من أى فرقة فى الجيش .. إنهم يفدوننى بأرواحهم ، يجب أن نذهب إلى هناك فوراً .

ولكن رئيس الحكومة . . أين رئيس الحكومة . . هل اتصل بى أثناء نومى .. أين هذا الثعلب الذى غرر بى .. ألم يفهمنى أن الجيش لا يريد شيئاً سوى تطهير صفوفه وأنه بمجرد توليه الوزارة ، سوف يعالج كل شىء .. أين هو الآن .. الكذاب المنافق .

— لم يتصل بالقصر .

— وأين بوللى .. لقد أمرت أن ينام فى الحجرة المجاورة .

— إنه موجود .

واستدعى بوللى .

— أين أنت يا بوللى ..

— أنا خادمك الأمين يا مولاى .

— أسمعت ما تقوله نورا .. ؟ قوات الجيش تفد إلى الإسكندرية .

— لقد كنت أنا الذى أبلغها ذلك يا مولاى ، إن ورودها لم ينقطع طوال الليل .

وتوقف فاروق الذى كان يرتدى ملابسه على عجل تساعده زوجته :

— ولكن لا بد من عمل شيء يا بوللي ، لا بد من عمل شيء . . ألا ترى أننا يجب أن ننتقل فوراً إلى رأس التين ؟

— حالا يا مولاى .. إن الوقت يمر بسرعة .

— ولكن يجب أن أتصل أولا بالإنجليز ، بالسفير الأمريكي . . إن نجاح هؤلاء الضباط ، معناه ضياع مصالحهم ، إنهم لا يمكن أن يتخلوا عني .. يجب أن يقفوا بجوارى ..

— أرجو أن تجرى هذه الاتصالات يا مولاى من رأس التين .. أما الآن فيجب أن نسرع إلى هناك .

ونظر الملك لأول مرة فى فزع إلى عينى بوللى :

— أترى الأمر خطيراً الىهذه الدرجة .. إننى ما زلت الملك .. إننى قادر على سحقهم .

— أنا متأكد يا مولاى ، أنك ستعالج الموضوع بحكمتك .. أما الآن فأقترح على جلالتك أن تعجل بالذهاب إلى رأس التين .

— وهل أنت مستعدة يا نورا .. وفؤاد والحاشية .. والخدم الخصوصيون ؟

— كل شيء مستعد يا مولاى فى انتظار أمر جلالتكم .

— ورئيس الحكومة .. هذا الكلب ماهر باشا . . طول عمرى أكرهه ، طول عمرى لا أثق به .. إنه ثعبان يا بوللى .. ذئب .. ألم أكن أقول لك ذلك عنه دائماً .

يجب أن يحضر لمقابلتى حالا فى رأس التين ، سوف أكسر رأسه هذا الكلب .. لقد خدعنى .. غرر بى .. ولكنى سأطرده .. سأتصل بالإنجليز ، سيقفون إلى جوارى ، وبعدها سأعرف كيف أؤدب هؤلاء العصاة .

* * *

إصفر وجه فاروق وهو يسمع صوت الأعيرة النارية .

— بم .. بم .. بم ..

— ما هذا يا بوللى؟

— إنها طلقات نارية ، أطلقها بعض رجال الجيش ، وقد رد عليهم الحرس .

ودخلت فى هذه اللحظة شقيقات فاروق فى حالة أليمة من الذعر والهلع ، وكذلك زوجته ورحن يصحن فى صوت واحد :

— فاروق .. فاروق ، سوف يقتلوننا ، لقد بدأوا ضرب الرصاص .

وصرخ فاروق :

— أين أحمد كامل .. أين رئيس الحرس ، لا أريد مقاومة .. قولوا لرجال الحرس ، لا جدوى من المقاومة ، إلا أن نخسر أرواحنا ، لقد تخلى عنى الجميع ، تخلى عنى الإنجليز ، لم يعطونى جواباً شافياً ، والسفير الأمريكى لم يزد على أن طمأننى على حياتى .. ما الذى يحدث .. ما الذى يجرى لم أعد أفهم أين رئيس الحكومة .. لقد قال لى إنه فى الطريق .

— لقد جاء رئيس الحكومة فى الصباح ، ولكن قوات الجيش منعته من الدخول .

— منعوا رئيس الحكومة من الدخول ... ولكن ما هو هدفهم ما هو مقصدهم .. لابد أنهم يريدون قتلنا ..

أرأيت المدافع التى تحيط بالقصر من كل ناحية يابوللى .

— والدبابات .

وتدافعت شقيقات الملك وبناته وهن يصحن :

— بابا ... بابا ... أنقذنا لابد من عمل شىء .

وجاء الخبر من التشريفات أن رئيس الحكومة وصل ، فطلب الملك من بناته وشقيقاته الانصراف واستدعى رئيس الحكومة لمقابلته .

ولم تكد عينا فاروق تقعان عليه حتى أسرع نحوه بلهفة كما لو كان يريد أن يعانقه من فرط خوفه وذعره ، وهو يقول :

— أهم يريدون قتلى ، لماذا أطلقوا النار .. ألم ألب كل طلباتهم .. ماذا يريدون أنا مستعد لتلبية كل طلباتهم المعقولة .. لماذا تأخرت على .. ألم أكن فى انتظارك فى الساعة التاسعة صباحاً .

— لقد حضرت بالفعل ولكن يظهر أن بعض الضباط لم تكن لديهم تعليمات فمنعونى .

— يمنعونك أنت .. ولكن لماذا .. ماذا يريدون .. لم أعد أفهم .

— عندما عدت إلى مكتبى ، وجدت رئيس مجلس الثورة فى انتظارى

وقد سلمنى هذا الإنذار ، أتسمح لى بتلاوته على جلالتكم ؟

— تفضل .. تفضل يا باشا .. أنت تعرف ثقتى بك .. كنت دائماً أعتبرك كوالدى ... أنت مسئول عنى ، وعن عرشى ... إنك أنت الذى وضعتنى على هذ العرش .. أتذكر ؟

ولكن لندع ذلك الآن .. قل .. إقرأ تفضل .. لنسمع مطالبهم الجديدة .

— « إنه نظراً لما لاقته البلاد فى العهد الأخير من فوضى شاملة عمت جميع المرافق نتيجة سوء تصرفكم وعبثكم بالدستور .. وامتهانكم لإرادة الشعب ..

— ما هذا .. ما هذا يا باشا ، كيف تسمح لهم أن يخاطبونى بهذه اللهجة .. إننى أمنعك من الاستمرار فى مخاطبتى بهذا الأسلوب .

— عفواً يا مولاى ، ولكننى مكلف بحمل هذا الإنذار إليك .. وأرجوك أن تدرك حقيقة الموقف الذى أصبحنا فيه وأن تحاول أن تقدر وأن تفهم .

— قل .. تكلم :

— «حتى أصبح كل فرد لا يطمئن على حياته أو ماله أو كرامته ، لقد ساءت سمعة مصر بين شعوب العالم من تماديكم فى هذا المسلك حتى أصبح الخونة والمرتشون يجدون فى ظلكم الحماية والأمن والثراء الفاحش والإسراف الماجن على حساب الشعب الجائع الفقير ، ولقد تجلت آية ذلك فى حرب

فلسطين وما تبعها من حوادث الأسلحة الفاسدة ، وما ترتب عليها من محاكمات تعرضت لتدخلكم السافر ، مما أفسد الحقائق وزعزع الثقة فى العدالة ، وساعد الخونة على ترسم هذه الخطى ، فأثرى من أثرى ، وفجر من فجر ، وكيف لا والناس على دين ملوكهم . لذلك فوضنى الجيش ، الممثل لقوة الشعب أن أطلب إلى جلالتكم التنازل عن العرش ، لسمو ولى عهدكم الأمير أحمد فؤاد ، على أن يتم ذلك فى موعد غايته الساعة الثانية عشرة من ظهر اليوم ، السبت الموافق ٢٦ يولية سنة ١٩٥٢ والرابع من ذى القعدة سنة ١٣٧١ ومغادرة البلاد قبل الساعة السادسة من مساء اليوم نفسه ، والجيش يحمل جلالتكم كل ما يترتب على عدم النزول على رغبة الشعب من نتائج » .

وذهل فاروق ، حتى أنه لم يتبين أن رئيس الحكومة قد فرغ من تلاوة إنذاره فظل محدقاً إليه ، بينما كان رئيس الحكومة يقول له :

— وأنا أرى أنه لم يعد لك خيار فى الأمر ، ولا مناص لك من التنازل إذا أردت أن تبقى على حياتك ، وتبقى العرش لولى عهدك .

وانفجر فاروق صاخباً :

— ولكن هل هذا ما وعدتنى به وأنا أعهد إليك بتأليف الوزارة ألم تقل لى ، إن القائمين بالحركة جماعة من الشباب وستعرف كيف تعالجهم وتضعهم فى جيبك . أو لم تقل لى أن لا طلبات لهم بعد إبعاد رجال الحاشية..

— هذا ما كنت أتصوره أنا نفسى . لقد فوجئت بمجىء قوات الجيش إلى الإسكندرية ، وعندما جئت لمقابلتك منعونى من الدخول ، ثم طلب

قائد الجيش مقابلى .. وسلمنى هذا الإنذار . والمسألة الآن هى أنك يجب أن تلبى الإنذار وتنزل عن العرش لابنك . لم يبق لك خيار فى ذلك. ولطالما حذرتك وأنذرتك مما ستجره عليك حاشيتك وبطانتك .

— أنت لم تحذرنى أو تنذرنى ، أنت كبقية الجماعة ، كل الذى كنت تصبو إليه هو الحكم ، ومادمت فى الحكم كنت تؤيدنى فى كل شىء ...

وقاطعه رئيس الحكومة :

— لم آت إلى هنا لأدخل معك فى مناقشة ، إننى حريص على حياتك وعلى العرش ، الذى عاهدت والدك أن أرعاه لأولاده ، وقائد الجيش فى انتظار عودتى على أحر من الجمر ، فماذا أقول له ؟

— تقول له إننى قبلت وسوف أتنازل عن العرش . لقد كانت هذه دائماً إحدى أمانى . لقد كنت برماً بالحكم وأساليبه لقد عافته نفسى ، لقد قامرت وخسرت ، وعلى المقامر أن يحتمل الخسارة بروح رياضية ، لقد كنت أعد العدة لأتغدى بهؤلاء الضباط قبل أن يتعشوا بى ولكنهم سبقونى ، ليكن ، إننى أسلم ... مبروك عليهم .

قل لهم يعدوا وثائقهم وأن يتأكدوا من أن كل شىء سيتم طبقاً للقانون ، وعلى أن تصان حقوق ابنى .. إنها فى رقبتك .

وعندما أبارح البلاد يجب أن يتم كل شىء بكرامة ، وأن أغادر البلاد على يخت المحروسة ، و أن تطلق المدافع لى ، وأن يكون مجلس قيادة الثورة فى وداعى ، وكذلك السفير الأمريكى .

— ولكن لماذا السفير الأمريكى .

— لقد تعهد لى أنه ضامن لحياتى والمحافظة على كرامتى ..

أتستطيع أنت أن تحمينى فى اللحظة الأخيرة ، أيمكنك أن تضمن حياتى وكرامتى عند الرحيل ، من الذى يضمن لى أن لا تطلق المدافع على المحروسة بعد أن أستقلها ؟

— أستطيع أن أؤكد لك ، أنك بعد أن تتنازل عن العرش ، فهم فى لهفة أشد منك على أن تغادر البلاد سالماً .. لقد أكد لى قائد الثورة ، أنهم حريصون على أن يتم كل شىء بسلام ، والرصاص الذى أطلق على رجال الحرس قد وقع بطريق الخطأ .

— على كل حال هذه شروطى .. وهناك شرط آخر .

إن بوللى لا يريد أن يتركنى ، وأنا لا أستطيع الاستغناء عن خدماته .. يجب أن يسمح له بالسفر معى .

— سأنقل لهم رغبة جلالتك .

— ٣ —

« قل اللهم مالك الملك تؤتى الملك من تشاء وتنزع الملك ممن تشاء ، وتعز من تشاء وتذل من تشاء ، بيدك الخير إنك على شىء قدير » .

كان فوزى يسائل نفسه مشدوها ، وهو يستمع إلى هـذه الآيات القرآنية من فم أحد المقرئين فى السجن . أيكون قد مات وصعدت روحه إلى السماء ، وهو يسمع الآن ترتيل الملائكة ، وهى تتلو من اللوح المحفوظ .

أحقاً قد انتهى كل شىء ، أذهب فاروق مذموماً مدحوراً طريداً من

البلاد ؟ أقدر له أن يشهد كل ما دعا إليه ، أقدر له أن يرى تتويج جهاده طوال عشرين سنة ، حيث تنطلق قوى الشعب ممثلة فى أبنائه من ضباط الجيش وجنوده ، لتحرر نفسها من الأسر والأغلال والقيود .

أتحققت الأحلام ، هل أثبتت الأيام ، أنهم لم يكونوا واهمين وهم يهتفون بمجد مصر ، ومصر فوق الجميع ، والتحرر من الاستعمار والرجعية والفقر والتخلف ؟ لقد ذهب الملك وسوف يذهب معه كل حلفائه .. سوف يذهب الاستعمار وتندحر الرجعية والإقطاع والرأسمالية والفقر والتخلف .. لقد سقطوا تلقائياً بسقوط فاروق ..

أهكذا بارك الله فى جهودهم ، فى أرواح شهدائهم ... كل الذين سقطوا على الطريق ، على مر الأجيال ... أهكذا بارك الله فى دم خالد وفاطمة ، وأينع هذه الشجرة التى رويت بدمائهم .. أهو لا يزال حياً .. أهو يقظ .. أم أنه يحلم ... يحلم حلماً رهيباً تتحقق فيه كل الآمال ...

ولكنه كان يقظاً كأتم ما تكون اليقظة ، وكان حياً ، كأغض ما تكون الحياة ، وكان لا يفتأ يكرر على كل من جاءوا يهنئونه بالإفراج عنه ، وطى قضيته ، وعقاب كل من تسبب فيها :

— لقد رأيت الله وجهاً لوجه ... لقد رأيت الله وجهاً لوجه . نحن لا نرى الله بطبيعة الحال ، ولا يمكن أن نراه ... ولكن تمر علينا لحظات ، نتصور فيها أننا أمام الله وجهاً لوجه ... وأشهد أنى رأيت الله ... رأيت الله يا فاطمة . رأيت الله يا خالد . رأيته فيكم ، فى انتصارنا فى نجاتى من الهلاك ، رأيته ، رأيته ، نعم رأيته وأنا من العابدين .

والحمد لله رب العالمين ...

شكر لله .. وللأصدقاء ..

وتعقيب

أما الآن وقد انتهيت من هـذه الحلقة التى صورت فيها حياة مصر السياسية ، والمصيرية ، كما عشتها ، إبتـداء من الثلاثينات حتى قيام ثورة ٢٣ يوليو .

فليس يسعنى إلا أن أسجد لله شكراً ، على ما أسبغه علىَّ من نعمة إتمام هذه القصـة بحلقاتها الثلاث .

ولست أعرف مدى توفيق فى هـذا العمل ، وحظه من النجاح فى دنيا القصـة .

فقد أخذ بعض النقاد على حلقتها الأولى « أزهار » أنها ذات طابع كلاسيكى قديم .

وعلم الله أن ذلك أبهجنى أشد البهجة ، فأنا نفسى كلاسيكى قديم .

ونعى عليها البعض الآخر خلوها من الوحدة العضوية وأنها تشتمل على أكثر من قصـة .

وتساءل بعض النقاد عن الحـكمة فى إخفاء بعض الأسماء التاريخية ، واستبدال أسمائهم بأسماء أخرى .

وأظهر بعض النقاد حيرتهم فى تصنيف القصة وتحت أى عنوان يضعونها .

أهي من نوع القصص التاريخي كروايات جورجي زيدان . أم هي رواية سياسية ، أم هي مجرد قصة ، بكل معنى القصة الإنسانية .

ولقد نوقشت الحلقتان السابقتان « أزهار » و « الدكتور خالد » في أكثر من ندوة في الإذاعة ودار الأدباء ، وقد حالت الظروف دون شهودي لأي من هذه الحلقات مع الأسف الشديد .

العمل الفني ملك للجمهور والنقاد :

والحق أني إذا كنت قد أسفت لغيابي عن شهود هذه المناقشات والندوات ، فليس ذلك إلا لأني حرمت من شرف الاجتماع مع نفر من الأساتذة النقاد ، الذين أحمل لهم كل احترام وتقدير . على أنه لو قدر لي أن أحضر هذه الندوات لما سمحت لنفسي إلا أن أكون مستمعاً ، دون أن أحاول الدخول في مناقشة ، فضلا عن أن أدافع عن وجهة نظر معينة .

ذلك أن العمل الفني في رأيي يصبح ملكاً للنقاد والجماهير بمجرد تقديمه لهم . فرأي النقاد وانطباعات أفراد الجمهور هو الذي يصبح مهماً وحاسماً في تقدير العمل الفني وتقييمه ، لا ما يقوله عنه مؤلفه وصاحبه .

استفادتي بالنقد :

ولقد استفدت بالنقد الذي وجه للحلقتين السابقتين ، وأنا أعد هذه الحلقة الأخيرة .

ولعل أهم ما تأثرت فيه بالنقد ، وما يلاحظه مطالع هذه الحلقة ، هو تصريحي ببعض الأسماء التاريخية التي تروبها الأحداث .

وقد ظللت على خطتى بالنسبة لحجب الأسماء الحقيقية لبعض الشخصيات التى لا أحب أن يمسها منى ما يكدرها ، بعد أن أصبحت لا أحمل لكل من عاصرونى فى حياتى التى بلغت الستين ، إلا كل حب وإعزاز وإجلال . وبعد أن أصبحت كل المواقف التى كرهناها فى وقتها ، من أحب ما نعيش فيه من ذكريات .

بين الحقيقة والخيال :

ولقد تساءل الكثير من النقاد والقراء على السواء ، عن الحد الفاصل بين الحقيقة والخيال فى قصتى ، وأنا شديد الاعتقاد أن هذا التساؤل سيقوى ويشتد بعد صدور هذه الحلقة الجديدة .

ولست أريد أن أفسد على القارىء الكريم متعته فى المطالعة ، ومن الخير أن يترك كل قارىء وحريته فى أن يتصور أن كل ما يطالعه من نسج الخيال ، أو أنه عنوان الحقيقة .

ومع ذلك فلست أستطيع أن أقاوم رغبة شديدة أبداها لى نفر من أصدقائى ، وأفراد أسرتى ، إيماناً منهم بأن هذه الثلاثية رضيتُ أو لم أرض شئت أم أبيت سوف تعتبر أحد المصادر لتاريخ حياتى ، إن كان لهذا التاريخ أهمية .

ولذلك فإننى أصرح على كره منى ، أن الخيال قد لعب دوره فى هذه الثلاثية ، فى دائرة العلاقات العاطفية ، وبطلات القصة .

ذلك أنى وقد اخترت الإطار الفنى لصوغ هذه التجارب ، فلم يعد

هناك مناص ، من دخول العنصر الإنسانى الخالد ، وأعنى به علاقة الذكر والأنثى من خلال عاطفة الحب .

ومع ذلك فإن الخيال لا يبدأ من فراغ ، ولا بد للخيال من أن يتوكأ ويسير ويدرج على أرض من الواقع .

تجربة ذاتية :

وأما عن تصنيف قصتى وهل هى تاريخية أو سياسية ، أو قصة إنسانية فأستطيع أن أقول : إنه إذا كانت القصة الإنسانية ، هى تجربة عاشها مؤلفها أو عاشتها الجماعة التى هو عضو فيها ، فإن قصتى هذه بحلقاتها الثلاث هى من هذا النوع . وليس يغير من هذه الطبيعة ، أن تكون التجربة متصلة بالأحداث السياسية .

دين واعتراف بالجميل :

ولما كنت أعتبر نفسى متطفلا على دنيا القصة والقصاصين ، فأحسب أنه يجب أن أسجل فى ختام هـذه المحاولة ، ما أحس به من دين عميق ، للكاتب الروسى الخالد ليوتولستوى ، والذى يجب أن تعتبر هذه القصة من ثمار تأثرى بمبادئه الإنسانية وفنه العظيم .

وكأى كاتب فى أى زمان ومكان ، لا يمكن إلا أن أكون مديناً لكل كتاب القصة فى مصر ، ابتداء من جورجى زيدان والمنفلوطى ، ومروراً بفخرة مصر توفيق الحكيم ، وغيره من أعلام القصة فى مصر ، وانتهاء بعملاق القصة الحديثة نجيب محفوظ . فلقد أفدت من جهودهم جميعاً ، لغة أو أسلوباً ، أو سياقاً أو طريقة عرض .

ولعل ما قد تحمده أيها القارىء فى هذه القصة يكونون هم أصحاب الفضل فيه ، وما قد تنكره أو تضيق به ، فهو ثمرة تقصيرى وعجزى ، ولا يكلف الله نفساً إلا وسعها .

وشكر للأصدقاء :

أما الشكر فهو حق للأديب الشاعر والناقد عبد العزيز الدسوقى الذى أرشدنى عند ما شرعت فى كتابة هذه الثلاثية ، إلى بعض الآراء والقواعد التى أصبحت متبعة فى كتابة القصة ، فاستفدت بها . كما أسجل الشكر للأستاذ النابه محمود مهدى المحرر والمشرف على قسم المراجعة والتصحيح بجريدة الأهرام ، لأخذه على عاتقه تصحيح تجارب كل ما أقدمه المطبعة ، ليسد ضعفى المتأصل فى الإعراب .

وأخيراً أتوجه بالشكر إلى أخى الفنان الكبير حسين بيكار ، الذى يهدينى تصميمات أغلفة كتبى . ويضاعف فى سعادتى وغبطتى ، أن كان لى شرف تقديم الأستاذ حسين أمين (بيكار) على صفحات مجلة الصرخة منذ ثلاثين سنة ، حيث أحدث فى ذلك الوقت ثورة فى دنيا الرسوم الرمزية فى الصحافة ، والتى كانت أبلغ من الخطب والمقالات فى إثارة حماسة الشباب . وهأنذا ألتقى من جديد بأخى الفنان الإنسانى الكبير بعد أن أصبح كلانا من دعاة الحب والسلام والتآخى بين البشر .

وبودى أن أظل أكتب ، وأكتب شاكراً عشرات من أصدقائى وأصحابى ممن اعتبر نفسى مديناً لهم بما يبذلونه من جهد صادق لكى يكون باستطاعتى أن أتوفر على الإنتاج الفكرى والفنى ، وليس يحول بينى وبين تعداد الأسماء إلا خوفى من أن أغفل ، من قبيل السهو عن ذكر البعض

دون البعض ، ولذلك فإنهم سيسمحون لى بأن أجتزىء بذكر ثلاثة منهم ممن يلازمونني على الدوام ، ولولا عونهم الدائم المتصل ، لما صدر هذا الكتاب أو غيره ، وهؤلاء هم إخواني الأساتذة اسماعيل عامر وعبد الله صادق وعمرو لاشين .

وبعد ، فلست أملك لكل من أصادق وأحب ، إلا أن أرفع أكف الضراعة إلى الله ، أن يتم عليهم نعمة الصحة والعافية وراحة البال والضمير .

إنه سميع قريب مجيب الدعوات .

٣٦ الروضة ١٩٦٨/٢/٩

كتب للمؤلف

كتب سياسية :

١ — إيمانى (طبعتان) نفدتا

٢ — الأرض الطيبة نفد.

٣ — الاشتراكية التى أدعو إليها نفد.

٤ — قصة مصر (بالإنجليزية طبع نيويورك) نفد.

٥ — رسالة إلى هتلر (بالإنجليزية والعربية طبع نيويورك) نفد.

كتب اجتماعية وعلمية :

٦ — الزواج والمرأة — بحث فى حقوق المرأة السياسية والاجتماعية فى الإسلام . نفد.

٧ — رسالة فى الحرب نفد

٨ — نحو المجد — بحث فى العلم والمال نفد.

*٩ — الطاقة الإنسانية — طبعتان — دار القلم — وصفه العقاد بأنه كتاب الموسم وأنه من أعظم ما طالع فى سنواته الأخيرة .

*١٠ — فى الإيمان والإسلام — طبعتان — دار القلم

*١١ — تاريخ الإنسانية — (طبع دار القلم)

*١٢ — الحج ، أسراره ومناسكه (طبع دار الأنجلو)

*١٣ — الأمة الإنسانيـة

*١٤ — كوكب الإنسانية (طبع دار المعارف)

كتب رحلات :

١٥ — مشاهداتى فى جزيرة العرب نفد

١٦ — يقظة العملاق — رحلة فى بورما (طبع جريدة الأهرام) نفد

١٧ — أمة تبعث — رحلة فى الهنـد (طبع جريدة المصرى) نفد

*١٨ — من وحى الجنوب — رحلة فى جنوب السودان
(طبع دار المعارف) (طبعتان)

كتب قانونية ومرافعات :

١٩ — حكومة الوفد (مرافعة) نفد

٢٠ — قضية تحطيم الحانات (مرافعة) نفد

٢١ — قضية مقتل النقراشى (مرافعة) نفد

٢٢ — مرافعة أحمد حسين فى قضية التحريض على حرق القاهرة نفد

٢٣ — علاقات العمل وهيئات التحكيم نفد

*٢٤ — مجموعة تشريعات العمل والتعليق عليها نفد

*٢٥ — قضية التحريض على حرق القاهرة — وثائق ومقالات وأحكام خالدة فى تاريخ مصر .

مذكرات :

٢٦ — وراء القضبان — مذكرات المؤلف عن اعتقاله خلال الحرب العالمية الثانيـة (طبع جريدة المصرى) نفد

٢٧ — فى ظلال المشنقة — مذكرات المؤلف عن فترة اتهامـه فى حريق القاهرة (طبع جريدة المصرى) نفد

مسرحيات :

٢٨ — من الحياة — مسرحيتان من ذات الفصل الواحد

٢٩ — نور يسطع فى الظلام (مترجمة عن تولستوى)

القصة الثلاثية :

*٣٠ — أزهار (قصة مصر فى الثلاثينات)

*٣١ — الدكتور خالد (قصة مصر فى الأربعينات)

*٣٢ — واحترقت القاهرة — (قصة مصر حتى قيام الثورة)

تحت التأليف

موسوعة تاريخ مصر منذ أقدم العصور حتى اليوم ، بالتعاون مع الأستاذين أحمـد عزت وأنور الجنـدى .

---

* الكتب الموضوع أمامها هذه العلامة هى من إنتاج المؤلف فى هذه السنوات الأخيرة ، وهى تطلب من مكتبة الأنجلو ١٦٥ شارع محمد فريد (عماد الدين سابقاً) القاهرة ، ودار الثقافة العامة ٨ شارع البستان — القاهرة .

المطبعة العالمية ١٦، ١٧ ش ضريح سعد بالقاهرة